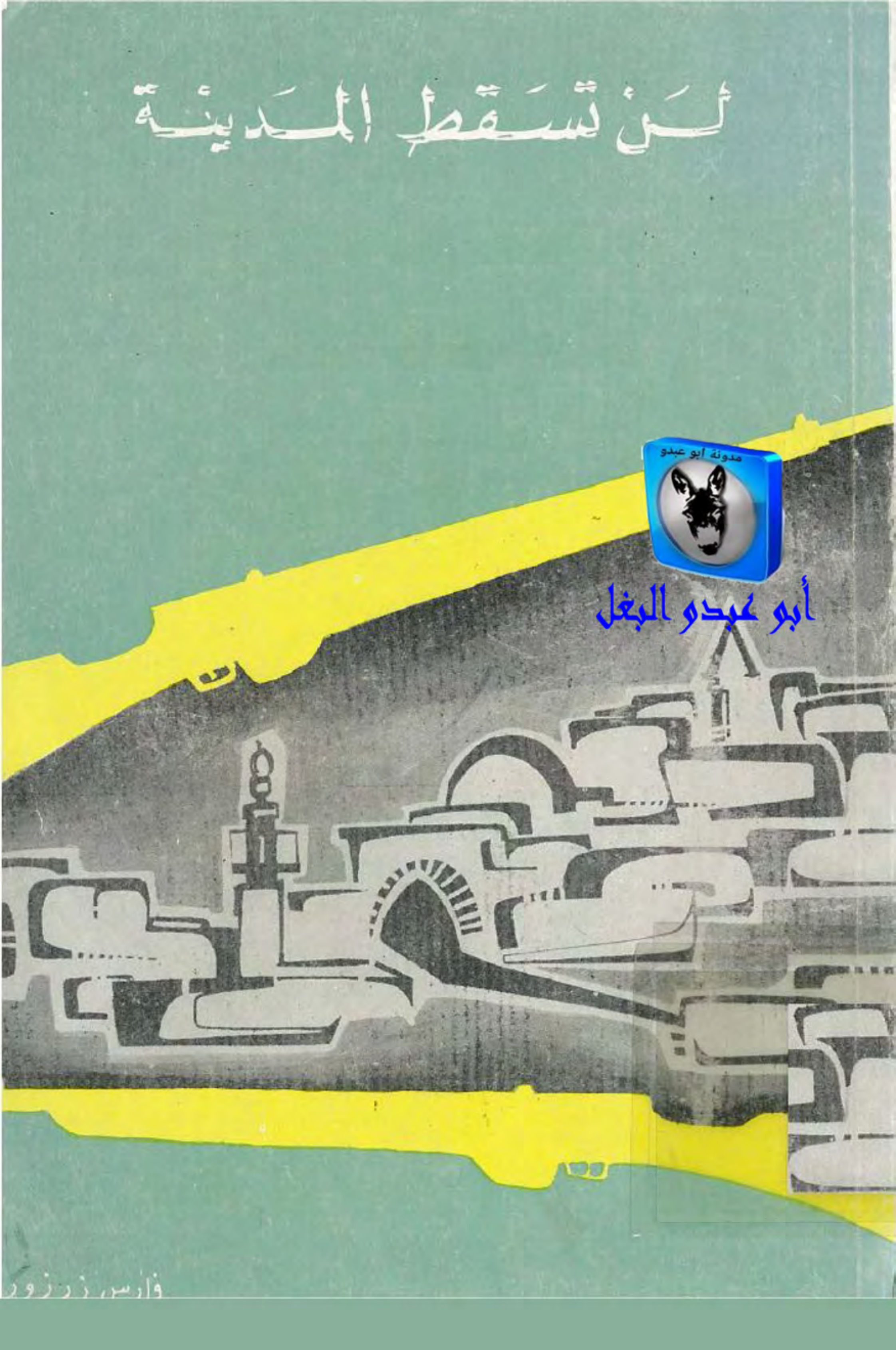

لن تسقط المدينة
مدونة ابو عبدو
أبو عبدو البغل
فارس زرزور

فارس زرزور

# لن تسقط المدينة

رواية

كان الرجل العائد من المنفى ـ في حي من أحياء دمشق القديمة ـ يحطم في شراسة ، اللافتة العتيقة التي كتب عليها ( صحت اجزخانه سي ) ، ليعلق مكانها لافتة جديدة تحمل عبارة ( صيدلية دمشق ) بحروف لم يجف دهانها .

ويبدو أن الرجل الهرم كان في حالة غير طبيعية ، لأنه تحت تأثير انفعاله ، تخطى احدى درجات السلم القصيرة ، فوقع على الارض ، فرضت قدمه اليمنى رضا شديدا . وهب مساعده الفتى الى نجدته وأسعفه بالدواء والضماد اللازمين .

- كان العائد من المنفى رجلا مخضرما عاصر احداث الربع الاخير من القرن التاسع عشر . وباعتبار انه كان يتلقى علم الصيدلة في عاصمة الشرق التي كانت تسمى ( الآستانـة ) ، فقد اطلع هنـالك على خفايا الامور ، واشترك اشتراكا فعليا في الجمعيات السرية والعلنية ، التي عملت في ذلك

الحين على تقويض الحكم العثماني • وقد توسط يوما بين جمعية الاتحاد والترقي وبين الشباب العرب الذين كانوا يعملون على تحرير بلادهم • غير انه انقلب بعد فترة وجيزة على هذه الجمعية عندما تبينت له سياستها العنصرية الخائنة ولؤم رجالها البغيض • وهرب من استنبول عندما طولب برأسه من قبل الاعضاء الاتحاديين المنتشرين في كل مكان •

وفي باريس ، حيث راح يتم رسالته في الكيمياء ، اجتمع بكثير من المنفيين العرب ، واطلع اطلاعا كافيا على القضايا العالمية ، واشترك في تحرير بعض الصحف السرية • وبما أنه من مواليد دمشق ، فقد تعرف هناك على بعض الشباب الشاميين الذين يعملون على انشاء جمعية سرية ، هدفها النهوض بالامة العربية ، واغتنام الفرص لتحقيق هذه الامنية • وعندما وجد في دستور هذه الجمعية فقرة تنص على عدم انفصال الامة العربية عن الاتراك ، راح يحاربها علنا حتى اضطرت الى تعديل دستورها الداخلي ، ووضع مادة تنص على تحرير الامة العربية واستقلالها عن أي نفوذ أجنبي • وعندما عادت الجمعية الى أرض الوطن ، دعي الى المشاركة في أعمالها بصفته عضوا في هيئتها المركزية ، غير انه رفض التعاون معها لسببين :

الاول : هو تساهلها في تطبيق شروط الانتساب ، منساقة – بدافع الرغبة في الوصول الى الحكم – الى قبول عدد غير قليل من الاشخاص المشتبه في وطنيتهم ونبل مقاصدهم •

والثاني : هو أن الجمعية ، لم تضع برنامجا طويل الامد ، يوضح ما سيكون هدفها الصريح في المستقبل ، مما يدع مجالا للاعتراف بأوضاع معينة ، قد تخلقها ظروف جديدة ، خاصة وان الانكليز والفرنسيين كانوا من حلفاء العرب •

وعندما انفجرت الرصاصة الاولى في ( سيراجيفو ) معلنة شرارة

الحرب ، أراد الرجل المنفي أن يغامر برأسه ، ويعود الى بلاده • الا انه توقف في بيروت متخفيا ، حتى اعلنت تركيا الحرب على الحلفاء •• ومنذ وصوله أخذ يعمل في يقظة وحذر ، مستعينا بخبرته وتجاربه مع امكانياته البسيطة • حاملا معه اكداسا من الكتب الفرنسية لفولتير وروسو ومار كس وسان سيمون •••

* *

وفي أمكنة أخرى من المدينة كانت خطوط طويلة وقصيرة ، متعرجة ومستوية ، متقطعة وموصولة ، لمخلوقات يخالها الرائي نماذج مشوهة لمشروع انسان •• كانت هذه الخطوط ، تمتد من قناة السويس الى جبال طوروس • تجر معها بغالا متهالكة ، ومدافع بلا سبطانات ، وعتادا محطما ، وجنرالات فقدوا حتى أزرارهم العسكرية •

كانت كأسراب النمل التي فوجئت بطفل عابث يهيل فوقها التراب ، تتدافع في كل الاتجاهات ثم تعود الى اتجاهها الاساسي •• الى الشمال • وقد يخرج اليها أحيانا بعض القناصة ، فيصيد منها حسب ما يملك من خرطوش ، فتتهاوى اجزاؤها تحت صوت بندقيته قبل أن تصاب ، آملة في أن تجد سببا لراحتها الابدية • لم يكن أفرادها يفكرون في شيء ، ولم يكونوا يملكون شيئا •• ولعل أي بغل من بغالهم كانت لديه القدرة والبديهة لكي يفهم حقيقته • كانوا عبارة عن مخلوقات فارغة ضائعة سائبة • أوعز اليها بالاستدارة فاستدارت ، وأمسكت الطريق ، كالانعام التي تمشي على درب رسمته بأظلافها •• ولو قدر لاحد من قادتها أن يطلب اليها العودة لعادت ، دون أن تدري السبب ، والى أي هدف ستسير •• فراغ في فراغ ، كل شيء لا شيء •• كان معظمها جنودا لم يسمعوا طلقة نار ، بل أن أكثرهم ظل يعتقد انه الآن في طريقه الى المعركة ، ومع هذا كانوا يزحفون •• حفاة ، انصاف عراة ، بقايا انسانية ، ولكن مسلحين ••• لم يبق لديهم للبندقية

معلى ، ولا أهمية حتى ولا تعريف ؟؟ ان ما ألصق بمناكبهم واجبروا على حمله ، اتخذ شكل حدبة في الظهر ، تضايق كثيرا ، ولكن يصعب التخلص منها · كان يخرج اليهم طفل أو امرأة فتكسب بحركة بسيطة من يدها ما تستطيع حمله من سلاح ومتاع ·

كانت هذه الارتال الطويلة من الجنود الاتراك ، تنسحب من الميادين ، بأصحابها المذهولين المنخورين المبددين ، مصيبتهم الكبرى انهم لا يفقهون من الامر شيئا ···

●

# - ١ -

لم يكن وعد بلفور الذي برز الى الوجود قبل عام واحد ، قد هضم هضما كافيا • ولم تكن اتفاقيات فيصل ـ ماكماهون قد سمع بها ، ولم تكن معاهدة سايكس ـ بيكو قد كشف عنها النقاب •

وفي غمرة الافراح ، في خضم الاحتفالات ، ابان هيجان الشعب ، هب الناس بطبقاتهم بألوانهم بأشكالهم ، لاستقبال الجيش العربي المظفر ، الذي كان يشق طريقه الى دمشق من الجنوب ، مطاردا فلول الاتراك المبعثرة ، بضباطها الخائبين ، بخيولها الذليلة ، وعتادها المبعثر • كان الشعب يفرش السجاد ، وينثر الازهار ، ويغرق الارض بالعطور • وحجبت المقابر الكائنة في مدخل المدينة الجنوبي كيلا تقع عليها انظار القادة الميامين •

كانت أخبار الجيش تتوارد مع الريح ، مع المسافرين ، في الجرائد ، وعلى أفواه الناس ، يكتنفها القليل من الوقائع والكثير من الاساطير • كان كل شيء يصدق ، وكل ما يقال يسمع ويردد • لا تتوقف الاخيلة عن

التحليق ، مولدة في بذخ فيضاً من الاشاعات التي لا يشبع منها • كان الشعب بحاجة الى المزيد ، الى كل ما يروي ظمأه ويطعم لهفته ، من أجل هذا هرع بقضه وقضيضه لاستقبال المحررين ••

كان الجيش العربي قد سار من الحجاز قبل سنتين ، بادئاً خطواته الاولى ، على عزيف بيان اصدره الشريف حسين بن علي – الذي بويع ملكاً على العرب – وكان مؤلفاً من خليط عجيب من البشر ، أتوا من كل الاقطار والامصار ، حاملين الاسلحة والرايات ، هجانة وخيالة ومشاة ، زاحفين في موكب رهيب ، مكتسحين أمام تقدمهم القاسي البطيء ، خطوط الاتراك والالمان والنمسويين ، رادمين خنادقهم مدمرين تحكيماتهم •

كان الجيش العربي يضم تحت لوائه ألواناً متعددة من الرجال : جنوداً نظاميين ، ورجال عشائر ، ومحاربين قدماء ، ومرتزقة ، وسياسيين بارعين ، وآخرين فاشلين ، وأصحاب نفوذ ، وطلاب منافع ، مع جحافل صاحب الجلالة ملك انكلترا والهند ، بالاضافة الى متطوعين • كان هؤلاء المتطوعون – وكلهم مشاة – يتحملون خلال زحفهم المرير ، الشوط الاكبر من القساوة والعناء ، يسيرون على أقدام متورمة متعبة ، ليس لهم من قائد أو زعيم . متكبدين نفقات الثورة من جيوبهم ، هدفهم الاكبر تحرير البلاد ثم الرجوع الى عائلاتهم ، فيما اذا قدرت لهم العودة • كانوا يعتبرون الثورة ثورتهم وهم أصحابها الحقيقيون • من أجل هذا كانوا يلهثون ، وأصابع أقدامهم الدامية تبرز من النعال •

أما قيادة الجيش ، فكانت تتألف : من امراء ولدوا بألقابهم ، وضباط عرب يعلقون على صدورهم أوسمة البلقان ، وباشوات بلا مبرر ، وزعماء عشائر ينشدون العنجهية ، وضباط انكليز اعتبروا الخشونة طريقة توصل الى الله ، و « يونغ » مندوب ملك انكلترا والهند ، ونوري السعيد ، ورجل آخر يحمل الالقاب التالية : الشيخ والباشا والكولونيل ، موظف قلم الاستخبارات ، المستشار ، ملك العرب غير المتوج « لورنس » • ولعل

وجود هذا الرجل على رأس قيادة الجيش ، كاف وحده لأن يسمم الامل ، ويعطي فكرة مشوشة الدلالة ..

كان القـادة طوال مرحلة الزحف يبدلون ملابسهم من أساسها ، ويغيرون وسائط ركوبهم على صورة تحير العقل : كانوا يرتدون ملابس عربيـة ، وبزات عسـكرية ، وسترات مدنيـة ، وأحيانا ــ ولربما لضيق الوقت ، أو لأسباب ستظل مجهولة ــ يرتدي القائد منهم لباسا متنافرا ، كان يضع الخوذة فوق العباءة ، أو عقالا فوق بزة الجنرال ، ثم يقفز فجأة من السيارة الى عنق جمل ، أو يهبط منها على ظهر حصان ، ثم يكمل طريقه بين الهتاف والتشجيع .

كان الجيش يخضع بمجموعه لأوامر متباينة لا يمكن تحديدهـا أو تعريفها . فمن الوجهة القانونية ــ أي من وجهة نظر الانكليز ــ كان يأتمر بأمر الجنرال « اللنبي » قائد جيوش الحلفاء في الشرق الادنى ، باعتبار أن هذه الجيش جزء من جيوشه . بينما كانت أوامر الشريف حسين ، تخالف هذا المعنى مخالفة صريحة . ومن الغريب أن يكون للفرنسيين اليد الطولى في القيادة والسيطرة . كان اللنبي يصدر أوامره الى لورنس الذي عين وكيلا لقائد الجيش فيصل ، وكان الشريف يصدر أوامره الى ولده ، بينما يحتج الفرنسيون بأن الجيش العربي قد يهدد مضالحهم ..

كان الجيش يتقدم ويتراجع ، ينحرف يمينا أو يسارا ، ثم يهدأ هدأة طويلة حتى تتفق كلمة الحلفاء الثلاثة على خطة موحدة للعمل . والاغرب من هذا ، ان بعض القادة كانوا تابعين للمراجع الثلاثة . ولم يكونوا لينفذوا أمرا ما لم تأتهم نسخة موحدة عما يجب اتخاذه في الخطوة التالية . وأشرف الجيش العتيد على دمشق .

كانت حناجر الشعب قد بحت ، والاكف قد دميت وتسلخت جلودها . والعيون اشرأبت من فرط التحديق . وأصاب الاقدام تفسخ وتوجع لطول الانتظار . وما برحت الزينات قائمة والقبور مجللة بأغصان الزيتون .

ووصلت طليعة صغيرة من الجيش النظامي الى قرية الكسوة ــ ١٠ كم جنوب دمشق ــ وعسكر أفرادها على تل قريب ، مانعين الشعب من التقدم نحو الجنوب · ووقف قائد الفصيلة ــ وكان حجازيا ــ فوق صخرة عالية كديك يتأهب للصياح · وأوعز الى الناس الا يتخطوا البلدة ، لأن الجيش يقاوم مفرزة من الالمان والنمسويين على بعد قليل · وهتف رجل عجوز من المستقبلين يعاني مرضا مزمنا في عينيه :

ــ وأين الشريف ؟

فرد عليه الضابط في اختصار :

ــ لا أعلم ·

وطلب آخر ، وكان شابا يبدو على مستوى غير قليل من يسر الحال :

ــ وأين لورانز ·؟

ويبدو أن الضابط استاء من عدم لفظ الاسم لفظا صحيحا لأنه رد في جفاء مشيرا الى الخلف :

ــ انه هناك مع الامير زيد ·

كان شعار نحاسي فوق عقال الضابط يلتمع تحت شمس أواخر ايلول ، وكانت عينا الضابط تحت الشعار ، تستطلعان بفضول هيئات الناس الغريبة ، والتي بدت له ، كأنما ارتديت على عفويتها ــ لاسباب مجهولة ــ بينما كان الجنود منهمكين في نصب خيمة كبيرة فوق مرتفع يطل على البلدة ·

وسأل الضابط بدوره ، وقد استمرأت اذناه لهجة الناس في الحديث :

ــ ما هي أخبار الشام ؟؟

وأرهف النــاس آذانهم ليفهموا ما قالــه ذلك الضابط · وتقدمت الصفوف المتدافعة امرأة محجبة حتى لامس أنفها نطاق الضابط ، وزعقت في حماس :

ــ رفعناها ·· رفعنا الاعلام العربية ··

وأكمل طفل في العاشرة ، مدور الوجه له أنف كمنقار العصفور :

ـ وشكلنا حكومة سعيد باشا ٠

وكانت تسمع بين الحين والآخر أصوات انفجارات تأتي من اتجاهات متفرقة ٠ وصرخ جندي من الاعلى :

ـ ما هذه القنابل ؟ هل هناك معارك في الشمال ؟

وأجاب أكثر من صوت في آن واحد :

ـ ان الاتراك والالمان يحرقون مستودعاتهم ٠

وفي المؤخرة كان شفيق الصافي يتأبط ذراع مساعده الفتى ويهمس في أذنــه :

ـ لو كنا التحقنا بهذا الجيش لكانت مشاعرنا على مستوى أوضح ٠

ورد محمد بتشاؤم :

ـ تحت قيادة ذلك الرجل « لورنز » كما أسماه الشاب ؟

قال شفيق موضحا الموقف :

ـ نحن وماذا يهمنا من شأن القيادة ؟ ننضم الى جيش الثورة وكفى ٠ وعلى أية حال سننتظر لنرى ماذا يفعلون ٠٠

ورفع محمد رأسه ، وأصاخ السمع ، ثم قال :

ـ يخيل لي أن أصوات المعركة بدأت تتلاشى ، يبدو أنهم قرب تلال « الدير علي » ٠

وأخذت الهتافات تتصاعد من بعض الامكنة ، عندما لمح الناس على البعد رايات وخيالة ، تتقدم من الجنوب الشرقي ، مثيرة وراءها سحابة من الغبار ٠ وتوقفت طلائع الجيش عند المرتفعات ، ثم أخذت الارتال تنضم وتتكاثف ٠ وكما يحدث دائما ، انـدفع النـاس بهياج شديد ، متخطين صفوف الطليعة ، واخترقوا جبهـة الجيش من عـدة مواضع ، مندفعين ، مهرولين ، صارخين ، رافعين أيديهم : رجال بقنابيز شامية ولفات أغبانية ،

شباب بسراويل عريضة وشملات من كل الالوان ، نساء محجبات الوجوه بمناديل سوداء ، وفلاحات معصبات الرؤوس بأغطية باهتة الالوان ، وأطفال ينطحون صدور الفاتحين بخطومهم الغضة . وبالاجمال ، كان المنظر يشبه قطيعا من الخراف ، هاجم الاغنام الآتية من المرعى بحثا عن الضرع ·

وفي مؤخرة الجيش ، التقى جوادان أصيلان راحا يتبادلان الشم ، في حين أخذ أحد الفارسين وكان يرتدي ثوبا أبيض وعقالا مقصبا مخمس الشكل ، يعلق فوق سترته خنجرا يمنيا معقوفا ـ يكلم صاحبه :

ـ اهنئك سيدي الامير · هاهي ذي دمشق التي كانت مطمح أنظارنا وهدفنا الذي نصبو اليه منذ سنتين قضيناهما في تعب مضن وقلق مميت ، سندخلها الآن دخول أصدقاء مسالمين ، لا غزاة فاتحين ·

وغفل الامير « زيد بن الحسين » عن ملاحظة لورنس هذه وأجاب :

ـ أرى أن نتعجل في الدخول قبل أن يحدث أمر ما ·

كان الامير زيد يرتدي تحت عباءته الحريرية ، ثوبا من الجوخ المبطن · ضم خصره نطاق جلدي مذهب مع مسدسين مفضضي القبة ·

قال لورنس :

ـ اقترح تأجيل الدخول الى المدينة حتى الغد كيلا تحدث أية فوضى ، كما أن الانتظار الى الصباح يتيح لنا فرصة للم الصفوف ، واحداث موكب رائع المهابة ، عظيم الأجلال ·

وبما انه لم يكن هذا هو السبب الحقيقي الذي دعا لورنس الى تأجيل الدخول فقد تابع :

ـ فضلا عن أن سمو الامير لم يصل بعد ، وينبغي له أن يكون في الرأس باعتبار انـه قائد الجيش ··· ويبدو أن الامير زيد ، أحس بما يشبه الوخزة في صدره عندما سمع الجملة الاخيرة ، لأنه وضع يده على جناده ورفعه الى الاعلى وقال :

ـ حسنا اذن فلنأمر الجند بالاستراحة ٠

وفي المساء حل في الطبيعة كلهـا ما يشبه الزلـزال ، اذ سمعت على الطريق العام ضجة هائلة منبعثة عن سنابك خيل ، تضرب احجار الطريق بعصبية ورهج ، موريات في هدبها قدحا ، ووسط كوكبة من الخيول العربية الاصيلة ، اتخذت تشكيلة قلب ، كانت سيارة فخمة من طراز فوكسهول ، تنطلق بأقصى ما تسمح به الطريق المحفرة ٠ وكاد الموكب يخترق شارع البلدة ٠ لولا أن توقف فجأة أول حصان حرون ، على اشارة من يد طويلة حجبت عن عينيه النظر ٠ ووسط النخير المتصاعد من فتحات أنوف الجياد ، سمع صوت يتكلم بعربية ركيكة ، انحنى صاحبـه في تهيب ، على نافـذة العربة الخلفية ٠

ـ ان الجيش قد عسكر هنا يا سيدي ٠

ويبدو أن الضابط اعجب بنفسه كثيرا ، لأنه استطاع أن يطوع اللغة العربية في التعبير عن غايته ٠ فاستوى على الفور ، وتنفس في ارتياح ٠ وتردد السائق قليلا قبل أن يجيب :

ـ سيصل القطار الذي يقل صاحب السمو ٠؟

وكانت ليلة الاول من تشرين الاول ١٩١٨ ليلة القدر ، ليلة خير من ألف شهر ٠ ليلة أروع من ألف ليلة وليلة ــ ستبقى في صدر كل من شاهدها أو سمع بها أو تخيلها ــ ستبقى ذكراها سرمدية الى أبد الآبدين ٠

وأولئك الاطفال الذين أصبحوا رجالا ، يتوقفون في أكثر الاحيان ، وراء المحراث ، وعند الآلة الدائرة ، وقرب ميزان المبيع ، وعلى مقعـــد الدراسة ، ليذكروا ــ بكثير من الانس ــ جدهم أو جدتهم كيف كان يحدثهم ، الى جانب مدفأة قديمة ، يئن في جوفها عود الحطب المحترق ، عن يوم من أيامهم الغابرة ، غاب وسط السنين وابتلعته أحداث ماكرة ٠

## - ٢ -

كانت سحابات فضية رقيقة في حنان ، متماسكة تارة ، منفصلة تارة أخرى ، أمام مداعبات نسيم لطيف ، تحت نجوم كعقد اللؤلؤ المنثور ، تحلق من عليائها فوق الارض تبتهل الى قمر لم تكتمل استدارته ، ان ينير لها سبيل الرؤية ، لتشرف من ابراجها على نشيد مجمجم ، ينـافس في اسراره مملكة السموات •

فمن دمشق ، من قراها ، وغوطتها ، وانهارها ، وسواقيها ، وأهلة مآذنها ، وابراج كنائسها ، من احجارها الآرامية ، من أساس بيوتهـا الفينيقية ، من أقدم مدينة في التاريخ ، كان يتموج نفير هائل مبعثه شعب طيب ، يوقع بخلجات قلبه معزوفة النصر ، على رائحة الدخان وانفجارات البارود وثرى الشهداء الرطب • ومن بلدة الكسوة ، من جنبات تلالها وبطون أوديتها وصعيد سهولها ومياه نهرها المتعرج ، كان يتردد في اجـلال هدير جارف منشؤه جلب المعسكر المترامي الاطراف •

أما ما كان يجري داخل المعسكر فلم يكن ليدري بـه أحد • ففي خيمة واسعة نصبت قرب محطة سكك الحديد ، كان خمسة رجال ، مغبري الهيئات ، ترتسم على وجوههم سيماء الشدة والبأس ، ومن عيونهم ينبعث وميض بارد ، يلتفون حول طاولة مستديرة ، فرشت عليها خرائط وأوراق ، وعصوات ناعمة ، وفانوس هوائي ، ينصتون الى رجـل يتكلم الفصحى ، متحاشيا لفظ الضاد والعين قدر استطاعته • يقول لورنس :

ـ ان دخول سمو الامير فيصل على رأس الجيش ، هو من أكبر العوامل التي ستدفع الاهلين لان يفتحوا الابـواب في وجوهنا ويقابلونا في ترحاب عظيم •

ويرد الجنرال نوري باشا السعيد :

ـ اننا نعتمد على اللجنة الفيصلية التي أرسلناها لتعمل في دمشق ، ولتحضر العقول ، لقبول الافكار الجديدة . وقد نجحت هذه اللجنة ، في جمع السلطة تقريبا ونحن على اتصال دائم بها ، موعزين اليهـا أن تبقى على احتكاك بالمواطنين وتفهيمهم نيات الحلفاء ، وما يطلب منهم أن يفهموه • ويسأل فيصل في صوته الاجش الحار مبديا شكوكه :

ـ وماذا بشأن الجزائريين الذين ألفوا الحكومة قبل وصولنا ؟ ••

ويشاركه لورنس هذه الوساوس :

ـ انني أخشى الجزائريين ولي مع قادتهم عداوات قديمة ، انهم يفضلون الاتراك على الاوربيين ، وهذا سلوك لا يمكن احتماله ••

ويرد صوت كفرغرة الجمل :

ـ ان رسلنا يروحون ويجيئون في حرية مطلقة ، دون أن يخشوا بأسا أو يتعرضوا لأي أذى بالرغم من اننا نعتبرهم يمرون ببلاد معادية •

ويقول الامير زيد مطمئنا :

ـ ان «يونغ» يتكلم الحقيقة ، وهذا يدل على أن سعيد باشا الجزائري

وأصحابه ، لا يملكون للامر زماما وحكومتهم ، لا تستطيع الوقوف في وجهنا، فعندنا رجال القبائل ·

وفي جانب آخر من المعسكرات ، امتـدت الى جانب الطريق خيمـة مستطيلة حيكت من شعر الماعز · جلس تحتها على الارض رئيس عشـيرة يوزع على رجاله السلاح والعتاد الذي غنموه في المعركة الاخيرة · ويعترض أحدهم صائحا :

ــ أنا لا أريد بارودة عثمانية أريد واحدة المانية « أم كركر »

ويحدجه الرئيس في نظرة نارية ، ثم يطرده خارجا عاويا في وجهه :

ــ يا ابن الزنا يا حرامي ، والله وراس أبي لو عدت لاذبحنك ··

وعلى التراب في العراء ، اضطجع ثلاثة رجال من المتطوعين · يرتدون سترات ممزقة ويعانقون بنادق صدئة ، ومن رؤوس أحذيتهم تبرز أصابع دامية ، ويقول أحدهم في صوت متعب :

ــ ان لورانس يعزو النصر الى عبقرية اللنبي ، بينما كان يستخدمنا نحن ككلاب الصيد ··

ويرد الآخر في صوت مبحوح :

ــ كان يكلف رجال العشائـر بمطاردة العـــدو ويستسلم هو الى أحلامه ومشـاريعه ·

ويطرد الثالث الهواء من رئتيه متنهدا بصوت ممطوط :

ــ ان هذا يدل على أن معركتنا ستبدأ منذ اليوم ··

ــ اخفض صوتك ··

ــ ان أحدا لا يسمعنا ··

ــ ان خيمة نوري السعيد قريبة ··

ــ لم أعد أخشى أحدا بعد الآن لقد اصبحنا حيوانات يمتطونها ··

ومن كل الانحاء كانت تنبعث ضوضاء عجيبة ، متلاطمة ومتجمعة ·

مؤلفة : من صهيل خيول ، وقرقرة ابل ، وانفجارات ضعيفة ، وطقطقة حطب مشتعل ، اصطدام معاول بالارض ، هينمات ، صياح ، أنين ، نداءات غامضة ، أحاديث متنافرة وفي لهجات متعددة ، كلمات التعارف بين الحرس ، شتائم ، أدعية ، صلوات ، شخير ، وأصوات تغوط ..

ومن حول المعسكر ، كانت تهاليل الشعب الساهر قد خمدت ، واستحالت الى همهمات ولغط متواصل لا يني ولا يفتر . حتى أن المتسولين والباحثين عن لقمة العيش ، اكتفوا بما حصلوا عليه وانضموا الى صفوف المستقبلين .

قالت امرأة في الثمانين لامرأة تتكىء عليها :

ـ رأيت النور يشعشع من وجه الشريف .

فرد عليها رجل كان يقف الى جوارها ، ويبدو انه كان يفكر من زاوية مخالفة :

ـ لمحت أنا بدلا من النور ، جبهة متغضنة ، يختفي وراءها أشياء وأشـــياء ..

ـ لم تر وجهه اذن ..

قال الرجل مؤكدا :

ـ ان ما لمحته كان مرتسما على وجهه ..

وانهى الجدل شاب بدا انه جرى وراء موكب الامير من درعا :

ـ أنا رأيته ، وقد ضحك لي عندما حييته ، أنا حييته أنا ..

وتجمع على الطريق العام حشد كبير من الاطفال ، راحوا يلعبون لعبة الحرب . يكرون ويفرون ، يطلقون النار من أصابعهم ويخرجون من حلوقهم انفجارات رفيعة صاخبة ثاقبة . ثم يجري بعضهم وراء بعض ، فيتماسكون

ويتباطحون ويعودون الى النهوض من جديد ، يطلقون كالمدافع ، ويهدرون كالطائرات ، ويطرطرون كالرشاشات ، بين تقدم ونكوص يسقط بعضهم وينهض الآخر متحمسين هائجين مائجين ، يصاب منهم كثيرون ، دون أن يجرح أو يموت أحد ، أو ينال منهم أعياء او نصب •

وعند منتصف الليل ، بدأت السكينة تنشر اجنحتها على المعسكر ، في حين ظلت أضواؤه المبعثرة الوانية تتراقص من بعيد كنجوم انهكها الوميض ••

وعلى الطريق الى دمشق ، كانت أرتال الناس ، تعود الى بيوتها ، وهي تتحدث عن الغد الميمون •• عربات مكتظة تجرها بغال مرتاعة ، وانصاف عربات تجرها حمير ، وفرسان وهجانة ووسائل ركوب أخرى ضاعت معالمها لانها جللت بالاجساد • وفي ذيول الرتل كان المشاة يجرون أقدامهم في كسل ووناء مستنكرين على أجسادهم ان يصيبها التخاذل ، من جراء سير يوم واحد ووقوف ساعات ولو كانت طويلة ••

وفي النهايات ، كان شفيق الصافي يسلم يده الى ذراع مساعده ، وهو يرفع قدمه المتورمة عن الارض قبل أن تلامسها • وسأل وهو يقفز على قدم واحدة :

ــ محمد لا تتعجل • ماذا قال لك ذلك الرجل •• هل هو متطوع أم جندي ••؟

ورد الفتى في صوت مرتفع ، لكي يسمع معلمه وسط الهرج :

ــ قال أن الانكليز يتقدمون من فلسطين ، وينتظر أن يكونوا قد وصلوا الى طبريا ••

ويسأل الصافي في لهفة :

ــ ألم يقل عن عدد الانكليز الذين يرافقون الجيش العربي ؟

ويجيب محمد في تباطؤ :

ــ قال انهم كثيرون ولكنهم يسيرون في المؤخرة ما عدا كتيبة من الاستراليين تسير معهم •

ويقول الصافي :

ـ سمعته يقول لك شيئا حول اعدام أحد ، أو ما أشبه ذلك •

ويرد محمد :

تحدث عن اعدام أحد المتطوعين الشباب ، كان قد انهكه السير فضربه « ستيرلنغ » بصرع حصانه •

ويتوقف الصافي ويصرخ :

ـ ومع ذلك أعدموه •••

ـ لقد شتم انكلترا والحلفاء ، وسمعه جميل المدفعي فأمر باعدامه •• مالك ••؟ لماذا قعدت ؟؟؟

كان شفيق الصافي قد تخاذل اثر سماعه الخبر فانتشل يده من ساعد رفيقه ، وجلس على حافة الطريق ••

قال في تبرم :

ـ محمد أعطني سيكارة ••

ـ هل توجعك قدمك ••؟

وأنّ الصافي :

ـ تألمت لذلك الشهيد

وأخرج الفتى من جيبه سكائر رخيصة اشعل منها واحدة وناولها الى معلمه وهو يقول :

ـ خذ مع انك تحدثني عن أضرارها ••

ثم راح يتأمل في اشفاق ، وجه معلمه الذي غلفه الدّخان • قال الصافي وهو يطرد الدخان من فتحتي انفه :

ـ يجب معرفة اشياء أخرى ، فكيف اذاعوا هذا الخبر ••؟

ـ الكل يعرفونه تقريبا •• ولعل النبأ اذيع من أجل المحافظة على الانضباط ••

ويردد الرجل في سخرية وهو يهز رأسه متوعدا :

ـ الانضباط ٠٠ ان لكل جمع حصيلة ٠٠

ويتأمل قوافل المارة

ـ ان الناس ينتظرون الغد ونحن ننتظره ايضا ٠٠ يا لهذا الحذاء ، انه يعيقني عن الحركة ٠٠ الى أين وصلنا يا ترى ٠٠؟

ويلتفت محمد حوله ويجيب :

ـ ان القدم(١) ما تزال بعيدة ٠٠ نحن في منتصف الطريق تقريبا ٠٠

ويقول الصافي في عناء :

ـ اذن يجب أن نبيت هنا ، وسنسير غدا مع الموكب ٠٠

ويعترض الفتى في استنكار :

ـ ولكن البرد يا معلم ٠ ان الجو بدأ يتغير ٠

ونهض الرجل في أعياء :

ـ اعطني يدك ٠ اصبحنا وحيدين ٠٠

واستأنف الرجل طريقه مع مساعده ، الذي اضطر الى أن يمشي في بطء شديد ٠ وعند باب الميدان ـ وكان الفجر ينبلج ـ وجد ان الطريق سدت بالجماهير المحتشدة ، وأصبح من العسير التقدم خطوة واحدة ٠

ومع شروق شمس الاول من تشرين الاول ١٩١٨ كان الجيش العربي يدخل مدينة دمشق ٠٠

---

(١) قرية جنوب دمشق

- ٣ -

كان شفيق الصافي العائد من المنفى كهلا داكن البشرة ، يظهر عندما يسير الى جوار مساعده ، انه قصير القامة • يقتسم وجهه المتغضن ، أنف ضخم مسطح الارنبة ، ونظارتان طبيتان لم تعتمدا في ثباتهما على اذنيه الصغيرتين الحمراوين ، خاصة وان عيني الهر اللتين تحملقان من ورائهما تدفعانهما دائما الى الفرار • وقد تكفلت عظمة الانف الناتئة بتثبيتهما بصورة جيدة • أما رأسه فتارة يبدو مستطيلا ، وتارة كامل الاستدارة ، وذلك تبعاللتشويش الذي يتخذه شعره الاغبر الخفيف ، الذي اتخذ اصوله بعيدا عن الجبهة ، وقد وخطته اسلاك رفيعة من الشيب ••

وقد اضطر الرجل مع مساعده ، ان ينتظر حتى انتهاء مرور الموكب المهيب • فتابعا زحفهما في اذياله ، وعند وصولهما الى باب السيدة « جابية »، وهو شارع ضيق ، يشبه عنق الزجاجة ، التقيا بامرأة تمزق ثيابها ، وتغرق

الشارع بالندب والصياح • وقد خلفتها مواكب الظافرين وراءها ، مع العجزة والاطفال الضائعين ••

كانت المرأة تلتف بملاءة سوداء ، وتتلفع بمنديل من اللون نفسه ، يخفي رأسها ووجهها ، وقد اعملت أظافرها في تمزيق ثيابها ، حتى وصلت الى لحم صدرها وخديها ، فسال منهما الدم • وكانت آثار نجيع طازج ، تصبغ أحجار الشارع لمسافة طويلة • وعرف الرجلان تفاصيل الحادث من عجوز كانت عاكفة على تهدئة الام وكفكفة دموعها •

كانت المرأة الثاكل تولول وتضحك ، وتصرخ بكلمات هسترية نابية متقطعة ، ثم تثوب الى رشدها بغتة لتهتف بلا سبب :

ــ فدى الوطان فدى الوطا ! ! ن ••

وبالرغم من أن الصيدلي ، حملق عينيه على سعتيهما ، ــ عندما شاهد الموقف والم بمعناه ــ فقد بدتا من وراء نظارتيه السميكتين، مدورتين قاتمتين صغيرتين كحبة العدس • واستعرض القصة في لمحة عابرة ، ثم اطرق رأسه ، وتابع عرجه مع مساعده، متعجلا قدر استطاعته ،ليفتح صيدليته، ويستريح من عناء يوم وليلة ، وليدفن آلام قدمه المتورمة ، وليفعل أشياء أخرى ••

كانت صيدلية دمشق أو ( صحت اجزخانة ) معروفة في ( الباب الشرقي ) ببيت الفقراء • ولا شك في انها كانت تعتز بهذا اللقب ، لانها اصرت على امتلاكه • فبابها الخشبي العتيق ، يتثاءب عن سقف واطيء ، وجدارين كانا متوازيين عند الارض ، ثم ابتعد احدهما عن الآخر كذراعين تدعوان الى الله • ولو لم يجمعهما السقف الترابي على بعد مترين ، ــ وذلك اذا لم ينهارا في الخطوة التالية ــ ، لما امكن في النهاية أن يجتمعا حتى السماء السابعة • الا ان هذا الدكان ، يمتد في العمق امتدادا كبيرا ، وبهذه الميزة استطاع ان يعوض عن النقص الذي يعانيه في المجالات الاخرى ، بالرغم من انه اصبح بذلك يشبه تابوتاً كبيرا ••

ولم يغفل الصيدلي هذه الصفة العتيدة في دكانه ، فقد الهمته ان يستفيد منها قدر الامكان • وقد افاد منها فعلا ، اذ جعل من نصفه الخلفي مسكنا له ولمساعده • فنظرا لضيق الارض ، استغلا انفراج الجدارين ، بأن ركبا سريرين احدهما فوق الآخر على طريقة غرف النوم في القطارات والمعسكرات والبواخر ••

وكان الرجلان من الحنكة وسرعة البديهة ، لدرجة لا يدعان معهما مشكلة تمر الا ويستثمرانها • لان طريقة النوم هذه جعلتهما يتعاونان على التشاور والتباحث طوال الاوقات •

وما ان وصل الرجل الى مسكنه الآنف الذكر ، واستلقى على سريره – وكان السفلي بالطبع – حتى طلب سيكارة جديدة ، ورد الفتى شاكيا :

– اراك تعود الى التدخين • اين محاضراتك السابقة ••؟

وقال الرجل في صبر فارغ :

– اعطني سيكارة يا محمد •• كان منظرا بشعا للغاية الم تره بنفسك ••؟

وأجاب محمد وهو يتهيأ للاتيان بعمل ما :

– طيب •• ساعطيك عقب تناول لقمة طعام ••

قال الصافي في حزن ، وكأنه يقرأ الفاتحة على روح صديق ودود :

– كانت المرأة تصرخ في صوت ممطوط بعد كل لطمة جنونية على وجهها ، « فداء الوطن سقى طفلها بلاط الشارع بدمه » فداء الوطن •• صبغ حوافر خيل الانكليز بنجيعه ، فداء الوطن •• عاش لورانس ، فداء الوطن •• ونحن ماذا نفعل من اجل هذا الوطن ••؟ لقد سمعت بالامس في الكسوة ، حوارا بين رجل والمرأة • كان الرجل على حق ، وهذا ما أحسه انا بدوري ••

قال محمد وهو ينفخ موقد الكاز :

ـ كان الرجل يتكلم عن فيصل ٠٠

ـ وهذا ما اعنيه بدوري ٠٠ أن حاسة الشعب لا تخطىء ٠٠ فالاشاعات التي تتردد عن معاهدة « سايكس بيكو » لا بد أن يكون لها اساس ٠ ووعد بلفور باعطاء فلسطين لليهود ، ينطوي على مغزى خطير ٠ آه سخن لقدمي قليلا من الماء ٠

قال محمد وهو يضع وعاء الماء على الموقد :

ـ هل يعقل أن يكون الشريف على علم بهذه المعاهدات ؟

وقاطعه معلمه من فوق سريره :

ـ محمد ٠٠ كانت الدولة العثمانية آيلة الى التهالك ٠٠ لقد اضمحلت قبل أن تتفق مع الانكليز ٠٠ وانتهت عند طلقة سيراجيفو ٠٠ لم يكن من الجائز ٠٠ آه ٠٠ اين الماء ٠٠؟ انه يصعب خلع الحذاء ٠٠ يبدو ان قدمي تورمت في داخله ٠٠ ياالله اعطني سكينا ، يجب تمزيقه ٠٠ انظر من هناك ٠٠ اسمع امرأة في الخارج ٠٠

وهرع محمد لتلبية طلب الزبونة ، كانت تقف في منتصف الدكان الامامي ، تمد يدها بورقة الوصفة، وتطلع اليها وهو يتناول الورقة ، فجمدت عيناه بصورة جعل المرأة تشيح بوجهها من الحيرة والخجل ، وقال الشاب في نفسه :

ـ لماذا اسفرت عن رأسها ووجها بهذا الشكل ؟ هل جنت ؟

فسألها في لهفة وهو يخشى الاجابة :

ـ ماذا حدث للطفل ٠٠؟

فبهتت المرأة لهذا السؤال ، وقالت لنفسها : كيف يعرف ، وهذه هي المرة الاولى التي اراه فيها بحياتي ؟

وأجابت في دهشة وتوجس :

ـ أي طفل ··؟

قال محمد في استغراب كبير :

ـ ابنك ··!

فردت المرأة مجفلة :

ـ ابني ؟ هو في البيت هل تعرفه ؟ لماذا تسأل ··؟

قال الشاب وهو ما زال يتمعن سيماء وجهها وقد أحس بأنه يفقد القدرة على التمييز ·

ـ الم تكوني في باب الجابية منذ ساعة ، حين مرور موكب الشريف ··؟

ردت المرأة في قلق بالغ :

ـ لا ·· فانا لم اذهب الى هناك في حياتي ·· لماذا تسأل كل هذه الاسئلة ··؟ اريد لابني دواء للسعال هذا كل شيء ··

وتشجع محمد وقال بلهجة حاول فيها أن يتغلب على دهشته :

ـ اقسم بالله على أن صوتك هو صوتها ، وعينيك وانفك وحتى تعابير وجهك كلها تنطبق عليها · اليس لك أخت ··؟

وردت المرأة في اقتضاب محاولة السيطرة على أعصابها :

ـ اسمع يا أخي ·· انت غلطان اعطني الدواء فأنا مستعجلة ··

واستسلم الشاب الى جدية المرأة وعكف على تركيب الدواء ··

كانت في حوالي الثانية والعشرين ، مربوعة القامة ، ساخرة الرأس والوجه ، سوداء الشعر القصير الذي لا يتجاوز اولى فقرات ظهرها · في عينيها العسليتين كدر واضح ، يؤكده خطوط من الشقاء ، محبوكة حول جفنيها الذاويين ، وفي زاوية فمها الواسع · أما انفها ، فهو يبدأ عند جبهة ضيقة لا تخلو من التغضن ، ثم ينحدر مستقيما وينتهي بفتحتين ضيقتين ، قبل أن يصل الى مكانه المألوف · كان قصر انفها يتناسب تناسبا معقولا مع

تهدل شفتها السفلى ، الذي يظهر من وراء قواطع أسنانها المرصوصة في طريقة محكمة ٠٠

وكانت ترتدي ثوبا قطنيا بسيطا ، بهت لونه من فرط الاستعمال ، مفتوحا عن صدر عادي لا يجذب الانتباه ، وفوقه عنق برز منه عرق اللبن ٠ اما ثدياها ، فيبدو انهما جفا منذ امد بعيد ، وتهدلا دون ان تعبأ باصطناع وسيلة لتقويمهما ٠ وبالاجمال ، كانت أمرأة يدل مظهرها ، على أنها خلقت بطريقة مرتجلة ، وان البؤس فاجأها على حين غرة ، ولم يترك لها فرصة للدفاع عن انوثتها المسلوبة ٠

ظلت تتأمل الشاب بعين متفحصة بينما هو يمزج سائل « الدروزيرا مع الامونياك » ويضيف اليهما بلسم « الطولوالبيرو » وكان هو بدوره ايضا ، يرفع رأسه كل مرة ، فما أن تصطدم عيناهما بنظرة ، حتى يغضا الطرف ويعود كل منهما الى خواطره ٠٠ تقول هي نفسها « ما هي قضية هذا الشاب الطائش الجميل ٠٠؟ من يظنني ٠٠؟

ويقول هو في نفسه ( اليست هي ٠٠؟ انني اراهن بحياتي كلها ، على انها هي بالذات ٠٠ تلك التي فقدت طفلها بين سنابك الخيل ٠٠ )

وتجرأت المرأة في النهاية ، وكأنما اتعبتها خواطرها ، وسألت وهي تسدد الى عيني الشاب نظرات صريحة :

ـ هل يمكن ان تقول لي ما القصة ٠٠؟

ورد محمد متضاحكا :

ـ لا شيء يا اختي ٠ فقد رأيت هذا الصباح ، في باب الجابية واحدة تشبهك الى حد غريب و ٠٠٠

وخشي ان يسرد عليها قصة الطفل القتيل فتصدم باعتبار ان لها طفلا مريضا ، فتوقف عن الحديث ٠٠ وعادت المرأة تسأله مستفيدة من تردده وخجله :

ـ وماذا ••؟

اجاب الفتى وهو يقاوم رغبة في الفرار من نظراتها الفضولية :

ـ كان لها طفل مسكين •• انها تشبهك شبها غريبا ، لا •• لا تشبهك فقط، بل هي انت •• انت بالذات•• الفرق الوحيد بينمكا انها كانتمحجبة •

وهنا تخلصت الزبونة من حرجها نهائيا وكشفت عن نفسها قائلة :

ـ طيب •• ساخبرك اذن بانني مسيحية ، واسكن قريبا من هنا ، في حارة « القديس يوحنا » •

وعاتبت نفسها معتقدة انها تجاوزت حدود التعارف • في حين هز محمد رأسه وهو يغمغم :

ـ انه يخلق من الشبه اربعين •• كم هو عمر ابنك ••؟

وردت المرأة في تسامح :

ـ انه في الرابعة ويسعل دائما •• بالرغم من اسعافه بالدواء ، بصورة مستمرة •• .

واغلق محمد الزجاجة وناولها اياها • وسألت الزبونة :

ـ كم ثمنها ••؟

وعاد الفتى الى تأمل عينيها فخيل له انهما تحكيان حكايات كثيرة ، بعضها شيق ، وبعضها يفيض بالالم • وأجابها :

ـ بلا ثمن ••

فظهر الاستياء واضحا على سحنتها وهي تقول بنبرة تفوح بالاتهام :

ـ لا •• أنا لا آخذ دواء بلا ثمن •• لم اعتد على ذلك ••

وارتجفت شفتها السفلى ، وكأنها مست بكبريائها • وشعر محمد انه اهان المرأة ، أو انها احست باهانة لا وجود لها •• فاجابها في رزانة فائقة ، وكأنه ينفي الشبهات عن نفسه :

ـ الم تسمعي بأن اسم هذه الصيدلية هو « صيدلية الفقراء » ٠٠؟
وكثيرا ما نقدم الدواء مجانا ٠٠؟

وردت الزبونة في اباء :

ـ لا ٠٠ لن آخذه اذن ٠٠

قال محمد وهو يحاول من جديد أن ينفي عن نفسه أية تهمة :

ـ طيب اذن ٠٠ اعطني قيمة التكاليف « برغوث » (١)

وراحت المرأة تتفحص وجه الشاب وهي بين الشك واليقين ٠ غير ان لهجته البريئة ، وفتوته الغضة ، لم تتركا لها مجالا للشك في سلامة نيته وطهارة قصده ، فاعطته القطعة الفضية الصغيرة ، واستدارت خارجة وهي تضرب اخماسا باسداس ، في حين دلف الشاب الى الداخل ، وهو يضرب آلافا بآلاف ٠٠

* *

وصرخ الصيدلي بمساعده وهو يضمد له قدمه :

ـ اخ ٠٠ تمهل ٠٠ انك تصارع مصارعة ٠٠ مالك ٠٠؟

ورد محمد في سهوم :

ـ لا ادري ٠٠ انها قصة محيرة ٠٠

ـ وما هي قصتك الملعونة ٠٠؟

ـ تلك الزبونة هل سمعت صوتها ٠٠؟

ـ ايوه ٠٠ ومن هي ٠٠؟

وأجاب محمد بنبرة حزينة :

ـ انها هي نفسها ٠٠ المرأة التي رأيناها تمزق ثيابها وتولول ٠

وسحب شفيق ساقه مجفلا وهتف :

---

(١) قطعة نقدية زهيدة كانت متداولة في العهد العثماني ٠

ـ المرأة ام « الوطان » ..؟

ـ نعم نفسها .. هي .. بكل تفاصيلها وجوارحها ، وبالرغم من انها انكرت وادعت انها لم تدس ارض باب الجابية في حياتها . بل عقدت الامر ، عندما زعمت انها نصرانية ..

ورجع الرجل الى وضعه الاسترخائي ، وتنهد قائلا :

ـ انت معتوه لا اكثر ولا أقل .. كيف زعمت ..؟ نصرانية يعني نصرانية .

واحتج محمد بنبرة قوية :

ـ أقسم لك برب العباد بأنهاهي بالذات .. آه لو رأيتها فقط ، لآمنت معي بانها المرأة المنكوبة ..

ورد المعلم بلهجة تدريسية .. وهو يخرز مساعده بنظرات مريبة :

ـ اسمع يا محمد .. تلك الام خرجت من دارها مع طفلها الوحيد لتهتف للشريف ، ونظرا لكثرة الزحام ، افلت ولدها من يدها فوقع بين قوائم أحد الخيالة الاستراليين ، ولم يشأ الجندي « الفاتح » ان يشوه مهابة الموكب فمضى في طريقه يلكز حصانه . ووجد الحصان التالي ، أو وجد فارسه ان الموضوع غير ذي اهمية ، فمضى يعمل سنابكه في غضاضير الطفل ، وهكذا .. الى ان مر الجيش كله واصبح الطفل عجينة دامية .. فماذا تنتظر من أم تشاهد ولدها يتفتت على هذه الصورة ان تفعل بعد ذلك ..؟

وأضاف الرجل في سخرية :

ـ أن تأتي اليك سافرة وبكل بساطة ، تطلب دواء للسعال ..

وصمت الى أن يتخذ لقدمه الملفوفة وضعا أكثر راحة ، ثم استطرد :

ـ يظهر أن مشاهدة تلك الام قد أثرت في نفسك كثيرا ، حتى تشربت نفسك ملامحها التعيسة فعاشت فيها . وكانت هذه أول امرأة تقابلها بعد

الحادثة ، فبرزت صورة الاولى أمام عينيك . هذا برأيي هو التعليل الوحيد .

وعاد الرجل يدرس ملامح مساعده ، ثم سأله :

ـ ارجو الا تكون قد أخفتها ؟

وأجاب محمد :

ـ والله يبدو انني فعلت .. وعلى أية حال لو رأيتها أنت لحكمت ، اما أكون معتوها أو يصيبك ما أصابني من الذهول .

من البدهي أن يكون تشابه المرأتين مصادفة ليس الا .. مصادفة من تلك المصادفات الهوجاء ، التي تهب على حياة الانسان ، فتترك فيها تأثيرا معينا . وقد يكون في تحليل الصيدلي بعض الحقيقة العلمية ، الا أن محمداً ظل يراوده الشك . وظل يعمل ذهنه طوال الاسبوع حتى التقى بالمرأة ثانية . وعلى جميع الوجوه كان لالتباس الامر عليه أسبابه الوجيهة ، فبالرغم من أن أهالي دمشق يمتازون دون سكان العالم ـ بالتفاوت الهائل ، في سمات وجوههم وملامحها ـ فانه لا يندر أن يوجد فيها شخصان يتشابهان لا بالملامح والحركات فحسب ، بل بطريقة التفكير والعوالم الكامنة الاخرى . . وعلى هذا ، فان دهشة محمد كانت في مكانها . وكان من المعقول أن تطوى القضية وتنسى من قبل الطرفين ـ الشاب والمرأة ـ الا أنهما وقد صهرا في حرارة هذا الاجتماع العاصف ، فلا بد أن يفكر أحدهما بالآخر ، على مستوى الاثر الذي تركه في نفسيهما . غير انهما قبل أن يلتقيا مرة ثانية شغلتهما الامور الآنية ، وجعلت كل منهما ينتظر المناسبة ـ اذا وجدت ـ لتوضيح الامور ..

# ٤

كان محمد فتى في التاسعة عشرة من عمره ، أكسبته بعض الظروف المعيشية والاجتماعية الخاصة رجولة مبكرة • وكان خليقا بـه تبعا لهذه الظروف أن ينشأ نشأة مختلفة ، تتراوح ما بين مجرم أو متسول • غير انه – وله الفضـل الاول – استطاع أن يصمد في وجه السيل ، فـلم يغرق • وتعلق بغصن مر به ، فأوصله الى شاطيء السلامة • ولم يكن هذا الغصن ، غير معلمه الرجل العائد من المنفى •

فقبل أربع سنوات – وكان شفيق الصافي قد عاد من أوربا حيث بدأت النار تشتعل في كل مكان – أخذت الفوضى تدب في البلاد دبيبـا لا مثيل له ، اختطف الرجال من نسائهم وأولادهم ، ليحاربوا في مصر وروسيا • وصودرت المواد الغذائية لاطعام الجنـود ، وحلت بالخطـوط الحديدية والطرق البرية وجميع مرافق الحياة ، ارتباكات لا حصر لها •

وانخفضت قيمة النقد وانخفضت على الاثر قيمة الانسان ، وأصبح الرغيف هدفا بعيد المنال . وهرع الناس من القرى يبيعون جهدهم بكسرة . ومن لم يملك جهدا ، راح يبيع أولاده أو بناته أو شرفه . وانتشر الفتيان والقادرون على العمل في طول البلاد وعرضها ، يبحثون عما يسد الرمق . وأصبح للحوم القطط والكلاب والجرذان قيمة نادرة . أما من خانته قوته في منتصف الطريق ، فكان ينام في مكانه ليكون طعما للجوارح والديدان . ومن حسن الحظ — أو سوئه — أن هذه كانت أسعد معدة من كثير من الادميين والسوائم الاخرى .

وعندما هبط الرجل العائد من المنفى في محطة الحجاز قادما من بيروت ، وفي غضون أقل من لحظة ، وبينما كان يستعرض المجندين الذاهبين الى الحرب ، التفت الى حقيبتيه فلم يجدهما . وسمع من بعيد صوتا مرتجفا يقول له :

— هل آتيك بعربة يا أفندي ..؟

والتفت الرجل ناحية الصوت ، ليجد أمتعته تحيطان بغلام مهلهل . ولأول مرة خطر في باله « كيف لم يسرقهما ..؟ » وتبعه على مهل ، وكان يرتدي البزة والقبعة اللتين كان يرتديهما في باريس . وعندما وصل الى درج المحطة ، التهمته أربع عيون جاحظة من أثر الجوع ، عيون حصان وسائق العربة . قال الغلام وهو يضع الحقيبتين بين قدمي المسافر :

— خدمة أخرى يا أفندي ..؟

فرد المسافر دون أن يعي ما يقول :

— اصعد معي ..

وتحددت طريق الغلام منذ اللحظة التي سمع بها هذه الكلمة . وتوضحت وضوحا كاملا ، عندما وصلا الى حي ( الباب الشرقي ) وتعاونا معا على كسر قفل صدىء متآكل ، لم يفتح منذ ثلاثين سنة ...

وبين الردم وخيوط العنكبوت والزجاجات المحطمة والفارغة ، سأل الرجل :

ـ ما اسمك يا شاطر ٠٠؟

وبالرغم من أن لهجة الرجـل الغريب كانت لا تدعو الى الارتيـاح ، وان المكان لا يوحي أبدا بانشراح الصدر أجاب الفتى :

ـ محمد يا افندي ٠٠

وهز المسافر رأسه وهو يقول :

ـ طيب يا محمد ٠٠ ستبقى معي أنا بحاجة اليك ٠٠

وعلى مر الايام ، توطدت بين الرجلين علاقة من نوع تلك العلاقات التي تنشأ بين المرضع والرضيع ٠ كان الفتى بالنسبة للرجل ، تلميذا وابنا وأخا وصديقا وقريبا وحقل تجارب ٠ بينما اعتبر الآخر معلمه ، رجلا يحمل كل القيم والخصائص التي كان يتخيلها في انسان ما ، بالاضافة الى القيم الجديدة التي راح يطلع عليها ٠٠

وفي خلال هذه المـــدة ، طويلة كانت أم قصـيرة ، ألم الفتى باللغة الفرنسية ، واتقن جيدا شؤون الصيدلة في الوقت الذي كان يتمرس فيـه على تفهم السياسة ، من رجل عاش في خلاياها ، وعاصر نشـــوء الفكرة الاستعمارية في أوكارها الملتوية المظلمة ٠

* *

كان «لورنس» ، قد اقنع الامراء الهاشميين بالمبيت في الكسـوة وتأجيل دخول المدينة الى الغد لاعتبارات معقولة ٠ غير أن الاعتبار الاول والاساسي كان انتظار وصول الجيش الانكليزي ، الذي ظل يسير في المؤخـرة لاستثمار النصر ، وعدم حرمانه من شرف الدخول في تشكيلة الرأس ٠ وكان الامير فيصل قد أعجب بالفكرة ٠ وفي الصباح وصلت أولى كتائب الانكليز وسارت على رأس الموكب ٠٠٠

وصفق الناس ، وراحـوا يزغردون ويصيحون من حناجر مزقت أوتارهـــا :

ـ يعيش فيصل ⋅⋅ يعيش لورانس ⋅

كان الامير يرتدي لباسا عربيا ويمتطي صهوة حصان أبيض ، يرفع راسه تارة ، ثم يخفضه في طريقة ظنها الناس علامة من علامات التواضع ⋅ والى جانبه كان لورانس يرتدي الملابس نفسها ، ويتطلع الى جموع الشعب على الجانبين والامام والخلف في نظرات ملؤها الفخر والعنجهية ⋅ بينما كان الجنرال نوري السعيد ، وسط الرتل على راس قطعاته ، تملأ رأسه أحلام جندي طموح ⋅ وفي باب الجابية ، حيث ساد الارتباك سير الموكب ، بسبب اكتظاظ الناس وضيق الشارع ، سقط الطفل بين قوائم خيـــل الكتيبة الاسترالية وأخذت السنابك تدفعه الى الخلف ⋅⋅ الى الخلف ، حتى انتشل في النهاية من تحت أقدام حامل الراية الاخيرة ، وقد تبدل شكله الاساسي ⋅ وظلت سنابك الخيل تطرق بلاط الشوارع حتى وصل الامير الى القصر ⋅⋅

ولم تكن الحكومة التي شكلها سعيد باشا الجزائري في دمشق ، في غمرة هذه الاحداث ، لتقف عائقا كبير أمام الكولونيل لورنس ⋅ فقـد أمر فور وصوله باستدعاء الامير سعيد وحاشيته ، وطمأن الشريف قائلا :

ـ لن تمضي ساعة حتىيكون الجيش الانكليزي قد وصل من فلسطين، وعندئذ أستطيع اجباره على الحضور ⋅ وفرك فيصل كفيه في حماس وسأل :

ـ وماذا نفعل بـه ⋅⋅؟

ـ أنا من جهتي لا أحب اللجـــوء الى القتل كوسيلة من وســائل السياسة ⋅⋅ ولا أحب أن أظهر للعرب اني أتخوف من أذاهم ⋅⋅

قال فيصل متشككا :

ـ واذا تأخرت الكتائب الانكليزية ⋅⋅؟

أجاب لورنس مطمئنا :

ـ لقد استنفرت رجال العشائر ·· وهؤلاء يستطيعون التفاهم مع الجزائريين ، أو مطاردتهم اذا اقتضى الامر ·· وأنا لا أخشى تأخر الكتائب ، ولكن أخشى أن يختفي سعيد باشا وحاشيته ·

ولكن الحكومة الجزائرية اضمحلت تماما كما ظهرت ـ دون ضجة ـ ودون أن تحدث أي تأثير على مجرى الامور · وأعلن لورنس منذ اليوم التالي تشكيل الحكومة العربية الجديدة ، وكانت حكومة عسكرية ، وقال وهو يقدم اللائحة الى الشريف :

ـ يمكنكم الآن أن تطمئنوا وتوقعوا على هذه اللائحة · هذه حكومة جيدة ، ترضي العرب وتتمشى مع مصالحنا ·· وسيكون الجنرال نوري باشا السعيد قائدا عاما للجيش ·

قال فيصل وهو يوقع مرسوم تشكيل الحكومة :

ـ تناهت الى اسماعي أخبار سيئة ، تفيد بأن الاستراليين يسطون على الحوانيت ويخطفون النساء ويفرغون خزائن البنوك ··

أجاب لورنس مخففا من وقع هذه الحوادث :

ـ ان هذه المشاكل لا بد وأن تحدث في مثل هذه الحالات · وعلى كل حال فاننا بفضل رقة « سترلنغ » ومقدرة « يونغ » وذكاء « كركبرايد » سنتغلب على هذه المصاعب ·· هؤلاء الضباط الاكفاء الذين اختارهم نائب صاحب الجلالة ليكونوا الى جانبكم في الظروف العصيبة ··

وهز الشريف رأسه ثم أصدر الى الشعب بيانا قال فيه :

( الى أهالي سورية المحترمين ·· أشكر جميع السوريين على ما ابدوه من العطف والمحبة وحسن القبول لجيوشنا المنصورة ·· والمسارعة الى البيعة باسم مولانا السلطان أمير المؤمنين الشريف حسين بن علي نصره الله ·· ) وبعد أن تحدث عن أن الامة العربية قد أصبحت مستقلة استقلالا كاملا لا شائبة فيه ، تحت راية السلطان حسين ، طلب الى الاهالي الخلود الى

الدعة والسكينة ، وعدم تعكير صفو الامن والعبث بالقوانين ، ملوحا ببعض التهديد وانزال العقاب الشديد ، بكل من تسول له نفسه ٠٠ الخ ٠٠ ثم أنهى بيانه ( والله نسأل أن يوفقنا جميعا الى ما فيه خير العرب واعلاء كلمتهم والسلام ٠٠ )

كان الليل قد جاوز منتصفه في دكان الصيدلي ٠ يجاهد مصباح بترولي صغير في انارة القسم الامامي من الدكان ، بينما يكشف مصباح آخر في القسم الخلفي منه عن وجه مليء بالاخاديد ، ملقى على وسادة فانية ٠ ظل الرجل مستلقيا على سريره بملابسه كاملة ٠ ينتهي جسده بصرة كبيرة بيضاء ، هي قدمه الملفوفة بالضمادات ٠ تستند على جانبي وجهه حزمتان قصيرتان من شعر أغبر خفيف ٠ وكان أنفه الى الاعلى يشير الى السرير أن يبقى صامدا ٠ يكاد شاربه الغليظ ــ برغم أنه مقصوص ــ أن يسد مجرى الهواء على الفتحتين الواسعتين من نوقه ، في حين عكفت عيناه ــ اللتان بدتا كليلتين دون نظارات ــ على تفحص حشية قطنية ، برزت من الفراش العلوي ، وكأنهما تفليانها من حشرة ضائعة ٠ وجلس محمد على بعد ثلاثة أقدام فوق صندوق خشبي ، يرتق حذاء معلمه وهو يميل رأسه الاملس كمن ينوء تحت ثقل أفكاره ٠ وسأل الشاب فجأة :

ــ سنذهب غدا الى السراي ٠٠ هاه ؟

ورد الرجل دون أن يكف عن ملاحظة الحشية ، وكأنه يتوقع أن تسقط على أرنبة أنفه المصقولة :

ــ سننتظر لنتأكد من عواطف الشعب ٠ ان الناس ما يزالون يرقصون من الفرح دون أن يدروا بما يخبئه الحاوي وراء نغم مزماره ٠٠

وابتلع الرجل ريقه في صعوبة ثم أردف :

ــ محمد ٠٠ اذا خطر لك يوما أن تذكر هذه الايام ، فلا تنحو باللائمة

على هذا الشعب الفقير ، فهو يحتفل كالعادة ·· وغدا عندما يجد نفسه مخدوعا ، فسيعرف كيف يتحرك ··

وهز الشاب رأسه وكأنه يتصور حدثا خارقا ·· ثم سأل :

ـ ولماذا لا نحاول أن نطلع الناس منذ الآن على خفايا الامور ··؟

ـ الآن ··لن يستمع الينا أحد ··وان هم سمعوا صوتا محذرا، فسيكون غريبا نشازا وسط لحنهم البديع ·· لن يصدقنا أحد في هذا الوقت ولن يقنع بما نقوله ··

ـ ان لي صديقا مصريا ، سأطلب منه غدا ، أن يقف على درج المحطة ويحدث الناس عن الاحتلال الانكليزي لمصر وعن حادثة « دنشواي » بالذات ··

والتفت الرجل الى مساعده وأجاب في اهتمام :

ـ انها فكرة رائعة أيها الثوري الصغير ·· عله ذاك الرجل الذي يكتب الاستدعاءات جانب المحكمة ؟

ـ نفسه ·· « سيد رجب » ·· فمنذ اثني عشر عاما حتى الآن ، وهو يحتفظ بكثير من المستندات وقصاصات الجرائد · ويدخر مواد لا تنضب عن مكر الانكليز ووحشيتهم ··

وعاد الصافي الى ترويياته :

ـ ان رأيي هو ارجاء تنفيذ هذه الفكرة لحين آخر ؛ اذ من الصعب في هذا الوقت ـ كما قلت لك ـ التعرض للحلفاء ، خاصة وان صديقنا المصري محكوم بالموت ويجب الابقاء على حياته كسبا للقضية ··

ـ اذن سأعرض عليه الموضوع غدا ، ليقوم بتهيئة الخطاب ، والقائه في اللحظة المناسبة ··

ـ طيب ·· ذكره أيضا بفرنسا ·· التي اتفقت مع انكلترا على

اقتسام البلاد العربية منذ عام ١٩١٢ ، أي قبل نشوب الحرب بسنتين ٠ وعندما اتفقنا مع الشريف حسين ، كانت تركيا لا تملك من بلادنا غير الربع ٠ ذكره بأن فرنسا تحتل المغرب العربي منذ مائة عام ٠٠ ايه ٠٠ كم الساعة الآن ٠٠؟ سأنام أني متعب ٠٠ اطفىء النور ٠

وبعد خمس دقائق ، كان شخير الرجل يطغى على السكون ٠ بينما راحت عينا الشاب الساهرة ، في سريره العلوي ، تحملقان بالسقف الواطىء ٠٠٠

●

## - ٥ -

توافد الناس الى السراي ، منذ اليوم الاول لوصول الجيش ، لتهنئة الشريف ، ولتقديم فروض الولاء والمبايعة ·· كان الامير يرتدي بزة مدنيــة ســوداء ، وعلى رأســـه انتصبت « سيدارة » بشكــل موشــور مستطيل ( فيصلية ) · يجلس في صدر القاعة الواسعة على مقعد عريض ، رفع فوق قاعدة خشبية ، بينما اصطف الامراء والقادة واللورنسيون على الجانبين · كان المهنئون يترادفون صفا واحدا · يقف الاول أمام الشريف ، ثم يتقدم بما تجود بــه اريحيته من كلمات طيبات ، أو انحناءة ، تتراوح ما بين السجود أو هزة رأس · يقبل بعضها اليد الممدودة في حرارة ، أو يمسهايمسا بشفتيه ، وذلك حسب درجة ايمــان المهنىء · ثم يتراجع خطوتين كــيلا يعطي ظهره مباشرة الى صاحب السمو · يستدير بعدها عائدا الى البــاب بين صفوف الحرس المتيقظ المستعد ··

وبالرغم من أن لورنس كـــان مشغولا بتصفية الامـراء الجزائريين وتشكيل الحكومة الجديدة ، فقد كان يهتبل بعض الفرص ويدخل قاعـة الاستقبالات • أحب أن يطلع على هذا النوع من البشر الذي قرأ عنه واغرم بـه قبل أن يراه • سكان مدينة دمشـق الذين لا يشبه أحدهم الآخر ، أولئك الذين حدثه عنهم « السر ماكماهون » ووصفهم بأنهم دعاة أفكـــار وأصحاب مبادىء ••

ومن سوء الحظ ، أن لورنس كان في بزته العسكرية ، موجودا في القاعة ، في الساعة العاشرة من صباح اليوم الخامس • وكان بين الصفوف ، شاب طوله متر وثلاثة أرباع المتر • يرتدي سترة وبنطالا من الكتان المقلم ، وحذاء اهترأ نعله من فرط المسير • أحاط قذاله وفوديه ـ تحت طربوشه الحائل اللون ـ شعر خرنوبي أملس • تهتز في عينيه الواسعتين ، نظرة فضولية ، توحي بأن وراءها غيظا يتضرم للافصاح عن وجوده • تنخفض وجنتاه الى مستوى خديه الشاحبتين ، ويبرز أنفه الاقنى الى الامام في تحد وجموح • وتنضم شفتاه أحداهما الى الاخرى ، تحت ذقن عريضة جرداء • ويتسـع صدره في عنـاد ، حتى ليكاد أن يمـزق خيوط السترة ويندفـع الى الامـــام ••

وقف الشاب في البداية في مؤخرة الرتل يكبت في نفسه رغبة ما • لم يكن يعلم بالضبط ماذا يريد أن يفعل عندما يصل الى الامير • وقد سمحت له قامته المديدة بأن يرى ما يجري في صدر القاعة • ووجد نفسه بعد قليل يدفع من الخلف ، كي يتقدم بدوره وسط الرتل • فاستجاب مرغما لتلك القوة • وعندما وصل الى منتصف المكان ، التفت الى الجانبين ، كان يقف الى اليمين أميران هاشميان مع بعض رؤساء العشائر • والى اليسار انتصب الضباط بالوضعية العسكرية • وتسمرت أجفان الشاب على وجه أحدهم ، وقال في نفسه « هذا هو » • كانت تطل من عيني لورنس الزرقاوين نظرات

متعبة ، تغزل في كلل خيوطا من الافكار • ولكنهما بالرغم من انشغالهما ، بدتا عميقتين ثعلبيتين ، تخفيـــان في بؤبؤيهما صـــورا غامضة الحـــدود والمعالم • واتسعت المسافة بين الشاب وبين الرجل الذي أمامه • فمست كتفه يد من خلفه • وعلى حين غرة ، بـــدلا من أن يخطو الى الامـــام انحرف الى جانب ، ووقف وجها لوجه أمام لورنس • وكما يحدث في الطبيعة عندما تهتز الارض هزة غامضة ــ تدركها الحواس الخفية قبل أن يدركها الفهم ــ حلت في القاعة حركة مفاجئة ، لسبب خارج عن الارادة • ومن العجيب أن أحدا من المهنئين لم يع ما حدث • وظن أكثرهم بأن الرجفة التي سرت في الاوصال ما هي الا أثر من آثار الرهبة التي تحيط بقدسية الموقف • كما أن الامراء في الجانب الآخر لم يفهموا أكثر من أن شابا اقترب من لورنس ، فتكهرب الموقف كما لو حدث تماس بين شريطين متنافرين • وعندما حاول الحرس استطلاع الامـــر ، وجدوا انفسهم متأخـــرين ، وان كـــل شيء قـــد انتهى ••

ولعل الشخص الوحيد الذي ظل بمعزل عن القضية ، كان الشريف فيصل • لانه وهو يقدم يده للوفود ، كان يتيه في خواطره • أما الضباط العرب والبريطانيون الذين كانوا يحيطون بلورنس ، فلم يفعلوا أكثر من أن رفعوا حواجبهم من الدهشة ، ثم رأحوا يهمهمون ويستشيطون ••

كان لورنس ولا شك ، أعقل الجميع واسرعهم بديهة ، لأنه استدار كلمح البصر ، واختفى في أقرب غرفة الى جانبـــه • ويجب ألا تغفل حكمـــة نوري السعيد ، لانه أمسك بساعد الشاب ودفعه الى الغرفة نفسها واغلق دونهما الباب • ولبث الشاب برهة غير قصيرة حتى استطاع العثور على ظهر لورنس ، الذي قال بالانكليزية ووجهه الى النافذة المطلة على الشارع :

ــ أرجو أن تدعنا وحيدين يا نوري باشا ••

ولم تعرف بالضبط الطريقة الروحية التي تمكن فيها لورنس من

معرفة الشخص الداخل ، لانه كان يعطي كامل ظهره الى الباب • وتلكأ السعيد قليلا بعد أن ارتوى من تفحص وجه الشاب ، ثم خرج دون أن يبتعد عن الباب اما لكي يسمع ما سيدور في الداخل ، أو ليمنع أحدا من الدخول ، ولربما للاعتبارين الاثنين معا ••

سمع محمد صوتا صادرا عن ظهر غريمه يقول له :

ـ هل أنت جزائري ••؟

فأجاب دون تردد ولسبب لم يدركه هو نفسه :

ـ نعم •••

واستدار لورنس في هدوء وتقدم من الشاب • وما ان اقترب منه حتى جمد الاثنان في أرضهما • لاحظ محمد أن شيئا لا يزال على وجه الرجل ، وقد افترش مسافة واسعة من الجبين ، ووصل رذاذه الى زاوية العين اليمنى • أما دهشة لورنس فقد عبر عنها بالسؤال التالي :

ـ أنت لست جزائريا ••

قال محمد في نفسه : ( لماذا لم يمسح وجهه ؟ هل يريد أن يستخدم ذلك كسلاح أم كدليل•• ؟ ) ثم اعفى نفسه من النظر الى جبينه وراح يتأمل شفتيه القرمزيتين •• قال لورنس وكان هدفه من السؤال معرفة لهجة الشاب :

ـ لماذا فعلت ذلك يا •••

وأجاب محمد غافلا عن غاية السؤال وقد شجعته نظرات الرجل الضائعة :

ـ لا أعلم ••

ويبدو أن هذه الاجابة اضاءت على لورنس بغيته الاساسية ، لأنه فكر قليلا ثم قال :

ـ سأعطيك اذن مسدسا لتقتلني ••

وكانت نبرته تدل على أنه صادق تماما على عزمه ، وانه على كامل الاستعداد لان يقدم عنقه للذبح عن طيب خاطر . وتذكر محمد كلمة قالها معلمه بالامس : ان الاغتيال الفردي لا يفيد بقدر ما يسيء . وقد الهمته هذه الذكرى على الاجابة ، اذ رد في صوت غير موزون :

ـ وماذا أستفيد من قتلك ..؟

ورفع الشاب عينيه مرغما الى وجه بدا معذبا ، فاحس بما يشبه الندم ، وفكر : أمن اجل ذلك ترك الاثر يا ترى ..؟ قال لورنس في تسامح كبير :

ـ ان ذلك قد يسر من حرّضوك ..

ـ ان أحدا لم يحرضني ..

وتأمل الرجل عيني الشاب مليا ، ثم أخرج من جيبه منديلا مسح بـه وجهه ، وهو يقول :

ـ اني أصدقك .. ولكن .. هل تعدني بشيء أيها الشاب ..؟ ما اسمك ..؟

وتردد محمد وقد شعر بالارتياح لاختفاء الاثر ولكنه خشي أن يصرح باسمه . وقال لورنس :

ـ حسنا هل تعدني اذن أن تكتم ما فعلت .. حتى أمام نفسك ؟

أجاب محمد في تمرد : وقد دهش كثيرا لتخاذل الرجل صاحب البأس والسلطان :

ـ انني لم أندم على هذا العمل ..

قال لورنس :

ـ ليست هذه غايتي .. فأنا نسيت الامر وأودعه هذا المنديل ..

وقذف به في حركة لينة الى زاوية الغرفة . قال محمد وهو يتابع حركة يد الرجل مسائلا نفسه . ترى ماذا يريد في الحقيقة ..؟

ـ وانا أيضا نسيته ..

وتذكر لورنس شيئا وهتف :

ـ الآن عرفت أنك دمشقي ٠٠

كان محمد يعمل فكره في استمرار ٠ أحس في البداية أنه وقع في مصيدة رهيبة ، ثم تصور أن نهايته ستكون مفجعة ، وأن التراجع لن يفيد شيئا ٠ ثم عاوده الاطمئنان عندما راح الرجل يساومه ٠ وعجب بالدرجة الاولى من الاسئلة الغريبة المطروحة عليه ٠ فظن أن وراءها مكيدة غامضة ٠ فراح يتهرب منها وهو على أشد ما يكون حيطة وحذرا ٠ وتوقفت على ملامح الشاب نظرات حزينة ساهمة ، وكأن صاحبها يرثي لحاله ، أو يرثي لحال نفسه ٠

وعاد لورنس الى استجوابه :

ـ هل لك علاقة ما بالامير سعيد الجزائري ٠٠؟

ـ لا أدري ٠٠ فأنا لا ٠٠ لا أعرفه ٠

والحقيقة أن حكومة سعيد الجزائري ، كانت عبارة عن خبر تناقله الناس ، وضاع وسط ضجة الاخبار الواردة من الجنوب عن قدوم الجيش ( الشريفي ) ، دون أن يدرك أحد ماهية تلك الحكومة التي لم تعش أكثر من أربع وعشرين ساعة ٠

وأدرك لورنس أن الشاب يعمل أفكاره للتخلص من الاجابة بطريقة مضحكة ٠ فضلا عن أنه ـ أي الشاب ـ لا يعرف ، ولا يمكن أن يخمن ماذا ينتظره بعد قليل ٠ من أجل هذا ، عاد الرجل الى نافذته في خطوات وئيدة ، وقد انحنى كتفاه قليلا عن ذي قبل ، مشبكا يديه وراء ظهره ، ترتعش أنامله ارتعاشات خفيفة ، وكأنها تجس أوتار قيثارة ماضية يخشى أن تجرح أصابعه ٠ بينما ظل الشاب واقفا في مكانه قرب المكتب العريض ، يداخله التوجس ، فارضا شتى الاحتمالات ، ملاحقا رأس الضابط الانكليزي ، محاولا أن يستشف ما يدور في داخله ٠

كان من المفروض أن يحضر محمد الى السراي مع معلمه ، كي يطلعا عن كثب على الاحوال الجارية هناك . غير أن الصيدلي أفاق في اليوم التالي على آلام مضنية تفتت جسده بكامله ، وعرف بأن قدمه أصيبت بالتهاب خطير . فعكف على معالجتها طوال الايام الاربعة التالية . وفي اليوم الخامس لم يستطع السير ، كما أنه لم يتمكن من الانتظار . فأوفد مساعده كي يذهب وحده ، ناصحا اياه بأن يلتزم جانب الحيطة والحذر . وان لا يسمح لنفسه بأن يقول أو يفعل شيئا يندم عليه . كما حدثه بالمناسبة ، عن مسألة الاغتيالات الفردية ، شارحا له : أن ازاحة رجل عن الطريق ، لا تحل مشكلة ما . بل تفسح المجال لتعيين شخص آخر غيره ، أشد ضغينة وفسادا وبطشا . وضرب له على ذلك أمثلة عديدة .

ابتعد لورنس عن النافذة ، وعاد الى طاولته يرتب بعض الخرائط والأوراق ، وقد اتسمت ملامحه بسيماء جديدة ، وكأنه قرر أمرا خطيرا عزم على تنفيذه دون تأجيل . وقال للشاب في نظرة جادة محيرة :

ـ ماذا تنتظر أيها الشاب ..؟

ولأول مرة ارتج على محمد ، فلم يدر بماذا يجيب . وهيأ اذنيه لسماع سؤال آخر يوضح غاية الرجل . الا أن هذا اقترب منه قائلا في لهجة أبوية :

ـ لقد جربت أن أضع نفسي مكانك فلم أستطع .. هنالك كثير من الاعتبارات تفرق بيننا .. ولكن على ضوء حقيقة واحدة أقول : انك لم تأت الى هنا لتهنئة الامير .. كما أنك لم تأت لـ .. ( واصفر وجهه فجأة وأشاح بوجهه ) اذهب ..

ثم صرخ بصوت متهدج :

ـ قلت لك اذهب .. اذهب ..

واضاع محمد باب الغرفة لفرط الانفعال . وبينما هو يهم بالخروج ، كان لورنس يقول في نفسه :

( وبالامس فقط استقبلت المبعوث الفرنسي للاتفاق على تنفيذ المعاهدة• فماذا يفعلون غدا عندما يتم الامر ••؟ )

وزوى ما بين عينيه وجمع بخياله غائصا في عوالم نفسه :

( لقد تجنبت المخلوقات العادية لأنها تمثل فشلنا في الحصول على العقلية المثالية ، فاذا فرضوا أنفسهم علي كرهتهم • ان وضع يدي على شيء حي يعتبر تشويهاً له ، ولهذا فانه يجعلني أرتعد اذا لمسني ، أنا الراهب في زنزانة نفسي• لو كنت مخلصاً في مشورتي للعرب ، لكنت نصحتهم بالعودة الى بيوتهم ، والتخلي عن المجازفة بحياتهم • من أجل هذا قال العرب: انه كان هناك أربعون الف نبي ، ولدوا في الاماكن المكتظة بالناس ، الا أن حنيناً عنيفا غامضا دفعهم الى الصحراء فعاشوا فيها وقتا طويلا أو قصيرا ، متأملين محرومي الأجساد • ثم عادوا برسالة متخيلة ، واضحة كل الوضوح ، ليبشروا بها بين رفاقهم القدامى ، والذين صاروا يشكون فيهم الآن • ولقد حقق مؤسسو العقائد الثلاث هذا كله • وصارت حياة كل واحد منهم ، باتفاقها مع تفاصيل حياة الآخر ، قانوناً لكل واحد من الآلاف الباقية من أولئك الذين خانهم الحظ ففشلوا : انه رد الفعل الذي شعروا به ضد المادة ، والهروب من المدن الى الصحراء والسجون ، وبالتخلي عن كل شيء • • )

وأفاق لورنس على نفسه ، عندما دخل عليه نوري السعيد مستبشراً يفرك كفيه في خبث وقال :

– لقد أرسلت جاسوسين لمراقبته ياسيدي •• كان يجب الا تعفو عنه ••

وأشاح لورانس بوجهه قائلا :

– لقد انتهى كل شيء يانوري باشا••انتهى كل شيء ••وسأعود اليوم الى بلادي •

وصرخ السعيد مجفلا :

ـ تعودون ••؟كيف ••؟ هكذا من أجل ولد مجنون•• بعدأن أصبحتم ملك العرب غير المتوج ؟

ورد لورنس في يأس قائلا :

ـ لم أعد شيئا أيها الجنرال •• لقد انتهت مهمتي •

وتنحنح في غم :

ـ اصغوا قليلا ياسيدي • اذاكنتم تقدسون شيئاً ، فاني أستحلفكم به •• أن تدعوا هذا الامر سرا •• وألا تبوحوا به لاحد حتى ولا لانفسكم •• هذه هي رغبتي الوحيدة •• أنا لاأريد شيئاً آخر ثم •• وداعاً . .

* *

علم الامير فيصل في المساء أن حادثاً مريعاً ، حدث لمستشاره ، فاستشاط غضبا وارتجفت لحيته القصيرة ارتجافا مرعبا ، وطالب برأس الفاعل • الا أن نوري السعيد اطفأ ثائرته ، واخبره أن « لورنس » حقق في الحادث بنفسه • وأنه أوصى بأن يعتبر الامر منتهياً • والا يمس الفاعل بأي أذى ، لانه لايحب البطش • كما أنه يأمل في أن يبقى الامر سراً ويدفن في أرضه •

وغادر لورنس دمشق في اليوم التالي •

## - ٦ -

قبل ثلاث سنوات ، وفي قصره المنيف في القاهرة ، استقبل السير « هنري ماكماهون » نائب صاحب الجلالة ملك بريطانيا العظمى والهند ، الرجل الذي يبحث عنه • وقد دهش كثيراً عندما علم بأن ضالته تعيش الى جانبه في المدينة نفسها ••

كان شابا ناعما ، دقيق الملامح ، سالت الوجه ، في عينيه نظرات حائرة بين الخجل والتهيب • كان يرتدي بنطالا قصيرا واسع الفتحتين ، وقميصا منتصف الاكمام ، وحذاء مفتوحاً ، تظهر منه أصابع قدميه العارية • وجلس الشاب في ارتباك مستجيباً لطلب نائب الملك •

ولد الشاب في لندن من عائلة محافظة ، أولع منذ نشأته بدروس الادب والتاريخ • وعندما كبر قليلا راح يتعقب الحركات الداعية الى تقاليد القرون الوسطى ، وقرأ كتاب تلك العصور بنهم وشغف كبيرين • ودار حول انكلترا

جامعا أوراقا خاصة للرسم عليها نقوش الكنائس ، ثم سافر الى فرنسا متطلعاً الى الكنائس القديمة والكاتدرائيات • ثم عزم على السفر الى مصر ، وبالرغم من أنه كان ضعيف البنية فقد سافر اليها سيراً على قدميه • وتوقف في فلسطين ليجمع الحقائق عن الحروب الصليبية • كان الشاب يحلم في شراء طاحونة مهجورة في بلاده • حتى اذا ماعاد أدار بواسطتها آلة للطباعة ، تطبع الكتب على ورق من صنع يدوي فكان يحلم بتجليد هذه الكتب ، بجلود البقر وتلوينها بألوان خاصة تستورد من مدينة صور • غير أن أحلامه ضاعت ، عندما طلبت الحكومة البريطانية الى قلم استخباراتها رجلا يتحلى بصفات معينة • تجعله قادراً على وضع تعاريف جديدة لكلمات خطيرة معينة واستبدالها بكلمات أخرى ليست أقل خطرا بل تعكس تلك المعاني كلية ••

قال ماكماهون وهو يفرك يديه بدون سرور :

– حسناً اذاً •• ها قد أتيت في أوانك • كتبت الى صاحب الجلالة شخصيا لاطلب منه انكليزيا يقدس التاج ••

واطرق الشاب برأسه ولم يجب ، وشجع هذا ( السير ماكماهون ) على الولوج في القضية مباشرة :

– أرجو أن تصغي جيدا الى ما سأقوله لك • لقد سمعت بانك مولع بالانبياء والرمل والبراغيث •

وضحك الرجل العملاق ضحكة خشنة صادرة عن المعدة ثم اردف :

– حسنا ، ان هذه اشياء جميلة ولكنها تحتاج الى من يفهمها •• ويقدسها •• المهم ••

وفتح نائب الملك اضبارة امامه ، وبدأ يتصفح أوراقها ، مسترقا النظر الى وجه زائره الصغير • متفحصا التفاعلات ، التي يمكن ان تطرأ على رأسه من خلال أذنيه المدورتين المائلتين قليلا الى الامام ••

– لقد تأكدنا من أن فكرة ما أخذت تتغلغل بين العرب في جميع الاقطار

التي يسكنونها • وعرفنا بأن سورية أو دمشق على الاصح ، اضحت البؤرة الاساسية لتلك الفكرة •• » ثم سأل فجاة »

ـ أصبحت تتقن العربية يابني أليس كذلك ••؟

وبوغت الشاب بالسؤال • الا أنه أجاب على الفور :

ـ نعم يا سيدي •• ولكن احتاج الى القليل من مزاولة الكلام والاطلاع على اللهجات ••

ولم يصغ ماكماهون الى الاجابة ومضى يقول :

ـ ولقد عرفنا بأن الثورة العربية لا يمكن أن تبدأ من سورية أو من العراق أو فلسطين •• لأن هذه الاقطار ، لا تزال مركزاً لاحتشاد الجيوش العدوة •• كما انه من السهل على تركيا ، والمانيا أن تزيدا من عدد الجيوش المحتشدة لهما هنا ، لذا يتعذر النجاح لأي ثورة أهلية تقوم هناك في هذه الظروف •

وهنا خطر للشاب أن يسعف السير بفكرة ما •• كأن يقول له ( ولماذا لا تبدأونها من مصر مثلا ) ولكنه أدرك على الفور خطل رأيه • فضلا عن أن ماكماهون حدجه بنظرة ساخرة ، وكأنه قرأ أفكاره • ثم لاحقه بالحل الصحيح •

ـ وكان لا بد من التوجه الى الحجاز ، ومساعدة الشريف حسين بن علي باشعال ثورة مأمونة النجاح •• انتبه جيدا •• فكر معي •• أن الاتفاق مع أمير مكة يفيد قضيتنا من الوجهتين العسكرية والمعنوية •• فهذا الامير من الشرفاء الذين ينحدرون من نسل النبي محمد • ولهذا اهمية كبرى في اعتبارنا، ولعلك أنت نفسك تهتم لهذه الناحية •

وتنحنح « ماكماهون » وهو يلمح عيني الشاب تلمعان على نحو خاص • ثم أردف في لهجة غريبة :

ـ ولهذا السبب أقدمنا على مفاوضة امير مكة ـ الشريف حسين باشا ـ

على البدء بالثورة • في الوقت الذي تفاوض فيه فرنسا والقيصر على اقتسام ميراث بني عثمان • اعطني سمعك قليلا • أنت بروتستانتي قبل كل شيء • ولا يزال هنا بعض الخلاف بيننا وبين حلفائنا بشأن هذا الموضوع • وسيحتاج الامر من أجل تسويته الى الكثير من المساومات • ولا حاجة بي الى تذكيرك بأن الولايات العربية ، هي أثمن هذا الميراث • ولكننا استطعنا أن نطرد القيصر من هذه المنطقة بموجب اتفاق خاص • وأرضيناه ببعض العبارات التي تنفخ صدره دون أن توسع جيبه •

وتنهد ( ماكماهون ) في حزن :

ـ ولكن بقيت فرنسا •

ويبدو أن أذني الشاب أخذتا تتذبذبان قليلا ، بصورة أزعجت السير لأنه قال :

ـ اسمع يا بني • ان نائب صاحب الجلالة لا يتكلم معك بهذه الكيفية الا لأنه يلقي على كاهلك مع كل كلمة جبلا من الاسرار ، وثقة كبرى ، يجب أن تكون أهلا للحصول عليها • وفي الوقت نفسه أن تكون فخورا بذلك • لقد أخذت فرنسا منطقة نفوذ واسعة ، تمتد من الناقورة جنوبا الى الاسكندرية شمالا مع جبل لبنان • أما منطقة نفوذنا فقد شملت حصة الاسد كما يقولون ، مصر والعراق الخ •• حتى البحر الاحمر • وقد تم ذلك باتفاق سري خاص بين مندوبنا « مارك سايكس » ومندوب فرنسا « جورج بيكو » •

وبما أن الشاب كان يؤمن بالغيب على طريقته « البراهيمية » وكان في هذه اللحظة يفكر بأرض « الميعاد » فقد تجمد تماما عندما سمع السير يقول :

ـ أما فلسطين •• فقد فرغنا من أمرها •• وسيعلن وزير الخارجية قريبا بلاغا بهذا الشأن •

ونظر ماكماهون بغتة الى جنديه الصغير وسأله :

ـ هل انتسبت الى الازهر ٠؟

كان الشاب يحاول جهده أن يركـز أفكاره بناحية معينة ، الا أن محاولته هذه ، كانت تتلاشى على سؤال خاص ، أو تنبيه خارج عن الموضوع٠ وقد أجاب بعد أن وفق بلم خواطره :

ـ كنت قد تركت ذلك الى أن أنتهي من بعض الدراسات يا سيدي ٠٠

وسأل نائب الملك في اهتمام لا يخلو من الردع :

ـ ومسألة الدين ٠٠؟

قال الشاب في ارتباك :

ـ لا أظنّ في أن الدين سيقف عائقا كبيرا في سبيل تحقيق مهمتكم يا سيدي ٠٠

ومن جديد أعفى السير نفسه من الاستماع الى الاجابة وكان ذلك من حسن حظ الشاب ٠٠ بل استأنف حديثه :

ـ بدأنا نفاوض الشريف قبل علم حلفائنا ـ أو بالاحرى دون علمهم ـ وقد وعدناه بأننا مستعدون للأخذ بيده ، واعانته على تحقيق أحلامه ٠٠ غير أن الشريف تقدم ببعض الشروط من أجل القيام بالثورة والانضمام الينا ، فرددت عليه شخصيا ، بأنه يجب التغاضي الآن عن شروطك ، لأن الوقت قصير والحرب قائمة ٠ فضلا عن أن تركيا لا تزال تحتل قسما كبيرا من الاراضي العربية ٠٠

وفوجيء الشاب نفسه عندما سأل :

ـ وهل قبل الشريف بهذا الرد ٠٠؟

واعجب ماكماهون بهذا السؤال كثيرا ، لا لأهميته ، بل لأنه أخرج الشاب من قوقعته ٠ وأجاب في ابتسامة ماكرة :

ـ بالفعل وافق الشريف على أن يترك الاراضي التي تحتلها الجيوش

الانكليزية لقاء مبلغ من المال ·· يدفع كتعويض عن مدة احتلال المناطق · ووعدته بالمقابل ، الا نبرم عقدا مع فرنسا ، ما لم يكن ضمن شروطه الأساسية ، حرية الشعوب العربية وخلاصها من سلطة الاتراك ··

ولاحظ نائب الملك أن الشاب يتهيأ لسؤال عويص كأن يقول مثلا : ( ولكنكم أخلفتم بهذا العهد ·· ) فقطع عليه الطريق · ونهض فجأة بقامته العملاقة ، وكأنه يجيبه على سؤاله :

( لا نقاش في هذه الامور · لانها صعبة الفهم ) ·

ثم تقدم من الشاب ، دائرا حول مكتبه الامبراطوري ، وأدار له كفه اليابسة ، صافحه في حرارة · ثم ألقى ساعده الضخم على الكتف العجفاء ، وراح يتأمل العينين الزرقاوين البراقتين بريقا يصعب تفسيره · ثم قال في نبرة صافية :

ـ اليك يا ولدي ·· كل شيء ·· لقد أعطيتك أسرار أعظم مملكة على وجـــه الارض ·· فكن ابنا بـــارا ·· واعمل في سبيل التاج والله يحرسك ···

وعاد السير ماكماهون الى طاولته وقرع جرسا ، فحضر أحد الضباط السودانيين ، الذي تلقى أمرا مقتضبا يدعوه الى قيـادة الزائـر الغر الى الجنرال « كلايتن » القائد الاعلى للجيوش الانكليزية في مصر والسودان ··

واستقبل « كلايتن » الشاب في عبوس قمطرير ، ودون أي احتفال · وأبقاه واقفا طوال الوقت ، ممتعضا أشد الامتعاض من هيئته الزرية ووقفته غير العسكرية · اذ وقف الشاب مباعدا ما بين قدميه ، مهدلا ساعديه في استرخاء ، يميل بجزعه كغصن ذابل · قال الجنرال في لهجة جافة :

ـ يجب أن تكون عسكريا بالدرجة الاولى ، وبعد ذلك تنفذ بقيـــة المهمـــات ··

وتناول من فوق طاولته ، شهادة وبعض الاوراق الملفوفة في احكام ، واستطرد :

ـ أنت الآن ضابط في جيش صاحب الجلالة الملك ·· برتبة كابتن ·· وموظف بدائرة الاستخبارات تحت رقم ·· ستعرفه بعد قليل ·· أما مهمتك فموجودة بالتفصيل بهذا الكتاب ··

ونهض الجنرال من وراء طاولته في عصبية ، وتقدم من الشاب · ثم ما لبث أن قفل راجعا يطرق أرض الغرفة بخطوات قاسية · وكأنه يطلع الضابط المستجد على كيفية السير المضبوط · وقال وهو ينحني برأسه الى الارض ، متأملا وقع خطواته :

ـ أظن أنك اطلعت بشكل عام على بعض الامور ·· حسنا ·· وأنا الآن أكلمك كجندي ، فقد تضطر خلال أسفارك لأن تتعرض لتبديل ثيابك أو تغيير زيك ·· حسنا ·· ولكن لاتنس كيف تعود الى طبيعتك الاساسية · ستكون مرافقا ومستشارا للامير فيصل بن الحسين قائد الجيش العربي ·· آه ··

وتوقف « كلايتن » عن الحديث فجأة ، وكأنه أراد أن يستعيض بسؤال واحد عن بقية المهمات والاوامر ·

ـ سمعت أنك تقدس القمل والتراب والرسل ·· حسنا ·· ان هذا لا يضر ، بالعكس ، قد يفيدك كجندي ·· خاصة العنصرين الاولين منها ·· سترتدي غدا عباءة و ·· ( رسم باصبعه دائرة حول رأسه ) هذا الذي يضعونه على الرأس قل لي ما اسمه ؟

ظل الشاب كل المدة وكأنه يشهد صلاة في « معبد ماسوني » تتقاذفه شتى الخواطر والانفعالات ، دون أن ينبس أو يريم وعندما طرح عليه السؤال ، أصيب بما يشبه الصاعقة ، وأجاب منتفضا :

ـ ع ·· ع ·· عقال ··

واضطر الجنرال لأن يفرج قليلا من أساريره ، وقال ماطا الكلمة بصورة تدعو الى الغيظ :

ـ عو .. عو كال .. عوكال .. حسنا .. انه اسم بغيض ، لا يهم .. ضعه على رأسك جيدا .. احترس من الشمس .. ان الصحراء عالم مجهول ، أشد رهبة من المحيط .. اذهب الى قائد الاستخبارات ، الغرفة التالية الى اليمين .. قدم له نفسك جيدا ..

وقبل أن يستدير الشاب متخلصا من الكابوس ، عاجله الجنرال بالكلمة الاخيرة :

ـ هيه يا بني .. لا تنس انك انكليزي بروتستانتي بالدرجة الاولى ...

وقد وفقت دائرة الاستخبارات البريطانية في العثور على لورنس ، لدرجة أن المسؤولين حسدوا موظفهم على المراتب والالقاب التي حصل عليها خلال خدمته للعرب . عندما اصبح يسمى « بملك العرب غير المتوج » خاصة . وكانت آخر مهمة قام بها الملك العتيد ، هي تلك المقابلة التي جرت بينه وبين المبعوث الفرنسي ..

ففي الرابع من تشرين الاول ١٩١٨ ، وبعد دخول الجيش العربي بأربعة أيام ، وقبل أن يصاب بعقده النفسية بيوم واحد . خلال الافراح والهتافات ، في الوقت الذي غادرت فيه دمشق بعض الكتائب العربية والانكليزية الى الشمال لاستكمال فتح البلاد ، وفصائل أخرى الى بيروت لرفع الاعلام العربية ، في هذا اليوم على التحديد ، وقفت أمام السراي ، سيارة من طراز فرنسي ، وهبط منها شاب يرتدي لباسا مدنيا ، ويعلق على صدره أوسمة حربية ، وسأله أحد المستقبلين :

ـ من يكون السيد ..؟

أجاب الفرنسي في كبرياء :

- مبعوث من القيادة الفرنسية ·· أريد مقابلة مستشار الامير ··

وتفحص لورنس ماهية القادم ، الذي كان يقدم نفسه باسم الكولونيل « تولا » · قال لورنس :

- وصلتني التعليمات من الجنرال اللنبي منذ ساعة واحدة فقط ··

وأجاب الفرنسي في أنفة :

- يبدو أنني تأخرت في الطريق من بيروت الى هنا ، نظرا لوجود الوحل والاعلام العربية ·· التي يرفعونها على طول الطريق :

قال لورنس متضايقا من لهجة الفرنسي أولا ، ثم من جمع الوحـــل مع الاعلام :

- ان ذلك لا يهم كثيرا ·· فالتنفيذ سيتم في حينه ·

اجاب تولا في شموخ :

- يفضلون أن يتم الامر فورا ، فضلا عن أن تقدم الجيوش العربية نحو الشمال يسبب الكثير من المضايقات ··

وضحك لورنس وهو يرد :

- يجب معالجة الامور في قليل من الحكمة ، لقد وصلتني نسخة من احتجاجكم مع بعض الاوامر الاخرى ، ان حكومتكم تريد أن تنتهز فرصـــة طلب الالمان لعقد الهدنة ، لتنفذ الاتفاقية على الفور ··

وأومأ الفرنسي برأسه موافقا ومضيفا :

- وماذا سيكون موقفكم تجاه تصريحاتكم السابقة ··؟ والتي قلتم فيها للشريف بأن الاتفاقية اصبحت لاغية ··

ورد لورنس وهو يختار الكلمات :

- في الحقيقة نحن لا نعني الغاءهـــا ، بل نعني انهـا لن تسبب مشكلة ·· ان الأوامر تقول : أن العرب سينالون ما يريدون ، وبعدها يكتب بالحبر السري : على أن لا ينالوا شيئا ··

( قال هذه العبارة ليطمئن زميله • وأردف بعدها في خبث ) :
يبدو أنكم لا تقرأون ما بين السطور ••

ورد تولا في حيرة :
ـ يخشى بعضهم أن تفسروها حسب طريقتكم الخاصة •• وعلى كل حال ، وخوفا من أن يحدث تبديل على المعاهدة فاننا مضطرون للنزول الى الشواطىء غدا •

واعترض لورنس في شدة قائلا وهو يرفع يديه :
ـ لا •• بعد أربعة أيام •• هذا ما تحدده الاتفاقية •

وقنع الفرنسي بألا مجال لكسب جديد ، فنهض قائلا :
ـ هل هناك فكرة للمقاومة ••؟ نحن مستعدون للقتال ••
ورد لورنس مخففا من حماقة حليفه :
ـ لا •• لا •• لقد اعددنا كـــل شيء •• واعطينا الامر باخلاء السواحـــل ••

قال تولا وهو يضغط على أسنانه :
ـ وهل ستنفذ هذه الاوامر ••؟
ولا شك في أن سؤاله كان غريبا في هذه المرة • فاضطر لورنس الى اقناعه شارحا :
ـ ان الامير فهم بأن هذه تدابير عسكرية محضة ، لا تؤثر في مصير البلاد •• ولا تعني تقسيمها تقسيما سياسيا • فهو ما يزال يعتقد بأن مصير البلاد سيكون من خصائص مؤتمر الصلح الذي سيلتئم قريبا ••
( ونهض واقفا مودعا الكولونيل الفرنسي الى الباب ) •
ـ ارجو لكم التوفيق يا سيدي ••

ومن الغريب أن يعود الكولونيل « تولا » في اليوم التالي الى دمشق ،

مع عدة « كولونيلات » ليعينوا مبعوثين من القيادة الفرنسية الحليفة ، في سراي الشريف فيصل .

وفي الثامن من تشرين الاول ١٩١٨ احتل الفرنسيون السواحل السورية في ضربة واحدة .. وفوجىء الشعب بالمعنى الحقيقي لمعاهدة « سايكس – بيكو » التي وصلت الى اسماعه عقب الثورة الروسية ، يشوبها الكثير من الغموض ، ويقدم الى من أحس بآلامها ، حقنا من المخدرات والمسكنات ... و ...

وصل الجيش العربي الى حلب ، ووصل في أعقابه فيصل بن الحسين . وكان كما يقول المثل ( من ضرب ضرب ومن هرب هرب .. )

## - ٧ -

وفد الامير فيصل في الحادي عشر من تشرين الثاني على شرفة بلدية حلب ، يتهيأ لالقاء خطابه ، كان الهمس بين الجماهير قد جاوز حدوده ، وكاد ينقلب الى صياح . وأحيانا كانت تصدر من بين الصفوف ، كلمات مستورة ، وغمزات لا تخلو من تجريح . وانتظر الشريف طويلا ، دون أن يستطيع فهم شيء مما يقال ، فصرخ فجأة :

ـ لا شك في أنكم أيها السادة ترومون منا أعمالا مهمة(١) .

ورد أحد الشبان من مكان قريب ولكن في صوت منخفض :

ـ يجب أن لا تشك في ذلك يا صاحب السمو ..

ومضى الامير في خطابه :

ـ ان بعض الناس يشيعون ، ان الاشراف اتفقوا مع الغربيين على بيع البلاد لقاء دريهمات معدودات ، وقد يوجد بين بسطاء العقل من يغرهم هذا الكلام ..

---

١ ـ خطاب القاء الامير في ١١/١١/١٩١٨ ( الحصري يوم ميسلون ) .

وصاح جزار من الخطوط الخلفية :

ـ نحن لسنا بسطاء عقل يا سيدنا ..

وتوقف الامير قليلا ليسمع ما قاله الرجل ، غير أن الصوت ضاع وسط الهياج . ويبدو أن الامير ادرك ان ما قيل يحتاج الى رد ، فأردف في خشوع :

ـ نشأ الدين الاسلامي بقدرة الله تعالى ، ونشر بواسطة محمد صلى الله عليه وسلم ، النبي العظيم الذي تنتسب اليه أسرتنا .. فلا يتصور أناس ينتسبون الى محمد النبي الكريم ، يبيعون أو يخونون ما وضعه جـدهم .

وفي هذه اللحظة سرت بين الجموع نغمة واحدة خشنة طويلة متماوجة :

« اللهم صلي وسلم وبارك على سيد المرسلين وخاتم الانبياء محمد النبي العربي الأمي وعلى .. »

وتلفت الامير حوله عندما سمع نغما نشازا بين الأصوات ، ولكنه ما أن لمح الجند مشرعة سلاحها ، حتى داخله الاطمئنان وتابع ارتجاله للخطاب :

ـ نحن لم نقم الا لنصرة الحق واغاثة المظلوم . فاتفقنا مع الحلفاء بعد الاتكال على الله عز وجل ، لعلمنا انهم ينصرون الضعيف ويساعدون على اعادة حقوق الامم المحكومة . فباسم العرب حالف والدي الحكومات الغربية وقام معها ضد المانيا وتركيا كتفا لكتف .. لا كما زعم البعض أن قيامنا كان نتيجة لمطامع شخصية .

كانت الدهشة تعقد الالسن ، وتفغر الافواه ، لدرجة أن ساد الناس وجوم رهيب ، جعل الألسنة تلتصق بسقوف الحلوق . واغتنم الامير هذه الفرصة ، ليكمل خطابه :

ـ وانا باسم جميع العرب أخبر أخواني أهالي الشهباء بأن للحكومات الغربية وخصوصا انكلترا وفرنسا ، اليـد البيضاء في مساعدتنا وشـد ازرنا . ولا ينسى العرب ـ ما دامت موجودة على وجه البسيطة ـ فضل معاونتهم واخلاصهم ..

وتغلب أحد الشباب على عقدة لسانه ـ وكان محصورا بين شيخين ملتحيين ـ ، لأنه صاح في صوت محشرج :

ـ ان فرنسا احتلت غرب البلاد والانكليز احتلوا شرقها وأنت ..

وغاب صوت الشـاب بين الضجيج الهائل المتلاطم كالموج الهـادر . فغامت عينا الامير ، ومد يده الى داخل عباءته في حين تهيـأ الجند لاطـلاق النار . وخرجت يد الامير تحمل ورقة مطوية لوح بها في الهواء وهو يصرخ :

ـ سأتلو عليكم برقية وردت لي منذ ثلاثة أيام ، تبين لكم احساسات الدول الغربية نحوكم . وليفهم جميع المواطنين أننا لن نبيع البلاد ولم نبعها.

ثم راح « يقرأ البرقية التاريخية » :

ـ ان السبب الذي من أجله حاربت فرنسا وانكلترا انما هو لتحرير الشعوب .. واقامة حكومات وطنية ، ولقد أجمعت الدولتان على أن تؤيـد اقامة ادارات وطنية في سورية والعراق وفي الاراضـي التي ما زالوايجاهدون في تحريرها .. وليس من غرض لفرنسا وانكلترا أن تنزلا أهالي هذه المناطق تحت ارادتها ، بل أن تضمنا لهم عدلا ورقيا وعلما وحضارة .. وان تضعا حدا للخلاف القديم الذي قضت به السياسة التركية .

وطوى الامير الورقة وقال وهو يعيدها في عناية فائقة الى تحت عباءته :

ـ ان هذه البرقية من المستندات التاريخية العظيمة . وأنها تنبىء عن شعور عال واحساسات انسانية نبيلة ، لايقوم العرب بأداءواجب الشكر عليها الا بتحقيق أماني هذه الدول ..

كانت تعتمل في صدور الناس أحاسيس غريبة الكنه ، رهيبة التفاعل

لا يمكن تحديدها أو تفسيرها · احاسيس جـديدة لم تظهر خـلال ستة قرون · فقد ظلوا طوال سنتين وربع السنة من سني الحرب ينتظرون – وهم يجرون بنفوسهم وخيالهم جريا صعبا مضنيا – ينتظرون وصول الشريف · وما هو ذا الشريف ·· ماذا يقول ؟ وهل حقا ما يقول ؟ وهل يعتقد بما يقول··؟الفرنسيون الانكليز هل هم حلفاؤنا وأصدقاؤنا ·· برغم ما يفعلون؟

وفسر الامير صمت الشعب تفسيرا تفاؤليا لانه أردف :

– ان السواد الاعظم من هذا الشعب لا يفقه معنى الوطنية أو الحريـة أو الاستقلال ، حتى ولا ذرة من هذه الامور · ولذا يجب علينا ان نفهم الناس معنى ومغزى هذه الاشياء ، وأن نسعى – ان كنا ابناء اجدادنا – لنشر لواء المعرفة بينهم ·· لان الامم لا تعيش الا بالعلم والنظام وبهذا تتحقق آمـال حلفائنا ··

كانت الجماهير ، من نساء محجبات وسافرات ، ورجال بأحذية واطئة حمراء ، وأطفال بيض الوجوه عراة الرؤوس يحملقـون عيونهم ويطرفون أجفانهم ويتنفسون من أفواههم ، يصيخون السمع ، يلاحقون الكلمات ، يشرئبون باعناقهم ، يحبسون أنفاسهم مدة طويلة ثم يطلقونها في تنهد · وهم بين مصدق ومكذب ، مؤمن ومرتاب ، جاهل وواع ، أمي ومتعلم ، واجمالا ·· كانت أعصاب الجميع تخوض اختبارا قاسيا · ومضى الامير يرتجل خطابه :

– أنا عربي ،وقد أوفيت واجبي الحربي · كما أوفى والدي واجبه السياسي ، لانه تحالف مع أمم متمدنة أوفت بوعودها وعهودها ولا تزال تساعدنا على تشكيل حكومة منتظمة · وانا ومن معي سنكون سيفا مسلولا بايديكم وأيدي كل العرب تضربون به من تريدون · وانني اكرر ما قلته في كل مواقفي · واقسم لكم بشرفي وشرف عائلتي وبكل مقدس ومحترم عندي ،

بأنه لن تأخذني في الحق لومة لائم • وان الانسان يخطيء فاذا اخطأت سامحوني ••

وهنا توقف الامير عن خطابه• لمح شابا يرفع يده ويتقدم ناحية الشرفة وهو يزاحم الصفوف ، تلاحقه انظار الناس ورؤوس الحراب • واوعز الشريف الى رجال حاشيته ، الذين كانوا يحيطون به في دائرة داخلية ، والى حرسه في دائرتهم الخارجية ، اوعز اليهم بالسماح الى الرجل في ان يقول ما يريد ، بعد ان تهيأ الجميع الى الاتيان بعمل دفاعي • وما ان وصل الشاب الى الشرفة حتى صرخ من الاسفل وسط الهدوء المستطير :

– يا سيدنا الامير •• اليس خطأ أن تسمح للفرنسيين باحتلال سواحلنا ••؟

كان الرجل في حوالي الخامسة والثلاثين من العمر ، أسمر البشرة ، مما يدل على أنه من خارج المدينة ، وأكد ذلك لهجته المطعمة بين اللهجة الديرية « مدينة دير الزور » ولهجات أخرى ، تطل من عينيه السوداوين نظرة بائسة ، وكأنهما تشربتا بالحزن • وسأل الرجل سؤاله ، ثم ابتعد على الفور ، اما ليريح رجال الحراب من مهمة مراقبته ، أو أنه اراد « تأمين الاجابة » •

ورد الامير في لهجة تستند الى القناعة الكاملة :

–لقد اكد لي السير « ماكماهون » بنفسه ومن ثم الجنرال « اللنبي » بأن اتفاقية « سايكس بيكو » لا يمكن ان تنفذ بأي صورة من الصور ، وأما ما حدث في السواحل ، فليس غير تدبير عسكري موقت • وعلى كل فليس الفرنسيون غرباء عنا • الم نحارب معهم جنبا الى جنب ، وفي سبيل القضاء على عدوتنا المشتركة تركيا •؟

وساد على الاثر هرج شديد بين الصفوف ، عندما لوح الرجل بيديه

ساخطا وكأنه يقول ( هراء في هراء ) وقد هم بعض الحرس بضربه · الا أن صوت الامير الذي عاد الى استئناف خطابه ، جمد الوضع على حاله :

ـ أرجو من اخواني أهل البلاد أن ينظروا الى الحكومة العسكرية الحالية نظرة الولد البار الى الوالد الشفوق ، ويساعدوها جهد طاقتهم · وان الدرك والشرطة هم قوام البلاد · لذلك أطلب من الجميع، وخصوصا الشباب، أن ينتظموا بها · ان الشرطة وظيفة شريفة عالية وهي تحفظ الامن والنظام ·

وأضاء وجه الشريف وهو يهم بالاستطراد ، وكأنه يريد أن يرضي الناس بنبأ سار :

ـ ان العرب هم امم وشعوب ـ مختلفة باختلاف الاقاليم · فالحلبي ليس كالحجازي ، والشامي ليس كاليماني · ولذا قرر والدي ان يجعل البلاد مناطق يطبق عليها قوانين خاصة بنسبة أطوار واحوال أهلها · انني أطلب من اخواني أن يعتبروني كخادم للبلاد لانهم أعطوني البيعة بمنتهى الاخلاص والرضى · واقابلها انا بالقسم العظيم ، بأنني لا افتر عن نصرة الحق و ··

وفي تلك اللحظة تقدم احد الرسل من سموه وسلمه كتابا مختوما وهمس بأذنه شيئا ، جعله يسرع انهاء خطابه ·

ـ نسأل الله تعالى ان يوفقنا الى خدمة البلاد ونفع العباد · ويمتع الامة بالحياة الرغيدة والسلام ··

وأفاقت الجماهير على تحية الامير فكان الرد الاول الذي طغى وسيطر على كل رد فعل آخر ، هو التصفيق الشديد والهتاف بحياة الشريف منقذ البلاد والعباد ·

وفي الاعماق كانت البلبلة لا حد لها ، وكانت تعبر عنها اسئلة كثيرة : ماهي الوطنية؟ ما هو الاستقلال ؟ ماهي الحرية؟ هل العرب امم وشعوب··؟ هل الفرنسيون يداعبوننا مجرد مداعبة بهذا الاحتلال العسكري ؟

وبدأ المنطق يتحرك • وهنا راحت تومض في العقول نار زرقاء القبس• ولدها احتكاك المنطق مع الاوهام • كان الصراع يدور على الشكل التالي : اما ان الامير يقول الحقيقة ، فنحن اذن لا نفقه شيئا • أو أنه يقول ما يعتقده فهو مضلل • أما أنه يكذب ••؟ وهنا يتوقف الصراع على شكل عقدة جبارة لا يمكن حلها •

وتفرق الناس توجههم حيرتهم وبلبلتهم • وانتشر الخطاب في طول البلاد وعرضها ، فاستقبله بمثل ما استقبل به في حلب ، دون أن يجسر على تفسيره الا من أوتي حظا كبيراً من الشجاعة الخلقية ، والتجربة وبعد النظر ومما زاد الامر سوءا ، هو دعايات الفرنسيين ، التي راحوا يذيعونها بين الناس ، بواسطة الصحف والمستخدمين• كانت الدعايات تقول أن جيش الثورة ماهو الا جماعة من البدو والحجازيين ، الذين جاءوا ليعيدوا الامور الى ما كانت عليه منذ مئات السنين • ثم ليذلوا المسيحيين ويفرضوا عليهم ضريبة الصلاة •

وكانت أوامر القيادة البريطانية قد نفذت فعلا ، وسمي الجيش العربي بالجيش الشريفي ، وظل معتبرا جزءا من جيوش اللنبي مع قائده الشريف فيصل ، وبالفعل فقد كانت رواتب الجيش تصرف لهم بالجنيهات المصرية ، وتوزع على أفراده الاستحقاقات التي ينالها الاسترالي ، الذي ظل يعتقد أنه مع الجندي العربي يحتلان بلاد « واق الواق » •

وفي الثاني والعشرين من تشرين الثاني سافر الامير فيصل الى باريس لحضور مؤتمر الصلح ، تنفيذا لكتاب والده الذي ورده قبل انتهاء الخطاب •

●

## - ٨ -

كان محمد قاديش أصغر ولدين لفلاح شاب منقرية صغيرة قرب بلدة دوما في ضواحي دمشق . وقد اشتهر هذا الفلاح في محيطه ، بأنه رجل مشاكس عنيد طويل اليد ـ كما يقولون ـ . وعندما استدعي الى الخدمة العسكرية الاولى ، ترك زوجة لم تأسف كثيرا لذهابه ، وطفلين احدهما في العاشرة والآخر في شهوره الاولى . ويبدو أن الرجل لم يستطع الافادة من خصائصه . أو أنه أساء استعمالها ؛ فاعتبر جنديا خطيرا وقذف به في حدود روسيا . وقد ضوعفت مدة خدمته مرات عديدة ، قضى معظمها في السجون . وعندما تفقده الاهل والاصحاب ورفاق الخدمة ، أشيع بأنه قتل . وادعى آخرون بأنهم شاهدوا جثته تنشل من البحر الاسود . بل ان احدهم أعلن ـ وفي ايجاز ـ عن أنه قرأ وصية له تركها في أحد سجون استنبول تقضي بتوزيع تركته من الارض على بعض الناس ، دون أن يذكر

بينهم زوجته وولديه • وقد اكد هذه الوصية عدم ورود أية رسالة أو خبر ينبىء عن وجود الرجل على قيد الحياة • من أجل هذا ، شرعت الزوجة – قبل تنفيذ هذه الوصية الملعونة – بتدبير شؤون مستقبلها • نصادقت أحد شبان القرية ذوي السطوة والباس ، وهمست بأذنه ، بأنها ستكون له هي والارض فيما اذا تمكن من احباط هذا المشروع • وبدات أولى خطوات برنامجها ، بأن راحت تعاشره سرا ، الى أن ينجلي الامر ويعلنا زواجهما رسميا • ومع مرور الايام ، بيعت الارض ، وزوج الابن الاكبر قاسم ، ورحل بزوجته الى الجنوب • بينما وضع الرجل الجديد يده على المرأة والقسم الاكبر من المال ، دفع منه بدل الخدمة العسكرية مرتين ، ليبقى الى جانب المرأة التي قدمت له كل شيء •

وحدث بعد عشرة أعوام ، أن أهلّ الى القرية رجل غريب ، لم يتعرف عليه أحد من السكان • حتى أنّ شيوخها أنكروه انكارا تاما • وأعلن هذا الرجل عن نفسه بأنه هو قاديش • ولم يفلح أحد من الناس ، حتى ولا العروسان ، بثنيه عن هذا الادعـاء ، وذلك لسبب بسيط جدا ، وهـو أن الرجل لم يكن غير قاديش ذاته ، الفلاح المشاكس العنيد ، والزوج صاحب الارض ووالد الطفلين • ولم يستطع المسكين أن يخترع لنفسه هوية أخرى ، فظل ينادي نفسه باسمه السابق ، فضلا عن أنه لا يحمل ورقة واحدة تدل على هويته •

وقد تمكّن الاتراك من تقليم أظافره ، واجتثاث أسنانه ، وتبديل معالمه كلها • والأكثر من هذا ، أنهم توصلوا الى صدره فاخمدوا فيه كل قبس ، وحولوه الى قلب عجوز •

وبعد الكثير من الجدل والمشاورات ، رؤي الرضوخ لبعض الامر الواقع ، وقبول الرجل في داره كلاجىء غريب ، لا يمتّ الى أهل الدار بصلة

من الصلات · ونفذ الحكم في سهولة ويسر ، وساعد على ذلك حالة الرجل التي كانت تدعو الى الرثاء ·

وكان من الطبيعي أن تتوطد بين الابن والأب ، علاقة غامضة المعالم ، تحتاج الى أضواء ساطعة ليمكن الاطلاع على جوانبها المنحنية وزواياها الميتة · وفي ذلك الحين كان محمد في حوالي العاشرة من عمره · يعيش غريبا متوحدا بين أم وزوج أم · وقد فهم منذ بدأ يدرك ، ومن خلال مشاكل القرية وأحاديث أهلها ، أن أباه ذهب الى الحرب ومات هناك · وعلى هذا ، فقد عاش أعوامه معتقداً بأنه يتيم ، دون أن يأسف أو يحزن ، أو حتى لو كان يعرف والده · فها هو ذا يعرف أمه ، وهذه المعرفة ، لم تقدم أو تؤخر قيد انملة من اعتباره ، لان وجود هذه الام ، تماما كان كفقدان الأب ، لا يفعل شيئا ··

اتخذ الطفل في البداية من زوج أمه أبا له ، أسوة بالاطفال الآخرين الذين لهم آباء ، وصار يناديه ياباه · الا أن هذا النداء ، لم يكن ليرجع الى نفسه الصدى الذي كان يتوقعه · وكبر قليلا فعلم السبب ، وهو أن هذا الرجل ليس أباه الحقيقي ، فهز كتفيه دون اكتراث · وقال في نفسه : ما الفرق اذن ··؟ » الا أن قاديش الأب ، وقد رجع فاقدا كل شيء ، فقد ظلت زاوية في رأسه قادرة على العمل ، وهي التفكير · تنسم في نظرة واحدة ، أن هذا الطفل ، قد أفلح في أن يكون لنفسه تعريفاً للحياة · وأنه ما أن يشتد عوده ، حتى يقف كالطود معلنا عن وجوده · من أجل هذا راح يلاحمه ويلتصق به ، ويدخل في قلبه ، بادئا من أبسط العوامل · أراد أن يستفيد من وضعية الصبي العائلية ، ومن نزعته التي كانت تميل الى الانطواء وعدم الثقة ، برغم معرفته بأن استثمار هذه الخصائص يحتاج الى جهود مضاعفة ·

بدأ الرجل يحدث ابنه عن الجندية والاتراك والزملاء والاسفار ،

ويحكي لـه عن البلاد التي مر بها والوجوه التي رآها ، والمشاكل التى وقع فيها ، وكيف كان يتخلص منها أو لا يتخلص • ولا شك في أنّ جعبته كانت زاخرة مليئة لا تنضب • وراح الصبي يفتح أذنيه وفمه ، ثم أخذ يرعش جفنيه في حركات ذات دلالة • أحس احساسا غامضا بأنه بـدأ يحب هذا الرجل الغريب ، وتمنى أن يكون له أب مثله • لا هو بالذات ، لأنه أصبح يعرف بأن هذا الرجل كاذب في ادّعاء يدعيه لسبب يخرج عن نطاق ادراكه • وكان الطفل يسأل :

ـ وهل من الضروري أن يكون لي أب ••؟

ويرد قاديش في ذكاء وهو يحبس أنفاسه :

ـ الاب حقيقة موجودة يا محمد • ليس ضرورة فقط بل هو موجود فعـلا ••

ويقول الصبي في عصبية :

ـ ولكنني أنا بلا أب ••

ويرد قاديش وهو يمسك الخيط بجوارحه ، خوفـا من أن يضيع وسط الشلة :

ـ ليس في هذه القرية أي طفل بلا أب يا محمد • واذا غاب والد أحد الاطفال ، فانه سيعود ولو بعد مدة من الزمن •

ويسأل الصبي :

ـ وأنا ••؟ هل سيعود أبي ••؟

ويرد قاديش في نبرة تدخل القناعة الى رأس الصبي :

ـ أبوك سيعود حتما في يوم من الايام يا محمد • ولكن قل لي أولا ، كيف تتصور أباك ••؟ مثلا لو عاد الآن فهل تعرفه ؟

ويغمض الصبي عينيه ثم يشير بأصابعه ويتكلم :

ـ أتصوّر أبي هكذا •• رجلا قويـاً طويلا يحمـل بارودة ويحكي

القصص الجميلة · وعندما يعود يمسك أمي من شعرها ثم يضربها على رأسها حتى تسقط بين رجليه ·· ثم ·· ثم يأخذ البارودة ويطلق الرصاص على هذا الرجل الحرامي الذي يكذب ويقول أنه زوجها ··

ويسأل قاديش في لهفة :

ـ وأنا ··؟ ماذا تحب أن يفعل بي ··؟

ويرد الصبي :

ـ أنت ··؟ « ويتأمل ملامح أبيه في فتور » أنت رجل طيب·· عندمايعود والدي سأجعله يعطيك ما تريد · ولكن أخـــاف أن تكون كاذبـا كالمرة السابقة ، فلا يعود أبي من الحرب كما تقول لي ··

ويبدأ الرجل باعادة الشرح :

ـ انك تعرف بأن اسم أبيك صالح قاديش أليس كذلك ··؟ فاذا جاء رجل يحمل هذا الاسم فهل ترمي نفسك على عنقه وتقول له يا باه ··؟

ويرد الصبي بالايجاب ، وقد بدأ يتحمس للقضية التي كان يعتبرها قدرا مقدرا · وعلى هذا عكف صالح قاديش على اعداد المسرحية · وطلب الى أم الطفل ، أن تدخله الى مكتب القرية لكي يتعلم القراءة والكتابة ·

استطاع صالح قاديش أن يبرهن لزوجته بأنه هو زوجها · وأفهمها أنه اطلع على حقيقة العوامل التي جعلتها تنفي وجوده · كما أسر اليها بأنه لم يبق بمقدوره أن يفعل شيئا · فالارض بيعت وطار ثمنها ، وان زواجها من رجل آخر ، لم يبق برأيه مشكلة · ولكنه يريد فقط الاحتفاظ بولده الصغير ، لا كأب ، بل كصديق على الاقل · وكان استسلام الرجل على هذه الصورة ، يعطي دلالة واضحة ، عما قاساه في غيابه · ولم يحتدم في صدر الأم أي صراع ، حتى بعد أن أيقنت بصدق أقواله · ولكنها نفذت رغبته ، وعهدت بابنها الى شيخ يفتح كتابا في القرية لتعليم الصبيان ·

واقترب الوقت الذي كان قاديش يهيء فيه نفسه ، لرفع الستار عن حقيقته أمام ولده ، وراح يجند خياله وافكاره لخدمة ذلك الموقف • • فقد مضت سنوات على عودته وأصبح محمد في الخامسة عشرة من عمره ، فتى خشن العود ، قوي المراس ، لا ينقصه الذكاء ولا يفتقر الى الموهبة ، وراح الأب يراقب انضمام الشفتين ، وانعقاد الحاجبين • ونظرة الاصرار والغنى المنبعثة من العينين العسليتين ، وعكف على استقرائه واستكتابه – بالرغم من أنه أمي – مراقبا في اعجاب تصرفات ولده وأعماله ، كان الفتى يشتم الاتراك في طيش ورعونة ، ويعزو اليهم جميع ما حل بالقرية من مصائب ، من موت الدجاجات الى انحباس المطر • وراح يعلن ، دون مواربة أو حذر ، أن الاتراك يحتفظون بأبيه هناك عندهم ، لانهم يخشون بأسه • وأن أباه سيعود قريبا ليحكم القرية ، وسيذبح الترك والباشا وكل الجنود • وكان الأب على ضوء هذه التصريحات ، يرسم الطريقة التي سيعود بها الى القرية ، بعد أن يغيب مدة قصيرة ، يحصل خلالها على أدلة الاثبات التي تقنع ولده بالدرجة الاولى •

وفي النهاية قدر لصالح قاديش أن يظل انسانا مجهولا ميتا ضائعا منذ أمد بعيد • اذ ما كاد يصل الى دمشق ليدبر وثيقة وجوده ، حتى اختطف من الطريق ليساق الى الحرب • وعندما حاول الهرب ، كشفت هويته الحقيقية • فطلب الى ضابط تركي أن يذهب به الى القرية ليشهد أمام الناس بأنه يحمل اسم صالح قاديش ، وبعدها يكون مستعداً لأن يقدم عنقه للذبح بيد الضابط نفسه وعلى مرأى من كل الناس • الا أن ضابط التجنيد – وبالرغم من اقتناعه بصدق هذا العرض – زهد بالعملية كلها ، وساق الرجل بالقطار ، بعد أن علّق على صدره لائحة نحاسية تحمل كلمة معناها « انتبه جندي فراري » واقتيد المسكين الى « الى العقبة » ، حيث قتل برصاص الجيش العربي الزاحف ••

وبقي محمد قاديش ينتظر عودة أبيه ، أو عودة الرجل الغريب ، حتى خلال عمله كحمال في محطة الحجاز ، حيث اجتمع بالرجل الذي حمل له حقائبه . وقد سأل مخدومه هذا في احدى المرات ، عما اذا كان قد اجتمع هناك في تركيا بجندي يحمل اسم صالح قاديش .؟ فضحك الصافي وأجاب في بساطة :

ـ وكيف يتسنى لي أن أجتمع في بلاد الله الواسعة بجندي يحمل هذا الاسم ..؟

## - ٩ -

كان لا بد أن يلتقيا . ولم يكن لقاؤهما في هذه المرة مصادفة هوجاء . اذ عادت الى الصيدلية لتشتري دواء جديدا . ولا بد أنها وقفت أمام المرآة طويلا قبل أن تخرج . كانت قد لمت شعرها وسرحته في عناية . وربطته من الخلف بخيط قماش أسود . وصبغت شفتيها بحمرة أرجوانية خفيفة ، ولم تنس وجنتيها أيضا . وارتدت ثوبا آخر لا يمكن أن يعتبر جديداً ، ولكن يبدو أنه ادّخر لبعض المناسبات . أما الحذاء فكان هو نفسه الحذاء الاول ، الذي لا يمكن ـ كما يظهر ـ ابداله أو اصلاحه ، وأكبر الظن في أنه كان وحيدا ، واعتاد على القدمين اللتين تسكنانه ، واتخذ شكلهما من جميع الزوايا والاطراف . كانت القدمان صغيرتين نظيفتين ، الاّ أنهما ظلتا تحملان آثار الكد والجهد والتعب . ولعل المرأة نسيت ، أو فشلت في اصلاح وضع ثدييها ، لأنهما ما برحا على استرخائهما الاول ، وبالرغم

من أنها ، كما يظهر ، بذلت الكثير من العناية في سبيل تليين كفيها ، ودعك بشرتهما ، الا أنهما ظلا كقدميها ، يشكوان سوء الحال · قال محمد وهو يقرأ الوصفة :

ـ هذا دواء جديد ··

وردت المرأة دون أن تنسى عدم اعارتها اهتمامه الاول :

ـ أخذته الى طبيب آخر ··

وتأمل الشاب أنفها الادلف ، ثم انتقل الى شفتها الهدلاء ، فخيل اليه أن وجنتيها ازدادتا احمرارا · في حين اشتركت عيناها الوطفا وان في خلق شبح ابتسامة طيبة · قالت له في تردد خال من دلال :

ـ يبدو أنك نسيتني ··

فاجابها في براءة تكاد أن تكون مصطنعة :

ـ كيف ··؟ أنت نفسك شبيهة تلك المرأة ··؟ بل أنت الآن كأنك هي بالذات ··

وغضت المرأة من طرفها سائلة :

ـ ولماذا تسالني كثيرا ··؟ اعني ·· ماذا يخيل اليك ·؟

ورد محمد جاهلا بغيتها من السؤال :

ـ اذا كان لا يسوؤك ذلك ، التقينـا عندما كنا في استقبال الـ ··؟

وتذكر فجأة ، ليقطع اجابته ويطرح عليها هذا السؤال :

ـ أريد أن أعرف ·· ما رأيك أنت بهذه الافراح القائمة في البلد ·؟

وظنت المرأة انه يعابثها ، أو أنه يخفي عنها سرا يتهرب من البوح بـه · ولذا أجابت في جفاء مصطنع :

ـ لماذا ··؟ وماذا يهمك رأيي ··؟

والتقت عيناها بعينيه · فتشابكت خيوط من المعاني تجاوزت حدود العيون · أحس محمد بأن المرأة تبحث عن شيء ضائع ، وأنها مستعدة

لان تبذل حياتها في سبيل الحصول عليه ، بينما لمحت هي في عينيه طفولة لا حدّ لها • عندما اجاب خاصة :

ـ لا شيء •• ظننت انك تشاطرينني الرأي الذي اعلنته بنفسي في السراي منذ أيام ••

وتذكر كلمة لورنس « عدني بألا تبوح لاحد بما فعلت » ولسبب ما وجد نفسه يحترم هذه الرغبة •

قالت المرأة ، وقد بدت أنها تتمنى أن يدور الحديث حول مسالة اخرى :

ـ مهما يكن رأيي يا •• ما اسم حضرتك •؟•

ـ محمد ••

ـ يا محمد •• افندي اريد أن قول لك •• مهما يكن رأيي في هذه الافراح ، فأنا اخشى أن تعزو أحكامي لاسباب دينية • واسمي بهذه المناسبة ماري •• او مريم اذا شئت •

واستطردت المرأة وهي تميل الى جانب لتضع ثقلها على قدم واحدة :

ـ واين تسكن أنت •؟ هنا ••؟ •

أجاب الشاب وقد سره جدا أن يتحدث مع امرأة في شؤون خاصة :

ـ نعم •• أنام هنا أنا ومعلمي ••

وارتجف رشا مريم وهي تقول فيما يشبه المزاح :

ـ قل لي يـ محمد •• هل أعجبتك تلك المرأة التي •• تشبهني ••؟

أجاب الشاب وهو يعيد النظر في تفحص الوصفة :

ـ أعجبتني ••؟ لا •• ولكنها أثرت في نفسي •• اقصد أن فاجعتها كانت اليمة ••

ـ آه تذكرت •• تقصد تلك المرأة التي سحقت ابنها حوافر الخيل ، أليس كذلك ••

ـ بالضبط ·· بالضبط هل رأيتها ··؟ أرأيت الموقف ·؟

ـ لا ·· ولكني سمعت الجيران يتحدثون بـه ··

قال محمد في لهفة وكأنه عثر على كنز :

ـ وما هو الاثر الذي ·· أو ما هي اللهجةالتي كانوا يتحدثون بها ··؟

اجابت مريم في غصة :

ـ والله كان بعضهم يعطف عليها ·· وكان بعضهم ينحي باللائمة على الجند ·· غير أني استنتجت أن المرأة جنئت ، وراحت تصرخ وتعول ··

وسأل محمد في استفزاز :

ـ وهل عرف النـاس بأن الطفل ذهب طعما لمسامير خيل الانكليز والاستراليين ، الذين يخطفون النساء وينهبون الخزائن ··؟

كان محمد يتحدث في عصبية وغضب ، وفي نبرة هيجت تقاطيع وجهه الامرد ، واكسبته عنادا ونزقا ··

قالت مريم ضاحكة :

ـ أنت عصبي كثيرا يـا محمد ·· فماذا أفعل أنـا وعندي طفـل مريض ويتيم ··

ـ يتيم ··؟

صرخ الشاب بهذه الكلمة ، وكأنه فوجيء بأمر جلل · وهزت المرأة راسها في أسى بالغ · متحاشية نظراته التي أخذت تعبر عن الحزن · ولكنها بدت كمن لا يريد أن يكسب شفقة أحد · ولعلها كانت تطمع بما هو أثمن · من أجل هذا تماسكت على الفور وطلبت اليه تجهيز الدواء ·

قال محمد ساخطا :

ـ ما أجهل هؤلاء الاطباء ·· وصفوا لك في البداية سائل الدروزيرا مع البلاسم ، والآن يصفون جاوات الصودا والبوليكا وكل هذه الادوية لا تفيد كثيرا · انهم يجرون على الاطفال تجاربهم ليس الا ، دون أن يكلفوا

أنفسهم عناء تشخيص العلة الحقيقية · فما هو عمر الطفل ··؟

وردت مريم في حزن ظاهر ، شمل ملامحها وصوتها :

ـ قلت لك في المرة السابقة أربع سنوات ··

ورفع الشاب رأسه مفكرا وهو يسائل نفسه : « كيف تحفظ تفاصيل الكلام الذي يجري منذ أكثر من خمسة أيام ··؟ » في حين أضافت مريم :

ـ انه يمزق قلبي بسعاله · وقد أصبح لنا ـ انا وجدته ـ كل الحياة بعد أن توفي أبوه ·

ومن سوء الحظ أن تعابير الحزن لم تكن لتلائم تقاطيع وجه المرأة · اذ ارتفعت شفتها السفلى الى الاعلى وكأنها تهم بالبكاء · وجعلها هذا التغيير ، تفقد الكثير من طبيعتها العفوية · كان الشاب منهمكا في تحضير الدواء ، بينما راحت مريم تتملى قسماته التي لم تتجعد بعد · يتملكها العجب من أنه لا يفكر على مستوى سنه الحقيقي · وكادت تسأله عن عمره ، الا أنه سبقها بالسؤال :

ـ ومتى توفي زوجك ··؟

وردت المرأة محاولة أن تكسب صوتها نبرة صامدة :

ـ منذ سنة ··

ـ وكيف ··؟ أعني من أية علة ··؟

قالت مريم وقد خسر صوتها كل اتزانه :

ـ مات بحادث ·· كان يشتغل أجيرا في معصرة العنب و ·· قتل قتلا ·· لم أره ·· جيء لنا بملابسه ·· صرة خروق ممزقة ·· دامية ·· فقد حتى آثاره ·· عصرا عصرا ·· سقط بين ال ··

وبالرغم من أن نبرات صوتها أخذت تتلاشى ، وكان يبين أنها تحبس دموعها ، الا أنها تابعت :

ـ كان كل شيء في حياتنا ·· كان حياتنا · كان يطعمنا على الاقل ··

راح ٠٠ اصبحنا وحيدين أنا والطفل وأمه ٠٠

كان جليا أن المرأة كابدت كثيرا لتمنع نفسها من البكاء ٠ ولكنها انفجرت في النهاية ، وراحت تصرخ خلال شهيقها :

– من أنت ٠؟ من أنت حتى أقول لك كل هذا ٠٠؟ لماذا تسألني ٠٠؟ ما دخلك بحياتي ٠٠؟

وقبل أن يصحو محمد من ذهوله ، أو أن يرد بكلمة واحدة ، كانت المرأة قد استدارت وولت الادبار ، تاركة الدواء والوصفة وشابا مسمرا من الدهشة ، تضج في اعماقه انفعالات غريبة ٠

وفي اليوم التالي ، دخلت الى الدكان عجوز يابسة ٠ استحال شعر رأسها الى ما يشبه ليف جوز الهند ، أما ثوبها – ويظن بأنها ترتديه على اللحم رغم برودة الجو – فكان يحتاج في معاملته الى الرفق الشديد ، لأن أصغر خرق جديد فيه ، يستحيل رقعه ، وذلك من فرط البلى والقدم ٠ وأطلت العجوز بعينيها الضيقتين اللتين أصبحتا تحملان آخر شعلة جسدها الخرع ، وطلبت من الشاب – باللغة التركية – أن يعطيها الدواء الذي نسيته كنتها بالامس ٠ وسألها محمد :

– وكيف حال الطفل ٠؟

فردت العجوز على السؤال بنوبة من السعال ، جعلت الشاب يفكر الوقت كله : « هل سعلت ردا على سؤاله أم كان سعالها طبيعيا ٠٠؟ »

تركت حادثة الامس في نفس قاديش أثرا شديدا غريبا في نوعه ٠ أمضه كثيرا ، ان يكون سببا في احياء آلام المرأة وفتق جروحها ٠ كان قد خمن منذ البداية ، من أول نظرة ، ان لها قصة ٠٠ وقصة محزنة ٠ أو لربما أعمق من الحزن ٠ لم تخف عليه هيئتها العامة ، ولا خطوط الاسى التي تصبغ جبينها وزوايا فمها وعينيها ، ولا بحة صوتها العميق ذي النبرة

المسحوقة ، ولحظات عينيها اللتين سرق نورهما عدو ظالم شرير • لقد ألمّ بكل هذا من أول لقاء ، وعرف بأنها احدى الكثيرات من نساء المدينة اللواتي يعشن من قلة الموت ( كما يقول المثل ) •• ولكن لم يخطر له أبدا أن يطلع على القصة بالشكل الذي كان ، وان يحدث ذلك الموقف الكالح والفراق الكئيب • وخشي أن يكون قد سبب للمرأة أحزانا جديدة اذ جعلها تكشف له أمرا لربما كان سرا من أسرار نفسها ، أو ذكرى لا تحب أن تنفض عنها التراب • كما ساءه أن يكون قد اخطأ في ناحية ما ، وهذه أول امرأة في حياته الحدثة تتبسط معه بالحديث • وراحت تتنازعه أفكار شتى ، وهواجس متباينة متفاوتة عجيبة ، تتصادم بعضها مع بعض دون كلل أو ملل ••

كانت هذه المشاعر جديدة فتية ، دخلت حياته فجأة بكل قوتها وعنفوانها • لم يجرب في غضون سنيه التسع عشرة ، أو أعوامه الاربعة — اذا أريد الدقة — ، لم يجرب خلال هذه الاعوام القصيرة أو الطويلة موقفا مثل هذا الموقف ، حتى ولم يكن يخطر له على بال • كان يسائل نفسه كل مرة ، كل دقيقة ، بل كل لحظة : ( ترى ماذا فعلت ؟ من هي هذه المرأة ؟ لماذا بكت ؟ هل أسات اليها ؟ ولماذا حدثتني عن حكايتها ؟ ) كان يتذكر شكلها ، عينيها ، أنفها ، شفتها ، عرق رقبتها ، ثدييها ، ثيابها •• ثم يعود فيتصورها جملة •• من هي ؟ لماذا صرخت في وجهي واعطتني اسمها ، وسالتني عن اسمي ؟ قالت لي أنها تسكن قريبة من هنا ، وأنها تمرّ كثيرا من أمام الدكان ، والادهى من ذلك اعترفت بأنها مسيحية ، مع ما تعرفه من التعصب الديني •• ولم ينم محمد قاديش طوال الايام التالية ••

وراحت تأكله الوساوس : لقد برهنت على أنها امرأة أخرى ، غير تلك التي سحق طغاها بين حدوات خيل الاستراليين ، وانتهى الاشكال ، فلماذا عادت وبدلت شكلها ؟ كان يجب ألا تعود وتحدثني عن قصتها ••

وتصرخ ٠٠ وتهرب ٠٠ لم تشأ ان تحدثني عن رأيها بالاعياد ، بالفرحة القائمة ، بالامير فيصل ، بنوري السعيد ٠٠ باورانس وكيركبرايد وغيرهم ٠٠ بالانكليز ٠٠ بالفرنسيين ٠٠ بهؤلاء المنقذين ٠٠ ولم تكذب علي ٠٠ لم تدجل ولم تصانع ٠٠ لماذا لم تقل أنا سعيدة فرحة ، وتبتسم ابتسامة باهتة وتنصرف ، وينتهي الامر ؟ لقد سألتني عن رأيي ولم تشأ أن تعرفه ٠٠ هل عرفته ؟ كيف عرفته ؟ لا ٠٠ لم تعرفه ٠٠ من أنا ؟ أين أنا ؟ ويستيقظ في انصاف الليالي ويحملق في السقف الواطيء ٠٠

كان وحيدا ٠٠ تركه معلمه منذ نزول الفرنسيين في بيروت ، وسافر الى جهة أو جهات مجهولة ، قال سأعود ، أو لا أعود ٠٠ كن دائما كما يجب أن تكون ، هذه هي صيدليتك ، اشتغل واقرأ وانظر حولك دائما ، ثم انزل الى الشارع وحلل الامور ٠ لا تبصق ، لا تبذل جهدك عبثا ، ادخر حياتك ، ان لحياتك ثمنا ثم يغمض عينيه ، فتعود وتتمثل أمامه من جديد٠ « أنا ٠٠ هل نسيتني ؟ أنا مريم ٠٠ قلت لك مريم ، كي تنسى اني مسيحية ، أنت تكرهني ، أنا أعرف ، نحن مكروهون ٠ لقد علمكم السلطان وجمال باشا أن تكرهونا ، وان تذبحونا ٠٠ أنا لا أكرهكم ٠٠ نحن لانكرهكم ٠٠ بشرنا عيسى بالمحبة ٠٠ حبوا اعداءكم ٠٠ أنا أحبك ٠٠ لا ٠٠ لا أحبك ٠٠ لماذا عذبتني ٠٠ لقد ابكيتني ٠٠ انزلت دموعي ٠٠ زوجي مات ٠٠ لم يأخذ تعويضا ٠٠ قتلته الآلة ٠٠ ترك لي « ميشو » الصغير مريضا ٠٠ وأماً عجوزا ٠٠ كيف اطعمهما ٠٠؟ وأنا صغيرة ٠٠ لا أزال ابنة اثنين وعشرين ٠٠ أريد رجلا ٠٠ لا لا أريد أحدا ٠٠ أريد زوجي فقط ٠٠ زوجي لن يعود ٠٠؟ ولدي سيكبر ٠٠ سيصبح ميشو الكبير ٠٠ أنا أحبه ٠٠ وأنت ٠٠ أنت ٠٠ أين أنت ؟ » ويغلظ صوتها « محمد ٠٠ محمد ٠٠ أين أنت ٠٠؟ » ٠

ويستيقظ على طرق الباب طرقا عنيفا متواصلا :

ـ محمد .. محمد .. أين أنت ..؟

ويهبط من سريره ، ويعثر بالعديد من الاشياء وهو في طريقه الى الخارج ، ويغمغم :

ـ من ؟ من هذا ؟

وتصطك أسنانه من البرد ، ويجيبه الصوت الخشن :

ـ افتح هل انت محمد ؟

وينير محمد قنديلا وينظر في الساعة ، لقد جاوزت منتصف الليل. ويسأل نفسه « من هو الطارق ياترى في مثل هذه الساعة ؟ » ويتقدم من الباب دون احتراس ، ويرفع المزلاج . واستقبل قبل أن يرى أحدا ، ريحا قارسة ، تدفع أمامها رذاذا من المطر . ثم دخل الشبح الليلي دون استئذان ودون أن يفوه بحرف واحد ، اخترق الجزء الامامي من الدكان برداء فضفاض ثقيل . ثم دلف الى الظلام . وسمع محمد وهو ما يزال عند الباب ـ بين النوم واليقظة ـ صوت الرجل يقول له :

ـ اين انت يارجل ؟ ماذا تفعل هناك ؟

واعاد الشاب المزلاج الى وضعية الاغلاق وعاد يحمل القنديل . لمح أول شيء بندقية طويلة وعدة اجندة من الخرطوش نزعها الرجل والقاها جانبا . كان الطارق الليلي يحجب سلاحا تحت معطف من النوع الواقي من المطر ، ويبدو انه حصل عليه من احد ضباط الجيوش المهزومة .أما ملابسه فكانت تتألف من خليط متنافر ، من السترة الافرنجية الى السروال الشعبي ، الى الحذاء المصفح السميك الطويل الساقين ، ويغلف رأسه بشملة بيضاء ثبتها على رأسه بعقال غليظ الخيوط .أما تقاطيع وجهه العارمة فكانت تقول : بأن لا شيء في هذا العالم يوحي بالاطمئنان. قال الرجل وهو ينفض المطر عن ملابسه ويتنهد :

ـ أي وأخيرا ها انذا وصلت · لماذا تختبئون في هذا الوكر العثماني ؟

وتطلع الشاب الذي وقف مبهوتا ، وكانه مازال يعيش في كابوسه وأردف :

ـ ان الاستاذ في اللاذقية يمهد للاجتماع بالشيخ صالح العلي (١)بعد أن اجتمع بنجيب العويد(٢) · هل وصلتك أنباء الثورة ؟ هذا سرير الاستاذ أليس كذلك ؟ أي ·· ولكن هل يوجد ما آكله ؟

وهنا تحرك محمد ، وضع سترته على كتفيه ،وتفقد وعاء موضوعا على أحد الرفوف ، ثم اقترب من موقد البترول يهم بحقنه بالهواء ،وكان يتصرف كالنائم ، واعترض في لهجة غريبة :

ـ لا ·· لاتسخن شيئاً فأنا لم آكل منذ الامس ·· قطعة خبز كافية·· أريد أن أنام على كل حال ·· لدي في الغد أعمال كثيرة ·· هل تعرف بيت الشهبندر ؟ الدكتور عبد الرحمن الشهبندر ؟ (٣)

وهز محمد برأسه ايجابا وأضاف :

ـ سأذهب معك اليه ·

واعترض الرجل في عنف :

ـ لا · ·لن تذهب معي ··حذرني الاستاذ ··انه يعتقد بانك مراقب وسيتعقبون آثارك ··

وتفرس وجه الشاب بنظرات ذات معنى ، من خلال حاجبيه الكثين اللذين طفت شعيراتهما الطويلة على الجزء العلوي من جفونه · كان في حوالي الخامسة والاربعين ، طويل القامة ، تدل خشونة يديه وصوته على أنها اشتركت معا في عمل ما ، قاس ومتعب ·

---

(١) (٢) (٣) بعض قادة الثورة السورية ( ١٩١٩ ـ ١٩٢٦ )

قال الرجل وهو يلتهم حساء مؤلفا من خليط عجيب ، برغل ، بطاطا لبن رائب ، عظام ..

ـ بدا لي ان الاستاذ يثق بك كثيرا ، وان كان يشكو من بعض تصرفاتك أو طيشك ـ كما يظهر لي من فتوتك ..

قال محمد محاولا ان يبرر موقفه :

ـ انني لم افعل أكثر من أنني عبرت عن عواطفي تجاه جيوش الاحتلال ..

غير أنه ندم فورا على تصريحه هذا عندما وجد الضيف ينفجر في ضحكة مزلزلة اهتزت لها ذبالة القنديل الشاحب . قال الرجل الغريب وهو يمسح شفتيه ودموعا ندت عن عينيه الواسعتين :

ـ اننا نحن الفلاحين نضحك كثيرا من هذه النوادر ؟ أم .. قل لي .. هل آذوك .؟

ورد الشاب وقد خاب تبريره :

ـ لا ..

ـ ان هذا اسوأ . لقد عفوا عنك ليسمنوك .. فانت الان لا تسمن ولا تغني من جوع .

ولعق الفلاح الوعاء الكبير الذي اتى على كل محتوياته . ومسح شاربيه الغليظين الاشقرين ببطن كفه . ثم مال الى اليسار محاولا اقحام يده في جيب سرواله ، فطقطقت من تحته اخشاب الصندوق وكأنها تستغيث من سطوته اكثر من ثقله . وأخرج من جيبه علبة قصديرية مستطيلة الشكل ، فتحها باصابعه ذات العقد ، وشرع يصنع لفافة من التبغ . ثم نهض ليشعلها من القنديل الذي استطال لسانه في شراهة ، مستطلعا ماهية هذا الرجل الغامض . في حين ما برح الشاب يراقب تصرفات الزائر الليلي ، الذي

يضحك ، بالقوة نفسها التي تعبر عنها ملامح وجهه القاسية · قال الرجل وهو يستلقي على السرير بحذائه الموحل :

ـ يمكنك ان تستريح ·· هاه ·· ايقظتك في هذه الليلة الباردة ·· لبثت طويلا اطرق الباب ·· كدت ارجع ·· لولا ان سمعت صوتك ··

قال محمد وهو ما زال يتيه من العجب :

ـ انك تنام فوق الغطاء ·· ستبرد ··

ـ لا ·· قد لا انام طويلا ·· فالصباح في سبيله الى الظهور ·· يجب أن انهي غدا مسألة السلاح ·· وجمد محمد عند القنديل وكان يهم باخماد شعلته وسأل في دهشة :

ـ سلاح ؟ ستذهب الى الدكتور من أجل السلاح ؟

ورد الثائر وهو يمص لفافته في استرخاء :

ـ الدكتور ·؟ لربما ·· كما نحتاج اليه هناك ·· عندنا كثير من الجرحى ·· لا ادري كيف سيكون موقف الحكومة من مسألة السلاح · رجع الرسول السابق صفر اليدين·ان التعامل مع الحكومة يسبب مشكلة معقدة· مئات الاسئلة والضمانات والتحقيقات · وستفتش عن الطريقة الاجدى والاكثر سهولة ، لعل يوسف العظمة يصدق معنا ·

وانطفأ السراج وعم الظلام ، وبينما كان محمد يتسلق سريره ـ تائها بين الاحلام والحقائق ـ سمع من الاسفل صوتا يقول له :

ـ قد آخذك معي الى حي الميدان بالرغم من تحذير الاستاذ · فانا لا اعرف هناك احدا · نريد سلاحا ولو كان بثمن · كما نريد متطوعين · مالك؟ هل نمت ؟ ورد محمد في لهجة حالمة :

ـ لا · بل انني أفكر · فقد اذهب معك الى الجبال ·· أريد أن أحارب ·· ارجو ان تنقل رغبتي هذه الى الاستاذ و ··

وأراد أن يكمل الاعراب عن رغباته ، لولا ان سمع انفاس الرجل تتردد في انتظام . ومهما كان نوع أحلام الشاب في هـذه المرة ، فقـد استيقظ في الصباح ليجد ان الرجل الليلي قد رحل ، دون ان يترك اثرا ..

خالجت محمد العديد من الخواطر ، والكثير من الاحتمالات ، وكـان ابرزها على الاطلاق ، هو أن الامر لا يعدو ان يكون حلما من الاحـلام ، أو استمراراً لهواجسه السابقة . ولكن هذه البندقية وهذه الخراطيش ، من أين أتت ؟ وهذا باب الدكان موارب دون ايصاد ! ثم عاد وسأل نفسه « لماذا رحل بهذه الطريقة ؟ هل فشل في ايقاظي ؟ هذا مستحيل .. هل هرب ؟ ولماذا يهرب ؟ لعله كان في عجلة من أمره . ولكن هذا مبرر لا يكفي .. وسأل نفسه في توجس : « ترى ماذا يحدث غدا ؟ » .

انطلق قاديش في الصباح الى عيادة الدكتور عبد الرحمن الشهبندر ، فقيل له : انه غير موجود . وبعد ان الح بالسؤال ، عرف بأن فلاحا من جبال اللاذقية رافقه عند طاوع الشمس لزيارة مريض .. فهرع الى حي الميدان ، وكان يعرف شابا اسمه « محمد الاشمر » يكبره بقليل ، فوجده مسافرا في حوران . وفهم أن رجلا علويا مع أحد الشاميين سأل عنه في الصباح . وراح قاديش يتبع آثارهما ، فكلما ظن بأنه اقترب منهمـا تبين له أنهما ابتعدا بصورة عكسية . وفطن عند العصر الى أمر . كان حي الميدان يبعد عن دكانه حوالي سبعة كيلو مترات ، قطعها بالسير الرَّمَل . وفي المساء ، وبينما هـو يفتح الباب عثر على ورقة صغيرة في الشق ، كتبت بخط شـبيه بخطوط الوصفات ، قرأ فيها ــ وكان قد تمرن على قراءة خطوط الاطباء ــ : « ترك حسن العلي بارودته عندك ، احتفظ بها ، نجحنا في مهمتنا . سنسافر الآن . كان يجب ألا تغيب . تحياتي لك وتحيات الرجل » . ثم توقيع الشهبندر .. تركت هذه الرسالة ــ أو هذه الوصفة اذا أريد الدقة ــ تركت في نفسه رمضا مستمرا ، حتى التقى بعد شهرين بالرجل الغامض . وفتح محمد قاديش

عينيه ،وبدأ يتأمل نفسه : « انني في التاسعة عشرة • يجب أن أتصرف تصرفا أفضل • انني اخطيء كثيرا • ولكن ما هي علاقة السن ؟ انا طائش حقا ؟ ما الفرق بيني وابين هؤلاء الناس ••؟ لماذا أثير ضحكهم وبكاءهم ؟ لقد أضحكت هذا الثائر حسن العلي حتى هطلت دموعه ، وابكيت مريم حتى هربت •• اتمنى أن أكون رجلا في نظر الناس ، لطالما المس ذلك في نفسي •• فكيف أحقق هذه الامنية •؟ ماذا أفعل ؟ بأية وسيلة •؟ »

وقضى ليلته تلك وهو يتقلب على سريره، ثم نام نوما خاليا من الاحلام، وعند الفجر استيقظ على جلجلة اجراس الكنائس ••

●

## - ١٠ -

منذ أكثر من الف عام ٠٠ منذ خمسة وثمانين ومائتين والف عام فتح خالد بن الوليد مدينة دمشق ٠ دخلها بالسيف من بابها الشرقي ٠ ولا يعرف في الدقة كيف كان شكل هذا الحي في ذلك الحين ٠ ولاسباب كثيرة ، واذا فرض أنه كان هناك حي من الاحياء ، فـان « باب شرقي » ، ظـل محتفظا بالصورة التي نشأ عليها ٠ ويبدو أن أول رجل بنى لنفسه عشا في هذا الحي كان سائلا يتوكأ على عكاز ٠ وكان على عجلة من أمره ، فهندس عشه على الشاكلة التي يسير عليها ٠ وابى السـاكنـون اللاحقـون أن يسيئوا الى اعتبارات الرجل ، أو أنهم أعجبوا بالطريقة التي تم فيها رفع السقف الاول ، فحذوا حذوه بكل أمانة واخلاص ٠ أما اذا أراد أحد واشتهى تبديلا ما ، فكان لا يخرج عن السمات العامة التي تميزت بها صورة العش الاساسي ، وهي الفقر والخشوع والتواضع ٠ ويجب استبعاد الزهد من هذه السمات ، لان

الزاهد بمقدوره ان يتخلى عن هذه الصفة ، ما دام قد اختارها عن طوع ورضى كاملين • ولا يعرف على وجه التحديد ما اذا كان ذلك الرجـل مسيحيـا ، فاعتبار أن اكثرية سكان الحي مسيحيون لا يعطي دلالة كافية على ذلك ، وان أومأ اليه من طرف خفي ، كان من الطبيعي أن يعمد المسيحيون ـ خوفا من المذابح التي كانت تثار آنذاك بين الحين والآخر ـ الى لم شعثهم ، ولعق جروحهم ، واتخاذ ابسط شكل من اشكال التضامن بلجوئهم الى طرف المدينة الشرقي ، ولا شك في أن ذلك السائل وضع عكازه منتصبة لبنة لاول جدار ارتفع في ذلك الحي • ويستطيع الانسان ان يتخيل باب شرقي بصورة قريبة من الصواب ، اذا رجع الى صيدلية « صحة اجزخانة سي » لا كنموذج افضل بل كعينة من العينات • فالاكواخ ، والاوكار ، والسراديب ، والمغـــاور ، والعرائش ، والبيوت الطينية ، والخشبية والطينية الخشبية ، موجودة كلها هناك ، غير ان واحدا منها لا يشابه الآخر بأي وجه من الوجوه ، واذا اراد الانسان ان يجد بينهما قاسما مشتركا عليه ان ينظر من زاوية خاصة هي الادميون • ومهما كانت قيمة الانسان مرتفعة في العالم فان سقفا من الخشب ـ مهما كان حقيرا ـ يجعله يسجد تعبيرا عن الشكر والامتنان ، وذلك اذا ظل يحتفظ ببقية من ايمان ••

وسكان باب شرقي كانوا يصلون في ذلك الصباح عندما استيقظ محمد قاديش على جلجلة اجراس الكنائس • وكان ذلك اليوم هو ، عيد الميـــلاد المجيد •• يوم الاحد ٢٥ كانون الاول لعام ١٩١٨ •• فارتدى ملابسه على عجل • ثم نزعها عندما انتهى من تشبيك ازرار السترة الكتانية ، ليعود ويرتدي بزة من الصوف ، كان قد ادخرها للايام غير العادية •• وبالرغم من ان البزة كانت مخبأة في صندوق ، الا انها ظلت تشكو من علة دائمة ، علة الشيخوخة• وكان قد اعتاد ان يضع سروالها تحت الفراش في الليلة السابقة لليوم الذي يعتزم ارتداءها فيه • غير انه فوجىء هذا اليوم على حين غرة ،

فاضطر لان يرضخ للامر الواقع ويرتديها كما هي · وكانت مهمته ان يذهب الى مريم ، ويبرهن لها على أنه ، اذا كان قد سبب لها شيئا من الالم ، فليس عن سوء نية بل لغاية معاكسة تماما ، هي التعرف على مأساتها ومشاركتها بعض ما تعانيه من ضيم · وظن بأنه بهذا العمل يتغلب على تلبك ضميره · وكان قد خاض كثيرا في ازقة الحي في النهر المضيئة والليالي المعتمة ولاسباب متفرقة ، ولكن لم يكن بينها أبدا البحث عن امرأة لاي سبب من الاسباب · وقد جال برأسه ذلك الخاطر وهو يغلق باب الدكان متوجها الى داخل الحي ·

كان الجو غائما يخنق السماء سحاب ملبد ابيض ، والهواء بارد يخز الجلد وخزاً شائكا · كان يعرف أن في الحي ثلاث كنائس ، دون أن تتطرق معرفته الى كنه هذه الكنائس ، أو تقسيماتها ، أو أنواعها · وعالج قضية عثوره على المرأة من أبسط السبل · قال في نفسه يجب أن تصلي مريم في الكنيسة القريبة من دارها كما يفعل المسلمون ، وعلى هـذا بدأ البحث عن بيت مريم ليصل الى الكنيسة ·

كانت الدكاكين مغلقة على قلتها ، وبعض الصبية الذين آثروا اللعب على الصلاة ، يرتعون بملابس يظهر عليها نوع من الجدة ، ينفخون البالونات ويطلقون الصفارات ويفجرون العاب البارود · وسأل أحد الصبية ، وانتقاه من بين رفاقه الاكبر سنا والاكثر حركة :

ـ الا تعرف امرأة ارمل ولها طفل مريض تسكن هنا ؟

اجاب الطفل في نباهة :

ـ اسمها ماري ؟

ورد محمد في لهفة :

ـ نعم اسمها ماري ··

ـ طيب ·· تعال معي لادلك على بيتها ··

وقاده الطفل الى زقاق ضيق ، يتفرع عن الحارة الرئيسية ، ثم توقف به امام سلم لولبي يدور حول بناء من الخشب ضخم وقاتم · يرتفع على خمس قوائم غليظة من جذوع الشجر ، تجمع بينها أكوام من القاذورات ، والعفن ، والخروق الممزقة ، والنفايات ، والصفائح الصدئة ، وكلاب وقطط فاطسة ، وخروج الآدميين ·· وأشار الطفل الى كوة من الكوى المظلمة ، التي تفغر أبوابها في وجه الفراغ دون ان ترى شيئا ، وكأن كل واحدة منها حفرة في جمجمة حيوان من حيوانات ما قبل العصور · وزعق الطفل :

ـ انها تسكن هنا ··

وعاد متعجلا الى رفاقه ··

واذا أراد الانسان ان يغمض عينيــه عن مرأى هذا الركــام ، فانــه لا يستطيع ان يغفل الرائحة الفاغمة ، التي تصل الى رأسه من مسام جلده قبل أنفه ، وتبعث فيه دواراً حادا يزيغ العيون ، ليأخذ بعدها أولى درجات السلم · وعليه بعد ذلك ان يكون حذرا ويتماسك · فيكفي ان يضع قدمه على الدرجة السفلى ليحس بأنة متخورة متهدمة ، تنبعث من مكان ما في قلب البناء ، ترددها على الاثر جميع الزوايا حتى تصل الى الاساس · وبعد أن يرتفع الصاعد عدة درجات ، متجاوزا خلالها فراغات عريضة ، متكئا على حاجز متقلقل نبت عليه عشب لزج ، يجد نفسه امام مدخل الدور الاول · ومن هنا يأخذه دهليز ضيق الى فجوات تتفرع منه على الجــانبين ، اتفق السكان على تسميتها حجرات · وكانت النافذة التي أشار اليها الطفل تقع في الدور الثالث والاخير · وعندما تخطى محمد قاديش الجزء الثـاني من الحلزنة ، نظر الى الاسفل وتوقف قائلا في نفسه :

« ترى هل يمكنني النكوص قبل فوات الاوان ؟ »

ثم طمأن نفسه : سوف أقفز من الاعلى ، فالارض قريبة على أية حال ..

فبالرغم من أن البناء كان مؤلفاً من ثلاثة أدوار ، الا أن عوامل متفرقة جعلته يحني كتفيه حتى اقترب من الارض ، وكأنه أراد أن يحسب حساب العودة ، فلا يحدث ضجة كبيرة عندما تخونه أقدامه المتخاذلة ، فيتقوّض ويستريح راحته الابدية . كانت الزلزلة التي تسري في أوصال الشابمجهولة المصدر . فهناك احتمال أن يكون الخوف . وبهذا تكون الهزات وليدة قلبه أو ساقيه . ثم احتمال آخر يعود الى البناء الخرع بمجموعه ، والذي ينتظر مصيرا غير مأمون . الا أن ماكان يطمئن الصاعد ، هو وجود حياة حقيقية وراء كل لوح خشبي من الالواح التي تتألف منها الجدران . والتي ضمر بعضها وتقوس بعضها الآخر . فمن هنا هديل طفل . ومن هناك ضحكة صاخبة . ومن طرف آخر امرأة تعاتب جارتها ومن الاسفل رجل يلوب على حذائه ، ومن الاعلى عجوز تطرد قطة . ومن الخلف كلب ينبح على عجوز . وبالاجمال كان البناء على جميع علاته ينبض بحياة كاملة . كما أن الملابس المغسولة التي علقت على أفاريز الابواب والنوافذ ، لم تكن تشير الى سكنى المكان فقط ، بل الى اكتظاظه ايضا . وقال محمد في نفسه : « لربما أجدها هنا .. »

وتوقف أمام الباب المغلق ، وطرقه بسبابته الوسطى ، في حين أحس بأن قلبه يجب وجيبا ينقصه التوازن : ها هو ذا أمام موقف جديد من نوعه ، فلأول مرة في حياته يطرق باب امرأة ، ليقول لها انني اعتذر .. ولربما سألته عن القضية من أساسها ، فسيجد نفسه مضطرا الى أن يشرح لها الموقف ، وسيعيد لها ما حدث ، وعندها ستطفو على سطح ذاكرتها قصة محزنة . وستبكي مرة أخرى وتصرخ وتهرب .. ولكن الى أين تهرب في هذه المرة ؟ وتناهى الى أسماعه صوت كرجع الصدى :

ـ مين .. تفضل ..

ودفع الباب ودخل · وبينما كانت يده تعيد اغلاقه ، كانت عيناه تتعرفان على المكان · شعر ـ قبل أن يرى شيئا ـ بأن السقف اوطأ بكثير من سقف الدكان · وكانت رائحة غريبة خاصة تسطع منه ، رائحة مزيج من النفس والطعام والدواء وغاز الفحم · وعندما ألمّ بمحتويات الظلام ، لمح شبحا يرتسم في زاوية الغرفة ، يجلس فوق فراش مد على الارض ، والى جانبه رأس صغير · وسأل قاديش في نبرة يعوزها الصمود :

ـ هل أنا في مسكن السيدة ماري ·

فأجابت المرأة منفرة :

ـ نعم ·· من أنت ؟ تفضل ·

واقترب الشاب قليلا ، فاصطدم بوعاء سكبت محتوياته على الارض · وانحنى ليعيده فوجده مبولة اطفال يبدو أنها كانت ممتلئة حتى حافتها ، ولربما كانت تستعملها المرأة أيضا · وعرف بأن ما سكب على الارض المفروشة بحصير وبعض جلود الخراف لم يكن غير بول · فرفع رأسه الى الشبح وقال على التو :

ـ عفوا ·· كنت أريد ماري ·· الشابة الارملة التي لها طفل مريض ··

وحملقت المرأة في وجهه · ولمح لأول وهلة بياض عينيها الجاحظتين ، وسط وجه منتفخ لانسان أضاع عمره الحقيقي ··وقد عرف بأن صاحبة الوجه تشكو من مرض الزلال · قالت المرأة هي تهم بالوقوف :

ـ هل تريدني حقا ؟ ولماذا ؟

ورد الشاب وهو يقاوم حيرة عقدت لسانه :

ـ العفو ·· كنت أريد امرأة غيرك ·

واستدار ، في حين عادت المرأة الى الجلوس ، وقد بدا من حركاتها أنها لا تفهم شيئا · وتوقف محمد عند الباب لحظة ، ثم عاد يسألها :

ـ ألا تعرفين تلك التي مات زوجها منذ سنة بينما كان يشتغل في معصرة العنب ؟

فسمع من الركن أحيحا وزحيرا متواصلين • وهاله أن تكون المرأة تضحك ، وبهذه الطريقة • وأجابت المرأة :

ـ ها •• ماري ابراهيم ••

وسأل محمد بلهجة مستنكرة :

ـ وهل أنت أرملة أيضا ؟

فردت في ذعر كأنها فوجئت بهذه الحقيقة لأول مرة :

ـ نعم

وهنا تقدم منها ، وقد واتاه شعور من نوع غريب :

ـ وهل هذا الطفل مريض ؟

اجابت المرأة بلهجة لاتنم عن مضمون السؤال :

ـ نعم

ـ واسمك ماري أيضا ؟ هذا اتفاق عجيب ••

فردت ، وهي تضحك على الطريقة السابقة :

ـ هذا ليس اتفاقا •• وليس غريبا •• تسكن هنا أكثر من عشر أرامل يحمل بعضهن اسم ماري ، وأطفالهن مرضى أيضا • قف أيها الرجل •• هل أنت ارثوذكسي ؟ لا •• العفو •• قد تكون من طائفة أخرى •• وعلى كل سأدلك عليها ، هي من الطائفة الغربية ، هي الآن في الكنيسة •• اليوم عيدهم •• اجلس •• استرح اذا كنت تحب ••لا تريد ؟ طيب •• بيتها في حارة القديس يوحنا •• بامكانك أن •••

واغلق الشاب الباب وراءه ومضى يتعثر بأقدامه • هابطا درجات

السلم في توتر بينما ظل صوت المرأة يصل الى أذنيه كصدى بعيد لحشرجة انسان يدافع عن نفسه أمام سكين تحك عظم حنجرته · عاد محمد قاديش الى الدكان راسا دون أن يلتفت يمنة أو يسرة · وقد أعفى نفسه من مقابلة أحد ، حتى ولو كانت ماري ابراهيم ، في حارة القديس يوحنا ، من الطائفة الغربية ، والتي تصلي الآن الى الله احتفالا بميلاد السيد المسيح ··

●

## - ١١ -

عاد الصافي من رحلاته في أواسط الشهر الثاني من السنة الجديدة ·
ولاحظ محمد أن ملامح وجه معلمه ـ بالاضافة الى ما بدا عليها من الاعياء ومشاق السفر ـ كانت تنبض بالانفعالات والمشاعر المتناقضة · وهذا اكتشاف يصعب تحقيقه ، حتى على الذين يعرفون الرجل دون أن يصلوا الى قلبه · صحيح أنه كان في حوالي الخمسين من عمره ، وان نظارتيه ـ باخفائهما بريق عينيه ـ كانتا تضيفان الى وجهه المتغضن غموضا على غموض ، الا أن ما يجيش في صدره كان يرتسم دون ريب ، على كل أديمه ، من شحمة أذنيه حتى رؤوس أصابعه التي أكلها الأسيد ، وخاصة على صفحة أنفه المتورم · قال الرجل وهو يسلم ذراعيه لمساعده كي ينزع معطفه المتبلل :

ـ مالك يا محمد أراك ذاويا !

أجاب قاديش وهو يخلص اصبعه من ثقوب المعطف :

ـ كنت أريد أن أسألك السؤال نفسه يا استاذ ·

وتنهد الرجل الكهل دون أن يجيب · كان يحمل في يده محفظة جلدية كبيرة ، تشبث بها كالغريق · وصاح محمد :

ـ الق هذه المحفظة ·· كيف تريد اخراجها من الكم ؟

وانتبه الرجل الى الامر · ورفع المحفظة في وجوم وسندها على أحد الرفوف وهو يقول :

ـ ماهي مشكلتك يا محمد ؟ أرجو أن لا تكون قد وزعت نفسك ، فقد بدأ العمل واندلعت الثورات في غرب البلاد وشمالها ·· وهي بحاجة الى رجال · لا ينقص هذه الثورات حملة البنادق ، ولكنها بحاجة الى المتنورين ·· بماذا تفكر ؟

ورد محمد في تحفظ :

ـ أنا معك ··

واضاف الصافي متجاهلا اجابة مساعده :

ـ انني على شفا الجنون ·· اعطني القاموس · هنا كلمة اشكلت علي ·· يفاوض ·· أو يساوم ·

وانتشل من جيبه رسالة بيده المرتجفة ، ثم رفع عن رأسه كساء الصوف السميك ، وامسك بالقاموس وراح يفتش عن الحرف بسبابته ذات الظفر المتآكل · بينما راح الشاب يراقب معلمه في وجل كبير ، ملاحظا التحولات المريعة التي طرأت فجأة على حياته · وسأل نابذا كل ما يعانيه :

ـ ما هذه الرسالة ؟

أجاب الرجل ورائحة الهرم المفاجىء تفوح من اهابه :

ـ انها رسالة خطيرة ·· كارثة ·· لو أذيعت على الناس لاطارت منهم الصـــواب ·

ومد يده بالرسالة الى قاديش :

ـ خذ اقرأ انها من أحد اصدقائي الاكاديميين في باريس ·· اقرأها ·

أخذ قاديش يتملى الكلمات · فهم منها : أن الوفد العربي الى مؤتمر الصلح ما دام يطلب من الانكليز توحيد الوطن العربي بمجموعه ، فكيف يتخلى عن قلب هذا الوطن ؟ هذا أولا · ثم أن رئيس الوفد يوقع بيده وهو شخص مسؤول ، على تسعة بنود دون أن يأخـذ ضمانا واحدا يكفل لـه تحقيق مطالبه · كما ورد في الرسالة مثل يقول صاحبها : بأنه قرأ قصة مترجمة عن العربية لكاتب اسمه ( ابن المقفع ) تفيد بأن أسدا مريضا طلب من خادمه أن يأتيه بقلب حيوان لكي يشفى بـه · ولكن الخادم يعود بعد مدة مخبرا سيده بأنه فشل في العثور على طلبه ، لأن أصغر حيوان في الغابة رفض أن يعطيه قلبه · وعلل الحيوان رفضه بقوله : انني دون قلب لا أساوي شيئا ، فخذني كلية بالقوة ، أو ، دع لي قلبي فانني لا أستطيع أن أعيش بدونه ، وتختم الرسالة بكلمة ( انني لا أفهم كيف يحدث هذا من أميركم ·· وفي الوقت نفسه تلعب حكومتنا دورا غير مشرف فاحذروا ·· احذروا ·· )

وعندما ألمّ محمد قاديش بمضمون الرسالة ، نسي مشكلته وتاه في خضم من الافكار ··

وقال في تردد :

ـ انني فهمت منها بأن مساومة تجري على التخلي عن جزء من بلادنا ·· هل هذا صحيح ؟

وأجاب الصافي رانيا الى ملامح مساعده في امعان :

ـ فلسطين ·· نعم ··

قال هذه الجملة بشكل يدخل الرعب الى قلب الجماد ·

ـ والآن قل لي ماهي معضلتك أنت ؟ لا أستطيع أن أراك مشتت الذهن ·· صديقك هناك · التحق لورانس بالوفد العربي في باريس ليواكبه في خطواته · وهذه أولى النتائج · ان اهانتك للورنس لم تثمر ··

وحاول محمد أن يتهرب من عدستي وجه معلمه اللتين راحتا تصوبان سنانهما الى عينيه ·· وقال الصافي في عتاب :

ـ محمد ·· لا أعرفك سخيفا ·· فلماذا تأكل نفسك ؟ هل جدّ عليك شيء ؟ أراك تتغير ·· هل فعلت أمرا تندم عليه ؟ أريد أن أعرف ··

وتململ الشاب قليلا · غير أنه تحت الحاح معلمه ، وبعد أن اطلع على ما يجمل قضيته أنفه من أن يخفيها في صدره ، سرد عليه قصته عن المرأة ، دون أن يغفل حتى أدق مشاعره حيال الحوادث · كما اعلن عن انطباعاته الاخيرة عند مشاهدته المرأة الاخرى ، مبديا دهشته من هذه الاتفاقات العجيبة ·

كان الاستاذ يتابع أحاسيس مساعده ، ويراقب الانفعالات المرتسمة على لون عينيه ، مبديا مشاركته ومعاناته المشكلة التي يذوب على لهيبها · قال محمد مفرغا رواسب نفسه :

ـ وقررت أخيرا ألا أعود الى مقابلة أحد ، خشية أن أضعف وتفسر ضعفي بالتخاذل · ولبثت انتظر طوال هذه المدة دون أن تعود هي الى هنا · ولم أدر كيف أتمكن من نسيان القضية التي تعذبني ··

ورد الصافي وهو يفك ازرار سترته وينفخ من بين شفتيه :

ـ اسمع يا محمد ، أنت لم تقع في غرامها ·؟

ولاحظ ومضة الاستنكار التي سطعت من عيني محمد فرفع يده مفسرا :

ـ أنا أعرف وهذا ما قلته لك .. أعلم أنك لا تفكر بها على مستوى الحاجة .. وان دوافعك لا تخرج عن كونها نزعة انسانية .. طيب . ولكن لا توزع اهتمامك .. ان أمامنا متاعب كثيرة . لا مانع من أن يحب الانسان ، وهذا شعور عادي لا ينافي طبيعة تكوينه الفيزيولوجي ، لكنني فهمت بأن مشكلتك لا تخرج عن مستوى الاوهام ..

قال محمد وهو يضغط على أسنانه :

ـ أنا اقتنعت بهذا .. أما حالة البؤس التي شاهدتها في هذا الحي جعلتني اتساءل كيف يعيش هؤلاء الناس ؟

ورد الرجل وهو ينزع نظارتيه ويستلقي على فراشه :

ـ ان هؤلاء بصفتهم مسيحيين وأقلية ، كانوا يخضعون لظروف تاريخية واقتصادية معينة . وفي كل مدينة من مدن العالم توجد أحياء مشابهة لهذا الحي . وتبدو المشكلة أوضح في عواصم العالم الكبرى . ففي استانبول توجد أحياء الارمن . وفي باريس أحياء الجزائريين . وفي نيويورك أحياء الزنوج . واذا تفحصت لب المشكلة تجد أنها قصة الرجعية والتعصب العنصري والديني ، في كل مكان يوجد فيه سادة وعبيد ، ظالمون ومظلومون .

كان الصافي يتكلم وكأنه يقرأ في كتاب مفتوح . في حين وقف محمد يستمع بكل جوارحه ، رانيا الى تقاطيع وجه معلمه . متابعا الخلجات المترادفة مع المعاني . واستمر الصافي في الحديث :

ـ وبهذه المناسبة فقد نبتت الصهيونية في أقذر مستنقعات العالم ، ومن بينها دولة السلاطين . كان الاتراك يحاربون الدين المسيحي بينما يعفون عن الدين اليهودي ، لماذا ؟ تصور أن من جراء ذلك مد الاستعمار الانكليزي والفرنسي أنفه الى بلادنا بحجة حماية المسيحيين .. أظنك فهمت جيدا ما أعنيه ..

كان الوقت يدنو من المساء • وقد اشعل محمد موقد البترول ووضع عليه لوحا من الصفيح لكي ينشر الدفء في المكان البارد •

ثم نهض لينير القنديل في حين استطرد الصافي يقول :

ـ علك تتساءل لماذا رجعت الى صيدليتي في هذا الحي • قلت لك في الماضي أن عائلتي هاجرت وتشتتت عندما طورد افرادها من قبل جمال باشا في مجال البحث عني • ولم يبق لي أحد • وكنا نسكن قريبا من هنا ، ففضلت أن أعود الى مكاني الاول وأعيش مع المنسيين • لأن الافكار السوداء تعشش في الرؤوس التي نخرها كالسوس خفض العيش وسوء المعاملة • وكما حدثتك عن مطامع فرنسا في بلادنا ، فلا بد أن تجد دعايتهم صدى في بعض عقول الناس هنا • والعلة الثانية تأتي نتيجة لذلك • فقد احتلت الجيوش الفرنسية غرب البلاد ، وقد تصل الى شرقها ، فلا بدّ من أن تندلع ثورات ، وسيظل هذا المكان منسيا لاسباب معروفة • ماذا تفعل ؟ هل تتابعني ؟

كان الرجل مستلقيا على سريره ، يثبت عينيه على حشية القطن تلك • واردف :

ـ اننا هنا قريبون من الغوطة ، وعلى هذا يبدأ عملنا عندما تنشب الثورة • ولكن يجب أولا افراغ نفسك مما يجيشها • انهض على الفور وقابل السيدة في بيتها وانه الموضوع معها • ثم عد دون تلكؤ لأنني في حاجة اليك •• حسن العلي يهديك تحياته •• وسيحضر قريبا ••

ـ ولكنني لن أغفر له طريقة ذهابه ••

ـ حدثني هو عن ذلك •• هل أخفيت عتاده ؟ طيب سنحتاجه • نسي أشياء أخرى •• قائمة بالادوية التي كتبتها له ، ولولا الدكتور عبد الرحمن،

لما استطاع توفيرها • سأعرفك عند الاجتماع على شخص يعجبك • كم الساعة الآن ؟

وتثاءب الرجل في صورة تدل على شدة حاجته الى الراحة :

ـ ان الظلام لا يزال يهبط في سرعة •• اتركني • اذهب •

وضحك الصافي وهو يردف :

ـ اذهب الآن فورا الى السيدة ماري و •• اطلب الغفران •

●

## - ١٢ -

تقع حارة القديس يوحنا في المنعطف الثاني من الجادة الرئيسية التي توجد فيها الصيدلية • وقد عجب محمد من نفسه عندما قالت له المرأة الثانية أن ماري ابراهيم تسكن فيها • تذكر بأن مريم دلته على بيتها منذ المقابلة الاولى • كانت الحارة مظلمة لا ينيرها أي بصيص • وكان على الاقدام والاذرع أن تعمل عملها عندما يلج الحارة شخص غريب ولكن محمد توقف عند رأسها لأنه لا يعرف البيت أصلا ، منتظرا مرور أحد ليسأله • واخرج علبة سكائره الرخيصة واشعل احدى لفافاتها لتسليه في الظلام والوحدة • وقد اعتاد أهل الحي أن يأووا الى بيوتهم مبكرين ويوصدوا دونهم الابواب ، حرصا على سلامتهم وحسابا لكل طارىء • ولم يطل الانتظار على الشاب ، اذ سمع من داخل الحارة صوتا لباب يصر صريرا كئيبا • فأطل برأسه الى العمق الدامس ، فلم يـر شيئا • غير أنـه سمع طرقات عنيفة

متواصلة ، وسمع صريرا جديدا · ثم تناهى الى أذنيه - كأنما هو آت من بئر عميقة - صوت أنثوي ممتلىء يقول :

- سعيدة يا جورجيت ·· عندكم زيت كاز ·!.

ويرد صوت آخر يدل على أن صاحبه ، اما صبي لم يصل مرحلة البلوغ ، أو امرأة فقدت شبابها :

- سعيدة مباركة ·· لا وحق المسيح يا جارتنا ·· صار لنا يومين على العتمة ··

- نفد زيت القنديل وعندنا ضيوف ·

- سمعت أن الاكليل غدا ·· صحيح ·؟

- اذا كان الجو صحوا ··

- وأين ستسكنان ؟

- سنذهب الى طرطوس ·· هناك أكثر أمنا ·· وسنقضي شهر العسل عند خالتي ··

- ولكن سمعنا بأن هناك ثورة ··

- لا تخافي أن الثورة ضد الفرنساويين ·

- أخاف أن يتحركوا هنا أيضا ·· ماما وبابا يبكيان ··

- ستحرسنا أمنا العذراء ··

- آمين ·· سعيدة ·

- سعيدة مباركة ··

واغلق الباب دون صرير · وخطر لقاديش أن يعود أدراجه ، مستبقيا ما عزم عليه في المرة الاولى · وأن يتجنب القضية أو يعتبرها لم تكن ، فضلا عن أن الوصول الى البيت يحتاج الى دليل · ثم تراجع عن قراره عندما لم يجد ما يقوله لمعلمه الذي اهتم بالقضية اهتماما بالغا · وسمع في الجادة

وقع خطوات مسرعة · وتقدم من وراء ظهره خيـال رجل تجاوزه قبـل أن يثوب الى حقيقة امره · وسمع فوق رأسه نافذة تغلق ، فرفع رأسه ، لاشك في أن أحدا ظل يراقبه طوال الوقت ·

كان الباب الذي يميل تحت النافذة ، يشعر الانسان بأنه يستطيع أن يطرقه دون تكلف أو تهيب · فتقدم منه لكنه ما كاد يمس حلقته حتى فتح فجأة · وبرز من ورائه صوت خشن يقول في تحد :

ـ ماذا تريد وأنت تنتظر كل هذا الوقت ·· من أنت ؟

ورد قاديش بلهجة بذل جهدا لتلطيفها :

ـ أريد بيت مريم ·· ماري ابراهيم ··

قال الرجل وقد طمأنته لهجة الغريب · فأبرز صدره وساعده الايمن:

ـ الباب الخامس على اليمين ·· أو انتظر سأذهب معك ··

وغاب الرجل قليـلا · ثم عاد وألهب في وجـه قاديش عود ثقاب · والتقت أنظار الرجلين على ضوئه برهة من الوقت ، قطعه الساكن قائلا في عنترية :

ـ مم ·· عرفتك ·· أنا أراك كثيرا ·· هل تسكن هنا ··؟

ـ نعم ··

ـ لعلك ابن حنين توما ··

ـ لا ··

ـ ذلك أفضل فانا أكره ذلك الكاثوليكي · تعال الحقني ·· احذر ·· وأمسك بكم الشاب ، ومشيا حوالي خمس خطوات · ثم ضغط على ساعده :

ـ تمهل · هنا درجة ·· انتبه · طيب ·

واستأنفا السير ثم توقفا :

ـ انتظر لاشعل كبريتة ·

ولمح قاديش حفرة وسط الزقاق الضيق تملأ ما بين الجدارين بماء المطر • قال الرجل :

ـ سأرجع أنا •• يجب أن تخوض الماء •• الباب الثاني على اليمين •• سعيدة •

ورد قاديش •

ـ سعيدة •• ( ثم اضاف ) مباركة ••

وندم على كلمة مباركة ، لانها أتت متأخرة وغير منسجمة مع التحية ووقف قاديش أمام الباب وهو يغمض عينيه ويحبس أنفاسه • لا شك في ان الزقاق ينحدر بالعمق ، وهذا هو السر في أن الاصوات ترامت الى أذنيه مخلفة ذلك الصدى •

« يجب أن ارجع • ماذا أقول لها ؟•• سعيدة •• هل أنا كاثوليكي •• لا •• نعم ؟ ما اسمك ؟ محمد •• لا •• قاديش فقط •• ولكنها تعرف اسمي • يالله كم انا ضعيف الذاكرة •• »

ووجد يده ترتفع باحثة عن الحلقة • ولكن لغطا انبعث من داخل الظلام جعل يده تتسمر • « لقد خرج الضيوف من عند العروس • ها هو ذا صوت العريس • انه يضحك في انفعال • كيف يسيرون بهذا الظلام ••؟ وفي مثل هذه المغارة ؟ لا شك في انهم اعتادوا على ذلك •• ها هو ذا اللغط يبتعد •• يبدو ان للزقاق منفذا آخر •• طيب •• فلأطرق الباب •• يجب ان يكون الطرق في عنف واستمرار •• هكذا يفعلون هنا •• يبدو أن بيوتهم كزقاقهم تنحدر بالعمق الى الاسفل •• »

وأحس بأن الباب يكاد يتساقط تحت ضرباته • « طيب •• لا يوجد احد •• هذا أفضل •• ولاعد الآن •• ان الحظ يخدمني • سأقول له وجدتها نائمة •• وانتهى الامر •• »

وظل يطرق الباب ، حتى سمع في الداخل أصواتا كثيرة متشابكة

متباينة لرجال ونساء واطفال : « ليس لنا احد في الخارج ، ونحن لا يأتينا احد · قد تكون أمي ، لا · انها ماري ، ولكن ماري معها مفتاح ، افتحوا الباب يا ناس · سأفتح انا ، أرجع أنت ما دخلك بالموضوع · سيفتحون هم ·· نحن لن نفتح · »

واخيرا أرسل الباب صريرا ثم سكت · وصرخ قاديش ، ولم يكن في نيته أن يصرخ :

ـ سعيدة ·· يه يه يه ··

ولكن أحدا لم يجب ، لان اليد التي فتحت المزلاج اختفت على الفور · واطل قاديش برأسه ، فلمح عدة ذبالات ميتة ، تنبعث من ثقوب مستطيلة ، تجاهد في كلل لتنير باحة طينية واسعة · فعرف بأن الدار مسكونة بعدد من العائلات · وهبط درجة ، ثم نسي الاخرى ، فوقع في حفرة مملوءة بالماء · وبدأ بعد ذلك يتصرف كمن استشاط من الغضب · ولكنه تذكر نصيحة معلمه « ادخر اعصابك » · فدمدم بصوت مسموع : « لا ·· يجب أن أحرقها ·· الفيتها » · ودون ان يطرق أي باب ، دفع الاول الى اليمين · فوجد امرأة تجلس حول كومة من الاطفال ، تطعمهم · ورفعت المرأة وجها نحيلا كحافة المسطرة · مشبوها ، مرعبا ، فسأل قاديش :

ـ ماري ابراهيم أين تسكن ؟

وارتفعت ملعقة مشيرة الى الغرفة المقابلة ، في حين استدارت الوجوه الصغيرة بعيونها الطفيلية الضاحكة ، تستطلع ماهية هذا الانسان العجيب · وزجرت الام اطفالها بصوت كجعير البقرة :

ـ هوا ·· يا عفاريت ·· نريد ان ننام ··

واقترب قاديش من الباب المقابل ، وكاد يركله بقدمه ، لولا أن ومضت في رأسه بارقــة غريبة ·· غريبــة بقـدر ما هي ساطعة · استعرض القصـة من باب الجابية حتى هـذه اللحظـة ·· استعرضهـا

في أقل من طرفة عين • « لماذا هذا الجنون ؟ وحارة القديس يوحنا ؟ وباب شرقي ••؟ والوحل ؟ والناس ••؟ والعالم كله • كل ذلك ؟ لماذا اقف ها هنا ؟ يا الهي •• من هو شفيق الصافي هل هو نبي ••؟ لماذا شجعني على المضي في أوهامي ؟ الكي اعرف نفسي ؟ ها أنا ذا اعرفها ••»

واستدار ناحية باب الدار ، عازما على النكوص • وغاص في الطين الى منتصف ساقيه • ورفع قدمه الى الدرجة الاولى ، ففتح الباب ، واصطدم بانسان يهم بالدخول • قالت مريم في همس :

ـ مساء الخير يا محمد ••

وتشبث محمد باقرب شيء أمامه • هي •• تشبث بها • فاسلمت نفسها اليه بعد ان استعاد توازنه الجسدي • فغمغم في بحة استنكرتها نفسه :

ـ أنت ؟

وردت ماري في جذل وهي ترخي كتفها تحت ثقل كتفه •

ـ تعال •• لم لا تدخل ؟ تأخرت انا اليوم • لا •• لم اتاخر •• هذا موعد انصرافي ••

وسار وراءها كالخروف ودخلا الحجرة • كان في الحجرة سرير عريض نام الطفل في طرفه الداخلي ، وحاجز قماشي يفصل المكان الى جزءين • فرش في الارض بساط كشفت نظافته عن عريه • وفي الزاوية الامامية وجد كرسيان من القش • واصطفت على رف خشبي بعض الاواني والادوات المنزلية ، علق فوقها صورة لمصلوب ملتح انكفأ رأسه على صدره ، وامتدت يداه افقيا الى نهايتيهما ، والى جانبه كانت أمه الطيبة تنظر الى ثقب كبير في الجدار المقابل في تسامح ورضى واطمئنان • وخرجت العجوز من وراء الفاصل القماشي تحمل بيدها مغزلا ، يربط بينه وبين شلة من الصوف

تحت ابطها ، خيط غليظ اسود · قالت العجوز وهي تهز راسها :

ــ سعيدة ··

وقالت ماري بالتركية

ــ هذا ·· م ·· جـ · جوزن ·· جاء لزيارتنا ·

سألت العجوز :

ــ ارثوذكسي ؟

واومأ قاديش برأسه ايجابا ، ثم استفاق على نعرة في خاصرته · في حين زمت العجوز شفتيها ، تضاعفت تجاعيد وجهها كلها حتى اصبح كشوك القنفذ · ثم هزت راسها في أسى ، وغمغمت بالتركية :

ــ كلنا اخوة على كل حال ··

وبما ان كل انسان يتعلم على حساب تجاربه الشخصية ، فقد أدرك قاديش أنه اخطأ · والواقع ان الامر اختلط عليه ، فلم يدر بماذا يجيب · قالت مريم وهي تقترب من السرير :

ــ امه ارثوذكسية اما ابوه فكاثوليكي · كيف حال ميشو ؟

وردت العجوز :

ــ وكيف تزوجا اذا ؟

ظل قاديش حتى هذه اللحظة لا يفقه شيئا · ولكنه بدأ يستيقظ عندما لاحظ ان ماري ترتدي مئزرا سماوي اللون ، وتلف راسها بمنديل من اللون نفسه · كانت شاحبة اللون ، في عينيها نظرة توسل ، ومن منكبيها تفوح رائحة خبزة · تلمست الام جبين ابنها ، ثم عادت · وقالت دون ان تنظر الى وجه الزائر :

ــ لماذا لا تجلس ؟

جلس قاديش كشخص منوم مغناطيسيا على أقرب كرسي اليه

وأراد ان يخفي جانبه الملوث بالوحل ، الا ان مريم التي كانت تتصرف تصرفا معقولا اعفته من ذلك قائلة :

ـ ان حينا وسخ بمجموعه ، فلا حاجة بك الى اخفاء ثيابك ..

( واستطردت وهي ترفع الستارة وتدخل الى المطبخ ) :

ـ عندما اقول وسخا، اعني الكلمة بكل معانيها.« ولسبب ما اضافت » ان هذه العجوز الطيبة لا تعرف العربية . وهي فقيرة وثاكلة قبل ان تكون مسيحية . اذا ادركت ذلك امكنك التغاضي عن تخريفها . ساهيىء طعاما .. انا جائعة .. هل تأكل ؟

ورد قاديش في أسف وكأنه يتهم نفسه :

ـ انا حيوان .. حمار .. كان يجب ان انتبه الى هذه القضية

والتفتت العجوز اليه وقالت بالتركية

ـ لا .. كلنا اخوة

وردت مريم من وراء الستارة مؤنبة :

ـ ج .. جوزيف .. كن عاقلا .. علمني ميشيل الاب كيف يجب أن يكون الرجل .

وكانت هذه الكلمة عبارة عن الحقنة التي غرست في قلب محمد . فقد انتعش على الفور وأجاب .

ـ انت امرأة مخيفة يا مريم ..

وردت الارمل وهي تنفخ موقد الكاز :

ـ كن حذرا اذاً .. ، ولكن لا .. انت تخفيف نفسك .. تنقصك المعاشرة .. يجب عليك ان تكون اكبر من سنك لتفهم اشياء كثيرة .

وتأوه الطفل فوق سريره ، وسعل سعالا مكتوما جافا . ثم أنّ أنة طويلة وعاد للنوم . قالت العجوز

ـ جوزيف .. جوزيف ..

وصرخت مريم من وراء الحاجز :

ـ هي تناديك يا ٠٠

والتفت محمد الى العجوز ٠ قالت له وهي تدحرج المغزل على ساقها :

ـ دواؤك لا يفيد ، مالك ؟٠ لماذا لا ترد ؟٠ الا تسمع ؟٠

وردت ماري من الداخل يشوب صوتها انفعال خاص :

ـ ليس ذلك ذنبه يا امرأة عمي ٠٠ انه ذنب الاطباء ٠٠

وارتفع الحاجز وعادت مريم ترتدي ثوبا بيتيا من المخمل العتيق ، يلمع في عينيها بريق عابث ، وقد اكتسبت وجنتاها حمرة قانية ، وجلست على طرف السرير ، وراحت تؤرجح قدميها كطفل مرح ٠ كانت تتراقص على شفتيها ابتسامة عجيبة ، لو فسرت بكل معانيها ، لانطبق عليها الوصف الذي قاله قاديش ٠٠ انها امرأة مخيفة ٠ وقالت تخاطب محمد :

ـ هل تظنني تعيسة ياجوزيف ؟

فنهرتها العجوز وهي ترفع المغزل بيدها الى الاعلى :

ـ اخجلي يا بنت ، انت ارمل ٠

لم تعر ماري التفاتا الى حماتها بل اردفت ٠

ـ انت مخطيء يا عزيزي ٠٠ هل جئت لتعتذر لي ؟ لماذا ؟ اذا كنت قد اسأت لي فليس بالقدر الذي اساء لي الرب ٠٠ ما الذي جعلك تتوهم أنك اهنتني ؟ لماذا تعذب نفسك وتسأل عني ؟ الم اقل لك أن بيتي هنا ؟ فلماذا تذهب الى حارة الارمن ؟ جعلت تلك المرأة تضحك عليك ٠٠ لكنني ارشدتها الى صيدليتك لتشتري دواءها ٠٠ لا ادري لماذا رفضت ٠٠ لقد وصفتك بالعته ٠٠ هل تشرب كأسا من النبيذ ٠؟ لقد شربت انا هناك في الداخل ٠٠ عندي زجاجة ٠٠

وصرخت العجوز بالتركية :

ـ اخجلي يا بنت انت ارمل ٠٠ أنا لا افهم ماذا تقولين ٠

ورد قاديش • وهو يتابع كلمات المراة مسلوب الارادة والقدرة عن التفكير :

ـ اشكرك •• تابعي ••

وردت مريم ، وقد اختفت بغتة علائم المرح عن سحنتها ، وحل مكانها تعبير غاضب :

ـ انت تتدخل في شؤوني •• فانا لا اشبه تلك المراة •• أنا لست هي وانتهى الامر •• انتهى الاشكال •• أنا بكيت امامك •• نعم وماذا يعني هذا بنظرك ؟ بماذا فسرته ؟ لم هذه الهواجس والاحلام التي تنتابك ؟ من قال لك اني احبك ؟ أنا أرمل •• واكبرك بثلاث سنوات • هل حز في نفسك ذلك الموقف الى هذا الحد ؟ انت حساس •• والحساسية المفرطة ليست من شيم الرجال بل من شيمنا نحن ، الحساسية ضعف ، وستؤدي بك الى الجنون •• هل تفهم ؟•

وهبطت عن السرير مسرعة :

ـ سآخذ كاسا أخرى •• اني اطبخ بطاطا هل تأكل ؟•

ودلفت الى الداخل ، في حين نهض قاديش وخطا الى السرير • ثم عاود الرجوع ناسيا ما كان يريد ان يفعل • وجلس على كرسيه • فبدا أنه تخلص من تأثير التنويم الذي كان يعانيه • وقال لنفسه : طيب يا محمد ان هذه اشياء لا تعرفها ولم يحدثك بها الصافي طوال حياتك • اجلس واصغ الى هذه المراة التي تعرف ماذا فعلت ،وتحدثك عن ادق مشاعرك واعمق احلامك •• استمع اليها •• انها مخيفة •

ولاول مرة سمع صوت الموقد البترولي وهو يضج بالجعير • وارتفع الستار • وعادت مريم تلوح بزجاجة النبيذ • وأومأت الى محمد في حركة ماجنة اشتركت فيها الزجاجة :

ـ هل تشرب ؟

ونخرت العجوز

ـ عيب يا بنت انت أرمل ··

وردت مريم في تمرد وكأنها تريد معاكسة حماتها :

ـ أنا اعرف ذلك ·· عيب ·· أرمل ·· لا يهم هذا مسيحي ·· مثلي·

قالت العجوز في اتهام :

ـ ولكنه ارثوذكسي ·

وردت ماري دون اكتراث :

ـ لا فرق كلنا بشر ·· انظر يا جوزيف ·· أنا لست سكرانة ولا أشرب الآن لكي اتشجع ·· لا ·· كن مطمئنا ·· ان وساوسك لا مبرر لها ·· استاذك بحاجة اليك ·· لا تفسد نفسك ·· أنا لا أفكر فيك ·· وأنا اصلي في الكنيسة الكبيرة ·· أنا فقيرة ·· نعم ·· ولكن كنيستي غنية ·· حتى ان هذه العجوز تتصدق عليها ايضا من مالي ·· من تعبي ·· تقطع الرغيف عن أفواهنا ·· لكي تقدمه هناك ··

وصمتت المرأة على سعال طفلها الجاف المتقطع ، الذي انتهى بالانين الخافت ، في حين ظل محمد يتتبع بكل حواسه ما يجري امامه ، دون ان يطاوعه أي عضو من اعضائه على الحركة · حتى انه كان يتمنى ان يتوقف لغط قلبه في صدره ··

ـ محمد ·· لا ·· يجب ان أقول لك يا جوزيف ، لا ادري ماذا أقول ·· ماذا تريد الآن ؟ لم عدت قبل أن تراني ؟ ها أنذا أمامك ·· قل ·· ماذا تريد ··؟ لم لا تتكلم ؟ أنا أعرف بانك جئت دون هدف ·· ظننت بأنك سببت لي شقاء بسماحك لي بأن اسرد عليك كيف مات زوجي ·· والحقيقة ان زوجي لم يمت ·· طريقة موته فقط اثرت في نفسي ·· وملابسه ايضا ·· سألتني عن رأيي بهؤلاء الناس الذين قدموا لتحريرنا

من الاتراك ·· ولم اجبك ·· هل تفهمني انت ؟ هل تعرف من أنا ؟ انت
لا تعرف نفسك ·· فكيف تريد ان أقول لك رأيي ؟ سأقوله الآن ·· لا ··
لن أقوله ·· لن نجتمع ثانية ·· ارجو الا تراني ·· والا تحاول رؤيتي ··
هل اهمك الى هذه الدرجة ؟ لماذا لا تجيب ·· اجلس ·· الا تريد ؟ طيب ··
من دلك على البيت ؟ الا تجيب ؟ ذلك أفضل ·· الى أين ؟ تعال ·· تعال ··

ثم شيعته الى الباب دون أن تتمكن من الامساك بـه ·

●

## - ١٣ -

انهمك محمد قاديش طوال اليوم التالي بالتحضير لعقد الاجتماع ، دون ان يغيب عن باله لحظة واحدة ، تأثير ذلك اللقاء العاصف مع المرأة مريم ، التي لبست في البداية لبوس الانسانة البسيطة المسكينة ، ثم ظهرت بعد ذلك ، بسيطة مسكينة ايضا ، ولكن على مستوى غير عادي · فعندما شيعته مساء الامس الى الباب – وهو يكاد يتساقط كسكير انهكه الشراب ، هرع لفوره ليقع بين ذراعي استاذه فاقد النطق · حيث عرف بأن مريم مرت على الصيدلية عقب ذهابه لتأخذ دواء لولدها · وعندما استفسر منها الصافي عن المشكلة ، رفعت النقاب – أو جزءاً من النقاب – عن حقيقتها · وقضى قاديش ليلته ساكنا مفتوح العينين ، يحلل الموقف على ضوء ما عرفه عنها من استاذه · وعكف على طرح الاسئلة والاجابة عليها بينه وبين نفسه « مريم اذن امرأة عاملة · تشتغل في معمل حياكة يملكه يهودي · انها تنقد الرب ،

وتفهم السياسة ، وتحلل الامور . ولكن كيف عرفتني بالليل ونادتني باسمي ؟ وقدمت لي جسدها لاستند عليه ؟ ثم حدثتني بذلك الاسلوب الرصين الرهيب ؟ » . كيف تجرأت وحدثت استاذي عن نفسها في وضوح، واخذت منه اعترافا كاملا عن قصتي كلها ؟ هذه المرأة التي تتلمذت على يد أحد الآباء اللاتين في كنيستها ، والذي كان يخفي تحت مسوحه الرهبانية افكارا أبعد ماتكون عن الميتافيزيك . هذه اذاً من ظننت بأني سببت لها شقاء . وبالرغم من أنها بكت امامي وهربت ولم تعد ، هذه اذاً تسخر من الشقاء ..

كان قاديش يهيء للاجتماع ، وكل افكاره وحواسه تنجذب نحوها : « لم يفض لي أستاذي بكل شيء عما دار بينهما . كتم عني كثيرا من الحقائق ولكنه لم يخف عني شعوره بالسعادة في تعرفه عليها حين قال : « هذه امرأة طيبة يجب أن تفيد منها » ..

كان قاديش يفسح مكانا في الجزء الخلفي من الصيدلية يتسع لخمسة رجال . اتخذ من السرير السفلي مكانا لاثنين . وصف مقابله صندوقين . ووضع في المنتصف طاولة صغيرة كانت تستعمل لتناول الطعام . سيحضر حسن العلي ، ورجلان آخران اشار الصافي الى احدهما اشارة خاصة . كان قاديش يجهل الغاية منهذا الاجتماع ، ولكنه عمل له بأريحية وحماسة ، لايطفيء جذوتهما انشغال أفكاره ..

كانت أرض الدكان طينية باردة ، مفروشة بطبقة رقيقة من الرمل الاحمر . وكانت الجدران مطلية بغبار جصي أعطاها لونا أبيض . يقلل الى حد ما من الظلمة في النهار – برغم الضوء الذي ينبعث من بابها الواسع ذي الاضلاع الاربعة . أما الجزء الخلفي ، فتضيئه نافذة صغيرة ذات حاجز حديدي شبيه بفتحة الزنزانة . وهذا المكان على ضيقه ، كان يستعمل عنبراً

للنوم ، وغرفة للجلوس ، ومطبخا ، وحماما،ومستودعا للادوية وتحضيرها، وقاعة للاجتماعات التي كانت تعقد بين الحين والاخر ، ويحضرها أناس ليس لهم اي شأن في المجتمع ، غير أنهم موجودون فيه في كثرة · كانوا عبارة عن الخميرة في العجين ، والانفحة في قدر الحليب ، المعد ليصير جبنا ·· كانوا يشكلون الاسمنت المسلح لقاعدة هرم كبير · أشخاص بسطاء عاديون جدا ، يملأون الشوارع والبيوت المتطرفة والقرى والجبال ، ويعملون في صمت ، ولا يبرزون الا عند الهزات · كحبات الحنطة الناضجة التي تعلو على وجه الغربال ·

وعاد الصافي عصر ذلك اليوم وهو يفرك يديه من البرد ، وقال لمساعده :

ـ عال أعددت كل شيء ؟ طيب·· لن نجتمع هنا ··

ورفع محمد حاجبيه من الدهشة والاستنكار :

ـ كيف ؟ ولماذا ؟

ورد الصافي في كدر :

ـ ان أخبار باريس لا تدعو الى الاطمئنان · وقد أصر زميلنا «الديري» على أن يكون اجتماعا سريا · وعنده حق ، يجب الاخذ برأيه ، فقد تمرن على أساليب الانكليز الذين يحتلون بلده · فضلا عن أننا لم نستطع أن نحصل من الحكومة على طلقة واحدة من الفشك · فقد خشيت أن يتسرب منها الى دير الزور والعراق ·

وسأل قاديش :

ـ وأين سيكون الاجتماع اذن ؟

ـ لا ندري··قد يكون في الميدان ·· عند تاجر أسلحة ، أو في القطار · نحن مسافرون على كل حال ··

ومع دهشة محمد لهذا الخبر راح الصافي يصدر أوامره :

ـ املاء صندوقين بالمواد المطهرة للجروح ، هل بقي عندنا اوكسجين ؟ ضع كل صبغة اليود وارزم كل القطن • نريد كحولا أيضا • احزم ملابسنا • انظر •• بماذا تفكر ؟ مريم غير مستاءة منك • ارني عينيك ، طيب •• أريد لقمة آكاد أموت من الجوع •

في مساء اليوم التالي اجتمع على رصيف محطة البرامكة خمسة رجال • كان اليوم الاول من آذار • وريح قارسة تعول من حولهم • وظلام جامد يلفهم تحت أجنحته • كانت هيئاتهم الخارجية توحي بأنهم نماذج مختلفة من البشر ، متفاوتو الاعمار ، مختلفو اللباس ، ينضم بعضهم الى بعض ، وكأنما يخشون أن تطيح بأحدهم نفحة من هواء • والحقيقة أن أقدامهم كانت راسخة على الارض ، تدعمها قلوب صلدة ، رؤوس يعتمل فيها أغرب الافكار • كان الصافي يغلف رأسه بغطائه الصوفي ، ويرتدي معطفه التقليدي الواسع ، وينتعل حذاء مطاطيا طويل الساق • وقد استبدل قاديش بطربوشه الاسود ، شملة زرقاء منقطة ، اختفى رأسه فيها ، وأسدل أحد أطرافها على وجهه فلم يبد منه غير عينيه المتوثبتين • أما الثلاثة الباقون فكان لباس رأسهم موحدا ، وهو الشملة والعقال • لفوا أجسادهم بعباءات رمادية ، واسقطوا أقدامهم بأحذية ثقيلة من نمط عسكري • وكانت حركتهم بطيئة ، تدل على انهم تصفحوا بمختلف الاسلحة والذخائر •

قال الصافي لقاديش :

ـ اقدم لك الدكتور حميد الرقي من دير الزور وهو زميل لي في باريس • ثم هذا الشاب تعرفت عليه في حلب ، نجيب •

ورد الشاب بنفحة صلدة :

ـ نجيب عويد ••

فقال حسن العلي :

ـ نحن تعارفنا سابقا ••

ورد محمد :

ـ تشرفنا يا اخوان ·· وسنرى وجوهنا في القطار في صورة أفضل ·

وبعد قليل سمع من الرصيف الآخر للمحطة صوت ينادي :

ـ يا محمد قاديش ·· يا محمد قاديش ·· الى المأمور ··

والتفت الرجال الخمسة الى مصدر الصوت · واستدار محمد يريد تلبية النداء · غير أن الصافي أمسكه من ساعده :

ـ تمهل ·· هل أنهيت ترتيبات الشحن ؟

ـ كل شيء جاهز يا استاذ ··

وفكر الصافي رافعا رأسه في الهواء ، ثم سأله :

ـ لماذا ينادونك فيما تظن ؟

ـ لا أدري ·· لربما بشأن الصناديق ·· فقد كتبت عليها كما أخبرتني قمر الدين ··

وقفز محمد الى بناء المحطة ، في حين وقف الرجال الاربعة يتشاورون · وما لبث أن عاد الشاب بأسرع مما كان ينتظر ·

قال وهو يلهث :

ـ يريدون أن املأ بيانا مطبوعا بثلاث لغات عن الاسلحة والذخائر التي معنا ·

وصعق الرجال · وتحرك نجيب عويد في حركة غير ارادية ، فقرقع من داخله اصطكاك مكتوم · لكن الدكتور الرقي أوقفه قائلا :

ـ انتظروا ·· لا نريد هنا ثورة الآن · تعال معي يا شفيق ، سنسوي الامر بشكل معقول ··

واختفى الرجلان في الظلام ، في حين بربر حسن العلي :

ـ منذ متى هذه الاجراءات ؟ هذه هي المرة الثالثة التي أسافر فيها مع صناديق الاسلحة دون مشاكل . فماذا حدث اذن ؟

ورد عويد :

ـ المشكلة تتأزم . قال الاخ بثلاث لغات ، ولا شك في أن اللغة الفرنسية هي الثالثة ، فما معنى هذا يا ترى ؟

قال قاديش :

ـ القضية معروفة .. لن تخلو رحلتنا من متاعب .

وكان يجهل كل شيء عن الرحلة .

وقال عويـد :

ـ يجب العثور على سيارة شحن هذه الليلة .. يجب ألا نبيت هنا بأية حال .. هذه مؤامرة علينا ..

واستدار في ثقل ، ثم اختفى في الظلام . ووقف الفلاح حسن العلي مع قاديش وحيدين ، يتنسمان أدق النأمات . وسمع جرس المحطة يعلن عن قدوم القطار . وصرخ حسن ـ وهذه بادرة جديدة من الرجـــل الصامت ـ :

ـ وأين ذهب هذا الشاب الارعن ؟ أين اختفى ؟

ورد محمد محاولا أن يسيطر على هياج رفيقه ، مغتنما هذه الفرصة ليرفع نفسه الى مستوى الرجال :

ـ سأذهب للبحث عنه .

ـ لا .. قف .. سنضيع بعضنا بعضا ، لا بد من أن يعود عندما يسمع صفير القطار .

ووصل القطار من الجنوب ينفث من منخريه أنفاسا لاهثة ، ويرمق الظلام بعينين حمراوين غاضبتين . ثم اطلق صفيرا مبحوحا ، وتوقف

يصطدم بعضه ببعض • مضت عشر دقائق على الرجلين خالاها عمرا • كان المسافرون القلائل قد لاذوا بالعربات ، واغلقوا دونهم النوافذ والابواب • وكانت الريح تولول بين أغصان الشجر المحيط بالمكان ، وتعزف على خطوط الهاتف انغاما مستهترة صاخبة تفرغ الصبر ••

وصاح محمد :

ـ ماذا نفعل يا حسن ؟ سأذهب أنا لمقابلة رجال الامن •

وعاد حسن الى الصراخ :

ـ انتظر لنذهب معا •• ان هذا لا يطاق ••

ومضى الرجلان متجاوزين عدة خطوط من سكة الحديد ، حتى وصلا الى غرفة كتب عليها ( أمن ظابطان ) • وهناك شاهدا أحد ضباط الجيش العربي يقوم بفحص بعض الاوراق • وعندما سألاه عن رفيقهما ، أجاب بعد تلكؤ :

ـ ذهبا الى عنبر الشحن ••

ولم يعثرا عليهما في العنبر • وبينما كانا يتفقدان بقية المكاتب ، جلجل جرس المحطة معلنا عن قيام القطار • وكانت هذه اللحظة بالنسبة لمحمد قاديش من أبرز مواقف حياته • بل انها تعتبر الانطلاقة الاولى • ها هو ذا يقف في محطة في الظلام ، تحت رذاذ المطر ، وعويل الريح والبرد القارس ، مع ثائر غريب ، وفي جيبه خمس تذاكر سفر وقائمة بشحن عشرة صناديق أسلحة وذخائر لا أدوية • اختفى رفاقه الثلاثة الذين سيسافرون معه في مكان مجهول • والآن يصفر القطار ايذانا بالرحيل • واختبر نفسه بهذا السؤال ( والآن يا محمد ماذا عليك أن تفعل ؟ ) وأجاب عن سؤاله بنفسه وبصرخة عالية :

ـ حسن يجب أن نسافر هيا ••

وصعد الرجلان الى احدى العربات وهي تتحرك . كان قاديش يقول لنفسه طوال الوقت الذي قضاه في البحث مع زميله عن رفاقهما الضائعين : ( والآن يا محمد انك تبدأ حياة جديدة ·· ستحمل بندقية وتقاتل حتى وان لم تعثر على استاذك · ستبقى هناك وانتهى الامر · عليك أن توجد ذاتك فلن تبقى معلقا بأحد · وأنت أحد الناس أوجدتك ظروف في هذا المكان ، ومعك رجل قوي البأس فكن له رفيقا ، واجعل منه رفيقا لك · هل اخطأت بعدم انتظارك ؟ لا ·· لم تخطىء · عليك أن تسـافر ·· أن ترحل الى الشمال والغرب · الى معاقل الثورات ·· ) ·

وانتقل مع رفيقه الى العربة الثانية · وكان القطار يبتعد عن المحطة متسارعا في لهاثه المحموم · كانت العربات تتألف من مقصورات يفصل بينها حواجز · وكان لا بد لهما ــ كي يفتشا عن رفاقهما ــ ان يسيرا على طول الافاريز الخارجية ، معتمدين بأيديهما على مسك القضبان النحاسية الممتدة على طول الابواب ، متأملين وجوه الركاب ، مكافحين البرد والمطر والريح ··

كان حسن العلي لا يكف عن الصراخ :

ــ الى أين تقودني يا ولد ؟

ويجيب محمد في تروّ وحزم :

سنعثر عليهم ·· لا بد أنهم في القطار ·

وانصاع الرجل في النهاية ، وراح يقتفي أثر زميله الارعن ، وهـو يردد في نفسه : ( كيف بلاني الله بهذه الوقعة ·؟ )

وأخيرا ·· أطلا على مقصورة ، فتح محمد بابها وصعد · ثم مد يده ليساعد زميله على الصعود · قال محمد لمعلمه الذي كان منحنيا يصغي الى همسات نجيب عويد :

ـ لماذا لم تخبرونا عند صعودكم ؟

وهز الصافي راسه دون أن يجيب • وكأنه يقول : كان يجب أن تفهم من تلقاء نفسك •

كان الرجال الثلاثة قد احتلوا مكانا في أولى العربات ذات الدرجة الثالثة • وجلسوا في أمان واطمئنان ، دون أن يكلفوا انفسهم عناء الاسئلة التي طرحها قاديش على نفسه • وعرف الشاب بعد مدة طويلة ، أن الرجل ، اذا أراد أن يتحمل الاعباء الكبيرة عليه أن يحل المشكلة الصغيرة • كما علم بعد قليل بأن عويد التقى بالصافي والرقي بنفس الطريقة نفسها التي عاناها مع حسن العلي • وعلى الضوء الخافت المنبعث من سقف المقصورة ، تعرف قاديش على زميليه الجديدين • وهاله أن يكون نجيب عويد ليس شابا : كان قصير القامة ، رقيق العود ، أسود الشاربين ، ومن عينيه ، ينبعث لهيب محرق • كان في حوالي الاربعين من عمره ، ولكن تصرفاته تدل على أنه أصغر من سنه بكثير • وعرف بالشخص الآخر أنه الدكتور حميد الرقي ، الذي حدثه عنه استاذه في الماضي كثيرا • وسأل حسن العلي وهو يستريح على المقعد :

ـ وماذا فعلتما ؟

أجاب الدكتور في ايجاز :

ـ سننزل في حماه •

في حين ظل الصافي وعويد يتشاوران في قضية بدت على غاية من الاهمية • وهتف قاديش :

ـ ولكن التذاكر الى حلب ••

فرمقة الدكتور بنظرة جانبية • وقال في لهجة مشابهة لتلك النظرة :

ـ هكذا طلب الينا ·· الا نتخطى حدود حماة ، بعد ان ادّعينا أن الاسلحة للتجارة وليست للاستعمال ··

وأضاف في سخرية :

ان بلدنا الذي يحتله الانكليز علنا خير من بلادكم التي يحتلها خفية ·

وضحك في أسف وهو يهز رأسه ·· كان حسن العلي لا ينبس · يرفع رأسه الى سقف العربة ويتثاءب في صوت مسموع ، ثم يسند رأسه الى الحاجز ويستسلم لاهتزازات العربة · ورفع الصافي نظارتيه من فوق أنفه ، فبدا وجهه مليئا بما يفصح عن المتاعب ، وقال :

ـ سنعرض عليكم القضية يا اخوان ·

وتطلع الى قاديش خاصة واردف :

ـ بعد الاسئلة العديدة ، اضطررنا الى الاعتراف بأن الصناديق مملوءة بالبنادق والذخيرة ، كما اضطررنا الى تعداد أشكالها وجنسيتها ، واملاء البيان المطبوع باللغات الثلاث ·· وعندما عرفوا بأننا متوجهون الى حلب ، رفض ضابط الامن التصريح لنا بحمل الاسلحة · ولكن الدكتور ادعى بأن هذه الاسلحة استوردناها لغاية الربح ·· ولم تجد كذبته هذه ، مما دعانا الى أن نطلب النزول في حماة · وهذه أبعد نقطة سمح لنا بالوصول اليها · وعلى هذا فينبغي لنا ـ باعتبار أن المسافة قصيرة ـ أن نبدأ اجتماعنا من الآن ·

ونهض الاستاذ الصافي ، وتأكد من اغلاق النافذتين ، ثم عاد الى مقعده في حين كان القطار يتمهل ويصفر وهو يدخل محطة دمر ·

ونزع الدكتور الرقي عباءته وألقاها جانبا ، فظهر تحتها معطف طويل من جلود الماعز · تمنطق تحته بمسدسين ضخمين من طراز ( براونتج ) ، ومذخرين كبيرين محشوين بالذخيرة · وكان قد رحل الى دمشق في أعقاب

الامير فيصل ، بعـد خطبته العتيدة في حلب ، وبعد أن ألقى عليه سؤاله الشهير • وتطلع الى زميل المنفى بعينين زائغتين وكأنه يقول له « ما العمل » ؟ ثم التفت الى نجيب عويد قائد ثورة الشمال ، وطلب اليه أن يتكلم •

وفي تلك اللحظة ، وبينما كان القطار يتوقف في المحطة ، طرق الباب ثم فتح ، واطل منه وجه أحد المسافرين ، وكان يحمل على كتفه سلة وكيساً صغيراً من الكتان • وهرع حسن العلي ليساعده في ادخال أمتعته : غير أن الدكتور أوقفه معترضا :

ـ حسن •• نحن فلاحون مثلك ومثله ، غير أن لنا عملا ينبغي لنـا انجازه ، دعه يفتش عن مقصورة أخرى ••

وبدا على نجيب العويد انه وجد هذه الملاحظة ناقصة فرد على الفور :

ـ وأنا فلاح أيضا ••

## - ١٤ -

استهل الجلسة الدكتور حميد الرقي قائلا :

ـ سأحدثكم عن وضعنا أولا ٠

كانوا يجلسون متقابلين ، عويد وقاديش من جهة ، والآخرون في الجهة الثانية ٠ وعندما تحرك القطار قال الصافي :

ـ ما رايكم في أن نشرح الوضع العام قبل كل شيء ، ثم نخلص الى النتائج التي ينبغي لنا دراستها ؟

قال عويـد :

ـ هذا راي طيب ٠

قال الصافي وهو يعيد نظارتيه الى عينيه :

ـ ولنبدأ من هنا ٠٠ الفرنسيون يحتلون الساحل كله مع انطاكية

وكيليكيا ، أي انهم يحتلون شمال البلاد وغربها ، والانكليز يحتلون الشرق : دير الزور عندنا ، والاقضية الاربعة في الاراضي اللبنانية ، عدا عن جيوشهم المرابطة في قلب البلاد • وغدا تمهيدا لتنفيذ اتفانية ( سايكس ـ بيكو ) سيفرغ الانكليز شرق لبنان للفرنسيين • أما الوضع في الداخل فاظن أن ما حدث معنا هذا المساء يعطي تفسيرا واضحا لحقيقته • فالحكومة الفيصلية لا تزال تاتمر بأمر الحلفاء ، وجيشها ما يزال جزءا من جيوشهم •

قال الدكتور :

ـ ان القضية ما تزال على كف عفريت

وعلق قاديش باسما :

ـ هذا تعبير قريب من الحقيقة ••

واستطرد الاستاذ مشجعا مساعده بنظرة باسمة :

ـ ونتيجة لهذا اشتعلت الآن ثلاث ثورات في الشمال والغرب ، وهناك ثورات أخرى في سبيلها الى الظهور • ومعنا الآن نجيب عويد الذي أطلق أول رصاصة في كفر تخاريم • ثم حسن من سواعد صالح العلي القوية • وكانت لدينا فكرة طيبة عن امكانية مساعدة الحكومة لنا ، ولكن ثبت لنا بعد التجربة اننا كنا مخدوعين ، بالاضافة الى انهم في باريس يتصرفون في شكل يحير العقل •

وصرخ الرجال دفعة واحدة :

ـ ماذا ••؟

ورد الصافي بحركة من يديه نادما على تسرعه ، مراقباً عيون الرجال الجاحظة من وراء نظارتيه • ثم أردف :

ـ فالامير يعمل الآن للاجتماع مع كليمنصو وبوانكاريه وقد علمت بأنه سيعود قريبا •

قال الدكتور :

ـ كما علمت بانه يمهد للاجتماع بـ ( ولسن ) وقد اعجب هـذا بشخصية الامير وعبر عن اعجابه بقوله ( أنا لم أر المسيح ، لكن عندما رأيت الامير فيصل تذكرته ) ٠

وضحك الرجال في أسى ، في حين استطرد الصافي :

ـ وقد تسرب الي نبأ يقول بأن ولسن وعد الامير بأرسال لجنـة لاستفتاء اهالي البلاد ٠ نعود الآن الى مشكلتنا الحالية ٠٠ ثورتنا الاولى هي ثورة العلويين وسيحدثنا عنها الشيخ حسن ٠ أما ثورة الشمال فنجيب عويد هو بطلها الاول ٠ وانطباعاتي الخاصة عن هاتين الثورتين ، وبعـد اجتماعي بقائديهما ، انهما بحاجة الى سياسيين وأصحاب وعي ٠ لأن المحاربين وحدهم لا يعطون المردود الكامل دون أن يوجد بينهم من يوجههم ويكون لهم بمثابة الضوء المنير ٠

ورفع رأسه الى حسن قائلا :

ـ شيخ حسن ٠٠ تفضل ٠٠ أيها الاخوان أريد أن أعرفكم على هذا الرجل ٠ فهو بالاضافة الى وعيه الوطني وسماحته المذهبية ، فهو شاعر ملهم وقائد ممتاز ٠٠

ونهض حسن العلي لينتزع عباءته ٠ وفي هذه اللحظة اجتاز القطار منعطفا مفاجئا ، فمال الرجل ميلا شديدا الى جانب ، مما جعل فوهة سلاحه تصدم رأس قاديش وتسبب له ألما شديدا ٠ ودون أن يأبه الثائر لما حدث، لف معداته داخل عباءته والقى بها على الرف ٠ كان يرتدي معطفه العسكري السابق ٠ وقد تجلى من خلال شاربيه الاشقرين المعقوفين طيبة وسؤدد ، أكدتهما نظرات عينيه الزرقاوين تحت حاجبيه المتهدلين ٠ وعاد الى الجلوس قائلا بلهجته الجبلية :

ـ ما هو تاريخ ثورتنا ، والله يا اخوان نحن أول من نقوم بهذه الثورة تحت راية قائدنا وشيخنا صالح العلي ·

وبعـد ان استعرض الشيخ حسن مراحل الاشتباكات وتطوراتها ، توقف عند النقطة التي وصلت اليها ، دون أن يغفل التفاصيل الدقيقة التي تكمن في جوانبها ومؤثراتها ·

قال الدكتور :

ـ ان الثورة في الجبال لا تزال على كل حال في أولى خطواتها ، ولا تعدو أن تكون عصابة للكر والفر والتخريب · ولكي تقف على أقدامهـا في ثبات وتتخذ شكل جبهة قوية ، ينبغي لها تلافي العوامل التالية : أولا ـ اصطدامها مع الاسماعيليين ، وثانيا ـ منع تدخل المستشارين والضبـاط الانكليز ، ثالثا ـ مكافحة العملاء والجواسيس ··

قال قاديش :

ـ اكتب هذه الاشياء يا شيخ حسن ··

فرد الصافي :

ـ ان حسن أمي ·· لكنه سيحفظها ··

ودهش محمد لهذا الخبر · وقال في نفسه ( مع انه شاعر ) · وفسر حسن الموضوع بنفسه وأجاب مخاطبا العويد :

ـ اننا ننظم الشعر بالسليقة كما كان يفعل الشـعراء الاقدمون ،· وهز عويد رأسه ، وكأنه لم يسمع الاجابة · كان غارقا في خضم أفكاره وسأل فجأة :

ـ ولكنني لا أفهم · كيف يتقاتل أبناء مذهب واحد ودين واحد ووطن واحد في الوقت الذي نحارب فيه كلنا عدوا مشتركا ·؟

قال حسن :

ـ ان القضية بسيطة .. قصة ثار لا أكثر . الا أن المسألة الاهم هي أن الفرنسيين بدأوا يستفيدون من هذه الوقيعة ..

واخرج قاديش من جيب سترته دفترا صغيرا وكتب عليه شيئاً . وتابع حسن حديثه :

ـ اما بشأن تدخل المستشارين والضباط الانكليز . فقد لمسنا منهم في البداية نصيحة وعونا . ولكن بعد مدة عرفنا بأنهم يخونوننا ويتجسسون علينـــا ..

وكتب قاديش هذه الملاحظة ايضا وتابع الشيخ حسن شرحه :

ـ أما العملاء والجواسيس . فانهم والله كثيرون . ولا يخرجون عن ابناء ملتنا . حتى أن الشيخ صالح اعدم منذ مدة قريبة ثلاثة رجال أحدهم من عشيرته ..

كان القطار في هذه اللحظة يجتاز محطة الجديدة . يشد عزيمته من أجل الصعود في جبال الزبداني . وقد أصغى الجميع الى هديره المتصاعد ، دون أن يخطر في بال قاديش ، انه سيزرع هذه الارض بعد سنة خطوة خطوة ، ويحصي ترابها واحجارها بنبضات قلبه تحت لهيب شمس محرقة . وفي غضون ذلك كان الدكتور يفتح حقيبته ويخرج منها خمس برتقالات يافاويات ، وزعها على الحاضرين وهو يقول :

ـ اذن سنحرم من برتقال يافا .. ما رأيك يا شيخ عويد .؟

وأفاق الثائر على سماع اسمه وهو يتفحص البرتقالة بعينين شاردتين ، ورفع رأسه قائلا :

ـ والله أنا أفكر بجسر الشغور ..

وهنا تطلع الى قاديش وسأل سؤالا مباغتا :

ـ لم نتعرف على الاخ ..

وبهت الصافي لهذه المفاجاة ، وانفجر في ضحكة ذات رنين واجاب :

ـ حقا ؟ لقد نسيت .. ان هذا الشاب ـ باعتبار اني اعده جزءا منا ـ فاني اظن ان كل انسان ما ان يجتمع به حتى يمتزج به امتزاجا كليا ..

واعتبر عويد هذه الاجابة كتعريف كامل عن شخصية قاديش . فهز رأسه ومضى يشرح المسألة التي تؤرقه :

ايها الاخوان ستكون جسر الشغور محاطة بثلاث ثورات ،والفرنسيون يمهدون لاحتلالها بين يوم وليلة ..

وهتف الصافي :

وهذا ما نحن في سبيل بحثه . هذه نتيجة نسعى الآن للتوصل اليها ..

وقال عويد في شراسة :

ان الثورة الثالثة هي في جبل الحفة . وقد اجتمعت انا شخصيا بآل البيطار رؤساء العشيرة ومونتهم بالبنادق والذخائر بواسطة أحد المجاهدين المدعو هزاع أيوب . كما مهدت للاجتماع بينهم وبين هنانو.وبهذا ستحاط جسر الشغور بثورة العلويين في الغرب والحفة من الجنوب وثورتنا من الشرق والشمال . ومن الغريب أن الطريق اليها أمام الفرنسيين لايزال مفتوحا ، وبسقوطها تصبح حلب منطقة مكشوفة .

والتقم الرجل نصف البرتقالة ، جعلت سبلتي شاربه تعملان نصف دائرة حول فمه المنتفخ . وتابع وهو يزدرد :

ـ يصل حلب بالغرب ثلاثة طرق رئيسية ، اذا استثنينا طريق عفرين الذي يقف دونه جبل الاكراد . الاول هو طريق جسر الشغور وهو الاقرب. ويليه طريق حارم . والجنوبي والاخير طريق ـ ادلب تفتناز ـ وثورتنا تشمل البلاد والقرى التي تضمها هذه الطرق ، أما طريق جرابلس ...

وصمت نجيب العويد ليفسح المجال الى الدكتور الذي تأهب للكلام.
قال الدكتور :

ـ ولا يمكن لثورتنا في دير الزور أن تنجح مالم نحفظ سلامة هذه الطرق لكي تبقى حلب مركزا للانطلاق ..

كان قاديش يسجل هذه الملاحظات تحت مراقبة معلمه . وكان يضيف اليها بأسهما وحواشي وتعليقات بخط صغير ، دون أن يعرف حتى الآن ، ما هي المهمة التي ستوكل اليه . وتطلع الدكتور الى ساعته ، ثم نظر من النافذة المغلقة . وعاد الى مقعده يضطجع عليه في استرخاء وهو يقول :

ـ ان الثورة التي ترتب في دير الزور تختلف كل الاختلاف . هنا تثورون ضد الفرنسيين ونحن هناك نثور ضد حلفائنا ومحررينا .. ضد الانكليز . ماذا تكتب يا محمد هل تريد أن أبطىء في الكلام ؟

ورد قاديش :

ـ لا .. مجرد ملاحظات لاأكثر ..

ومضى الرقي في شرحه :

ـ يجب أن نعلم بأن دير الزور ليس لها حدود معينة ، ولا يعرف حتى الآن ما سيتم بأمرها لانها لم تكن في الماضي تابعة لا الى العراق ولا الى الشام ، بل كانت ولاية مستقلة مرتبطة باستنبول مباشرة . فلأربع اشهر خلت خرجت تركيا من الحرب ، وبقي الحاكم التركي فيها مع موظفيه ينتظرون اشارة من حكومتهم . وعندما تأخرت هذه الاشارة ومل الحاكم الانتظار ، رزم دفاتره وقيوده وأرسلها الى تركيا . ثم غادر المدينة مع موظفيه دون سبب معقول. وعندها شكلت دير الزور ولاول مرة في تاريخ البلاد كلها حكومة شرعية عربية من ابناء البلد ، تناوب أمرها رؤساء العشائر ، وقدر لهذه الحكومة ألا تدوم غير شهر واحد . اذ وصل في اوائل كانون الاول

الشريف علي ناصر على رأس قوة من الجيش العربي وقال انه جاء لتحرير المدينة من الاتراك ·· وضحـــك الحاضرون وســط دهشتهم واستغرابهم الفظيع · في حين مضى الطبيب في حديثه :

ـ ويجب الا ننسى · فقد علمت منذ يومين بان الحاكم التركي ما ان وصل الى بلاده حتى حوكم مع موظفيه واعدموا جميعا رميا بالرصاص ، لان هدنة ( رودوس ) قضت ببقاء كل حكومة على حالها · ومعنى هذا ان ولاية دير الزور كانت ستبقى تركية حسب زعمهم · اما الذي حدث فهو ان انقلب الحال عندنا انقلابا رهيبا · فقد عزل الشريف علي ناصر اعضاء الحـكومة الوطنية ، واحل محلها حكومة ( هاشمية عراقية انكليزية ) اما ما فعلته هذه الحكومة بعد شهر واحد فقط ، هو ان سلمت الولاية الى الانكليز وحدهم ··

كان جعير القاطرة المتقطع لا يكف عن الصخب · وتوقف الدكتور عن الكلام ليصغي الى لهاثها المتعب البطيء ، وكأنها تهم بالرجوع الى الخلف · ثم مضى يشرح الموقف :

ـ فمنذ اربعين يوما وصلت الينا قوة انكليزية تحت قيادة « ميجر » نسيت اسمه · واحتلت المدينة احتلالا عسكريا ، استقبلها المتصرف مرعي باشا الملاح على صهوة جواده الادهم ، ثم غادر المدينة بناء على اوامر الشريف · ومن الطبيعي بعد ذلك ان يصبح لنا نحن الديريين حجة بالكلام ، بعد ان أخرستنا في البداية دعوات الرجال الصالحين · فقمنا بمظاهرة صـــاخبة ضمدت أنا على أثرها خمسة عشر جسدا ، واشتركت بدفن سبعة شباب ، الى ان هب الرجال الصالحون مرة أخرى معلنين بان رسالة وردت من شكري باشا الايوبي حاكم حلب الهاشمي ، يصرح بها الى الانكليز باحتلال البلد ·

وصمت الطبيب دفعة واحدة يزوي ما بين عينيه ، على ضوء لفافة الشيخ حسن العلي ذات الدخـان اللاذع · ودام الصمت كثيرا ، لا يعكره غير

انتفاضات القطار في وصوله الى قمة جبل الزبداني • ولسبب ما صرخ نجيب العويد :

ـ وماذا اعددتم للثورة يا دكتور ؟

ونفخ الطبيب من فتحتي انفه بخارا حارا ، واجاب في مرارة :

ـ ماذا اعددنا ؟ ان ثورتنا غير مشروعة ، فلماذا منعونا اذن من الوصول الى حلب ؟ لم كل هذا التدقيق على حمل الاسلحة ••؟ ان ثورتنا ضد الانكليز ستكون ضد حلفائنا •• ضدنا •• وهل يثور الانسان ضد نفسه •• على كل حال فاننا نعمل للاتصال برمضان شلاش قائمقام قضاء الرقة العسكري نطلب اليه تزعم الثورة • ويصر بعض المثقفين على الحاق الدير بالحكومة الهاشمية بعد احتلالها وطرد الانكليز منها • غير ان جماعتي قلة • من اجل هذا كما قال الاستاذ نحتاج الى وعي سياسي • كانت رسالة الايوبي الى الشعب بمثابة الماء الذي اطفأ النار • فما دام الهاشميون قد أمروا ، فلا بد ان يكون لاوامرهم مغزى • انهم يفهمون اكثر منا •

وكما قال لي أحد الشيوخ : وفوق كل ذي علم عليم ، وكما قال آخر : فعسى ان تكرهوا شيئا • هذه هي القضية يا اخوان • ليتنا يا شفيق بقينا في باريس • كان ذلك افضل •• ماذا جئنا نفعل هنا ؟ اذا قمنا بثورة فستحاربها حكومة دمشق قبل ان يحاربها الانكليز ••

وتهدج صوت الدكتور وبدا كأنما يهم بالبكاء :

ها أنذا انسان مشرد•• مطارد في بلدي •• أنا غريب •• هنا في دمشق غريب •• وفي الدير ملاحق •• فليت الحاكم التركي لم يرحل ، كنا اذن سنجد فيه على الاقل تمثالا نفرغ فيه غضبنا وحقدنا ، اما الآن ••

واترامت محطة الزبداني تلمع اضواؤها عن بعد • بينما اندفعت القاطرة الى المحطة جارة وراءها ذنبها الطويل • وقال الصافي في نبرة حازمة ـ وكأنما يردع زميله عن الوقوع في هوة اليأس ـ :

ـ طيب ·· ايها الاخوان ·· لنتعجل في تحصيل النتيجة ·· ستكون لدينا ثورات جديدة في لبنان · هكذا نرى بأن سلسلة الثورات تبدأ من الشمال حتى الجنوب · فاذا توحدت امكنها ان تحدث خطا دفاعيا هائلا ، وهوة هجوميةفي نفس الوقت · اذ أن ما يشوب كل ثورة في بدايتها هو نزعتها المحلية وجمودها الاقليمي · ولعل ثورة الدنادشة في تلكلخ ستكون درسا لاولئك الذين يدخلون الاعتبارات الدينية أو العنصرية في حسابهم · وعلى هذا يجب ان نكوّن جهازا يربط هذه الثورات يشبه ····

وأمرّ الصافي يده فوق صدره من الاعلى الى الاسفل وسأل الدكتور :

ـ ما اسم هذا الجهاز يا حميد ؟ ماذا يسمونه في فرنسا ؟

قال الطبيب وكأنه استعاد ذاكرته على التو :

ـ أي جهاز ؟

ـ تلك السلسلة المعدنية التي تغلق السترات الصوفية المفتوحة هكذا من الاعلى الى الاسفل ·· من العنق حتى البطن ··

ورد محمد قاديش :

ـ ها عرفتها ·· يسمونها السحاب ··

ـ السحاب ·· اسموه ما شئتم ·· يجب ان نكون جهازا كهذا يغلق الفجوات بين كل جبل وجبل ·· وكما ترون ، ثوارنا جميعهم يعتصمون في الجبال التي تمتد على طول البلاد من اقصى الشمال حتى آخر نقطة من الجنوب ·

وقال عويد وكان صامتا طوال الوقت ، يستمع ويفكر :

ـ فهمت ·· فهمت ·· هذه احسن طريقة ·· يجب توحيد كل شيء ·· توحيد القيادة ·· وعندها تذوب النعرات التي تحدثت عنها ، كما يمكن انقاذ جسر الشغور ·· فكرة طيبة ·· سمعت هنانو يلمح الى هذا في مجال التعاون مع صالح العلي وقد وافق الشيخ على الفكرة ··

وانتفض فجأة صائحا :

ـ لماذا وقف القطار ؟

ورد قاديش :

ـ لقد وصلنا الى المحطة ··

ونهض الشيخ حسن وشفيق الصافي ، فتحا الباب وهبطا الى الرصيف الموحش المقرور · في حين نظر الدكتور الى ساعته ورفع رأسه مبربرا :

ـ اف ·· ما هذا الزمهرير ··؟ اشرف الليل على منتصفه ، ولن نصل حماة حتى مساء الغد · هذا اذا لم تحدث عراقيل ··

ثم تثاءب في ضجة ، وأسلم رأسه الى زاوية المقصورة ، واغمض عينيه · وتطلع قاديش وعويد كل منهما الى الآخر ، ثم هبطا بدورهما الى الظلام · في حين أخذ الرقي يتصفح أيامه الماضية ··

●

## - ١٥ -

كان حميد الرقي في حوالي الخامسة والثلاثين من عمره : الا ان سيماء وجهه ظلت تحمل تعابير طفولية نزقة • ومن عينيه السوداوين الصريحتين ، كان يطفح اكتئاب عميق ، تصل جذوره الى اكثر من ثلاثين عاما ، وذلك عندما عرف بأن والده غزالا • وفي الحقيقة لم يكن ابوه غزالا ، بدليل انه كان فلاحا يعمل في بساتين عبد الفتاح بك الكرنوص • يمشي على قدمين ، ويحني ظهره طوال النهار ليقوم بالسقي والغرس والشتل وبقية الاعمال الاخرى • وذات يوم من ايام الصيف ــ ويذكره حميد من أوان قطاف البندورة ــ سمع ، وهو عائد من السباحة في نهر الفرات ، عويل امه وصراخها ، نتناول فأسا وجرى الى الكوخ ، ليرى أباه ممددا على الارض ، تنبع من جبينه نافورة من الدم • وعلم من الفلاحين الذين كانوا يحيطون بالجثة ، بأن ابن الوالي كان يصيد الغزلان خارج المدينة ، فصاد اباه على الطريق ، فارضا اياه غزالا ، باعتبار

انه منحني الظهر ويعصب رأسه بشملة صفراء ٠ ولما كان الوالي شيخا طيب القلب نقي السريرة ، فقد اراد ان يعوض على المرأة الارمل وطفلها خسارتهما بربهما ومعيلهما ٠ فاستدعاهما للتشرف بحضرته ، وهناك سأل الطفل الذي كان في الخامسة من عمره :

ـ والآن قل لي يا شاطر الا تزال غاضبا ؟

فزم الطفل شفتيه ، وزوى ما بين عينيه ، وصرخ كأنه يبصق :

ـ أنا لا أحبك ولا أحبكم كلكم ٠٠

وتأثر الوالي تأثرا بالغا لهذه العاطفة غير النبيلة ٠ وبكى حتى تضمخت لحيته بالدموع ٠ وتعهد للام بأن يعلم الطفل على نفقته حتى يصبح رجلا ٠ ولم يكتف الوالي بهذا الوعد الشفهي ، بل سجله في وصيته ٠ وبعد أن أتم الطفل مرحلة تعليمه الاولى ارسل الى استانبول ، حيث اختار لنفسه ان يكون طبيبا ٠ ولكن لم تمض عليه هناك سنتان ، حتى طرد من الكلية بسبب ما أسمي « تعصبه القومي » ٠ فعاد به ورثة المرحوم الى بيروت ٠ وهناك تعرف على الدكتور الشهبندر في الجامعة الاميركية ، حيث ألفا جمعية سرية أسماها «الرابطة الثورية» ٠ وقدر لهذه الجمعية ان ينكشف أمرها في طريقة عجيبة ٠ وأن تحدث فتنة كبيرة، طرد الشاب على أثرها وطولب برأسه ٠ غير أن أيدي مجهولة حملته الى باريس ، حيث التقى بالصافي ، واشتركا معا في تحرير الصحف ، والعمل في القضايا الوطنية ، دون ان يحصل على شهادة الطب ٠ اما كلمة دكتور ، فكان رفاقه يطلقونها عليه من قبل المزاح تارة أو الاحترام تارة أخرى ٠ وفي تلك الليلة كان يجلس في القطار موزع النفس مشتت الخاطر ، يلتقي مع الحاضرين لحظة ، ثم يغيب مع افكاره في ( دير الزور ) تارة أخرى ٠

* *

وهو نائم ، سمع الدكتور حميد الرقي يدا تتلمس الباب الذي بجانبه

والمفضي الى الجانب الآخر من المحطة · ودون ان يفتح عينيه ، رفع المزلاج من الداخل ، ثم عاد الى النوم · وما لبث ان فتح الباب ، وارتفع كيس كتاني مملوء ، بدا ثقيلا من الجهد الذي عاناه حامله · وعند سقوطه على الارض احدث ارتطاما جعل الدكتور يفتح عينيه · ثم ارتفع كيس آخر وآخر حتى امتلأت ارض المقصورة · ثم صعد من ورائها رجل يتدثر بمعطف من الجلد ويلفع رأسه الكبير بمنديل اسود · وكان حليق اللحية والشاربين · وبعد ان أغلق الباء وراءه ، تفحص الدكتور بنظرة جانبية ، ثم عكف على اخفــاء امتعته تحت المقاعد في تلبك شديد · وما أن انتهى من عمله حتى فتح الباب واسقط جسده بين القضبان · وانحنى الدكتور الى الاسفل وراح يتلمس محتويات الاكياس ، فعرف بانها علب ذخيرة · وغمغم لنفسه : ( عال ·· اكتملنا ·· ) وحاول ان يسند رأسه ويرجع الى النوم ، في الوقت الذي فتح الباب الآخر وصعد رفاقه وهم يتضاحكون ويقرقرون من الصقيع · كان عويد يقول لمحمد :

ـ فماذا تفعل اذا لم تجد مرحاضا ··؟

اجاب محمد في خجل :

ـ اقضيها في العراء · لكنني وجدت هنا محطة وقلت لنفسي لا بد من أن فيها مراحيض ··

وضحك حسن في جذل :

ـ اضعت وقتك دون طائل ·· مع أن أرض الله واسعة ··

قال الصافي وكان يحمل كيسا من الورق :

ـ دكتور ·· الا تأكل ؟ جلبنا معنا خبزا وبيضا وبرتقالا ··

ورد الدكتور في لهجة خطيرة :

ـ أنا جلبت لكم زميلا مهما ·· انظروا تحت المقاعد ··

وفي هذه اللحظة فتح الزميل « المهم » الباب الآخر ، فلم تفاجئه كثرة الاقدام التي شاهدها على ارتفاع قامته • ولم تثنه عن رفع صندوقين من الذخيرة ودفعهما الى الداخل ، وسط دهشة الركاب الخمسة ، ثم انحنى على الارض ورفع ثلاثة صناديق أخرى ، واستدار يقول لشخص ما بلهجة خاصة:

ـ اسمع أنا هنا •• انتبه •• عندك عشرة صناديق ••

وصاح الآخر من بعيد :

ـ هل عندك مكان لي ؟

فاجاب هذا :

ـ لا •• لا ، ابق حيث أنت ••

ثم صعد افريز العربة في صعوبة ، فقد كان مرتفعا جدا عن القضبان ، واغلق الباب وراءه في ارتياح • وعندما وجد نفسه داخل المقصورة ، تصفح الوجوه التي تحيط به دون اهتمام ، ودون ان يلقي بكلمة تحية • ثم عكف على ترتيب صناديقه وحشرها بين الاكياس • قال الصافي بالفرنسية :

ـ من هذا البطل الذي لا يتكلم •؟

فرد الدكتور :

ـ أظن بأنهم تجار لبنانيون يحملون ذخيرة المانية وتركية ••

في حين سأل محمد باشارة معينة :

ـ هل تريد ان اسأله ؟

فاجاب الصافي وهو يجلس مباعدا ما بين قدميه، لوجود صندوق بينهما:

ـ لا •• نفضل ان يكون هو البادىء ••

ومال محمد على اذني حسن وعويد ، واخبرهما بما دار من حديث ، ناصحا اياهما بترك مهمة التعارف بينهم وبين الغريب الى الرجل نفسه • وبعد أن أحصى المسافر الجديد صناديقه وأكياسه، انتبذ الزاوية اليسرى من

المقعد ، وراح يراقب المسافرين الخمسة بنظرات ملؤها الشك والريبة ٠
وبعد حوالي ربع ساعة ، وبعد ان انتهى الرجال من تناول عشائهم في صمت،
لف كل منهم نفسه بردائه ، وأحنى رأسه فوق صدره ، واخذوا يتبادلون
انفاسا منتظمة ٠

* *

وصل القطار الى رياق في ضحى اليوم التالي ٠ كانت السماء مشرقة ،
والشمس ساطعة ، والهواء يزمر من وراء النوافذ ، وينفذ من شقوقها جارحا
الجلد من فرط برودته ٠ وفي هذه المحطة ، كان يتعين على المسافرين الانتقال
الى قطار الشرق السريع ، لان الخط العريض الذي يصـل تركيا
بسوريا يبدأ من هذه المحطة ٠ وبعد ان مط المسافرون اذرعهم ، وفيماهم
ينفضون عن أجفانهم غبار الكرى ، شـاهدوا عددا من الجنـود المسلحين
بالبنادق والخوذ يخرجون من بناء قريب ، وينتشرون على الرصيف مانعين
احدا من النزول ٠

قال الدكتور في اهتمام :

ـ ترى هل هم انكليز ؟ ارى وجوها مختلطة ٠٠

ورد عويد بلهجة تنطوي على التشاؤم :

ـ فرنسيون وانكليز ٠٠ هاهي ذي بنادقهم ٠٠

وبالرغم من حراجة الموقف ضحك الصافي وقال :

ـ ان هذه الملاحظة فاتت علينا ٠

اما المسافر الغريب ، فقد بدا مرتبكا وحائرا بشكل يجلب الانتبـاه ،
مما حدا بحسن العلي ان يصرخ في وجهه :

ـ مالك يا رجل ؟ لم انت خائف ؟

ورد الرجل في غيظ وتوجس :

ـ معنا اسلحة وذخائر ماذا يريدون منا ؟

وغامر نجيب العويد وساله :

ـ هل هي للتجارة ؟؟

فاجاب الغريب دهشا من هذا السؤال :

ـ تجارة ؟ لا ٠٠ بل انها لنا ٠

وبدا انه استراح لسؤال الرجل ٠فخرج عن تهيبه دفعة واحدة، وسال:

ـ هل يمكن ان تؤدوا لنا خدمة وتتوزعوا هذه الصناديق فيما بينكم لو حدث تفتيش ٠٠؟

وضحك عويد في ثبات قائلا :

ـ اه ٠٠ لا تخف سنقول انها لنا كلها كن مطمئنا ٠

وفي هذه الاثناء حدثت على الرصيف حركة مفاجئة ، اذ حاول احـــد الركاب النزول والهرب ، فتصدى له الجنود باعقاب بنادقهم ، وامسكوا به من تلابيبه ثم ساقوه الى البناء الذي خرجوا منه ٠ كان الجنود الذين توزعوا على طول الرصيف ـ وعلى بعد مترين فقط من القطار ـ مؤلفين من اللونين الاصفر والاسمر ٠٠ قال الصافي :

ـ ارى ان هناك متاعب

ورد الطبيب غاضبا :

ـ يجب بحث الموضوع من الآن، أنا مستعد للقتال٠٠وعويد يحمل كمية من القنابل ٠

وبما أن هذا الحوار دار بالفرنسية فقد صاح عويد دون تكلف :

ـ تكلما بالعربية يا أخي ٠٠

وتوجه بالحديث الى الرجل السادس قائلا :

ـ طيب يا اخانا اكشف لنا عن نفسك٠٠فنحن نعاني نفس المشكلة٠٠ معنا اسلحة وذخائر ٠٠ قل لنا من انت حتى نعرف ٠٠

قال الرجل السادس وقد اطمأن لفروسية المتحدث :

ـ أنا من تلكلخ ·· ومعي ثلاثة رفاق قبض الآن على احدهم ··

وحملق الرجال الخمسة عيونهم · حتى ان محمدا لم يستطع ضبط عواطفه ، اذ هجم على الرجل وراح يعانقه هاتفا :

ـ انت معنا لا تخف ·· كلنا ثوار ··

ومهما كانت هذه البادرة من قاديش ، فقد جعلت الرجل يتخلى نهائيا عن جموده بعد ان سكن روعه · وسأله الصافي :

ـ وكم تحملون من الاسلحة ؟

فرد الرجل السادس في بساطة :

ـ معنا عشرون طردا ·

وأراد أن يبرر ارتباكه فأضاف :

ـ لا مؤاخذة يا اخوان هذه هي المرة الاولى التي يعهد الي فيها بمهمة جلب الذخائر والاسلحة لثورتنا التي نهيىء لها ··

وطمأنه حسن العلي قائلا ، وهو يفتل شاربيه في أريحية :

ـ لا تخف يا أخ ·· هل تحمل سلاحا ؟

ـ مسدسا صغيرا ··

ـ لا بأس املأه وتهيأ للقتال ·· واعتبر ثورتك بدأت من هـذه اللحظـــة ·

ومط حسن العلي نفسه الى الرف وتناول بندقيته الفرنسية طراز ٩٣/٨٦ وهتف :

ـ انها محشوة بثماني طلقات ·· وهي كافية لحرب ساعة كاملة ·

ـ قال الصافي بلهجة موزونة :

ـ يا اخوان اضبطوا اعصابكم ·· ان المـرور في سـلام من هذه المحطة أفضل لنـا · اسمحوا لي أن أحدث قيادة ·· ان الموقف لم يتجل

بعد ·· واطلاق الرصاص لا يجدي في هذا الوقت ·· من أجل هذا يجب التروي وطرح النزق : و ··

وتطلع الى محمد قاديش الذي كان يضغط على كفيه برؤوس أصابعه وكأنه يعصر الوقت عصرا · كان يحن الى أن ينفجر شيء ما في هذه اللحظة ، لكي يحق له أن يفعل ما يشاء · ولم تمض مدة طويلة ، حتى شوهد ضابطان ـ أحدهما فرنسي والآخر انكليزي ـ يسيران على افريز العربات ويتفحصان أوراق الركاب · قال الدكتور ساخرا :

ـ هاهما ·· سايكس وبيكو ··

ورد حسن العلي في اشمئزاز :

ـ أبول على اجدادهما ··

واخرج الصافي بعض الاوراق من جيب سترته ، وراح يمزقها ، ثم اخفاها داخل حذائه · وبعد ان استقام قال في برود ولكن في تصميم :

ـ يا جماعة ·· نحن ستة رجال في هذه المقصورة ، نحمل اسلحة وذخائر · ولا شك في اننا لسنا وحيدين ·· ففي العربات الاخرى لنـــا رفاق · تهور أحدهم منذ قليل فقبض عليه · لقد اخطأ ·· لانه اصبح عضوا مكبلا غير ذي نفع · نحن الآن أمام مصاعب لا تدرك ماهيتها أو نتائجها، ونحن متفاوتون من ناحية التجارب · ولنترك السن جانبا ··

ولم يدرك أحد حتى النهايـــة لماذا حشر الصافي هذه الملاحظة ضمن كلماتـــه :

ـ لذا أرى ـ خوفا من أن يتصرف كل منا على هواه ـ أن نختار واحدا من بيننا يقول الكلمة ·

كان شفيق الصافي يتكلم مطرق الرأس ، ويداه محشورتان في جيب معطفه · يثبت عينيه من وراء نظارتيه على الصناديق المخبأة تحت المقاعد ،

وكأنه يستخرج منها مادة ما ، غنية وذات نفع . كان متهيجا مفعما بالاحاسيس . وكانت كلماته تنبض بالصدق . وتابع :

ـ نحن تجمعنا كلنا رابطة واحدة .. رابطة الدفاع عن الارض والحرية ..

ورفع الرجال الستة عيونهم على صوت يرطن بالانكليزية :

ـ أوراقكم ..

ورد من ورائه صوت آخر يترجم الى العربية :

ـ يقول الكابتن أعطوه هوياتكم ..

في حين أزاح الانكليزي جسده ، مفسحا المجال للضابط الفرنسي أن يفتح الباب ويصعد الى المقصورة ، دون أن يفوه بحرف واحد . واطلع الانكليزي على الاوراق ، ثم أشار الى الدكتور :

ـ وأنت ؟

قال الدكتور بلهجة مغايرة للهجته الحقيقية :

ـ انا لا أحمل أوراقا ..

وصاح المترجم غاضبا :

ـ كيف ؟ أين تسكن ..؟

ورمقه الدكتور بنظرة لا تحمل أي معنى من معاني الود ، ورد بلهجة صافية بذل جهدا لتعديلها :

ـ أسكن في بلاد الشام .

وهز الانكليزي رأسه دون أن يستمع الى الترجمة . ثم هبط الى الرصيف منتظرا انهاء مهمة الضابط الفرنسي ، الذي كان ينحني على أرض المقصورة يتحسس محتويات الاكياس والصناديق . كانت اليتاه سمينتين ، وقد تربعتا وسط الرجال الستة . وفجأة رفع رأسه وفهق :

ـ لمن هذه الخراطيش ؟

فاحس محمد بوخزة في خاصرته ، اعـاد على أثرهـا يـده الى جيبه وسمع صوت المترجم يقول :

ـ من صاحب هذا الفشك ؟٠٠

فرد محمد على الفور :

ـ انها لي ٠٠

والتفت الفرنسي الى قاديش ، وراح يقيسه من قمة شملته حتى عينيه ـ وكانت مسافة قصيرة جدا ـ اخذ محمد بعدها يجيب على أسئلة المترجم ، متغاضيا عن الاسئلة الاساسية التي يطرحها الضابط :

ـ ماذا تريد أن تفعل بها ؟

ـ سأبيعهـــا ٠٠

ـ لمن ؟

ـ لمن يرغب ٠٠

ـ الى أين ذاهب ؟

ـ الى حماة ٠٠

ـ من هو عميلك هناك ٠٠؟

ـ لا أحـــد ٠٠

ـ وكيف تبيعهـا ؟

ـ بالمفرق ٠٠

ـ يقول الضابط اتبعه الى المخفر ٠٠

وهبط الضابط وتبعه محمد قاديش ٠ قال عويد للصافي ، وقـــد اختفى الضابطان مع الشاب :

ـ استاذ ٠٠ كنت تطاب تعيين قائد لنا ، فكيف حدث هذا ؟ هـل كنتما متفقين ؟

ورد حسن العلي قبل الصافي :

ـ وحق الله اعجبني · كان سريع البديهة ·· صامد القلب ·· والله زلمـه فحل ··

وفسر الصافي الموقف :

ـ كنا في مأزق ·· ولا نزال فيه ·· وعند رايي أن محمدا اقلنا نفعا في هذه الفترة ·· أما كيف سيتخلص هناك فذلك تابع لمبادرته الخاصـة وأظن بأنه لن يعترف بشيء ··

ومضت على المسـافرين حوالي السـاعة ، وهم يبددون اعصابهم ، ويسرفون في انفاسهم · حتى أن حسن العلي حرق لفافاته كلها · وقد أعار منها ثلاثا الى الصافي الذي يبتلع دخانها حتى اعماق رئتيه ·

عندما عاد قاديش وحيدا ، شوهد الجنود يجلون عن الرصيف ، وبدأ المسافرون بالانتقال الى القطار العريض الذي يقف بمحاذاة الآخر الضيق · وبعد أن نقلت الاسلحة والذخائر من قبل الرجال الستة واستوى كل منهم في مكانه ، تنفس الجميع الصعداء · وقرع جرس المحطة معلنا بدء الرحلة الجديدة · كان الدكتور يتثاءب والصافي يستعيد أوراقـه الممزقـة من حذائه ، ونجيب عويد يرجع رصف قنابله حول خاصرتيه ، وحسن العلي يفتل شاربيه ، أما الرجل السادس فظل يراقب الشاب بنظرات تغني عن الصلاة ·· .

ورحل القطار العريض من محطة رياق ظهيرة ذلك اليوم · وسرد قاديش على زملائه ما حدث له ، قال : انه رأى هناك ، في البناء الحجري الذي اقتيد اليه ، ضباطا ومستشارين فرنسيين وانكليز ، مجتمعين حول طاولة كبيرة فرشت عليها أكداس من الخرائط ، وهربت الى أذنيه بعض الكلمات التي كانت تدور في الاجتماع اثناء اجتيازه قاعة واسعة · قال : ان الحديث كان يدور بالفرنسية ، يضم تعابير جديدة سورية ، لبنان ، العراق ·· وقال الطبيب دون احتفال :

ـ انهم يضعون الحدود ·· وستكون رياق احدى نقاطها ، وقد يجعلونها منطقة مشتركة ··

واعترض العويد :

ـ ولكن رياق تابعة للمنطقة الشرقية التي أعطيت للامير فيصل ··

ورد الصافي :

ـ انهم يتغاطون اشياء لا تخصهم ·· هذا هو الموضوع ·· ولا أدري متى يستيقظ المالكون الحقيقيون ·· أيوه يا محمد اكمل ··

وتابع قاديش حديثه :

ـ ثم دفع بي الى غرفة جانبية ، لأقف أمام موظف يتكلم بلهجة بدوية · أخرج ذلك الموظف البيان الذي ملأتموه في محطة البرامكة ، وراح يستجوبني عن قصة الاسلحة بحضور الضابطين · وقبل أن أنسى ، عرفت ان الانكليزي يفهم العربية ، لأنه راح يشرح لزميله بفرنسية ركيكة مراحل الاستجواب · وسئلت عما اذا كانت لي علاقة بتاجر اسلحة اسمه هزاع ايوب فأجبت بالنفي ··

ورفع عويد اصابعه الى شاربيه وراح يفتل سبلتيهما بتشف وشماتة · ومضى قاديش قائلا :

ـ ثم سئلت في اصرار عن أسماء زبائني ، فأجبت بأني أفرش بضاعتي في الازقة وأبيعها بالمفرق لمن يرغب ، وأجبت بالنفي عما اذا كانت لي علاقة بالاشخاص الذين كانوا معي أي أنتم · ويبدو انني كنت اتكلم بلهجة صادقة، مما حدا بالموظف الشريفي أن يطردني بحركة من يده ، ودفع بي الى غرفة أخرى بناء على طلب الضابط الفرنسي الذي أخذ توقيعي وبصمات أصابعي وعدة صور لي وتاريخ حياتي ونشأتي · ثم راح يتودد لى بواسطة ترجمانه قائـلا :

ـ سنعطيك راتبا شهريا قدره مئة فرنك أو ليرات سورية اذا شئت ·

وفسر لي قصة هذه الليرات قال : اننا نطبع لكم عملة رسمية لتتداولوها بدلا عن هذه العملات الحقيرة التي تتعاملون بها ، والتي هي خليط من النقد التركي والمصري والانكليزي • وسالته أنا مقابل ماذا يا سيدي ؟ فأجابني المترجم بعد ان استمع الى اجابة الضابط :

— اذا عملت واجبك ، بينما كانت اجابة الضابط اذا تطوعت في خدمتنا •• وحرت كيف اجيب على هذا السؤال فقلت للمترجم : انني لم أفهم •• فرد علي زاجرا وبلهجة نابية : كيف لا تفهم يا حمار ؟ قلت لك اذا عملت في خدمة اصدقائنا •• وهنا توهم الضابط الفرنسي اني أهنته فاتحفني بعدة شتائم • وسأل المترجم : ماذا يقول هذا الحيوان ؟ فرد المترجم — وكأنه خشي منافستي — يقول انه ليس أهلا لهذا العمل • وخرج الفرنسي غاضبا • في حين امسكني المترجم وقادني الى غرفـــة الضابط الانكليزي الذي أغلق دوني الباب وسمح للمترجم بالانصراف • وخاطبني الانكليزي بالعربية وفي تودد كبير وسألني وهو يدعوني للجلوس :

— أنت صيدلي أم تاجر اسلحة ؟

وقبل أن أسمح لدهشتي أن تبـين قلت : انني اشتغل في ســبيل الرغيف هنا كل شيء •

فضحك وقال لي : حسنا أنا اعرفك ، ان معك شخصا رفض أن يفصح عن هويته ، قل له اذا شئت بأنه سيفشل • وبهذه المناسبة ، وقلب اضبارة كانت أمامه راح يتفحص أوراقها في عجلة ثم اكمل : — اذا كان هو الذي دفعك لتبصق في وجه لورنس فطمئنه بأن لورنس ما يزال — مستشارا للامير أو للملك قريبا • قل له بأن فيصل سيتوج بعد مدة قصيرة ، كما أرجو منك أن تكون اكثر وعيا • وعلى كل حال أن أسلحتك هذه أو اسلحتكم بالاحرى لن تصل الى دير الزور لأن المسافة بين حماة والدير ليست قريبة •

ثم ودعني بالكلمة التقليدية ( جود باي مستر ) أرجو الا تكون غاضبا • ارى ذلك في عروق وجهك • مع السلامة ••

كان قاديش يتكلم والرجال يضحكون • بل أن الشيخ حسن صفق بيديه عدة مرات • وكان يفرك يديه تعبيرا عن سروره ، في حين ظل الرجل السادس يتصفح وجه الشاب في عبادة ويتقفى كلماته في دهشة وامعان • ولعل الصافي كان الرجل الوحيد الذي لم يباغت • بل بدا عليه الضيق والملل • قال الطبيب :

ـ ان لهذه الليرات التي تحدث عنها دلالة خطيرة ، معناه ان كل شيء يرتب منذ الآن •• أو أنه رتب منذ زمن بعيد ، ولكن ما قصة هذه الاهانة يا محمد ؟

وأجاب الصافي في قرف :

ـ هل يجب أن يكون لذلك رواية ؟•• ( والتفت الى يمينه سائلا جاره ) هل لنا أن نتشرف بمعرفتك يا أخ ؟

أجاب الرجل السادس في ارتباك :

ـ أنا ادعى انطون عبيد من تلكلخ ولكن معي رفاق دندشيون اسلام • اننا نهيىء لثورة في جبلنا •• وقد اشترينا هذه الاسلحة والذخائر من دمشق ، من الشاغور وباب الجابية والميدان •• وعندما ذهبنا الى محطة البرامكة لنسأل عن كيفية الشحن اجبنا بأنذلك يحتاج الى بيان ـ فاضطرونا أن نستأجر دوابا لنقلها الى الزبداني لنهربها تهريبا ، مع اننا كنا نعرف بأن نقل الاسلحة في القطار كان حرا •• أما البواريد فقد شحناها •

وعندما ادلى الثائر بهذه المعلومات ، أحس بانه لم يبق هناك ما يشعره بالغربة ، اذ اقترب من زميله واحنى رأسه قائلا بصوت منخفض :

ـ انت ذاهب الى دير الزور ؟

أجاب الدكتور :

ـ لا ·· كنا نود النزول في حلب ولكن لم يرخص لنا بالوصول لابعد من حماة ·

قال عبيد :

ـ انا سأنزل في حمص ··

ورد الصافي :

ـ طبعا ·· وسيرافقك أحدنا ·· اسمع يا أخ كنا نبحث قبل اجتماعنا بك ( وسرد عليه تفاصيل ما دار بالمؤتمر ثم قال ) يا أخ أنتم قريبون من جبل العلويين ·· أو بالاحرى تتصلون به اتصالا مباشرا ، وأنتم اسلام ومسيحيون ·· انكم باجتيازكم العقبة الكبيرة تستطيعون تخطي ما دونها بمراحل ·· ان اتصالكم بجبال اللاذقية يجعل لثورتكم شأنا كبيرا ·· صافيتا كلها هذه الفجوة الكبيرة ·· ستغلق وسيقفل الطريق الى حمص وحماة أيضا في وجه الفرنسيين ·· أليس حقا ما أقول ؟ كما أن طريق الدبوسية سيصبح بيدكم ·· جميع هذه المنافذ ستسيطرون عليها··

قال عويد :

ـ أنا أعرف هذه المناطق وهي تشبه طريق حارم الى حد بعيد ··

ورد الصافي :

ـ فعلا ·· فساحلنا يمتاز بهذه الصفة الطبيعية ، اذ يفصله عن الداخل هذه السلسلة المنيعة من الجبال التي تجعل المناطق المحتلة منبسطة من تحتها كالكف تحت النيران والمراقبة ·· وعلى هذا فما دامت طبيعة ارض تخدمنا فيجب أن نخدم انفسنا ، نتعاون ونوحد الثورات · حميد ·· انتبه لي قليلا · أرى أن نتوزع على الشكل التالي : اذهب أنا الى تلكلخ لاعمل على ربطها مع اليمين · وعويد ينهي مهمته في ربط الشمال مع

ثورة الحفة . وسيبقى محمد مع الشيخ حسن كعنصر اتصال . أما أنت يا دكتور ..

وقاطعه الرقي في نزق :

ـ أنا سأعود الى دمشق لاستقبل الامير فيصل ..

وهتف الرجال الاربعة :

ـ وأسلحتكم ؟

فرد الرقي دون انتظار :

ـ احفظوها عندكم حتى نهيىء رجالا لنقلها الى الرقة ، فلطالما منعنا من الوصول الى حلب ..

وصل قطار الشرق السريع الى حمص عند الظهر . وهبط الصافي والدكتور مع انطون عبيد ورفاقه . وتعاون الرجال على نقل الذخائر . ثم وقفوا على الرصيف منتظرين انزال الصناديق المشحونة التي الصق عليها أوراق تحمل هذه العبارة ( زبداني حمص سكك حراسة ) . ودع الصافي زملاءه متمنيا لهم حظا سعيدا . وبعد ساعتين وصل القطار الى حماة . فنزل بقية الرجال . ما عدا عويد ، الذي استمهل قاديش واعطاه ثلاث قنابل يدوية من ذوات الحلق ، علمه كيف يستخدمها ، ناسيا تحذيره من اخطارها . ثم ودعه في حرارة هاتفا في وجهه :

ـ سأكمل طريقي الى حلب ..

واحس قاديش وهو يقف وحيدا على رصيف المحطة ، احساسا غامضا ، مشوقا ولكن لا يخلو من تهيب . احساسا شبيها بذلك الذي يعانيه من وقف على شاطىء بحر هائج ، رافعا يديه ، مستعدا للقفز بنفسه ليقطعه سباحة . كان حسن العلي قد ذهب الى المدينة ليأتي بالرجال والدواب ، في حين كلفه بتخليص البضاعة . وقد عجب قاديش من أن الموظف المسؤول

كان يتكلم باللغة التركية • وأيقظه من شروده صوت حسن العلي يناديه • كان الرجل قد عاد في صحبة أربعة رجال ، يرتدي أحدهم فروة طويلة الاردان مصنوعة من جلود الخراف • أما الثلاثـة الآخرون فتدل هيئاتهم على أنهم جبليون • وكانوا جميعهم يتمنطقون تحت أرديتهم الواسعة بنطاقات مطرزة بالخرطوش ، ويغلفون رؤوسهم بشملات ، ويجرون وراءهم رتلا من الجمال• قال حسن مادّا ذراعه :

ـ اعرفكم بمحمد •• وهو ولد فحل •• تطوع معنا •• وخلصنا من الفرنساويين والانكليز في الرياق •• لعن الله جد اجدادهم •

وهز الرجال شواربهم الكبيرة ، وفي طريقة موحدة • ولم يجيبوا بأكثر من نظرة لا تنطوي على الفضول ، وكأن تطوع الشباب في الثورة لم يكن في اعتبارهم أمرا مدهشا • وتعاونوا على اناخة الجمال وحزم الصناديق فوق ظهورها •• ثم عادوا الى المدينة • وفي الطريق سأل صاحب الفروة :

ـ انشاء الله يكون معك موزر(١) معدل يا حسن ؟••

أجاب حسن العلي :

والله يا أبا خضر معنا من جميع الاشكال • أوتومبيل قصيرة ، انختر ، أم فلس ، أم كركر ، أم رباطين ، أم فلنطة ، أم رمانة ، أم كعيب(٢) • وسنترك عندك خمسة صناديق هي حصة واحد ديري يريد نقلها الى الرقة••

وأجاب أبو خضر :

ـ خير انشاء الله •• ومتى ستنتهون أنتم على بركة الله ؟

ـ والله الليلة باذن المولى • فليس لدينا ما يبرر التأخير • سنمشي في الليل ، والليل أخفى للويل ••

---

(١) ، (٢) تعابير يطلقها الثوار على البواريد والبنادق تبعا للعلامات التي تحملها •

وقال أن الجبليين ، وكان مفرط الطول ، يترك شاربيه يعرشان على سجيتهما :

ـ وأي طريق سنسلك ؟

أجاب حسن :

ـ طريقنا المعهودة ٠ انه الطريق المأمون ، وان كان الابعد ، وسيذهب معنا علي ٠٠

ويرد رجل آخر ، احدث سنا من زميله ، في خده الايمن ورم ، ويخفي رأسه تحت لبادة هرمية الشكل :

ـ أنا ؟ والله ضرسي يتعبني كثيرا ٠ لماذا لا يذهب معكم سليمان ؟

وتنطح سليمان للرد ، وكان يسير في مؤخرة القافلة ، ثقيل الخطـا حاسر الصدر ، يحمل عصا طويلة ، ويعقد على رأسه شملة بيضاء :

ـ اي والله أنا أروح ٠٠ بقي لي زمان هنا واشتقت للاولاد ٠

واعترض حسن العلي قائلا :

ـ لا ٠٠ أنت ستبقى هنا يا سليمان لتظل على اتصال مع الجماعة ، وسيذهب علي معنا ٠

كان قاديش يفكر : « هؤلاء اذن هم الرجال الثائرون ٠ ان سيماهم تدل عليهم ٠ سأكون رفيقا لهم ٠ فمن عيونهم تفيض نظرة دافقة ، كما ينبع الماء السلسبيل من صخرة ذات فجوج ٠ ومع هذا يبدو عليهم الحماسة والغضب ٠ انهم يقولون أشياء عادية ، ويتصرفون تصرف الانسان البسيط ، ولكنهم ابطال حقيقيون مثل اولئك الذين قرأت عنهم في الكتب ٠ سأكون مثلهم ٠ يبدو أن مريم تريدني أن أكون مثل هؤلاء الرجال ٠٠ مريم ٠٠ » ٠

واخرجته من خواطره قبل أن يسترسل معها ، أصوات وهياج تصدر من قلب البلدة ٠ وفسر أبو خضر الموقف قائلا :

ـ ان شعب المدينة يقوم بمظاهرات ويطلب أسلحة للحرب ٠٠

وعندما دخلت القافلة أولى شوارع المدينة ، تناهت الى أذني قاديش هتافات الناس العالية ذات النقع : « يا ولد يا ابن المقرودة ·· بع أمك واشر بارودة ·· والبارودة خير من أمك ، يوم الكرج تفرج همك ·· »

وفي دار ابي خضر ـ ذات الحوش الواسع ـ احضرت لقاديش أجندة حديثة ، حشاها بالذخيرة · وأعطيت له بارودة المانية جديدة من طراز ١٦ ، ذات نتوء في أخمصها « أم رمانة » · ورصف على خاصرتيه القنابل الثلاث من حلقاتها ، في حين كان الرجل ذو الخد المتورم ، يمسح بندقيته ( الانختارية ) ويملأها بالخرطوش · وأودعت صناديق الدكتور الرقي في مستودع · وعند المساء رفض حسن العلي المبيت ، كما انه رفض أن يذبح له صاحب الدار ذبيحة · وشدت الامتعة مع بعض المؤن والعلف على ثلاثة جمال واستؤنفت الرحلة ··

ارتحلت القافلة عند العشاء · كان حسن يسير في المقدمة ، يمسك مقود البعير الاول · وبجانبه قاديش يهز كتفه بين الآونة والاخرى ليصلح من وضع البندقية الطويلة التي علقها فوق معطفه الاجرب · وفي الخلف تنكب علي الحسن بندقيته العثمانية على غرار ما يفعل الرعاة بمحاجنهم · وبعد أن اجتازوا مشارف المدينة ولفهم العراء من كل جانب ، نزع حسن العلي عباءته والقى بها على ظهر البعير · وأراد محمد أن يحذو حذوه الا أن حسن نصحه بالتريث · كان الطقس باردا ، تنسم من الشرق ريح رطبة نافحة ، تحمل في طياتها رائحة الربيع الوليد · وكانت السماء صافية تتلألأ تحت صفحتها نجوم وامضة · ومن التراب الرخو ، راحت حشائش صغيرة تمد زعانفها في وجس ، وكأنها تستطلع لنفسها سكنا على وجه الارض الطيبة · وسأل قاديش رفيقه :

ـ ترى كم ستكلفنا هذه الرحلة من الوقت ؟

أجاب حسن :

ـ والله يا محمد حسب التيسير . اذا سارت الامور على ما يـرام فسنصل ظهر الغد ..

وصفر قاديش من بين شفتيه صفرة طويلة :

ـ وسنسير الليل بطوله ؟

وضحك حسن قائلا :

ـ هل تخاف يا محمد ؟

ـ معاذ الله ولكنك قلت لي مرة ، بأن قرية « الشيخ بدر » قريبة .

ورد حسن العلي بصوت ضائع كانه آت من مكان سحيق :

ـ صحيح قريبة .. لو اتخذنا طريق مصياف القدموس . أما الآن..

وقاطعه محمد :

ـ هه .. أريد أن أعرف قضيتكم من أساسها . مع علمي بانكم طائفة واحدة ..

ورد حسن في النغمة السابقة نفسها :

ـ صحيح .. ولقد بقينا أخوة مئات السنين ، ثم افترقنا عند الامام السابع .. والقضية كما عرضتها في القطر عشائرية محضة ، قضية ثار لا أكثر ..

كان أحد جماعتنا في القدموس يجلس في دكان حلاق بين شابين من مصياف يلعبان بمسدس . فانطلقت رصاصة أصابت من رجلنا مقتلا ، فمات على الفور . وعلى الاثر وقع العشرات من جميع الفئات والعشائر وال ..

وصاح قاديش :

ـ عشـائر ؟

ورد حسن بلهجة مدرسية :

ـ عشائر .. نعم .. نحن نعد كثيرا من العشائر ، فانا من عشيرة

الحدادين ، وعلي من المتاورة • وهناك الرشاونة ، ثم الخياطون • ولكل عشيرة من هذه العشائر أفخاذ وضلوع واطراف • لا تضحك يا محمد •• لماذا تضحك ؟

وصمت الرجل • كانت حنادس الليل تتكاثف ولم يبق واضحا غير هسهسة الابل ، وارتطام اخفافها بالاحجار مع أطيط احمالها الثقيلة • ومن الأبعاد الشاسعة ، كان نباح الكلاب وعواء الذئاب ، يتجاوب دون انقطاع • كانت القافلة تجتاز منطقة وعرة المسالك كثيرة الاحجار التي خلفتها البراكين منذ آلاف السنين • ولم يعتد قاديش على السير في أرض مشابهة ، في الظلام خاصة • من أجل هذا أراح عينيه ورفع راسه عاليا وبدأ ينقل خطواته على غير هدى • ونصحه حسن الغلي :

ـ ارفع قدميك كثيرا أثناء السير كيلا ترتطم بالاحجار • واذا كانت البندقية تثقل كتفك فاحملها بطريقة مريحة ••

وقلع الشاب معطفه • أنزل بندقيته عن كتفه وأحاط قبضتها باصابعه، ثم راح يلوح بها الى الأمام والخلف • كان يصادف كثيرا أن تحط قدمه فوق حجر كروية ، فتتدحرج من تحته ويكاد يهوي ، لولا أن يسعف نفسه ويرجع صدره الى الخلف • وكانت السماء تمتلىء بالنجوم ، دون أن يكون بينها ظل لقمر • ولم يراوده الامل بطلوعه لأن الليلة كانت من أواخر ليالي الشهر القمري • وقال في نفسه : « انني لا أرى أبعد من أنفي فكيف أستطيع استعمال البندقية في هذا الليل ؟ » وعالج هذه الفكرة كثيرا حتى مل منها فنبذها جانبا • وبين الحين والآخر ، كان صوت علي يأتي من الخلف هادئا يشبه الهمس :

ـ يا حسن ؟

فيرد هذا بترنيمة مشابهة :

ـ هـــا ••

فيسأله سؤالا ، أو يحدثه في اقتضاب عن قصة مبتذلة ، وكأنه يريد أن يسلي نفسه . كان قاديش يتحسس قنابله طوال الوقت ، وكأنه يخشى أن تسقط احداها أو تنزع حلقتها ، فتنفجر في وسطه : « ستحدث دويا هائلا ، وستتطاير اعضائي في كل الاتجاهات .. ترى متى سيقدر لي أن اقذف باحداها على جماعة من الاعداء ؟ لقد نصحني « عويد » الا أضحي بقنبلة من أجل واحد أو اثنين ، بل خمسة أو أكثر . أو قائد برتبة كبيرة » .
وقال حسن العلي بلهجة اكسبها بعض الحنان :

ـ محمد ..

ـ أم ..

ـ هل تعبت ؟

ـ لا .. لماذا ؟

ـ اسمعك تلهث ..

وسمع من الخلف بغتة اغلاق ترباس بندقية ، فرش في الليل اصطكاكا ذا صدى يشبه اصطكاك فكي ذئب جائع . ورفع قاديش بندقيته وتلمس جهاز التأمين فوجده في مكانه ، وعاد الى حديث نفسه : « عند أول بادرة سأقلب هذا الجهاز الى الناحية الاخرى ثم اضغط على الزناد . ترى كيف تكون هيئة الشبح في هذا الظلام البهيم ؟ سأوجه الفوهة اليه ثم أضغط . وبعدها ارفع الترباس الى الخلف ، ثم ارجعه الى الامام ، فتتقدم الطلقة الثانية وهكذا .. طيب .. يجب ان أجرب الآن .. ترى ماذا يحدث ..؟ ها هو ذا ضوء ينبعث على البعد ، من هناك يا ترى ؟ »

ولم يدر قاديش بأن هذا السؤال صدر عنه بنبرة مرتفعة ، لانه سمع حسن يجيبه :

ـ هي قرية « الربيعية » يا بني .. اصبحنا على بعد خطوات ..

والواقع ان الضوء الذي لمحه قاديش على بعد أميال ، كان على بعـــد خمسين خطوة فقط ٠

ودخلت القافلة الى القرية الصغيرة يتبعها كلب ضخم ، دس ذنبه بين فخذيه واخذ يهر هرير الصداقة والترحيب ٠ وفي احدى دور القرية تناول الرجال كؤوسا قزمة من الشاي ، وسط جمع صغير من الاهالي ٠ وخلال مدة قصيرة من السمر ، صرح احد رجال القرية ، بأن صالح العلي قـام في اليومين الماضيين بحملة موفقة ٠ غنم رجاله على اثرها جبلا من المعـــدات والذخائر ٠ وأن ألسنة اللهب طاولت عنـان السمـاء ، وصبغت البحر على بعد اميال باللون البنفسجي ٠

عند استئناف المسير ، طلب حسن الى قاديش أن يمتطي ظهر أحـد الجمال ليوفر جهده الى صعود الجبل ٠ غير أن الشاب رفض رفضا باتا ٠ ونصحه علي من الخلف بأن يطيع قائلا له : أن الرحلة شاقة جدا وقد يفقد حذاءه ان لم تتورم قدمـاه ٠ غير أن قاديش أصر على الرفض ، ولم تكن الحماسة وحدها هي كل مافي الاسباب الموجبة لتعنته ، بل ان تهيبه من هذا الركوب كان عاملا له شأنه الكبير ٠ وعلى هذا امتشق محمد بندقيته واحكم وضع اجهزته ، ثم تخلص من معطفه نهائيا بأن ربطه بحبل متدل فوق عنق البعير ٠ وشد من هامته ، ثم راح يتلمس الظلام في بيادر القرية ٠ وسمع وهو يصطدم باحد الاحجار ، صوت رجل يغني على انغام ربابة مبحوحة :

كانوا سبعين رجلا عابرين طريق ٠٠ فروا فرارا فاستمع لما جرى ٠٠٠

وضحك حسن وقال :

ــ هل تسمع يا بني ؟ هذه قصيدة يتغنى بها أهالي الجبال وهي تحكي قصة طريفة ٠

وتشوق الشاب لسماع هذه القصة وسأل في لهفة :

ــ ما هي ؟

ـ تعال لعندي لاحكيها لك ، أحكيها كلاما وحسن يرويها شعرا ٠

وبدا على حسن ان ورم خده كان يضايقه كثيرا عند لفظ ( آ ) آخر الكلمة فيما هو يسرد الحكاية ٠ وفهم منه قاديش : أن مفرزة من الجند الاتراك مرت اثناء هزيمتها في العام الماضي بالقرب من ضيعة وادي العيون ٠ وكان رجالها متعبين مكدودين ، يفتك بهم الجوع ٠ فلمحتهم على البعد امرأة اسمها عمشة، فاغرتها أسلحتهم وعتادهم ، وكانت تحمل رغيفا ، فلوحت به أمامهم ، فما كان منهم الا ان تبعوها الى داخل القرية حيث ذبحوا عن آخرهم ٠٠٠ وختم الرجل قصته قائلا :

ـ وهكذا حصلنا على السلاح والعتاد باسهل طريقة ٠٠

وبدأ حسن العلي يغني بترنيمة طويلة خافتة :

كانوا سبعين رجال عبارين طريق ... فروا فرارا فاستمع لما جرى

مروا بوادي عيون لمحتهم عيون ... اخبار عنهم حدثت تلك المرا

قالت لهم عمشة يا قوم اتفضلوا ... اتراك وما فهموا غير البربرة

فأرتهم زادا من خبز البلاد ... كانوا جياعا والقلوب محسرة

تبعوها للبيت حتى يأكلوا ... لا يعلمون الغيب ماذا قدرا

قاموا الاهالي ذبحوهم كلهم ... والدم منهم من رؤوسهم قد جرى

والذي هرب منهم تبعوه النسا ... والصوت دب على البيوت وعلى القرى

وعرفوا بني رشوان في ذاك الوقت ... بسلاح كركر كيف يمشون غندرا

وذبلت النغمات بين شفتي حسن ، في حين سمع من الخلف ـ بهينمة رقيقة ـ صوت علي يرتل الاغنية بصوت اقرب الى الدعاء والتبتل ٠ وعاد الصمت يخيم من جديد ٠ وكانت الجمال تتهادى راغية مقرقرة ، تسأسىء الصناديق فوق ظهورها المتمايلة الى الامام والخلف، بينما راح قاديش يسير مطرق الرأس يواكب القافلة في نشاط وانتباه ٠ ولاحظ لاول مرة أن الارض

الوعرة قد انتهت ، بعد ان أكلت من قدميه وساقيه جزءا هاما من قوتها .
ولم يدر كم مضى عليه من الزمن فيما هو يسير في خطوات واسعة وفي حالة
تشبه الحلم ، لا يقظة بمعناها المفهوم ولا نوم كامل ، وانما يعيش بقليل
من الوعي في تيه مجهول غامض المعالم . ولاحظ أنه يحرك قدميه بخطوات
غير متناسقة . فهو يعرج قليلا ، وينوس ويتعثر . ولكنه ظل يغلق شفتيه
كي لا يصدر من بينهما أنين يدل على الضعف . وتساءل في ارتياب : « ترى
هل أنا نائم أم متعب ام الاثنان معا ؟ وما هي حال حسن العلي وعلي حسن ؟
انني لا اسمع صوتهما » . وتصور رفيقه الى جانبه: «لابد من أنه يشبك يديه
وراء ظهره دافعا صدره الى الامام . ينتصب جسده كله فوق ساقيه اللتين
تتحركان في رشاقة » . ولم يستطع أن يخمن شكل عينيه . الا أنه حدس
بأن الرجل قد خلد الى أفكار يصعب مبارحتها وتساءل : « ترى كيف يسير
الرجل الخلفي؟» وأراد أن يدير رأسه ، غير أنه وجد في ذلك صعوبة كبيرة ،
فظل مطرقا . كانت الارض تظهر على ضوء النجوم شهباء اللون ، صلبة ،
مفروشة بحجارة صغيرة متفتتة . واصبح الجو رطبا وباردا بشكل جارح .
وفكر بأن يرجع الى الخلف ويتناول معطفه عن عنق البعير . وظلت هـــذه
الفكرة تراوده مدة طويلة . ثم نبذها قائلا في نفسه : « لماذا أعود في الوقت
الذي يجب علي فيه الا اهدر قوتي . سأقف في مكاني حتى يصل الجمل
لعندي فأمد يدي وأسحب المعطف . ان هذه العملية لا تكلفني جهدا » .
وراح يتصور في عقله ، في خياله، كيف سيحدث ذلك . وبعد أن تمثل كيف
سيرتدي معطفه ، شعر بالدفء شعورا غير أكيد . ثم سأل نفسه : « ترى
كيف تم ذبح هذا العدد الكبير من الناس من أعناقهم ؟ هذا العدد من الاتراك،
اليسوا بشرا ؟ كيف جرى الدم ؟ هل كان في عروقهم دماء ؟ ترى ماذا يقول
الواحد منهم وهو يرى رفيقه يذبح امام عينيه ؟ الم يقاوم ؟ الم ينبس بشيء
ما بالتركية أو بأي لغة أخرى .؟ لغة الالم مثلا .! يبدو أنهم لم يقــولوا

شيئا • ولكن •! الم يعتمل شيء ما في نفوسهم ••؟ لا شك في ان كثيرا من الرؤوس فصلت عن أجسادها وقطع الخبز ما تزال بين الاسنان ، لربما خرج هذا الخبز معلوكا أو غير معلوك من البلاعيم الممزقة قبل ان يصل الى المعدات الخاوية • سبعون انسانا ممددا هكذا على الارض •• مائة واربعون يدا مرتعشة ، ومثلها اقدام متورمة• عيون كثيرة محملقة ، تتضور ، يعشعش فيها الرعب •• الرعب الذي لا يموت •• جنود •• آلاف الجنود •• ملايين •• انتشلوا من بيوتهم ، من اولادهم وزوجاتهم، من أحضان آبائهم وامهاتهم، انتشلوا بلا رحمة ، وقذف بهم بعيدا بعيدا ، لكي يذبحوا •• وانتهى الامر •• واصبح مكانهم فارغا •• هناك •• في وطنهم ، في غرفهم ، في اوكارهم ، في قلوب ذويهم •• ابي ، هكذا مثلهم ، ذبح في مكان ما بعيـد •• فصـل رأسه عن جسده ، خرج الطعام من بلعومه، في عينيه رعب رعب •• رعب••»

وصحا قاديش بغتة ليجد نفسه يسير محني القامة ، يكابد مشقة كبيرة في صعود الجبل • وقال في نفسه : « طيب•• هانحن أولاء نبدأ التسلق »• ورفع رأسه الى الاعلى ، فوجد السفح الكبير يمتد امام ناظريه الى ما لا نهاية• فيخفض عينيه متجاهلا رؤية القمم التي بدت لناظريه تثقب السماء من عدة مواضع • كأظافر رفيعة واخزة في أكف عملاق غير بشري ، تمتد الى النجوم وتختلط معها في شكل هيولي ، وكأنها تريد أن تزيحها عن طريق الشموخ•

وبدأت السماء تصطبغ بلون يزخر بالعاطفة ، بينما راحت صفرة الليل تتحشد • واخذت شعاب الجبال المتموجة وصخورها الناتئة تزحف في هدوء باتجاه ما ، وكأنها تغادر أماكنها خلسة • وتذكر الحجارة الكبيرة السوداء وتخطيها المتعب الممض • ولم يدر متى كانت بداية شعوره بالجهد أو عند أية ساعة من الليل بدأ يساوره التعب • غير أنه تمـاسك على غير وعـي ، وصمم على مثابرة التسلق في عناد • وأحس بأن لقدميه المكدودتين تأثيرا كبيرا على رأسه • ومع هذا فقد راحت تلم به افكار متعددة الجوانب • كان

يغز صعود الجبل في اصرار ، وبارودته تعمل على السخرية من كل عواطفه، حتى اخذ يبحث عن مكان ما من جسده يعلقها به · فقد جرب الوضعيات كافة ولكن دون جدوى · وفي احدى المرات حل حمالتها الجلدية وتقلدها مسافة طويلة من الوقت ، حتى أحس بأنها حبست نفسه عن الصعود أو الهبوط · وظل لا يرفع عينيه عن موطىء اقدامه الا نادرا ، وذلك عندما يقيس المسافة المتبقية لبلوغ صخرة كبيرة ، أو علامة من علامات الجبل · كان يفكر في ماضيه وفي صورة واضحة · أمـا تفكيره في المستقبل ، فيما سيحدث بعد طرفة عين ، فكان شديد الغموض · وفي وقت ما عاد الخدر يتمشى في أوصاله · ولم يدر هـل اغمض عينيـه أم رآه حقيقـة : ذلك البيت الخشبي في باب شرقي ، رأى نفسه يصعد السلم اللولبي وهو يهتز تحت قدميه هزا رقيقا يشبه الهدهدة ويدعو الى النعاس · وفتح الباب ، ووجد ماري الارملة الارثوذكسية المنتفخة الوجه ، وبجانبها طفلها اليتيم المريض · وسمعها تصرخ في الظلام ( ها ايها الكاثوليكي ·· قلبت وعـاء الحساء ) ويرد هو عليها في تخاذل وبصوت يخنقه النحيب·· ( أنا··ولكن هذا ليس حساء·· ان له رائحة خبيثة ) وتصرخ المرأة ( بلى ·· حساء ·· أنا ارثوذكسية ·· لا اكذب ·· ) ويبكي قاديش ، في حين تنهض المرأة وتلقي بنفسها على قدميه وتنشب اظافرها بهما ، ويجاهد كثيرا ليتخلص ولكن دون جدوى·· ويهب فجأة من الفراش طفل دقيق الملامح ازرق العينين يرتدي لباسا عسكريا ويصرخ فيه ( لماذا بصقت في وجهي ؟·· لماذا ؟ انت قاديش·· اليس ذلك ··؟ اليس كذلك ؟ ) ويرد محمد محـاولا ان يخاص جسـده المبهوظ من تاثير ساعدي المرأة ويصرخ ( نعم · نعم ) ويقول حسن العلي :

ـ لقد نصحتك بركوب البعير فرفضت ··

قال محمد وقد ثاب الى رشده فجأة :

ـ انت تحدثني ·؟

ـ قلت لك هل تعبت • اليس كذلك ؟ فقلت نعم •

ورد قاديش وهو ما يزال تحت تأثير الكابوس :

ـ انني لم اسمع صوتك • خيل لي انني كنت احدث شخصا آخر ••

وأعاد نسيم الفجر الى قاديش شطرا كبيرا من وعيه، فشد من عزيمته• وراح يفرك يديه ، وكان يعلق سلاحه على كتفه • ومضى يحث الخطا الى جانب رأس البعير الاول ، الذي اندس بين الرجلين بشفته المهتدلة المشروطة، تفوح منها رائحة العلف المجتر ، ويسيل منها اللغام •ورفع حسن العلي رأسه وأشار بيده الى وقب ـ بدا في جوف الجبل كغيمة داكنة في كبد السماء ـ :

ـ ها نحن قد وصلنا الى اصعب نقطة • وسننال في عين شمس قسطا من الراحة •

ورد علي الحسن من الخلف :

ـ أفضل أن نتابع الى قرية « بيرة الجرد » ، ولا حاجة بنا للمرور من عين شمس •

وتوقف حسن قبل الولوج فيما يشبه الفتحة الكبيرة ، حيث فك أرسان الابل عن اذناب بعضها بعضا • وأوكل الى قاديش وعلي قيادة اثنين منهما ، وأمسك هو بمقود الاول • والتفت قاديش الى الخلف ، فهاله أن يرى السهوب الواسعة الممتدة امام ناظريه في صورة تخرج عن نطاق الحصر والقياس ، ودون أن تحدها خطوط أو نهايات ، وتساءل في دهشة : « كيف وصلنا الى هذه القمة ؟ وهل حقا اننا قطعنا كل هذه المسافات ؟ » ولم يبد له في حياته خط الافق واضحا مثل هذا الوضوح ، أو بالاحرى لم ير مثل هذا المشهد في كل عمره • كانت ـ من الخط الذي تلتقي فيه السماء بالارض من الشرق ـ تنطلق أشعة الصباح الجمانية ، فتبهر عيون الطبيعة التي ظللها الفجر بغشاوته الصفراء • ومن بعيد •• من

أبعد الابعاد ، كان يتفجر ينبوع الحياة الخير مبشرا بميلاد يوم جديد .
وبدت لناظريه مدينة معماة نقاطا متجمعة مغبرة تلتصق بالارض ، وهي تنفض عن أجفانها غفوات النوم وسط هالات من الضباب . كما بدت من دونها مئات القرى مبعثرة هنا وهناك كقطيع من الماعز المجفل . اما الارض الوعرة فكأنما عبدت بالاسفلت واصبحت ملساء كالحرير . كانت الفجوة التي توقفت القافلة عندها عبارة عن صدع في صدر الجبل . وكان اجتياز ذلك الصدع - بالاضافة الى صعوبة مرتقاه - بالغ الخطورة . فهو يتكشف عن ممر ضيق على صورة رف معلق في الهواء بين القمة والحضيض . صاعد بصورة حلزونية على شكل الدرج الحلزوني الذي يعرفه قاديش . مستند على الصخور الناتئة في قلب الجبل الذي انشق شقا عريضا في الاعلى ثم ضاق كلما تدرج الى الاعماق . حيث تحجب اغواره ادغال كثيفة من نباتات التفلة والقطلب والعرعار . وكان على من يتعلق بهذا الرف لاول مرة ، ان يظل جانحا نحو اليسار متلمسا الصخور بيديه ليتأكد من ثبات الجبل الذي فغر فكيه في وجه السماء الشاحبة .

استلم حسن بعير المقدمة ، ثم تبعه قاديش وسار علي في الخلف ، وصاح حسن :

- انتبه يا محمد لا تتناول من شيء .. فالبعير ينظر الى رأسك وان أقل حركة منك تجفله فيتوقف . ولن تقوى بعد ذلك قوة على تحريكه ..

وأكمل علي من الخلف :

- وعندها يسد الطريق ويتعذر المضي أو العودة . فالبعير اذا ركب رأسه يصبح خنزيرا كبيرا ، حتى لا يمكن هنا كما ترى انزال احماله .

وكان حسن يعرف ان الابل تحب السمر . من أجل هذا تابع نصائحه :

ـ ابتعد ما أمكن عن الجدار كي لا تصطدم الاحمال بالصخر فيهوي البعير مع الصناديق الى اسفل السافلين ٠

وحدث قاديش نفسه : « واذا ابتعدنا الى اليمين قليلا فنسقط الى اسفل السافلين ايضا ٠٠ »

كان نور الصباح مايزال يكافح ليصل الى الداخل ، حيث مابرح الظلام يفرش ظلاله ٠ كما أن قطعة السماء الضيقة الظاهرة من فوهة الصدع ، أخفقت في ايصال تباشيرها الى العمق ٠ كانت أصوات الكلام تحدث ضجيجا مختلطا ، تجعل المعاني تضيع في لجج من الصدى المتلاطم ٠ وعندها تتبخر نهاية الكلمة بعد أن تتقاذفها الصخور من كل جانب ٠ ومن الاسفل كان يسمع فقيق مياه تسير في المجهول ، وتهدر هديرا أبديا أبد الكون ٠ وكان جدارا الجبل يتقاربان حينا حتى ليكادا أن يتلامسا ، ثم يتباعدان فجأة ودونما سبب ، بينما تظل الدرب ـ صاعدة ملتوية مقتربة أكثر فأكثر من شفتي الصدع الجلعاوين (١) ٠٠ومن اليمين كانت تمتد اذرعها أحيانا أغصان شجرة بطم عتيقة ، وكأنها تستفيق على دبيب ثقيل وئيد ينوء أصحابه بأنفاسهم المبهورة ٠ وكادت الصدور تتنفس الصعداء ، لولا أن انطلق بغتة من الغور باز ضخم يصرصر في هلع ، وكان كما يبدو مغمض العينين ، لانه حط على ظهر البعير الذي يقوده محمد قاديش بعد ان اصطدم بأحد الصناديق ٠ وحدث ما كان في الحسبان اذ تسمر واحد في مكانه ٠ ومن حسن الحظ ، أن هذا الواحد لم يكن غير قاديش نفسه ٠ ولكنه ماعتم أن تمالك جأشه ، واستأنف الصعود في أعقاب ذنب البعير الاول ، الذي راح في تلك الآونة ينثر البعر ذات اليمين وذات الشمال في لامبالاة ٠ وبعد عشر خطوات برزت القافلة الى النور ٠٠

---

(١) اللذين لايمكن ان يلتقيا ٠

وتفتح أمام قاديش عالم جديد . وجد نفسه في السماء ، بين القمم ، في دنيا عظيمة تبهر القلب ، بين التلال المتموجة التي راحت تكتسب شيئا فشيئا لون الذهب . على شرفات الوديان الممتدة العميقة الزاخرة بالاحراش . أمام سلاسل مترادفة متراصفة من الجبال ذات الصدوع والفجوج . والشعاب ، والملونة بألف لون ولون ، المكسوة بما لايحصى من الاشجار ، وبما لايحصى من أنواعها . وفي البعد ، في الغرب ، عند الافق ، رأى الارض تصطبغ بلون السماء ، ويمتزجان معا في كل واحد ، الماء الازرق . انه البحر الابيض المتوسط .

وقال محمد قاديش في نفسه ، « هنا ثورة الجبال وسأخوض هذه الثورة . »

●

## - ١٧ -

وجد الفرنسيون ، منذ اليوم الاول لاحتلالهم السواحل العربية ، أن آمالهم قد خابت خيبة مريرة • كانوا يظنون بأن الامر ما دام قد نفذ بالاتفاق مع الانكليز ، فسيخلو لهم الجو ، وسيحققون تدابيرهم • لم يكن أصحاب الارض المحتلة جنودا ، وليس بينهم ضباط ينشدون مجدا عسكريا أو رتبا ونياشين ، بل قرويين عاديين ، ما أحبوا أن يشوه أحد منظر البحر أمام عيونهم • ومن الغريب ان أسقط الجنرالات الفرنسيون هذا الاعتبار من حسابهم ، فوقعوا في أخطاء أساءت كثيرا الى عنجهيتهم وثقتهم بالنفس ، مما جعلهم ، — أو اضطرهم — لان يدخلوا في اعداداتهم لقمع الثورات القائمة ، أسلحة جديدة هي : صنع الخلافات العنصرية ، واحداث التعصب الديني ، واشعال الفتن الطائفية ، واستغلال النفوذ العشائري ، وبذر بذور الضغائن ، وتحريك أصابع الاحقاد • بل تجاوزوا كل هذا ، فراحوا يتاجرون بما يمكن أن يكون للانكليز من ورق رابح في بعض النفوس البكر • ولكن

الفلاحين ظلوا يستدينون على الحملة · كان الفلاح يقول لجاره : سلفني نقودا وسأردها عندما يهاجمنا الفرنسيون · وكان الجار يسلف جاره ما دام هذا سيحمل بندقية ·

وقدر للفرنسيين في يوم ما ، أن يشنوا حملة كبيرة ويستولوا على قلعة القدموس ، وبذلك أصبح لهم اسفين كبير في قلب الجبل · ولكنهم ما لبثوا أن ندموا على هذه العملية · لان الكتيبة التي تمكنت من الوصول الى القلعة حوصرت هناك ، وقطع عنها انقطاعا تاما الاتصال بالعالم الخارجي · وبعد شهر واحد ، وبعد أن نفدت مؤونة الكتيبة من الطعام والذخائر ، أرسل قائدها رسالة لاسلكية يخبر فيها رؤساءه : « انه لن يستطيع الصمود مع رجاله أكثر من ثلاثة أيام ، واذا لم تصله النجدة خلال هذه المدة ، فانه سيلقي السلاح » ·

كانت قلعة القدموس عبارة عن أثر قديم شيد على شكل حصون يصعب اختراقها · بناها الامراء الاسماعيليون منذ مئات السنين على صورة ابراج دائروية ذات فتحات ، ليلتجئوا اليها عند غارات العدو ، ويتخذوا منها حصونا دفاعية · وهي ــ بحكم موضعها فوق قمة الجبال ــ محاطة بأطرافها جميعا بوديان سحيقة ، يستحيل الوصول اليها أو اختراقها الا عن طريق ممر ضيق يسهل الدفاع عنه بجعله هدفا دائميا للنار ·

وكانت القيادة الفرنسية قد توصلت الى ارسال تلك الكتيبة ، مزودة بذخائر تكفيها عدة اشهر ، على أمل أن لا ينقطع بينهما الاتصال في المستقبل، وأن يسهل محاربة الثوار في معاقلهم دون بذل كثير من الجهد والتضحيات · غير أن ذخيرة القائد صرفت جميعها في الايام الاولى · وكانت الرشاشات الاربعة ، المنتصبة على الابراج ، والتي ظلت لعلعتها لا تفتر ، قد استهلكت القسم الاعظم من الذخائر · مما حدا بالجند أن يدافعوا أخيرا عن انفسهم ،

برؤوس الحراب والصناديق الفارغة ، وبما أمكنهم خلعه من حجارة الابراج. ولم تستطع بعد ذلك حتى طائرات الاستكشاف أن تصل اليهم ، لأنها في طريقها ، كانت تضطر لأن تلامس رؤوس الذرا ، فتصاد كما تصاد الطيور ، ثم تسقط مع ربابنتها في الوديان السحيقة . وفكر القائد العام الموجود في طرطوس طويلا ، ثم نقر على جبينه صائحا :

ـ وجدتها .. كنت ناسيا حلفاءنا الامجاد .

وأمر بأن ترسل الى الكولونيل قائد الكتيبة رسالة عاجلة بحزم أمتعته والتأهب للعودة مع عسكره ، وستأتيه التعليمات في أقرب فرصة .

كان قاديش في أواخر شهر أيار ، يفترش العشب وسط دغل في واد يقع تحت اقدام البرج الغربي للقلعة ، بين ثلاثة شبان من القرويين ، يعانقون بنادقهم ، ويناقشون خططا خيالية للاستيلاء على القلعة . وكان قاديش يفكر : ( وبعد ذلك سأنام ليلتين كاملتين مستريح البال .. ) كانت تبرز من صدره جريدة عتيقة لفرط الايدي التي تداولتها ، تحوي بيان الامير فيصل الذي أذاعه عقب رجوعه من باريس في أول الشهر . وكان قاديش قد تلا البيان على مسمع الفلاحين مرارا عديدة . والمح الى فقرات معينة وردت فيه لا يمكن أن تمر في سلام . وقد لاحظ بعد أن اكتسب الكثير من الصداقات ، ان الفلاحين ، برغم أنهم أميون ، لا يفتقرون الى الحس السليم . وقد سأله العديدون منهم عما يعنيه الامير ( بالنيات النبيلة للحكومات الاربع المعظمة وتمسكها بالمبادىء ) . واستفسر آخرون عما يقصده الامير بكلمة ( على الشعب أن يتمسك بأهداب السكينة والتؤدة وحسن السلوك ) حتى أن علي الحسن ، الذي ظل رفيقا له منذ وصوله ، سأله في براءة وطيبة متناهية :

ـ ترى هل يعتبر الامير فيصل ثورتنا اخلالا بالتؤدة والسكينة وحسن السلوك ؟

كان الدغل الذي كمن فيه الثوار أحد الادغال الواطئة الكثيفة المنتشرة على طول السفوح ، حتى تصل الى اعماق الوديان • وبالرغم من أن الوقت قد جاوز الصباح ، الا أن الشمس ظلت محجوبة عن الرؤية •• كان بعض الرجال ينظفون سبطانات بواريدهم بحبال ذات رؤوس حديدية • وبعضهم الآخر قد أخذ اغفاءة قصيرة ، مجللا وجهه بطرف شملته • وسمع من طرف قريب أصوات رجال عكرت صفو السكينة المهيمنة • واقتربت الاصوات شيئا فشيئا حتى وصلت الى الدغل • وصحا النائمون ، ورفع الباقون رؤوسهم ليجدوا أحد رسل صالح العلي يحمل أوامر على غاية من العجب واللامعقول • وكانت الاوامر تنص على ترك المنطقة المحاصرة والارتقاء الى رؤوس الجبال • وعندما استفسر القوم عن الاسباب ، أجاب الرسول في اختصار : بأن الشيخ قد سمح للفرنسيين المحاصرين بأن يعودوا الى وحداتهم في أمان • وتجمع الثوار حول الرسول يريدون الفتك به ، لولا أن لحقته جماعة أخرى أكدت هذه الاخبار • وأعلنت عن أن رسالة وردت من الجنرال اللنبي من فلسطين ترجو الشيخ ، خدمة للانسانية والشرف ، وللمرة الاولى ، والاخيرة ، أن يعفو عن افراد الكتيبة المحاصرة • وأسقط في يد الرجال ، وبانت على وجوههم سيماء الخيبة و المرارة وعدم التصديق •••

وفكر قاديش في الامر مليا ، ثم أعلن على رؤوس الاشهاد : أن النصر سينقلب الى هزيمة ، ان لم تكن هناك اتفاقية شريفة أو معاهدة • وصمت الشاب برهة ، و تفحص أعين الرجال ، فوجدها تتطلع اليه وكأنها تنتظر منه أمرا • فصاح بصوت جهوري :

ــ ما رأيكم أيها الرجال ؟

فردوا جميعا بنبرة واحدة :

ــ سنبقى هنا ونستولي على القلعة •

وقال أحدهم شاكيا :

ـ ظللت هنا شهرا بلا طعام ، تاركا عائلتي واطفالي في قرية بعيدة ٠ أنام على الارض واحرس القلعة ليل نهار ٠ وعنـد اقتراب اللقمة من الفم أجدني أؤمر بالتراجع ٠

وصاح في تمرد :

ـ أنا ارفض هذا الامر ٠٠ أنا أرفضه ٠٠

كان المتكلم في حوالي الستين ، يرتدي اطمارا ، ويلف قدميه بالخروق والقش ، كان يحمل بارودة مكسورة الاخمص وملصوقة بالغراء والمسامير ، أما أجندته فقد أصابها الهـزال ، ولم تبق محتويـة على اكثر من عشـر رصاصات ٠ وبدا جليا أنه يعلق آمالا كبـيرة على اقتحام الحصن ٠ كان يصرخ في حرارة كمن لحقه ضيم كبير ٠ وقد جحظت عيناه وملأ شدقيـه الزبد ٠ وأردف ، وقد امتلأت عيناه بما يشبه الدموع :

ـ لن أذهب ٠٠ لن اغادر هذا المكان ٠٠ سأموت هنا ٠ وحق الله أموت ولا أتراجع ٠

واقترب منه قاديش ، مستعينا بـه على تحقيق غاية لم تتبلور في رأسه وسأله :

ـ طيب ياعم ٠٠ نريد أن نعرف أولا ، لـماذا لاتطـع أوامر الشيخ صالح وتصعد معنا الى الجبال ٠٠

فرد الرجل بصوت ينضح بالشكوى :

ـ لأن هذه الاوامر غريبة ٠ كيف نعود ونترك الفرنسيين قبل أن يستسلموا لنا ٠ لقد افسدوا لي حقلا بعد أن نمت الحنطة فيه وكادت تصبح سبلا ٠٠ أبادوها عن آخرها وهم في طريقهم لاحتلال هذه القلعة ٠ فقدت كل شيء ولم يبق لي ما أطعم اطفالي ٠ هل هذا حق ؟ من قال هذا ٠؟ ان الله لا يريد الا الحق ٠٠ والرجوع ليس حقا ٠٠ أليس هذا صحيح يا ولدي ٠؟

وغص الرجل بريقه وهو يزدرد الكلمات :

هاهي ذي بندقيتي ، بعت الثور الذي أفلح به لكي أشتريها • اطلقت كل مامعي من ذخيرة ، واقسم على أني لن أعود هكذا بعد أن أضعت كل شيء •

وتذكر قاديش حالة الفلاحين الذين مر بهم في الجبال لم تكن لديهم أرض بالمعنى المفهوم ليفلحوها • بل كانوا يستفيدون من بعض السفوح العامودية تقريبا في بذر الحنطة ، ثم طمرها باصابعهم وأسنة المذاري • أما من أوتي منهم حظا ووجد مايفلح به التراب الصخري ، فكان يجر السكة بنفسه من الاسفل الى الاعلى ، دافعا أمامه دابته ، وعلى الاغلب تكون حمارا أو امرأة • وعندما يصل الى النقطة التي يتعذر معها متابعة الصعود ، كان يغرس رأس السكة في الارض ويشدها الى الدابة ، ثم يتعلق بها محاذرا التردي في الوادي السحيق •

وقال أحد الشيوخ وكان يشاهد كثيرا برفقة صالح العلي ، ولعله كان أحد قادته :

ـ اسمع يا عبد الغني ، الشيخ أمر بهذا ، وهو أعلم بما يفعل ••

وصرخ بغتة مهددا بيده :

ـ الشيخ لايخون •• وهذا ماعاهدنا عليه ، وعاهدناه عليه ، نطيعه حتى النهاية يالله يا شباب •• ولنترك عبد الغني وشأنه •• ولنمض لتنفيذ أوامر الشيخ صالح •

وفي هذه الاثناء سمعت في الاعلى ضجة مباغتة • فمط الرجال أعناقهم ليروا رجال الكتيبة المحاصرة قد هدموا الاحجار التي صدوا بها باب القلعة ، وخرجوا منها على أعقاب بنادقهم في ضعف وخور ، واجتمعوا عند الممر بالرتل الثلاثي • ثم أخذوا طريقهم نحو الغرب يرفعون أمامهم راية مثلثة الالوان ، ويجرون وراءهم رتلا طويلا من النقالات والبغال التي تنوء بحمل الرشاشات الهوتشكيس الفارغة • ولم يشجع هذا المنظر على تعنت الثائرين ، بل أزال آخر رغبة لديهم في الاصرار على متابعة الحصار • فرفعوا بنادقهم الى

اكتافهم ، وصعدوا الوادي باتجاه الجنوب ، مودعين المكان ببضع رصاصات اطلقوها في الهواء •

كان قاديش يلف رأسه بشملة سوداء • وقد استبدل بجزمته المطاطية حذاء عسكريا ترابي اللون مسلحا بالمسامير • وارتدى فوقه بنطالا ضيق الساق ، ومن الاعلى سترة تجمع ما بين السواد والخضرة • وبالاجمال ، بدا بلباسه هذا كجندي غير نظامي • والواقع أن هـذا النوع من الملابس ، بالاضافة الى جودته ، كان سهل المنال • فعقب كل معركة يستطيع الانسان ، حتى اذا كان عاريا ، أن يجد ما يلبسه • وذلك اذا غض الطرف عن جميع الاعتبارات المتعلقة بالكرامة والانفة والتشاؤم • كان يربط على ظهره حقيبة ممرض ، ألصق فوق اشارة صليبها الحمراء ، قطعة من الورق الابيض كتب عليها ( مستشفى متنقل ) ، وملأهـا بالقطن والخروق وزجاجـات مـاء الاكسجين والمطهرات الاخرى • كما استطاع الحصول على زجاجة كبيرة من « الميكركروم » ، وجدها الى جانب الحقيبة ملقاة بين الصخور ، بعد حملة هزم فيها الفرنسيون في الايام الاولى من وصوله • كان يسير مع قاديش رفيقه الدائم علي الحسن ، وقد تخلص من ضرسه نهائيا بأن انتزعه من جذره • كان علي في حوالي الثلاثين ، طويل القامة رفيع الشاربين ، كبير العينين ، يمت بصلة القرابة الى حسن العلي • وهو متزوج من امرأتين ، وله منهما خمسة أطفال ، أصيبوا بالجدري دفعة واحدة منذ سنتين • فقدت اثنتان انظارهما على الاثر ، والكبرى مرشحة للزواج من ابن عمها بعد مدة قريبة • وكان قبل بدء الثورة يتعيش من تربية المواشي •

وقال محمد لزميله وهما يتجاوزان صفا من الصخور :

ــ اعجبني ذلك الرجل • أنه كما بدا لي ، ثائر حقيقي • وصـادق في المـه •

واجاب علي :

ـ رجل مسكين .. ولولا كرامة الشيخ لما أثناه عن عزمه أحد على البقاء . ولكن مارايك أنت بهذه القضية ؟ . . أنا لم أجد تعليلا لهذا الانسحاب ..

ورد قاديش حاصرا تفكيره :

ـ أظن بأني اذا أخذت اغفاءة قصيرة أستطيع التفكير بصورة أوضح . فأنا لم أنم منذ ثلاث ليال . ولا شك في أن أصابع الانكليز بدأت تلعب . وقد استغلوا شيمة الشيخ ونبله في هذه الحادثة ..

كانت جماعة من الثوار قد تجاوزت رصفا من الصخور ، واتجهت ناحية القمم الجنوبية المطلة على قرية الشيخ بدر ، بينما استمر الآخرون في سيرهم بين المرتفعات الجانبية المشرفة على الوادي . ورفع الشابان عنقيهما بالاتجاه الأول ، ليريا رجلا يلوح بغطاء اخضر ويصيح من الاعلى :

ـ تعالوا الى هنا يا شباب الى هنا . الى هنا ..

واستدار الجميع ناحية الجبل . وبدأوا بالارتقاء ، منتشرين متفرقين يكادون أن يسيروا على أربع .

كانت شمس أيار تسلط أشعتها على الصخور جاهدة لتفعل شيئا ما ، غير أن نسيم الضحى كان أقوى . اذ راح يفل من عزيمة الشمس ، ويسكب على الجلمود سيلا من عذوبته الفياضة . وبعد حوالي ساعة كانت القمم قد تجللت بالثوار الذين هرعوا من جميع الاطراف بانتظار الاوامر الجديدة .

كان الجبل يطل على قرى الشيخ بدر والرستي ووادي العيون وبضع قرى أخرى . وعلى البعد كانت رؤوس الهضاب والتلال تبدو كحلم أثداء سمراء لامعة منتشرة في كل مكان . ومن بينها ، كانت الوديان الخضراء والمسارب الضيقة ، تتشابك بعضها مع بعض تشابكا يصعب على العين متابعته . ولم يفطن الرجال لصالح العلي انه بينهم الا بعد مدة طويلة ،

وذلك عندما بدأ يتحدث بنبرته المعهودة ، ويشير بمنظاره نحو الغرب ٠ وتطلعت الجماعات الى حيث يشير ، فسرت على الفور همهمات وغمغمات مكظومة تحولت الى هرج ومرج ٠ وسمع أحد أعوان الشيخ يقول : « انهم يتقدمون من ناحية الشيخ بدر » ٠ بينما صاح آخر « انهم يربون على الالوف ٠ ورفع الشيخ منظاره الى عينيه ، وراح يجيل عدستيه في الافق الغربي ٠ واستطاع الرجال بالاعين المجردة أن يلمحوا اعدادا هائلة تشبه النمل ، تزحف على التلال ناحية الشرق بارتال طويلة متخذة تشكيلات شطرنجية ٠

كان الشيخ صالح شابا في السادسة والثلاثين ٠ مربوع القامة ، مستدير الوجه ، ذا شاربين اشقرين متهدلين ، يفترشان شفته العليا حتى نهايتها ٠ وكان يعلق على كتفه بندقية فرنسية ، ويتوكأ على الاخرى بيده اليمنى ، ويزين صدره بجنادين من الذخيرة ، وعلى خصره علق مسدس كبير الحجم ٠ بينما ارتفعت يده اليسرى بمنظار متوسط الحجم ، يستر جبينه المرتفع تحت شملته البيضاء وعقاله الاسود الغليظ ٠ وغمغم الشيخ وهو يصر بأسنانه :

ـ غدروا بنا أولاد الزانية ٠٠

واسبل المنظار عن وجهه الذي بدا قاتما ينضح بالغضب ٠

والتفت حوله مدققا النظر في الجموع وكأنه يحصيهم ٠ ثم قال في روية :

ـ لا أدري ماذا يفعلون ٠ انهم يتجهون نحونا ٠

وصاح فجأة :

ـ أين حسن العلي ؟

وهب من بين الجموع صوت حسن :

ـ يا عونك يا شيخ صالح ٠٠

وسأل الشيخ :

ـ كم يوجد هنا من الرجال ؟٠

فرد حسن :

ـ معنا المتاورةوالخياطين ، ولا يزيد عددهم عن الثلاثمائة وخمسين٠٠

وفكر الشيخ صالح قليلا ثم اردف :

ـ زين ٠٠ سيأتي الباقون على الاصوات ٠

وأضاف يكلم نفسه وكأنه يؤنبها :

كان يجب ألا اتقبل أية رسالة ولو كانت من الملك جورج نفسه ٠٠ اولئك الكفرة الفجرة ٠ الغادرون ٠ رفضت فكرة تموين الحامية فاستبدلوها بالسماح لهم باخلاء القلعة وهاهم يتجمعون حولنا ٠

وزأر فجأة وبنبرة هيجت عواطف الجماعات :

ـ اسمعوا يا رجال ٠٠ لقد غدروا بنا ٠٠ هاهم أولا ينصبون المدافع ٠٠ خذوا الارض ٠٠ خذوا الارض وتواروا عن الانظار ٠

لا يعلم مدى تواطؤ الانكليز مع الفرنسيين في هذه العملية التي أسماها صالح العلي غدرا ٠ الا أن الذي حدث بالضبط ٠ هو أن الجنرال قائد عام القوات الفرنسية في طرطوس قد استغل كلمة الشرف التي وعد بها الثائر ٠ ـ والغريب أنه صدقها ـ ثم جمع ما بقرب من ثلاثة ألوية من قطعاته ، وقسمها الى سرايا مختلفة من فرنسيين وجنود مستعمرات ، وهذا تكتيك قلما عمل بـه الفرنسيون قبل الآن ٠ ولعل الجنرال قائد الحملة خشي من حدوث تصدع في صفوف قواته ـ نظرا لصعوبة الارض وتجلد رجـال الثورة ـ ٠ وقد دعم هذه الالوية الثلاثة ببطاريتي مدفعية ثقيلة من عيار ٧٥ مم ، مع سرية رشاش هوتشكيس ٠ وادخل الهاون طراز ١٧ لاول مرة في هذه المعركة ٠ وما أن وصلت طلائع الحملة الى الروابي المطلة على الشيخ بدر والقرى المجاورة لها ، حتى اتخذ أحد الالوية وضعا دفاعيا ، بأن افترش أفراده الارض ، وراحوا يحفرون مساند للمدفعية ولانفسهم ، بينما اتخذ

اللواءان الخلفيان ترتيبا هجوميا على خطوط مستقيمة ومترادفة · وفي هذه الاثناء كانت الكتيبة المحاصرة في القدموس قد وصلت الى الموقع ، فافرغ لها مكان في القلب لتنال قسطا من الراحة ، واسترداد الانفاس ، بينما حمل المرضى والمتهالكون الى الخلف · وقد وضح في صورة جلية أنّ الفرقة قد اتخذت تدابير احتياطية تكفل لها الاتصال مع مقراتها الاولى في بانياس وطرطوس · اذ راحت ارتال البغال والعربات تمضي و تعود دون توقف في نقل المؤن والذخائر · وفي تمام الساعة الحادية عشرة من الصباح انطلقت أول قذيفة مدفع سقطت على بعد أمتار من تخم القرية · وبعد عدة قذائف ذات أبعاد زمنية ، تم احكام الرمي بطريقة مباشرة على قلبها ، ثم بدأ القصف من قبل البطاريتين معا · وقد لوحظ أن احدى البطاريات أخذت ترمي قنابل محرقة على البيوت ، بينما عمل المدفعان الآخران على حصارها بالقنابل المتفجرة · واثر ذلك توضحت خطة الجنرال · كان هدفه هو حرق القرى بمن فيها من حرث ونسل وانعام · فمن أراد النجاة من الحريق تلقفته شظايا القنابل عند الاطراف · كما قرر أن يأمر اللوائين الخلفيين ـ بعد ساعتين من القصف المتواصل ـ ببدء الهجوم واكتساح خطوط القرى التي ستظهر أمامها · وأن لا يتوقفا الا في السفوح الشرقية من الجبال عند مصياف · وبهذا يكون الجنرال قد قضى قضاء مبرما على كل حي في الجزء الجنوبي من جبال اللاذقية ·

ومهما يكن حظ صالح العلي من الثقافة العسكرية وفنون الحرب ، فقد درس الوضع عن كثب وقرر العمل على الفور · كان قد قسم رجاله منذ بدء الثورة الى فئات ، تعمل كل عشيرة تحت امرة شيوخها المرتبطين بقيادة واحدة هي قيادة الشيخ صالح · وبصرف النظر عن الصفة التي تنطوي عليها هذه التقسيمات ، فانها كانت تعطي نتائج طيبة نظرا لوجود التنافس البريء بين العشائر ، والاذكاء فخر الذي يكنه كل فرد منها بانتسابه الى

عشيرته . ومن الطبيعي أن يولد هذا الفخر لدى الفلاحين حماسا واندفاعا في المعارك ، دائبين على أن يظل اسم العشيرة ساميا مكتسبا على الدوام ألقابا رفيعة . وقد كلف الشيخ فئة من الشبان السريعي الحركة بالاسراع الى أقرب الضياع المنكوبة ، ومساعدة أهلها على النزوح .

وجد الشيخ بعد نصف ساعة من بدء القصف ، صعوبة كبيرة في السيطرة على رجاله . صحيح أنهم نفذوا أوامره واختفوا بين الصخور ، الا أن صياحهم وزئيرهم راح يتعالى ، وهم يرون القرى من الاعلى تحترق وتتفجر تحت سمعهم وابصارهم ، بما فيها من الآدميين والبهائم . حتى ان بعضهم فقدوا السيطرة على انفسهم وراحوا يطلقون النار جزافا . واستخف الغضب بآخرين فانقضوا من الاعالي ، يتدحرجون بين الصخور ثائرين مزمجرين ، وظل الشيخ يتناقش مع مساعديه فيما ينبغي لهم عمله .

قال حسين العلي :

ـ سننقض عليهم من الوادي اليميني ونمنعهم من التقدم .

بينما اقترح رئيس عشيرة انه يجب ان نصدمهم من الامام مباشرة دون لف أو دوران . اما الشيخ صالح فقد اسبل منظاره وقال :

ـ ان نساء القرية يعبرن الوادي الشرقي مع الاطفال والبهائم . ولا أظن بأن هناك خسائر كبيرة . من أجل هذا أظن أن التريث خير من العجلة . كما ارى ان نقطع عليهم طرق الامدادات من الخلف ، ثم نحصرهم بين وادي ورور ووادي غنام . وعند حلول المساء ننقض عليهم من جميع الاطراف ، وعلينا ان نبدا الزحف من الآن . تتسلل العشيرة الاولى من الودي القبلي ، ثم العشيرة الثانية من الوادي الشمالي ، وتلتقي العشيرتان عند السفوح الغربية ما بين ( عين صفرة والمريقب ) وبهذا نقطع عليهم دابر الفرار عندما يبوء هجومهم بالفشل .

وعاد يرفع منظاره الى الناحيتين الشمالية والجنوبية ثم صاح في لهفة :

ـ هاهم الرجال يزحفون من القرى · أصبحت امام العدو قوة كافية هيا يارجال ·· توكلوا على الله ··ولنر همتكم · ميهـوب ·· سابقى أنا معكم ··سنهبط نحن من هنا ولنسلك الوادي الشمالي ··

وكان ان حدث عند الظهيرة تماما ، أن رتلين طويلين من الرجال ، قد شكلا فكي كماشة واخترقا الوديان في اتجاه الغرب ··

●

## - ١٨ -

حدث قاديش نفسه وهو يسلك معبرا ضيقا منحدرا في سفح الجبل :
« ليتني أنام هنا دقيقة واحدة قبل ان التحق بالركب ، ولكن ترى بأية عشيرة سأكون ٠؟ ان صديقي من عشيرتين مختلفتين ، وسيفرق كل منهما في اتجاه ٠ »

ودقق النظر بالرجال الذين يسبقونه فوجد بينهم الرجل ذا الاطمار ، والذي دعاه احدهم بعبد الغني ٠ كان يظلع بمشيته ، وقد بان لحم فخذه الايمن من وراء شرخ كبير في سرواله الكالح ٠ كان يرفع بندقيته المكسورة فوق رأسه ، ويهدل وسط الرتل كجندي غر ٠ ومن تحت لبادته السميكة المغبرة ، تدلى عثنون صغير أشيب ، راح يتأرجح فوق رقبته المحترقة ٠ وقال قاديش في نفسه :

« سأنتسب في هذه المعركة الى عشيرة هذا الرجل الفقير ، ان في عينيه الدامعتين ظمأ شديدا الى المعركة ، ولا شك في أنه سيكون رفيقا طيبا » ٠

وعند مفترق واسع ، يشكل مسيلا للمياه ، كانت الجماعات تنفصل بعضها عن بعض ، منحدرة في اتجاهين متعاكسين ، سلك الرجل العجوز الاتجاه الايسر ، فعرف قاديش أنه من عشيرة « الخياطين » ٠

كان الوادي يتجه جنوبا حتى يصل الى قرب وادي العيون ، حيث يتفرغ منه واد آخر يميل نحو الغرب ٠ ومن هناك يبدأ بالتعرج حتى يمر بالقرب من جناح الفرنسيين الايسر ٠ ثم يتلوى كالافعوان حتى يصل الى نقطة يغيب فيها نهائيا ٠ وكان في بعض نقاطه مكسوا بالادغال ، وفي نقاط أخرى يبدو عاريا تماما ومكشوفا أمام انظار رصاد العدو الجانبيين ٠ واختفت القرية الملتهبة عن عيون الرجال ، ولكن هدير القصف الرتيب ظل يصم الآذان ، ويحدث صدى رهيبا تتجاوبه الصخور الحادة وتضج بـه شعاب الوديان ٠

كان الرجال بأسلحتهم ، وأجندتهم ، وقمصانهم المفتوحة ، وسراويلهم العريضة يتراكضون جماعات دونما نظام أو ترتيب تخشخش الاجندة في أعناقهم وحول خصورهم ، وترسم بنادقهم المتأرجحة في الهواء أشكالا مختلفة ٠ وفوق رؤوسهم عقدت الشملات على شكل ربطات مستديرة ذوات عقد ، يسح العرق من جباههم غزيرا غزيرا يكاد أن يغرق الاقدام ٠ كان بينهم شيوخ معمرون ، وأطفال لم يبلغوا سن الرشد ٠ وكانت هناك نساء عاريات الاقدام مجللات الرؤوس ، يحملن صرر المؤن ، ويتسلحن بالبنادق والسيوف ٠ وعلى طول الرتل الذي ضاعت مقدمته في التعاريج المشجرة ، انقلب الصياح الى دمدمات ساخطة ، لاعنة ، مفزعة، تنذر بالويل والثبور وعظائم الامور ٠ كانت فسائل الزعرور الشائك تعيق التقدم ، وتدفع بالرجال الى التنحي عنها ، اما بالاستدارة حولها أو

تخطيها قفزا • وكانت النساء يلاقين صعوبة كبرى في تخليص أطراف أثوابهن عن أشواكها • وظل اللهاث ودبيب الاقدام لا ينقطع • ووصل الرتل الى منطقة مكشوفة ، كان قاع الوادي فيها عريضا ومفروشا بطبقة من الحصي اللامع • وسمع من الامام صوت يهتف : « خذوا الجانب •• خذوا الجانب أوصلوا هذا الامر الى الخلف • » ومشى الصوت الى الوراء : « خذوا الجانب خذوا الجانب ، أوصلوا هذا الامر الى الخلف » • ورد الوادي صدى واسعا متلاطما ف •• ف •• ف ••

ولم يدر أحد ماذا حدث • لأن الرجال أصاخوا السمع جميعهم دفعة واحدة • كان قصف المدفعية منقطعا • ولم يعرف أحد في الدقة ، هل تم ذلك منذ سنة أم منذ لحظة واحدة • غير أن أصوات طلقات متفرقة راحت تطن من الخلف • وتمهل الرجال في سيرهم وهم ينحازون الى كتف الوادي • وقال أحد المجاهدين :

ـ بدأ الالتحام في المقدمة •

ورد آخر :

ـ يبدو أنهم باشروا هجومهم •

وصرخ عبد الغني :

ـ الرصاص ينطلق من الرستى •

ونظر قاديش الى ذؤابة الرجل ، وقال في نفسه : « هاهو ذا يتكلم » • ظل طوال الوقت يسير خلفه متعقبا خطواته ، مراقبا لحم فخذه المترب ، وضمادات قدمية المتهدلة • واقترب محمد قاديش من الرجل العجوز وسأله :

ـ هل تؤلمك قدمك يا عم ؟

أجاب الشيخ ، وهو يلهث ويبتلع عرق جبينه :

ـ اي والله يا ابن أخوي أي والله ••

وقال له قاديش :

ـ طيب ·· اجلس لاضمدها لك ·

لكن الشيخ اعترض صائحا :

ـ تربطها لي ؟· لا يا ابن اخوي ، ان بها رضا قديما ، وأنا اعتدت عليه ،، اي والله اعتدت عليه ·

وتفحصه لحظة بعين خبيرة ثم سأله :

من أين أنت يا ابن اخوي ··!

أجاب قاديش :

ـ من بلاد الله الواسعة يا عمي ··

وهز الشيخ رأسه وهو يعرج :

ـ لا اله الا الله ·· الله يعطيك العافية وينصرك على قوم يعادونك ·

وصمت العجوز وهو يتكيء براحته على الصخر · بينما فكر قاديش : « ترى هل توجد في بيت هذا الرجل وسادة ··؟ وكان الشاب يحس بأنه على وشك السقوط ·

كانت حافتا الوادي تميلان شيئا فشيئا الى الانخفاض ، بعد أن كانتا تعلوان هامة الرجل · ولاحظ قاديش ، بعد أن اختفت الشجيرات ، ان الرجال في المقدمة بدأوا يحنون هاماتهم كي لا تظهر رؤوسهم من الاعلى · وبينما كان الرتل يبطيء في سيره ، كانت أصوات النار من الخلف تشتد وتتكاثف · وقد لوحظ على الرجال انهم أخذوا يتباعدون ، وهذا المفهوم البدائي للمحارب اكتسبوه من تجاربهم الخاصة ابان التقرب من العدو · كما عرفوا أن الاصابات تكثر كلما التحم الرجال بعضهم مع بعض ، وتقل أو تكاد تختفي كلما تفرقوا بصورة افضل ··

وعلى غير توقع ، حدث في الصفوف الخلفية ارتباك ملحوظ · والتفت الناس ليروا صالح العلي يمتطي صهوة فرس بلقاء · تخبّ فوق الحصي

الذي راح يتطاير وراء حوافرها كشظايا القنابل ، وقبل أن تصل الدابة الى المقدمة ، هبط عنها القائد وهو يصلح من ترتيب بندقيته • وهتف صالح العلي :

ـ ميهوب •• أين ميهوب ؟

وتوقفت الجماعات • وهرع من الصف الامامي كهل تبدو على سيمائه صفة القيادة • وقال له الشيخ :

ـ نزلت عشيرتانا الى الميدان ، واوقفتا زحف الحملة عند مشارف الشيخ بدر والرستى • اعتقد اننا سنهاجم الميسرة • والآن قل لي •• هل ظهر لكم شيء ••؟

أجاب ميهوب وكانت له عينان صقريتان :

ـ ميسرة الجيش لا تبعد كثيرا عن حافة الوادي ، يمكن رؤيتهم من هنا •

واقترب الشيخ من الحافة • ثم صعد على صخرة وأطل برأسه الاعلى ، ولم يلبث أن قفز من مكانه واعطى التعليمات :

ـ علينا أن نكمل اجتياز الوادي ، ثم نعبر الطريق بين تلة الراس وتلة المجنونة • وهناك نلتقي مع حسن العلي عند السفوح الغربية ، يا الله •• هل أحد من الرجال في حاجة الى شيء ؟

وتقدم عبد الغني من الشيخ قائلا في احترام وخجل :

ـ يا سيدنا •• أنا ليس معي غير سبع رصاصات ••

وأوعز الشيخ الى احدى النساء بالتقدم ، ولمح بندقية الرجل فهز رأسه قائلا :

ـ هاه •• معك بارودة أم فلس ؟

وتناول الشيخ الصرة من يد المرأة ، التي بدت تلهث وكأنها حامل • فك عقد الصرة بأصابعه وبيده ، وانتقى من كومة الخرطوش عشر علب

صغيرة ناولها للرجل وهو يقول له :

ـ هذا يركب على بارودتك أم ٠٠ كيف أولادك يا عبد الغني ؟٠

ورد العجوز وهو يحبس لعابه عن السيلان ، فيما هو يتناول علب الخراطيش وفي عينيه نظرة ظامئة :

ـ انهم يقبلون أياديك يـا شيخ صـالح ، ولكنهم عراة مساكـين ٠٠ عـــراة ٠

وضحك الشيخ ٠ وعندما بدت نواجزة ، اتخذت ملامحه هيئة رجل خلق ليتحدث فقط :

ـ ما عليه شيء ٠ الله يرزقنا ويرزقهم ٠ وأنا اصبحت عاريا مثلهم لقد تحولت ضيعتي الى رماد كما ترى ٠٠ وبعد أن طلب الشيخ الى المرأة في جفاء أن توزع ذخيرتها على الرجال ، نهر فرسه وصرخ بها صوتا ، فأجفلت وعادت تسابق الريح في جلبة عالية ٠ ووقعت عينا الشيخ مصادفة على قاديش فسأله في ترحاب :

ـ كيف حالك يا دكتور ؟

ولم ينتظر الجواب اذ أردف متعجلا :

وردت لك رسالة من الاستاذ الصافي مع جريدة ، أظن أنه يستدعيك الى العودة ، ولكن لا ٠٠ ابق معنا حتى نرى ما يحدث هذه الليلة ما رأيك ؟

وغمغم قاديش في ذبول :

ـ سأقاتل حتى الموت ٠٠

ولم يسمع القائد هذه العبارة ، لأنه انتفض فجأة وتجاوز الشاب بمسافة عشر خطوات ، مسرعا الى الامام ليترأس العشيرة ٠٠

وبعد حوالي نصف ساعة من التقدم البطيء ، انتهى الوادي الى سهل فسيح ، يضيق عندما ينحصر بين اكمتين واطئتين ٠ وقد تكشفت الارض الصخرية من الجانبين أمام الانظار ٠ ولوحظ الى اليسار ، وعلى بعد حوالي

الكيلو مترين ، أن جنود العدو قد اتخذوا تشكيلة مبعثرة ، مستلقين جميعهم على الارض ، دون أن تظهر منهم غير رؤوسهم المكسوة بالخوذ البارقة تحت أشعة الشمس ٠

وأوعز الشيخ صالح الى نصف جماعته بالبقاء في الوادي ، وأن يتأهب النصف الآخر لاجتياز السهل ٠ في حين أخذت الجماعة الارضية بوضعية القرفصاء ٠ ورفع الشيخ منظاره الى عينيه وراح يتأمل الاكمتين ٠ كانتا تبعدان حوالي السبعمائة من الامتار ٠ وكان الوصول اليهما ينطوي على صعوبة وأخطار ٠ اذ أن تقدم الرجال في السهل المكشوف يجعلهم عرضة لانظار العدو ، وبالتالي لنيرانه ٠

وعلى هذا ، أعاد الشيخ منظاره الى رقبته ، وراح مع ميهوب يزحفان على بطنيهما ، مشيرين الى البقية أن يحذوا حذوهما ٠ في حين كانت أصوات الرجال في الخلف توحي بأن المعركة انقلبت الى جحيم ٠ اطمأن قاديش الى وضع قنابله ، ثم أزاحها الى الخلف حتى لا تعيقه في الزحف ٠ وانزل بندقيته عن كتفه ووسدها راحتي يديه الممدوتين ، وشرع يزحف على كوعيه وركبتيه دون أن يسمح لمؤخرته أن تبرز كما يفعل الآخرون ٠ ولأول مرة ، أحس بأن الحقيبة تضغط على ظهره ٠ وفكر بأن يعلقها برقبته ، غير أنه أدرك خطل هذه الفكرة ٠ ولاحظ أن احدى النساء تمشي مشية البطة ٠ واخرى تدرج على اربع ، واسترعى نظره بصورة خاصة عبد الغني ، الذي راح يزحف على مؤخرته مدليا لسانه وهو يلهث ٠ وكان ابان زحفه يفتح العلب ويحشو اجندته بالرصاص ، وضحك قاديش في نفسه عندما تصور سروال الرجل يتمزق من الخلف وقد ظهرت اليتاه الداميتان من وخز الصخور ٠ وراح يسلي نفسه بافكار اخرى مشابهة ٠ كان الشاب الصغير يوالي زحفه مكافحا خدرا هائلا يخيم على رأسه ٠ وفجأة الفى نفسه يتوقف عن الحركة ، ويلتفت نحو اليسار فأدركه ما يشبه

العجب . لمح جنديا فرنسيا قريبا جدا يطل عليه من أحد المرتفعات الجانبية . كما رآه يرفع رأسه وقد بدت بصورة واضحة خوذته الضيقة الاطراف ، تطل من تحتها عينان ضيقتان وضيعتان . وخيل اليه أن الجندي يشير نحوه بيده ، كما خيل اليه انه يسمع صوتا يصدر من ناحيته . فاغمض عينيه وأراد استئناف الزحف ، الا انه عاد مرغما الى التحديق وقد تشنجت أصابعه على البندقية . ودون ارادة منه ، وجد نفسه ينفصل عن الجماعة ويقترب من الجندي ، وقد تسمرت عيناه على الخوذة . تماما كما يفعل العصفور أمام أفعى تهم بالتهامه وتناهت اليه أصوات غريبة ارتفعت على أثرها عدة خوذ ، وبدأت الايدي تمتد بكثرة وتشير اليه . وثقل رأسه كثيرا ، وأحس بأن قدميه تدفعانه من الخلف للتقدم . ولم يستطع المقاومة ، بل ظل يزحف في اتجاه اليسار . وتنبه فجأة عندما رأى فوهة بندقية تسدد حفرتها الى جبينه . فاغمض عينيه وأسند رأسه على الارض ونام . وخيل له أنه أغفى ورأى احلاما كثيرة .. » مريم .. الصافي .. برغوت يطير .. خيط ناعم رقيق يمر فوق رقبته . وأفاق .. أفاق فجأة على صوت اطلاق رصاصة . ففتح عينيه ليجد عبد الغني يشده من فخذه ويصيح فيه :

ــ هيا يا ولد ماذا تفعل ؟ كادوا يقتلونك ..

واستدار قاديش واستأنف زحفه . وبعد أن فتح عينه وأغلقهما عدة مرات سأل صاحبه :

ــ هل اطلقوا عليّ النار ؟

فاجاب عبد الغني وهو يحبو على أربع :

ــ لا .. لو لم أعالجه أنا برصاصة لكان قضى عليك . هيا اسرع لقد انتبهوا الينا .

ونظر قاديش الى الخلف فلم ير أحدا وعاد يسأل كالمخبول :

ــ هل قتلته حقا ؟

أجاب الرجل العجوز :

ـ أظن بأنني أصبته · انشاء الله ·· انشاء الله ··

وبعد خمس دقائق ، كانت الجماعة قد وصلت الى المنخفض بين الاكمتين ، فانفتح أمام رجالها واد جديد · ولكنهم ما كادوا ينحدرون فيه حتى تساقطت وراءهم قنابل الهاون ·

كان الجندي الذي لمحه قاديش مفرزا من قبل فصيلته الخلفية ليرصد السهل · وقد تنبه لتسلل المجاهدين واخبر رؤساءه بذلك ، قبل أن يلقي حتفه برصاصة البندقية المكسورة · وصاح الشيخ صالح :

ـ فطنوا الينا · ـ ولكننا نجونا ـ يا الله يا شباب · الله يكون بعونكم · أين الدكتور ؟

واقترب قاديش وهو يعاني حالةنفسيةغريبة من نوعها : « ماذا حدث ؟ هل نمت حقا ، كيف ؟· » عندما لفه الوادي الجديد وألفى أن حواسه جميعا بدأت تتيقظ · فشد على بندقيته وراح يعدو وراء الرجال ·

كانت قنابل الهاون من ورائهم تنفجر مثنى مثنى ، قنبلتين وراء قنبلتين تفرش شظاياهما مسافة واسعة · ومن حسن الحظ أنها ظلت تسقط في مكان واحد عند الاكمتين ، دون أن تتقدم الى الامام لتلحق بالرجال الذين اختفوا في الوادي الضيق ··

وعند غياب شمس ذلك اليوم كان الوضع العام ينبيء بالنهاية : فشل اللواء الذي يشكل رأس الفرقة اقتحام رصف المرتفعات المحيطة بالشيخ بدر · وكان المدافعون هم الرجال الذين هرعوا على هدير القذف ، مما حدا بالجنرال أن يستدعي كتيبتين من اللواء الاوسط ، وبهذا ضاقت تشكيلة العمق التي اتخذها الجنرال في البداية · كما لوحظ أن الامدادات انقطعت منذ عصر ذلك اليوم ، مما أوقف بطاريات المدفعية عن العمل لنفاذ ذخيرتها · وبعد ذلك انبيء الجنرال بأن حركات مريبة تجري في الوديان المحيطة بالفرقة كلها ، مما جعله يبدل من ترتيب الجيش ويأمر قواد الكتائب باتخاذ مواقف دفاعية على شكل نقاط استناد · وقدم آمر مدفعية الهاون

تقريرا ، يفيد بأن قنابله التي قذفها بين التلتين لم تفعل شيئا ، لاختفاء الثوار الذين أخبر عنهم الراصد القتيل · وفي الساعة السادسة ، ارسل الجنرال اشارة لاسلكية الى القيادة العليا ، يطلب اليها قوات اضافية لتعمل على تغطية الانسحاب ، وذلك باحتلال السفوح الغربية المطلة على الساحل · وبعد ذلك وصلت طائرتا استكشاف حلقتا فوق المنطقة واسقطتا قنابل على المرتفعات المشجرة المحيطة بالفرقة ، ثم عادتا دون أن تحاولا الرجوع لحلول الظلام · أما من الناحية الاخرى ، فقد وصل حسن العلي مع رجاله المائة والخمسين الى السفوح الغربية بعيد العصر · وهناك انقض على قافلةعسكرية تحمل العتاد · فأباد رجالها عن آخرهم واستولى على المؤمن · ثم اتخذ من المرتفعات الغربية مواقع دفاعية محكمة ، لقطع الطريق على تراجع الجيش ، ولصد أي نجدة أو امداد يأتي من الساحل ·

وكان صالح العلي بعيد النظر عندما ترك مئة من رجاله في الوادي قبل اجتياز السهل ، لأن النقطة التي وقفوا عندها كانت تؤدي الى منافذ تتشعب نحو الشمال · بينما وصل هو مع المئة الباقية الى التلال الغربية ، والتقى مع حسن عند حلول الظلام ·

كان الليل ينشر ظلاله على الهضاب · وراحت السكينة والهدوء المحفوفان بالتوتر الشديد يعمان الكون بأسره ·· لم يكن هناك غير همهمات غامضة وعلى صفحة السماء الداكنة ــ التي بدت مجوفة واطئة ــ اخذت تتراءى نجوم باردة ، ترقص في هدوء على الحان مصطخبة بعيدة ، تعزفها أمواج البحر الهادر · كان قاديش يسند ظهره الى صخرة ذات أظلاف ، طاويا ساقية متجها برأسه ناحية الشرق ، حيث لا يبدو أمام عينيه غير الغبش الداكن · كان يفكر بالحادثة الاخيرة · لم يدرك ما حدث له بالضبط · كل ما يعرفه أن ظلامة ثقيلة أناخت بكلكلها فوق رأسه وجعلته يغفو · وكان خليقا به أن يموت ، أن يقتل برصاصة تخترق رأسه · وتصور الفوهة

التي صوبت الى جبينه ، لم تكن لتبعد عنه أكثر من مئة متر · ثم انطلقت الرصاصة · وبدلا من أن يموت ، عاش · لأن الرصاصة خرجت من جانبه ، من البندقية المكسورة التي ضغط على زنادها الرجل ذو الاطمار ، صاحب السروال المشروح ، والد الاطفال العراة ، صاحب الزرع الذي سحقه المعتدون · وتلفت الشاب حوله ، كان الرجال يملأون الارض ، متفرقين كل في ناحية ، ومتجهين بوجوههم نحو الشرق · وكان أقرب واحد اليه يبعد أكثر من عشر خطوات · ولمح شبحا يقترب منه ويمد اليه شيئا · كانت علبة صغيرة وكسرة من الخبز المنتفخ · وسمع صوت امرأة ، وأحس برأس يصطدم برأسه شم فيه رائحة دخان :

ـ خذ تعش ··

وتفرست في وجهه قليلا ، ثم سألته :

ـ هل أنت الشامي ؟ حسن يسلم عليك ، وهذه من المؤونة التي حصل عليها هذا العصر من الفرنساويين ·

وتابعت المرأة طريقها توزع الطعام · كانت تعطي لكل رجل علبة من اللحم المحفوظ وقطعة من رغيف الجيش الكبير · وراح قاديش ، وهو يمضغ الطعام ، يتذكر الاخطاء التي ارتكبها خلال الشهرين الماضيين · كاد أن يقتل اكثر من مرة نتيجة هفوات غير معقولة ، أو اندفاعات صبيانية ليس لها مبرر · وتذكر ما قاله له صالح العلي · وتساءل : « ترى ماذا يريد الصافي ··؟ هل هناك خطبة جديدة للامير ؟ »

وفي ساعة ما من الليل ، وعلى غير انتظار ، أضاء السماء شهب أزرق اللون ، انطلق من الوسط وارتفع عاليا ، ثم سطع سطوعا مباغتا قبل أن يذوي ويهوي الى الاعماق · وتصاعدت من جميع الارجاء ضجة عالية · وساد الليل والجبال ارتباك غامض · وخيل لقاديش بأن أجراسا هائلة بدأت تجلجل في السماء · وأن الذرى شيئا فشيئا يقترب بعضها من بعض وأن

الصخور تتململ في أماكنها محاولة التخلص مما يعيقها عن السير . وهتف من الوراء صوت ذو جرس حاد :

ــ هذه اشارة الانسحاب ..

ورد صوت من طرف آخر يزعق زعيقا حاسما :

ــ اهبطوا الى السهول ، اهبطوا الى السهول ، لا تنسوا خناجركم ..

ورفع قاديش رأسه وبعق في وجه السماء :

ــ الحراب .. الحراب ..

ثم اندفع يجري الى الاسفل . والعلت على طول الجبهة ــ وعلى بعد حوالي سبعة كيلو مترات ــ انفجارات الرشاشات الثقيلة ــ تبربر على وتيرة واحدة متواصلة . دون انقطاع . في حين أخذت نيران بنادق مقابلة ترد على الرشاشات بالمثل ، تلمع أضواؤها كالشرر المتطاير . آلاف العيون كانت تومض وميضا أحمر ، يعقبها بالتتابع تصفيق الطلقات المولولة المجنونة . وكما يسري اللهب في الهشيم ، أخذت النار تستعر في كل الجوانب . وعلى طول الوديان ، وعلى ضوء النور الارجواني ، كانت اشباح مبهمة تقفز في الهواء ، وكأنها ترقص رقصة النار على تصفيق الانفجارات الثاقبة المنبعثة من كل مكان . وراح الصياح يتعالى في رطانة وذعر وهياج وبخليط من اللغات ، في حين أخذت لعلعة الرشاشات تتباطأ حتى سكتت نهائيا .

كانت آخر خطيئة ارتكبها الجنرال هي اطلاق الشهب الازرق . كان جنوده يستطيعون الدفاع عن انفسهم او ظلوا متمسكين بالارض على شكل قلعة أو قلاع محصنة . ولكنه ظن بأنه يستطيع المحافظة على نفس التشكيلة أثناء عملية التراجع . غير أن اطلاق رشاشاته قبل بدء العمل لتغطية الانسحاب كان فاشلا ، أو بالاحرى كان ايعازا للثوار بالتنبه وبدء الهجوم .

كانت الجماعة الغربية بقيادة صالح العلي قد قامت بأصعب المهمات . اذ أن رجالها ما كادوا يهبطون الى السهل ، حتى فوجئوا بالجنود الفرنسيين

يندفعون في تراجعهم ، متراصين كالقطيع الهائج • فوقع أولئك بين الاقدام المتواثبة الهائمة على غير بصيرة أو هدى ، المتدفقة كالسيل ، صفوفا طويلة مبعثرة ليس لها أول من آخر ، يلاحقها الموت خطوة وراء خطوة ويكتنفها الزعيق والبعيق من كل جانب • وبدا في ذلك الحين أن استعمال البندقية باطل المفعول ، وان الطعن بالحربة يحتاج الى خفة ومهارة بالغتين • وفي كثير من الاحيان ، كانت الاشتباكات بالايدي والنواجذ هي الطريقة الاجدى •

لم يبق متسع من الوقت لاملاء البواريد ، اذ سرعان ما كانت تتقيأ أجوافها نباحا وسعيرا أزرق • واختفت انفجارات البنادق وبحت أصواتها • كانت الاجساد قريبة جدا ، و الرصاصة لا ترى الهواء • تمر من الفوهة الى الصدر مباشرة • من أجل هذا فقدت أنغامها •

وكان اصحاب الحظ السعيد ، اولئك الذين عثروا على حفرة منيعة ، وراحوا يعملون في حرية • ولعل قاديش كان احدهم ، اذ رفع حقيبته ووضعها جانبا ، وغرس عقب بندقيته بين فخذيه ، وراح يطلق النار الى الاعلى مترقبا مرور أحد من فوقــه : ( واحد •• اثنــان •• ثلاثة •• أربعـــة •• خمسة •• ) ومد يده الى صدره وأخذ مشطا جديدا ، وارجع المغلاق الى الخلف ، فسقطت على رأسه قدم • حاول صاحبها النهوض ، غير انه تعثر ، فسقطت خوذته على وجه قاديش • وتضايق هذا كثيرا ورفع يديه محاولا اعانة الجندي على الوقوف • غير أن الجندي تعثر مرة ثانية ثم وقف فوق فخذي الشاب • كان طويلا جدا • وحملق في الارض فأطلت من عينيه شرارة باردة مسموعة • واستل من جانبه ساطورا كبيرا رفعه الى الاعلى ، ومال الى الخلف كثيرا ليأخذ قوة ، ثم سقط • وحاول قاديش نزع الحربة من عنق الجندي ولكن دون جدوى • وفي هذه الاثناء سقط فوقهما جندي آخر • وتعثر فوقهما مرتين ثم نهض وتابع عدوه • وتخلص قاديش في النهاية • فمد يده الى ظهره وفك احدى القنابل • أدخل اصبعه في الحلقة وفتلها الى اليسار

فأحاطت بسبابته كالخاتم • ونهض صارخا بكلام ليس له معنى • ولوح يده في الهواء ثم فرق أصابعه • كان الانفجار رهيبا يصم الآذان • وتناول القنبلة الثانية وانتظر • ثم رفع رأسه من جوف حفرته ، انه لا يرى أحدا • نهض واقفا متعلقا بحافة الصخرة التي كمن تحتها ، ثم تسلقها • شاهد على بعد قليل كتلة في الظلام • خيل له انها بعيدة جدا ، ولكنها اقتربت على الفور • وقبل أن يفعل أي شيء ألقى وسطها قنبلته الثانية ، وتبع الانفجار جعير كجعير البقر • وارتطمت بضعة أجساد ، ثم تساقطت كالعناقيد • نهض قاديش واقفا وتناول قنبلته الثالثة ، نزع مسمارها وأخذ يؤرجح هامته بين السماء والارض • كان مباعد الساقين ، تغسل وجهه دماء غريبة لزجة باردة تضيق عينيه وتسيل على جانبي فمه • ومد لسانه بصوت مرعب : دماء •• وتقدم الى الامام : « بقيت الثالثة » • وراح يتخبط في الظلام • « بقيت الثالثة • القنبلة الثالثة » •• كان يحس بكبرياء مجنونة تضج في عروقه ، وبنار تشب في عينيه وتتراقص فوق جبينه الملتهب • أحس بأن شرايينه تتمزق وهو يخطو الى الامام في بطء شديد • غير أن قوة مجهولة ظلت تدفعه لان يطير فوق الارض ، في الوقت نفسه ، كان يحس ثقلا رهيبا كالجبل يقع في قلبه ، ويجعله يرسخ في مكانه ويمنعه عن الحركة • وحملق عينيه في الظلام فرآها : مريم ، انها تضحك في وجهه في جنون ، وتصرخ : « كن حذرا •• انت تخيف نفسك •• تنقصك التجارب • ان أمامك كثيرا من الوجوه التي لن يطمسها غير الحديد والنار •• حديد •• نار •• » وخيل له أنه يسمع الى اليمين ضجة غريبة • وتقدم ناحية الصوت ، تقدم في بطء ، ثم راح يسرع • وتخلص من ثقل الجبل • وأخذ يعدو وفي رأسه يضج : « حديد •• نار •• حديد •• نار •• » كانت اصابعه تتشنج على عتلة القنبلة ، وكفه تكاد تلتهب • وتعثر بجسد ، وكاد يهوي فوقه ، غير أنه

استقام • ووصل الى حافة منخفض • وأطل الى الاسفل ، فسمع قرقعة عجلات ، وسمع صوتا يهتف بالفرنسية :

ـ سيدي الكولونيل •

وصرخ قاديش من الاعلى بالفرنسية أيضا :

ـ يا سيدي الكولونيل • خذ هذه الى بيلوت •• وويغان •• وفوش •• وكل الجنرالات ••

وألقى على الرؤوس المرتفعة ، بالجمرة التي في يده • وظل واقفا ، حتى بعد أن سطع نور يأخذ الابصار • ودوى انفجار هائل ، ولم يدر ما حدث له بعد ذلك • كل ما يذكره ، أن أنيابا حادة غرست في فخذه وجرته الى أعمق الاعماق •

●

# - ١٩ -

عاد الامير فيصل الى دمشق دون أن يطلع غير رجاله المقربين على سير السياسة الدولية ، وعلى المقابلات التي قام بها في باريس • وأخبرهم بأنه يعلق آمالا كبيرة على مجيء لجنة الاستفتاء التي قرر « ولسن » ايفادها الى سورية لتدرس رغبات الناس ، ولتنقل مطاليبه الى مؤتمر السلام ليصار الى بحثها وتحقيقها • ولم يدر الامير ــ عندما استقبل في بيروت من قبل فئة كبيرة من أصحاب الالقاب ــ بأن الذعر منتشر بين الناس ، وبأن مساعي منظمة تبذل لاهاجة الجمهور ، بسبب التكتم البالغ الذي أصبح موضعا للشك والريبة • وكان الامير قد اصدر بيانه الذي كان يحمله قاديش في الجبال • وقد أرسل الصافي اليه نسخة منه ليجعله على اتصال دائم بمجرى الامور • فبعد أن أنهى الرجل العائد من المنفى مهمته في تلكلخ ، عاد الى

بيروت حيث اجتمع بالدكتور حميد الرقي ، الذي رجع فورا من محطة حمص الى هناك ، ليتنسم الاخبار وليعمل على كشف الحقائق ٠

كان ما حدث للامير فيصل في باريس يجب أن يضع حدا كافيا ل ٠٠ المهم : أنه عندما وصل الى مرسيليا ، استقبله ضابطان فرنسيان ، ورحبا به باسم الحكومة كزائر ، وليس كممثل ذي صفة رسمية ٠ وقدما لـــه دعوة لزيارة المتاحف والمسارح ودور السينما ٠ ولكن لورنس حضر في تلك الآونة من بريطانيا تحت الحاح حكومته ، لمرافقة الامير ومحضه المشورة ٠ مما جعل الحكومة الفرنسية تبلع الغصة وتعترف بوجوده كأمير وليس كسائح ٠

قدمه لورنس أولا الى ( بونكاريه ) رئيس الجمهورية ، الذي افضى اليه ، في كثير من المجاملة والود ، بمشاعر فرنسا الطيبة نحو عائلته ونحو العرب ٠ ولكي يزيد من اطمئنانه ، أخبره بأن علاقة فرنسا مع انكلترا لم تكن في يوم من الايام أكثر صفاء وأشد وثوقا مما هي الآن ٠ وأضاف بونكاريه يقول للامير :

ـ ان قسما من الرأي العام الفرنسي كان يخشى أن تسير الحكومة البريطانية في بعض الظروف على سياسة تخالف سياستنا ، أو تنـــافي مصالحنا ٠ ولكن « لويد جورج » صرح لنا من تلقاء نفسه بأن هذه المخاوف لا محل لها أبدا ٠ وأنه لم يكن أقل اهتماما واضعف ارتباطا منا بالائتلاف الودي القائم بين فرنسا وبريطانيا ٠٠

ونقل بونكاريه الحديث الى قضية سورية قائلا :

ـ ولكن أرجو يا سمو الامير ألا تنسى بأننا مصممون على الدفاع عن حقوقنا ومصالحنا دون هوادة ٠ وعازمون على ادامة تقاليد فرنسا العظيمة في الشرق ٠ ونحن مصممون بصورة خاصة ، على كل ما ينبغي لصيانة هذا الشيء المقدس الذي ، لا يلمس باليد ، ألا وهو كرامتنا القومية ٠ ان

المسألة الشرقية التي ارتسمت أمام الانظار كلغز مخيف والتي دخلت الآن في طور جديد ، يجب أن تحل في الاتجاه الاكثر تطابقا مع الآراء الفرنسية ٠

وهنا حاول الامير أن يقول شيئا غير أن بونكاريه عاد يطمئنه :

ـ لقد توهم البعض وجود اختلاف بيننا وبين انكلترا بهذا الشأن ، ولكن هذا الوهم ليس له أي مبرر ٠ فالحكومة البريطانية صرحت لنا بكل صدق ووداد بأنها لا تنوي القيام بأي عمل في سورية ٠ وليس لها هناك أي مطمع سياسي أو غير سياسي ٠ أما في فلسطين والعراق ومصر والخليج العربي فليس لنا هناك ما نخشى عليه ٠ ونحن من جهتنا مصممون كل التصميم على أن نحافظ في آسيا على تمامية الدولة العثمانية ، ولكننا لن نتخلى عن أية عاطفة من العواطف التي كسبناها ، ولن نترك أية منفعة من منافعنا أو مصالحنا معرضة لخطر من الاخطار ٠

وخرج الامير فيصل من قصر بونكاريه دون أن يفهم شيئا ٠ ولكنه سار مع مستشاره العتيد حيث قدمه الى ( كليمنصو ) رئيس الوزراء ، فاستقبله هذا بالود والترحاب أيضا ، ولكن على مستوى آخر ٠ قال له وهو يفتل شاربيه الشهيرين بلهجة تفوح بالطيب :

ـ يا سمو الامير ٠٠ سأكون معك صريحا ٠ ان الانكليز سينسحبون من دمشق وحلب ولبنان الشرقي واني أود أن تقوم عساكرنا مقام العساكر الانكليزية في هذه المناطق ٠٠

وفكر الامير طويلا ٠ وتململ في مكانه، وكأنه يريد التخلص من كابوس ثقيل ٠ والتفت الى مستشاره ليسعفه بجواب ما ، غير ان هذا كان مستغرقا في احصاء اعمدة حكمته السبعة ٠ ورد الامير في خجل :

ـ أنا لا ارى ضرورة لبحث هذه الفكرة في الوقت الراهن ، فسورية الآن لا تحتاج الى عساكر اجنبية ٠ واذا احتاجت في يوم ما فانا لن أتاخر عن أن أطلب منكم اسداء المعونة ٠٠

ورد كليمنصو مفسرا الموقف :

ـ انت مخطىء يا سمو الامير • نحن لا نود احتلال البلاد ، ولكننا نطلب هذا المطلب لان الحالة عندكم لا تبشر بالسلام • وأنا لو كان الامر عائد الي لما اختلفت معكم ابدا • غير أن الامة الفرنسية لا يرضيها ألا يكون لها في سورية اثر يدل على عظمتها وحضارتها واذا لم تمثل الامة الفرنسية عندكم بعلمها وجيوشها فانها تعد ذلك عارا وتعتبر الامر كفرار الجندي من المعركة •

وامام ذهول الامير فيصل لهذا التعليل ـ غير الساذج ـ استطرد كليمنصو يقول :

ـ على أننا لانود أن نرسل قوة كبيرة ، بل جيشا صغيرا يكفي لحفظ الامن والسكينة • ولامانع عندي ـ وهذا اقتراح شخصي قد لاتوافق عليه الامة ـ من أن يرفع علمكم الى جانب علمنا على منشآت ودور الحكومة •

ورمق كلمنصو الامير بنظرة سرقها من ( ابن أبي زائدة ) واستطرد :

ـ وانا اضع هذه المقترحات على شكل معاهدة انصحك بقبولها وتوقيعها من الآن ، وانا في الحكم ، لانني اؤكد لك بأنه لن تأتي من بعدي حكومة ترضى ولو بجزء صغير مما اعرضه عليك •

وبدا على الامير أنه تأثر كثيرا • وفكر في الامر مليا • وبدا عليه أنه قبل هذه الاتفاقية الودية • ولكن ولسبب ما ، ارجأ الامر الى اشعار آخر • وخرج من عند كليمنصو وهو في حيرة شديدة • كان يميل هو شخصيا الى قبول المعاهدة ، ولكن مستشاريه العرب اختلفوا في الامر اختلافا كبيرا ، فقد أيد بعضهم الفكرة في حماسة ، وقالوا له أن شيئا قليلا خير من لاشيء على الاطلاق • بينما حذره البعض الاخر تحذيرا شديدا • اما لورانس فظل على صمته المطبق • من أجل هذا ترك الامير القضية معلقة الى حين عودته الى البلاد لاستطلاع الاحوال والآراء

وفجأة ، ودونما سبب معقول ، دعاه لورانس لزيارة لندن ، حيث فوجيء هناك بوجوده بين جماعة من الناس ، اجتمع بينهم في غرفة مغلقة وحول طاولة خيل له انها مستديرة قدمت عليها اوراق بيضاء ، ثم سودتها اتفاقية مؤلفة من تسعة بنود . ووضع القلم في يد الامير مكان الاصبع .. وفتح الامير عينيه في اللحظة ما بعد الاخيرة وغمغم في حزن :

ـ سأكون في حل من هذه الاتفاقية كلها فيما اذا اخلت بريطانيا بوعودها لي .

وهز الموجودون رؤوسهم ايجابا ، ثم عاد الامير الى باريس حيث سمح له بحضور جلسات مؤتمر الصلح ، بعد تعنت فرنسا وانكلترا الشديد ، والحاح الرئيس الامريكي ولسن . كان ولسن صاحب ( المبادىء الاربعة عشر الشهيرة ) رجلا طيبا دفعته ظروف معينة الى الايمان بعبارات الانسانية وحب السلام وحرية الشعوب الخ .. وقد اعجب الامير اعجابا شديدا ، ووصفه بالسيد المسيح الشهيد . وفي الجلسة ، نهض الامير والقى خطابا بالعربية ترجمه لورنس الى الانكليزية ، واقترح فيه أن يعين مؤتمر الصلح لجنة لتزور سوريا وتتأكد من رغبات الشعب في تقرير مصيره . ونهض « لويد جورج وكليمنصو » دفعة واحدة وتناولا اقتراحه بروح الرفض والعداء . واعلن كليمنصو ان سوريا غير مستعدة الآن لاستقبال أي لجنة دولية ، نظرا لفوضوية شعبها وهمجيته . وصرح بأنه يخشى على افراد هذه اللجنة ان يقتلوا هناك ، بعد ان تقلع اظافرهم وتسلخ جلودهم . ويبدو ان ولسن كان يؤمن بأن قلع الاظافر وسلخ الجلود هي مهمة أصعب من ان يقوم بها انسان ما ، لذا أصر على قبول هذا الاقتراح . وقال في صمت:

ـ ان مبادئنا التي وضعناها في خدمة الشعوب لا تفرق بين شعب وشعب ..

وقرر ارسال اللجنة ولو قام بها المثلون الاميركيون وحدهم . وكان

اصراره بداية الشقة التي فصلته عن أصحاب رؤوس الاموال ، والتي جعلته غير أهل لتمثيل الفئة التي كانت تشحذ اسنانها في امريكا بعد أن أغرتها دماء الشعوب ·

ومهما كان تأثير هذه الاحداث في نفس الامير ، فانه عاد الى دمشق ليقف في بهو السراي ويلقي خطابا تاريخيا (١)

كان البهو حافلا بالشخصيات والمتنفذين الوافدين من جميع انحاء البلاد السورية ليرحبوا به ويقدموا له الطاعة والولاء · كان هناك امراء وباشوات ، وآغوات ، وآخرون يحملون مختلف الانساب والالقاب · وحضر ايضا اعضاء الجمعيات والاحزاب العتيقة والجديدة ، بالاضافة الى رجلين ، دخلا المكان لا بصفة رسمية ، بل كفضوليين · وقفا في نهاية القاعة مقابل الامير مباشرة · وفي المقدمة ، في الصف الامامي ، تحت منصة الامير ، جلس الضباط البريطانيون والمبعوثون الفرنسيون ، وقناصل الدول الاجنبية · كان يخيم على الموقف جو من التلهف وضيق الصدر · وذلك بالنسبة للحاضرين الذين لا يعرفون شيئا ، بينما كان يكتنف ـ الذين تسربت اليهم بعض الانباء ـ توتر وجهوم · غير أن ما كان يطبع الجو بطابع السكينة والهدوء ويفرض عليه الهيبة والجلال، هو عدم وجود أناس من الطبقة العامة، تلك الطبقة الغوغائية عديمة الصبر التي تقاطع الخطابات وتدلي بآرائها علنا ، في أصوات مرتفعة قاسية نابية ، دون ان تراعي حرمة أو قداسة لاحد· وقف الامير في لباسه الرسمي وراء منصة واطئة · كانت تكسو محياه أمارات معتمة من الهم والبلبلة والقلق · وقد بدا كمن يعاني شعورا بالضيم يخشى أن يفتضح · وكانت تعابير عينيه تدل على أنه يكابد ألما قاسيا يشبه القرحة في المعدة · الا انه رفع رأسه وتجلد كثيرا قبل ان يطلق صوته الاجش

---

(١) ٥ مايس ١٩١٩ ( الحصري يوم ميسلون ) · الخطاب بالنص دون تصرف ·

الدافيء ، وهو ينظر الى نهاية البهو ، الى نظارتي الصافي وشملة الرقي تماما :

ـ ايها السادة ·· انني اذ أتشرف بالمثول بين ايدي قواد الجيش البريطاني وامام كافة مندوبي الحلفاء والقناصل الاجنبية ووجهاء هـذه البلدة والبلاد السورية الاخرى ، القي بعض الكلمات على مسامعكم الكريمة ·· وهذه الكلمات ستكون تاريخية بالنسبة لحياة الامة العربية الجـديدة في ماضيها ( واستقبالها ) وارجو العفو والعذر اذا سمعتم بعض اغلاط تقع مني اثناء الحديث لكوني لست من رجال هذا الموقف · وارجوكم بأن تنظروا الي بعين العذر · وقد دفعني الى الكلام أن أكثر هؤلاء الكرام الذين اتشرف بمخاطبتهم مجتمعون هنا من كافة انحاء سورية

( وهنا شوه منظر هيبة الحفل رجل نهض من بين الجموع الصامتة المتجمدة تقريبا ، وزاحم المقاعد حتى وقف ، ثم سار ليصل الى الصف الاخير ويقف بين الرجلين · وكان الدكتور عبد الرحمن الشهبندر ·

وتابع الامير :

ـ وقد اتوا الى بيروت لملاقاتي واداء التحيـة باسم جميـع المواطنين الذين ينتدبون عنهم · ومضوا الى هنا ليسمعوا منى ما حصل في الغـرب في مؤتمر السلام بخصوص بلاد العرب عامة وسوريا خاصة · ولا شك في انني مكره على القاء هذه الكلمات · ( وغص الامير بريقه حتى دمعت عيناه ) لأطمن أهل البلاد على بلادهم وعلى استقلالهم · مع انني في بعض الاحيان لا يمكنني ان اصرح بكل شيء لبعض المواقـع السياسـية التي مجبـر على السكوت عنها ·

وشمل الامير الحاضرين بنظرة مستشفة ، ولعله أحس بحركة ما في نهاية القاعة ، حيث التفت الصافي الى الشهبندر وتبادلا نظرة معينة · وتابع الامير خطابه قائلا :

ـ ولما كان اكثر الذوات لا يعرفون ما هي الحركة الثورية التي قامت

في الحجاز وما هو السبب الدافع اليها · ولربما انهم قبل يومنا هـذا ، كانت افكار بعضهم ممن لا يعلم بالسياسة العمومية ـ داعية الى اتهام هذه الثورة بتهم لا محل لذكرها ·

وهنا عطس الرقي عطسة مفاجئة جعلت كثيرا من الرؤوس تستدير الى الخلف ·

ـ يقول البعض أن من قام بهذه الحركة اتى بخيانة للوطن أو للامة أو للجامعة العثمانية التي كنا نحن من افـــرادها · ولكن على اثر انكســـار الاتحاديين وتشتت شمل الاتحاد الجرماني ، علم المجموع أن من قام بالثورة هو رجل أو رجال عالمون بسير السياسة الحربية في العالم · وان من قام بها ما قام الا لحفظ قسم من جسم البلاد العثمانية وانقاذه مما سيقع بعد الحرب ·

وقال الرقي للصافي :

ـ هل فهمت شيئا ؟

ورد الصافي :

ـ لا ورب الارباب ·

ـ ولا أنا ورب الكعبة ·

بينما ابتسم الشهبندر ابتسامة مؤلمة ··

ـ ولا شك في أن المسؤول في الحركة ، الثورية العربية أولا ، هو والدي ، ثم الحجازيون الذين قاموا فعلا · اما السوريون فانهم مسؤولون عنها معنى ، لانهم شوقوا الحجازيين لهذه الحركة · فنرى ولله الحمد ان الفخر وان كان اولا للحجازيين فهو فخر للجميع لأن هذه الثورة هي ثورة قومية لا يمكن ان تسندها الا الى الامة جمعاء · نعم ان والدي قام بالثورة في اثناء النزاع

العظيم الدنيوي بعدما رأى ان الاتراك انقادوا الى التيار الالماني واوردوا الامة العثمانية موارد الهلاك · ورأى والديان دوام العرب في الحرب مع الاتراك المتحدين مع الالمان سيوقع البلاد التركية في ذات الموقع · ورأى أن الامة العربية التي لطالما تمنت الخروج من نير الاستعباد والنهوض الى ما كانت عليه في سابق التاريخ طامحة بانظارها الى الافلات من اشراك أعدائها ـ لهذا قام بالحركة ··

●

- ٢٠ -

كانت رؤوس المندوبين تتأرجح في كل الاتجاهات : عمائم من جميع الاشكال والاحجام ، عريضة وضيقة ، طويلة وقصيرة ، بيضاء وخضراء ، صفراء وزرقاء · وعقــل فاحمة مستديرة ، وأخرى مقصبة ذات اضلاع · وطرابيش تتناسب عكسا مع حجم الرؤوس ، تتراوح ألوانها ما بين الاسود الغطس والابيض من غير سوء ، وقلانس من جميع الاجناس لجميع الطوائف، وعمرات عسكرية مستديرة ، وأخرى بشكل موشور ثلاثي · قبعات عريضة الاطراف · خوذات ذات اسنة · شملات ملونة · لبادات من وبر الجمال وأخرى مجهولة الهوية · حتى الرؤوس العـارية على قلتها كان ينقصـها الانسجام ·

وتابع الامير خطابه ـ بعد ان شبع من اهتزازات هذه الرؤوس ـ :

ـ ولكن تقدير البــاري جعل السوريين في موقف لا يمكنهم مؤازرة

الحجاز بما قام به لاسباب تعلمونها ، وهو ضغط الاتراك عليهم • ولكن ما أتوه من الافعال سيسطرها التاريخ باحرف ذهبية ويخلد ذكرى من قتل أو استشهد • قام والدي ولم يفكر فيما يقع على الحجاز والحجازيين من القيام ضد الاتراك ، ولم يتيقن من النتيجة ، ولكن الباري سبحانه وتعالى يسر هذه الامور فجلا الاتراك عن سورية كافة • لا شك في أنه قبل ذلك اتى ببعض مذكرات أو معاهدات بينه وبين الامم المتحالفة ، واتكالا على الباري سبحانه وتعالى ثم على العهود التي أخذها منهم قام بالواجب الى ان انتهى الحرب وبدأ الصلح • ذهبت عن والدي الى باريس عقب جلاء الاتراك ولتنفيذ الخطط العسكرية في البلاد المحتلة ، وجعلت البلاد السورية مقسمة الى ثلاث مناطق وهذا التقسيم هو بتنفيذ الخطط العسكرية ليس الا •• وأسست الحكومة العربية السورية في داخلية البلاد ، وهي ليست حكومة دائمة ، ولذلك ذهبت الى باريس لبث رغائب الشعب على قدر اجتهادي ، وتمكنت من قول ما رأيد •

( وهنا رفع الامير رأسه متخلصا من بعض الاحساسات التي كانت تربك ناحية ما في داخله ) •

— وعند ذهابي رأيت أمم الغرب في حالة جهل عميق عن احوال العرب ، كانوا لا يعرفون عن العرب الا ما كانوا يعرفونه عنهم من حكايات الف ليلة وليلة ليس الا •• كانوا يظنون العرب عبارة عن الامم العربية السالفة ، ولا يفتكرون بوجود الامم العربية الحاضرة ، ولا يعرفون شيئا عن الافكار السياسية والنهضة التي حصلت فيها •• يفتكرون العرب هم عبارة عن عرب البادية الذين يسكنون الصحراء • وأما باقي السكان فهم يعدونهم غير عرب • ولا شك في أن جهلهم هذا جعلني اصرف وقتا طويلا لافهم هذه الامم الحقيقة • وبما أنهم قاموا لانصاف المظلوم •

وتطلع الامير الى الصف الامامي وهز رأسه :

ـ وبعد ان فهموا المقاصد والمطالب ، وما فعله العرب من المعاونة للحلفاء في هذه الحرب اعترفوا باستقلال العرب مبدئيا ٠

وساد في صفوف الحاضرين تنهد الارتياح مما جعل الغيمة المظلمة تنحسر عن وجه الامير ويحل مكانها موجة عارمة من النشاط والثقة بالنفس٠

ـ ولكونهم ليسوا عالمين الدرجة التي حازتها الامة العربية من الرقي الادبي والسياسي ٠ ولتأمين السلم في البلاد اجمعها ، رأوا ان ينتدبوا هيأة دولية لترى الحقيقة بابصارها وها هي ذي قادمة اليكم ٠ كانت مدافعتي عن بلاد العرب : انه بما ان البلاد العربية بين سكانها اختلافات في طبقات التعليم والعلم ليس الا ، فالظروف ليست كافية لتجعلهم أمة واحدة ، وحكومة واحدة لذلك رأيت الدفاع كما يلي : ان سوريا والحجاز والعراق قطعات عربية ، وكل قطعة منها يطلب اهلها الاستقلال ، وقلت ان نجد والبلاد المساوية للحجاز من الاقطار العربية هي تابعة للحجاز ليس الا ، وهذه يرأسها والدي ، أما سوريا فيجب ان تكون مستقلة وكذلك العراق يريد استقلاله ولا يريد معونة أو حماية ٠

ولم يدر الامير كيف حدث والتقت عيناه بعيني الصافي لان صوته تهدج وهو يهتف في حماسة :

ـ نحن لا نرضى في سوريا ان نبيع استقلالنا بما نحتاج اليه من المعاونات في ابتداء تشكلنا ، بل ان الامة السورية هي أمة تريد ان تستقل وتأخذ ما تحتاجه بثمنه أي بدراهم معدودات ٠

وعاد ـ دون قصد ـ يخاطب الصافي والرقي في نهاية البهو :

ـ لقد دافعت هذا الدفاع ولا حاجة الى تفصيل غير ذلك لان مجلسي هذا هو خاص لسوريا ، وأنا أقول هذا عن سوريا ، دافعت عنها بحدودها الطبيعية ولا يريدون أن يشاركهم فيها شريك ، وقد توفقنا والحمد لله ٠

والعراق مستقلة لا علاقة لها بسورية ، كما ان سورية لا علاقة لها بسائر البلاد العربية على أن العرب أمة واحدة ٠

وقال الصافي للرقي في انفعال شديد وهو يرتجف :

ـ هل استطيع ان اعثر على سيكارة ؟

ورد الرقي :

ـ ابحث عن سيكارتين يا شفيق ٠٠ عن سيكارتين ٠

وقال الشهبندر :

ـ اسمعا بالله ما يقول ٠٠

وعاد الرجال الثلاثة الى الاصغاء :

ـ وما حصل من الجدل ما هو الا من عدم معرفة تلك الامم مقاصد العرب وطواياها ، ولكون الامم الغربية تنظر الى المجموع التركي العثماني كمجموع واحد ٠ وما يحصل من الاتراك يظنونه من العرب ، فبعد ان وقفوا على حقيقة الامر وعرفوا ما هي مقاصد السوريين اذعنوا لهم واعطوهم كل ما يطلبون ٠٠

وظن الامير بأن رجلين في آخر البهو لا يصدقان هـذا الكلام فاستطرد :

ـ وها أنا بين ايديكم ، قد قدمت اليكم من مؤتمر السلم ابلغكم ذلك، وستصل اليكم الهيئة الدولية وتخبركم بما اخبرتكم به ٠ ويتطلب منكم ان تعربوا لها عن ضمائركم بأية صورة كانت ٠ لان الامم اليوم لا تريـد ان تحكم أمة أخرى الا برضاها ٠٠

وعادت السحابة تتلبد على وجه الامير ، عندما شعر بأن رجلا في نهاية البهو يتحدث مع رفيقه وقد نمت تعابيرهما عن الاهتمام الشديد ٠

ـ وقد جعلت جمعية الامم لمنع الحرب ، ووكلت بحل الخلافات والنظر فيها ٠ وسيكون للعرب مندوب في جمعية الامم ٠ ان الموقف اليوم بيدكم ٠

ان التسويات الخارجية قد تمت بفضل الباري سبحانه وتعالى وبحسن نية من حالفنا من الدول العظام التي لا يمكنني ان افرق بين الواحدة والاخرى منها في حسن النية · وهم في كل ارتياح قد قبلوا ما نشرت بين ايديهم من اقوال · والآن وقد ذكرت ما حصل في السابق الى تاريخنا هذا ، اريد ممن حضر من ممثلي الامة الذين في حالتهم الحاضرة ليسوا ممثليها بالصورة الحقيقية ،ولكنهم بموقفهم الادبي يمثلون الامة معنويا ، اطلب منهم ان يصرحوا اي بافكارهم وان يقولوا لي هل ما قمنا به في السابق هو حسن أم لا ؟

وانتفض الحاضرون كلهم دفعة واحدة ، وكأنما نفخ اسرافيل بالصور ·· وهتفوا باصوات متخمة جياشة :

ـ حسن ·· حسن

ثم صفقوا بالقدر الذي سمحت به كروشهم المستديرة ·· وسأل الامير :

ـ وهل هو موافق لرغائب الامة أم لا ؟

واجاب الحاضرون بنفس الترتيب السابق :

ـ موافق ·· موافق ··

ثم صفقوا تصفيقا مبعثرا · وسأل الامير وهو يمسح شفتيه :

ـ وهل أعمالنا مقرونة برضاء الامة أم لا ؟

واجاب الجميع ماعدا ثلاثة :

ـ مقرونة ·· مقرونة ··

اما الاصوات الثلاثة فراحت تردد مع ( مقرونة ) بذهول :

ـ كل الرضى·· وفوق الرضى··

ثم صوت الامير مع الهتاف والتصفيق واستطرد :

ـ هذه أعمالنا في السابق ·ولكن بعد اليوم يجبعلى رجال الثورة ··

وهتف صوت من النهاية لم يكن حتما صوت الصافي أو الشهبندر :
رجال الثورة ؟
ولكن الامير استدرك فورا :

ـ اورجال الحكومة الحاضرة قولوا ماشئتم ، يجب أن يظلوا سائرين باعمالهم ، لاننا الى الآن ماتمكنا من تأسيس حكومة أساسية ، ولكن بما أن الوقت قد ساعد ، واجتمعت هذه الوفود ، فلا يمكنني أن أرجعهم قبل أن اطلع على أفكارهم الخصوصية ٠ هل تريدون أن نداوم على عملنا أم لا ؟

ـ نداوم ٠٠ نداوم ٠٠ نداوم ٠٠ م م ٠ م

ـ وهل الامة معتمدة على من هو قائم بأمرها ام لا؟

ـ معتمدة ٠٠ معتمدة ٠٠ معتمدة ٠٠ده ٠٠ده٠ده

ـ ارجوكم الاصغاء لبعض كلمات تجول في خاطري ، هل تسمح الامة بان ادير الحركة السياسية الخارجية والداخلية بعد اليوم ؟ أم لا ؟

ـ تسمح ٠٠ تسمح ٠٠ تسمح ٠٠ مح ٠٠ مح

واشرق وجه الامير :

اشكر هذه الهيئة ، واشكر هؤلاء الذوات على ما هم ناظرون الي بـه من الارتياح والطمأنينة ، ولكنني اجلب نظرهم ايضا الى مسألة وهي :

ـ لاشك أن الوكيل اوالشخص الذي يدافع عن الحقوقيات ، لايمكنه المدافعة عن حقوق موكلـه الا اذا كان بيده وثائق تخوله ذلك ، كذلك السياسيون ، لايمكنهم الدفاع عن الامة الا اذا كانوا حائزين على الشروط التي تمكنهم من العمل ٠ فالهيئة الحاضرة تسأل الامة هذا السؤال وتريد الاجابة عليه وهو : هل الامة تؤيـد كل أعمالي في الداخل والخارج قولا وفعلا ؟ وهل تساعد باعطاء كل ماأطلب منها بدون شرط ولا قيد أم لا ؟

ورد الحاضرون :

ـ ولا شرط ولا قيد ٠٠ ولا شرط ولا قيد ٠٠

ـ هذا الذي اريده ، ولاشك في أن هذه النقطة الاساسية التي تكون للشخص او للذوات او للهيئة التي ستعمل لتدبير الشؤون بعد اليوم ، الى حين انعقاد المؤتمر السوري ، ولكي اعمل الى ذلك الوقت يلزمني الاعتماد ، وقد طلبته منكم ، واعطيتموني اياه ، وساعمل ٠٠ أرجو الباري سبحانه ان يوفقنا الى مافيه الخير ٠٠ واني اريد من الامة ان تنظر الي بالنظر السابق ٠٠

همس الشهبندر :

ـ ان امورا خطيرة ستحدث ٠٠

ورد الرقي :

ـ انه يمهد لعقد المعاهدة مع كلمنصو ٠

واجاب الصافي :

ـ القضية ابعد من هذا فيما اظن ٠٠

واستأنف الامير :

ـ وانتظر من الامة ان تعتز وتقول : الامم اعطتنا استقلالنا ٠٠ فان اعتراف تلك الامم ماهو الا اعتراف معنوي ٠

ورفع الرقي يده طالبا الكلام ـ وهذه عادة سيئة لم يتخل عنها منذ خطاب حلب ـ وقبل أن يهدئه زميلاه استطرد الامير متشفيا :

ـ اقول هذا لأني رأيت الامة عند قدومي قابلتني بكل ترحاب ، واريد من الامة ان تؤيد أقوالها بافعالها ، هذا هو طلبي وهو مختصر جدا ولعدم علمي بما سأطلبه ٠ فلا يمكنني أن أقول شيئا ٠ ولكن بعد ان احرزت ثقتكم ونلت اعتمادكم ، فعلى قدر ماأراه من الحاجة سأطلب من الامة ان تؤازرني ٠٠

وهنا قام احد الشيوخ ، ـ وكان عقاله رفيعا كخيط مصيص ـ

وعلى اكتافه عباءة مقصبة العنق ، وهتف بصوت كصوت الراعي وهو ينادي غنمه :

ـ ان حوران كلها تقدم لسموك ماتطلب ··

وشجع هذا الشيخ بقيـة ( المشايخ ) فهب على الفور من الصفوف الوسطى كهل يرتدي طربوشا أحمر وصاح ملوحا بيديه :

ـ ان دماء الفلسطينيين وأموالهم للامير ··

وتجشأ أحد التجار البارزين :

ـ اننا قد لبسنا للحرب عدتها ·· نحن وجميع العرب ·· ومن لم يقبل فليمت ··

ورد الامير وهو يرمق من بعيد وجه الرقي دون ارادة ولكن في شماتة :

ـ أرجو التوقف ·· لأن ما قاله هذاالرجل ليس بلسان العموم ·· أريد أن ينتدب احدكم للكلام ·

وهنا نهض بدوي يرتدي عباءة مخملية وعقالا غليظا وصرخ :

ـ نحن العرب ، عيالهم واغنامهم وبيوتهم فداك وطوع يديك ·· ومن لا يقل ذلك يخرج عن دين الاسلام ··

والهبت الحمية قلب شيخ يعم رأسه بعمامة واطئة بيضاء وابتهل الى الامير :

ـ نحن جميع عشائر سورية العربان والدروز ، نضحي حياتنا تجاه خدمتك ·· والحائد عن ذلك يكون خائن والناموس والشرف ··

وارتفعت من الوسط لفة مستديرة يبلغ قطرها حوالي المتر وصدر عنها زعيق خاص :

ـ انني باسم جبل عامل أبايعك على الموت ··

ورد الامير وقد توقد حماسة :

ـ لم يحن زمن المبايعة ، نحن اليوم في دمشق وكلامي موجه الى الدمشقيين وللسوريين ، أريد أن أسأل أهل دمشق ثم أهل المقاطعات ..

ووخز الرقي الدكتور الشهبندر في رأسه ووسوس في اذنه :

ـ تكلم هيا ..

غير أن فوزي باشا العظم نهض في هذه اللحظة بطربوشه الاسود وكرشه الهائل ، وشهق من خلال ذقنه المطوية ثلاث طيات :

ـ نحن رهينو أمرك .. ونعتمدك ..

ثم نهض غبطة بطريرك الروم الكاثوليك وهتف بصوت دعائي خاشع :

ـ كما تأمرون سموكم . فمروا بما تشاؤون ..

وأشار الامير الى غبطة بطريرك الروم الارثوذكسي بيده ، فنهض هذا بتلكؤ وقال في غيظ :

ـ ان بيننا وبين سموكم اتفاقا في هذه القاعة على شرائط معدودة ، لا تبرح ذاكرتكم الشفافة ، ونحن عليها راسخون ..

وهنا أحس بطريرك الكاثوليك بالغيرة فنهض وأضاف :

ـ انني اعتمد سموكم نفس الاعتماد الذي اعتمده معتمد الروم الارثوذكس .

وأدلى مطران السريان القديم بدلوه . وتثاءب بصورة غريبة :

ـ أقول بلسان السريان في سورية انهم طوع أمرك يبايعونك بقلوبهم ويعتمدون عليك ..

وارتفع طربوش مفرط الطول غاطس السواد يميل نحو اليمين ميلا شديدا :

ـ أنا سعيد باشا سليمان أقول أن عموم أهل قضاء بعلبك تحت أمرك : مئات وألوف رهن اشارتك ..

وتوالت الكلمات ..

ـ قدمت من حمص وما ودعت الحمصيين الا بعد أن اعتمدوني وهم يسلمونك كل شيء ..

ـ نحن أهل جنوب لبنان نفوضك أن تكون سلطانا ..

ورد الامير باسما :

ـ أجل ذلك الآن ..

ـ نحن أهالي حماة نعاهدك على أنفسنا وأموالنا ونعطيك كل اعتماد ..

ـ نحن أهالي حلب لا نقل عن سائر البلاد والعباد ..

ـ ستون ألفا من قضاء المعرة تعتمد سموكم ..

ـ تفديك طرابلس بأموالها وأرواحها ..

ـ أهالي بيروت يعتمدون سموك ..

كان الامير يرشق نهاية القاعة بنظرات شامتة مغيظة ولكن دون قصد ودون أن يعلم السبب ..

ـ آمال صيدا معلقة على سموك ..

ـ شركس عمان أموالهم وأولادهم فداء للدولة العربية ..

ـ أوفدني اللاذقيون ومنحوني ..

ـ أهالي السلط ..

ـ مسلمو لبنان ..

ـ دروز لبنان ..

ـ مسيحيو لبنان ..

ـ أكراد لبنان ..

ـ شيعة لبنان ..

ـ نحن الحاخاميين .

وانحنى الامير الى الوراء ورفع يديه في كل الاتجاهات :

ـ كفى لقد حصل المطلوب ‥ لا شك أنني بعد ما أخذت هذا الاعتماد من هذه الهيئة سأدوام على اعمالي كما سبق ٠ ولا شك أن فكري في ادارة سوريا ، هو انني أرى مطاليب الاقلية من الشعب تكون مرجحة على آراء ورغائب الاكثرية ‥

وحملق عبد الرحمن الشهبندر بعينيه ونظر حوله مجفلا ، ثم هرب من باب القاعة ٠ وهمس الرقي :

ـ ما يزال الدكتور ضائعا ٠

في حين نفض الصافي جيوبه في عصبية وأخرج ورقة صغيرة لفها على شكل سيكارة ، وراح يمص منها الهواء وهو يرتجف في تهيج بالغ ٠

وتابع الامير ارتجاله :

ـ والبلاد ستقسم الى مناطق بموجب الحالة الجغرافية والسياسية التي اكتسبها السكان بالنسبة الى اختلاف مناطقهم ، وأنني أعلم يقينا أن القسم الجنوبي من البلاد لا يدار كما يدار الساحل ٠ ولا يدار الساحل كما يدار الداخل مثل حوران وجبل الدروز والمنطقة الجنوبية ٠

وخيل للامير بأن شيئا ما في نهاية القاعة يوشك أن ينفجر ولكنه أردف :

ـ وقوليَ هذا هو قول شخصي ٠ لانني فرد ٠

والتقت انظار الامير فجأة مع انظار الموجودين في الصف الامامي مما جعله يتراجع عن ( تراجعه ) ويضيف :

ـ ولكنني أفضل أنا عن المجموع لأنني معتمده وهم اعتمدوني ‥ وانشاء الله أرى منهم اعتمادا دائما ٠ ويأخذون أقوالي ويعملون بها لأن النتيجة ستكون حسنة انشاء الله ‥

واهتزت رؤوس كثيرة وتصاعدت منها همهمات ودمدمات :

ـ وأنا اطلب من الجميع كبيرا كان أو صغيرا أن يعتمدوا على الباري سبحانه أولا ثم على من هو منهم أي شخصي الحقير ٠

وتلوت بعض الذقون في استنكار :

ـ لأني سأدافع عنهم وسأنظر اليهم على اختلاف أديانهم نظرة واحدة ٠ أقسم على هذا بشرف آبائي وأجدادي ٠٠

وبما أن الامير ظل مهملا الصف الامامي مدة طويلة ، فقد انحنى فجأة وقال بصوته الدافىء :

ـ وأرجو أن تعتمد هذه الامة على الامم التي حالفتها وناصرتها والتي لولاها لم نستطع أن نجتمع الآن ، ولكننا واثقون أن حلفاءنا لا يريدون لنا الا الفلاح ٠ ولا طمع لهم بغير نجاحنا ، فعلينا أن نثبت لهم أننا أمة تريد أن تستقل ٠ وعلينا أن نحترم كل من يأتينا من الامم الغربية لخدمة بلادنا ٠

وهنا أفاق الامير على صوت يهتف في نهاية القاعة :

ـ سمو الامير ٠٠ ان الشعب العربي لا ٠٠

ولم يستطع الصافي أن ينهي كلمته ، لأن ساعدين أحاطا به من الخلف ، ودفعاه الى الباب الجانبي ٠ وهناك وجد الرقي قد سبقه ، محاطا بشلة من ضباط الجيش ، حيث سيق الاثنان خارج السراي ٠ أما الامير فقد انهى خطابه على الشكل الآتي :

ـ هذا وأرجوكم رجاء خاصا ادعوكم فيه الى الاتحاد وجمع الكلمة ٠ فهذه وظيفة الامة كما هي وظيفتي الخاصة لانني فرد منكم ٠ ولا استقلال لكم الا اذا لزمتم السكون وعملتم بما يقوله من أنتم معتمدوه : هذه أقوالي لربما أطلت عليكم أو اخطأت ٠ ولو خطب في هذا الموقف غيري لتكلم الساعات الطوال ٠ ولكن عجزي يجعلني أقول السلام عليكم ٠٠

## - ٢١ -

في مكان لم ير الشمس منذ مئات السنين ، كان الجو ثقيل الحرارة · والهواء رطبا جامدا · والذباب الوفير الجائع ، يحط على الجلد فيلتصق به · ورائحـــة العفن المتبخرة تتصاعـــد من جميع الزوايا · والفئران الهزيلة الساغبة ، تمرح في شجاعة على الارض المتحفرة الداكنة · في أحد أركانه ثغرة اتخذت شكل مرحاض · يسترق اليه ضوء باهت من كوة حشرت نفسها في السقف الواطيء · تخططها مربعات من قضبان حديدية صدئـة · ترى على جدرانه المتآكلة الغبراء : كتابات مائلة ، ونقوش مرعبة ، وصور شائنة ، ولطخ منفردة ، وعلامات أظافر ، وعضات أسـنان ، وبصقات دم · وبالاجمال ، كل ما يمكن أن يتركه من أثر ، انسان يفقد بالتدريج مقوماته الآدمية · · ·

ويستطيع من أوتي ميزة الصبر والقدرة على التمعن ، أن يقرأ في صعوبة

في اسفل أحد الجدران :

( المجد للعرب والعار والشنار لاعدائهم ) وتحتها ( الخطيب ) ·

ويبدو أن الرجل ، عندما كتبها ، كان مستلقيا على ظهره · وقد كتبت برأس اصبع مغموسة بالرعـاف ، دل على ذلك شفافية الـدم في أواسط الحروف ، وتجمعه في نهايتها · وتحت هذه العبارات أو فوقها مباشرة ، وبآلة حادة يعتقد انها مسمار ، نقش هذا الاعتراف في حروف ملتويـة وطويلة مرتجفة :

( أشهد أمام الله الموجود معي في هذا المكان بأنني أنا الـذي ذبحت خالدا وامرأته وأولاده بالسكين التي مسكوها معي · رب اغفر لي ولوالدي ولجميع المسلمين آمين ·· )

وفي أماكن أخرى صورت بقطع فحم وطباشير ومواد مجهولة : أعضاء تناسلية للجنسين ، متداخلة حينا ومتباعدة حينا آخر ، ووجوه بشرية أوحت بها خيالات سقيمة ، وأخرى لا بشرية دلت على ما يقاسيه مصوروها من محن ·· وفي كل ركن كانت رموز ونقوش وكتابات متشابكة ومتفرقة ضاعت معالمها ولكنها تركت آثارا رهيبة لا تمحى · وكانت بقايـا آدمية تلطخ الجدران بأكثر من موضع · واعيت الحيلة أحد المنكوبين ، فتفتقت مخيلته عن حيلة مونسة ، اذ نزع شعرا من رأسه أو عانته ، والصقها على الجدار بمادة مخاطية جعلها على شكل كتابة بالتركية :

ـ ( اذا كنت مذنبا فسينتقم الله مني · واذا كنت بريئا فلينتقم لي منهم ·· )

وفي أكثر من موضع كانت كلمة ( المؤذن ) مصحوبة بأوصاف يستحيل تفسيرهـا ··

كان المكان يدل على أن كثيرا من الآدميين قد سكنوه مددا طويلة ، ثم تركوا فيه شيئا من نفوسهم ، من تطورات نفوسهم ، بعد أن عذبوا حتى الموت

ثم شنقوا أو أبيدوا • وهذا المكان ، هو عبارة عن زنزانة ضيقة في سجن القلعة العسكري • كان الصافي والرقي نزيليها صباح ذات يوم من أيام أواسط مايس • وقد عاد الى مناقشة قضية بدت لهما على غاية من الاهمية • وهي : هل سيف الدين الخطيب كتب عبارته أولا ثم نقش المجرم فوقها اعترافه ، أم أن العكس هو الصحيح ؟ كان الخطيب زميلا للرجلين منذ خمس سنوات ، عندما كان في الجمعية العربية الثورية • وقد تسرع وعاد الى سورية في بداية الحرب فقبض عليه الاتحاديون • من أجل هذا اهتم الرجلان بأثره هذا ، وراحا منذ اكتشافاته يتفحصانه ويتمحصانه • كان الرقي يصر على أن الخطيب قد زار المكان بعد المجرم ، بدليل أن أثر الدم الذي كتب بـه عبارته ، يطمس بعض خدوش المسمار • بينما يقول الصافي بأن الحروف المطموسة في الخدوش لم تكن بتأثير الدم ، بل بسبب عدم نفاذ المسمار في الحائط • ويذكره الرقي بأنه ضعيف النظر وأن نظارتيه ، برغم دقتهما ، لا يمكنهما أن تظهرا له الاشياء الصغيرة في وضوح • فيعودالصافيويدافع عن نظارتيه وعن المعامل التي انتجتها • ثم ينتقلان الى قضايا العمـال في اوربا وفي فرنسا خاصة • ويقول الدكتور :

ـ ان « سان سيمون » لم يضع للعامل شأنا في اعتباره ••

ويجيب الصافي :

ـ لأنه كان خياليا يفكر بشكل طوباوي فلم يستطع النفاذ ببصيرته عبر الزمن ، ولم يصل الى المستقبل •

ويرد الرقي :

ـ لعل « جان جوريس » كان مفكرا على مستوى اكثر واقعية وقد قتل من أجل افكاره ••

ويعترض الصافي مرة ثانية :

ـ ان جان جوريس لا يختلف عن سلفه بشيء من حيث قيمة الافكار

التي أتى بها ، كل ما هنالك انه وجد في بداية التطاحن الاستعماري فقام يدافع عن السلام فاغتالته عصابة الايدي التي تعمل للحرب ..

وبعد فترة من الصمت يذكران فجأة حالتهما التي كانا عليها ، فيعودان لبحث مشكلتهما من جديد ..

كانا يجلسان متجاورين في صدر الزنزانة ، ساندين رأسيهما على الحائط ، الذي يرشح بولا وماء أسود ، مما يمتصه من المجاري المسدودة . يحدقان طوال الوقت في فتحة الباب الحديدي ، منتظرين أن يهل عليهما فجأة طارق غريب يحمل نبأ مشؤوما ، ليساقا بعده الى مكان مجهول لا أوبة بعده . أو أن يحملا ضمن صناديق مغلقة ليطمرا أحياء في باحة القلعة ، ثم يوضع فوقهما حجر كبير . كانا يتحدثان عن مثل هذا المصير دون مبالاة وبلهجة تشوبها السخرية والتندر ، مع امكانية حدوثه وقربه من المعقول . ولم يستمدا هذه التنبؤات من الطبيعة أو النفسية التي جبلا عليها ، اذ لم يكونا من ذوي الطبائع الميالة الى التطير والنكد . بل أن المحيط الذي وجدا فيه ، والظروف المريبة التي أدت بهما اليه ، جعلتهما لا يستبعدان شيئا من هذا القبيل . كانا يمدان ارجلهما على الارض حينا ، ثم يسحبانها عندما تؤذي عظامهما رطوبة الارض النزة . ويتوقفان عن الكلام ويصيخان السمع عندما يخترق ظلمة نهارهما صوت قفل ، أو طرق خطوات ضائعة في دهاليز السراديب . كانت الزنزانات المجاورة ، المصفوفة على طول الممرات ، فارغة تقريبا . لا يعكر سكونها غير همهمة غامضة عميقة ، كأنها آتية من عالم الغيب . ولعلها ريح شاردة تسربت في يوم ما الى الداخل . ثم راحت تفتش لنفسها عن مخرج . أو انها أرواح تائهة مفجوعة تسللت خفية لتبحث عن أصحابها الـذين تركتهم في هذا المكـان منذ قرون طويلة . أمـا الحشرات والهوام والزواحف الاخرى ، فكانت تعطي ترتيلا مختلفا ، ترتيلا جائعا يدعو الى الحزن والحسرة .

ثم شنقوا أو أبيدوا · وهذا المكان ، هو عبارة عن زنزانة ضيقة في سجن القلعة العسكري · كان الصافي والرقي نزيليها صباح ذات يوم من أيام أواسط مايس · وقد عاد الى مناقشة قضية بدت لهما على غاية من الاهمية · وهي : هل سيف الدين الخطيب كتب عبارته أولا ثم نقش المجرم فوقها اعترافه ، أم أن العكس هو الصحيح ؟ كان الخطيب زميلا للرجلين منذ خمس سنوات ، عندما كان في الجمعية العربية الثورية · وقد تسرع وعاد الى سورية في بداية الحرب فقبض عليه الاتحاديون · من أجل هذا اهتم الرجلان بأثره هذا ، وراحا منذ اكتشافاته يتفحصانه ويتمحصانه · كان الرقي يصر على أن الخطيب قد زار المكان بعد المجرم ، بدليل أن أثر الدم الذي كتب بـه عبارته ، يطمس بعض خدوش المسمار · بينما يقول الصافي بأن الحروف المطموسة في الخدوش لم تكن بتأثير الدم ، بل بسبب عدم نفاذ المسمار في الحائط · ويذكره الرقي بأنه ضعيف النظر وأن نظارتيه ، برغم دقتهما ، لا يمكنهما أن تظهرا له الاشياء الصغيرة في وضوح · فيعود الصافي ويدافع عن نظارتيه وعن المعامل التي انتجتها · ثم ينتقلان الى قضايا العمـال في اوربا وفي فرنسا خاصة · ويقول الدكتور :

ـ ان « سان سيمون » لم يضع للعامل شأنا في اعتباره ··

ويجيب الصافي :

ـ لأنه كان خياليا يفكر بشكل طوباوي فلم يستطع النفاذ ببصيرته عبر الزمن ، ولم يصل الى المستقبل ·

ويرد الرقي :

ـ لعل « جان جوريس » كان مفكرا على مستوى اكثر واقعية وقد قتل من أجل افكاره ··

ويعترض الصافي مرة ثانية :

ـ ان جان جوريس لا يختلف عن سلفه بشيء من حيث قيمة الافكار

التي أتى بها ، كل ما هنالك انه وجد في بداية التطاحن الاستعماري فقام يدافع عن السلام فاغتالته عصابة الايدي التي تعمل للحرب ..

وبعد فترة من الصمت يذكران فجأة حالتهما التي كانا عليها ، فيعودان لبحث مشكلتهما من جديد ..

كانا يجلسان متجاورين في صدر الزنزانة ، ساندين رأسيهما على الحائط ، الذي يرشح بولا وماء أسود ، مما يمتصه من المجاري المسدودة . يحدقان طوال الوقت في فتحة الباب الحديدي ، منتظرين أن يهل عليهما فجأة طارق غريب يحمل نبأ مشؤوما ، ليساقا بعده الى مكان مجهول لا أوبة بعده . أو أن يحملا ضمن صناديق مغلقة ليطمرا أحياء في باحة القلعة ، ثم يوضع فوقهما حجر كبير . كانا يتحدثان عن مثل هذا المصير دون مبالاة وبلهجة تشوبها السخرية والتندر ، مع امكانية حدوثه وقربه من المعقول . ولم يستمدا هذه التنبؤات من الطبيعة أو النفسية التي جبلا عليها ، اذ لم يكونا من ذوي الطبائع الميالة الى التطير والنكد . بل أن المحيط الذي وجدا فيه ، والظروف المريبة التي أدت بهما اليه ، جعلتهما لا يستبعدان شيئا من هذا القبيل . كانا يمدان ارجلهما على الارض حينا ، ثم يسحبانها عندما تؤذي عظامهما رطوبة الارض النزة . ويتوقفان عن الكلام ويصيخان السمع عندما يخترق ظلمة نهارهما صوت قفل ، أو طرق خطوات ضائعة في دهاليز السراديب . كانت الزنزانات المجاورة ، المصفوفة على طول الممرات ، فارغة تقريبا . لا يعكر سكونها غير همهمة غامضة عميقة ، كأنها آتية من عالم الغيب . ولعلها ريح شاردة تسربت في يوم ما الى الداخل . ثم راحت تفتش لنفسها عن مخرج . أو انها أرواح تائهة مفجوعة تسللت خفية لتبحث عن أصحابها الذين تركتهم في هذا المكان منذ قرون طويلة . أما الحشرات والهوام والزواحف الاخرى ، فكانت تعطي ترتيلا مختلفا ، ترتيلا جائعا يدعو الى الحزن والحسرة .

كان قد مضى على الرجلين اسبوع في زنزانتهما ، دون أن يريا أو يلمحا وجها جديدا • كان أبو راغب هو الحي الوحيد الذي تعرفا عليه • وهو عبارة عن ماضي رجل عتيد ، عن مخاوق لو وضع في متحف لاصبح موضعا للدراسة والبحث • واذا عرف بأنه قضى ستين سنة من حياتــه في الاقبية وبين القضبان في معاشرة الاناس الهالكين ، الذين يحصون القطرات المتبقية في كأس حياتهم المثقوب ، لو عرف ذلك ، لامكن تقدير نفسيته وشكاله الحقيقيين •

كان في الثمانين من عمره • طويل القامة على شيء من الانحناء الى الامام • يصر هيكله الثقيل وهو يتحرك - وفق خطوات مرسومة - وكأنها تسير على نوابض • تحجب وجهه المستدير لحية عريضة بيضاء • تتصل في الاعلى بحــاجبيه ، وتلتقي في الوسط مع شـــاربيه الغليظين الشبيهين بفرشاء الحلاقة • ومن غضونها تبدو أحيانا بعض نتوءات صخرية حادة الزوايا ، هي بعض تضاريس اديمه المتجفف • تثقب جبينه عينان خرزيتان بلون الكاكاو ، وتعلوه ندبة عميقة تجر حاجبه الايمن الى الاعلى وتجعله دهشا بصورة أبدية وكأنه سمع لتوه خبرا سارا • أما طاقية رأسه فقد أخذت على الايام لون جلد الثعبان • وقـد بـدا بسترته المغلقة الطويلة العنق ، وسرواله العريض الهابط وكأنما هو يسير الى الخلف •

كان قد أوقف وهو في العشرين من عمره ، بجريمة اتيان المنكر مع ابن أحد الباشاوات تشفيا من أبيه ، فزج بــه في القلعة دون محاكمة • وبما انه لم يكن ليعلم مدة السجن التي حكم بها عليه ، فقد ظل ينتظر حتى الآن • وزالت عروش وانطوت سلطنـات ، وقامت حروب ووضعت حروب أوزارها ، وتحرر الناس ثم استعبدوا مرة ثانية ، وأبو راغب على حاله لا يعلم ما يجري هناك وراء الاسوار • كل شيء هادئ في العالم ، وكل حال على ما يرام • وقد واتته فرص كثيرة لكي ينجو بنفسه ، غير أن

قوة عاتية جعلته يخلد الى أوكاره دون أن يحاول الخروج . وظل منذ اللحظة التي فتح فيها عينيه على المكان ، يعمل على خدمة الحرس والسجناء ، واستقبال القادمين لفترة أو الى الابد ، وتوديع الذاهبين الى رجعة أو غير رجعة . الى أن أتى يوم وجد فيه نفسه وحيدا على الاطلاق . فقد رحل الحرس الاتراك وهرب وراءهم المساجين ، عادين زاحفين كل حسب ما تبقى لديه من شغف للنور . وعندها أحس العجوز ، لأول مرة في حياته ، بما يشبه الاغتراب والوحشة . أدرك فجأة أنه أصبح وحيدا في العالم . فراح يعدو في أروقة القلعة كالمجنون ، صارخا معولا ، يفتح الابواب في ضجيج هائل ، ويطرق الجدران برأسه وقبضتيه ، ويعربد ليسمع صوت نفسه ، ويقفز حتى يرتطم رأسه بالسقوف ، ثم يهوي ويعانق الارض . الى أن ادركه التعب والانهاك ، فنام اربعا وعشرين ساعة ، ليفيق بعدها على صخب جند الجيش العربي ، وعندها استرد وعيه ، وعاد الى أيامه من جديد . غير انه لاحظ بأن الزنزانات ظلت فارغة ، مما ادخل على نفسه الملالة والسأم . فراح كل ليلة يفتح الابواب ليشنف اسماعه بصريرها أولا ، ثم يدخل رأسه ويقول للظلام مستفسرا : « آه .. كيف حالك ؟ هل عميت تماما ..؟ عال .. » أو يقول مطمئنا : « ان الشنق مسألة بسيطة ، لا تخف .. انه خير من الخوذاق بألف مرة . » ووراء كل باب ، كان يسأل عن صحة فانية ، أو يزجي بنصيحة أفدح من مصيبة . الى أن كان يوم ٥ مايس .

لم تلفت انتباهه هيئة الرجلين بالقدر الذي فعلت سيماؤهما اللتان بدتا له على شكل لم يألفه في حياته ، من ناحية الصمود وعدم التكلف ، مما جعله يقضي ليلتين وهو يسائل نفسه :

« ترى ما هو ذنبهما ؟ هل هما سجينان حقيقيان أم انهما زائران فقط لا غير ؟ » .

ولكنه لم يتوقف أبدا عند مشاهدتهما محاطين بثلة من الجنود وضباط الشرطة ، اذ شد على ذقنه في سرور ، وتلاعبت في عينيه جذوة من فرح غامر . وهم بمعانقتهما والترحيب بهما ، كملاكين هبطا عليه من السماء المغلقة . غير أن احد الضباط أوقفه في شراسة ودخل بهما الى غرفة مدير القلعة . وهناك جرى استجوابهما والتحقق من هويتيهما ، وبعد ساعتين أسلما اليه . وسال وهو يقفز بين الرجلين ، متأبطا ذراعيهما كطفل مرح :

ـ أهلا وسهلا .. حلت عليّ البركات .. يا مائة الف مرحبا بأول طيرين جميلين مقصوصي الجناح ، تعالا .. لافتش لكما عن عش نظيف ..

كان يتعرج ويتلوى من الغبطة ، تئز مفاصله ازيزا يبعث على النفور ، في حين أخذ الرجلان يتلفتان حولهما في فضول ، ويتأملان الشيخ في دهشة كبيرة . ثم تتلاقى انظارهما ، وتتلاعب على شفاههما كلمات مبهمة . ويتابع الشيخ وهو يدلف بهما الى الدهليز الاول :

ـ لا .. لن أضعكما هنا في هذه السراديب لأنني أخشى أن أفقدكما. سئمت من الوحدة ، وضاق مني الذرع والصدر . هناك في الدهليز الثاني غرف قد تكون ضيقة بنيت لشخص واحد ، الا انها صالحة للسكنى لا تخافا .. تعالا ..

وراح يخوض بهما ممرات ملتوية مظلمة ، أشبه ما تكون بجحور المناجذ . وأضاف اذ بات لا يسمع غير صوته :

ـ لا تتهيبا الحفر ، لن تسقطا . الطريق سالكة . ها .. اعطني يدك أنت . امسك بكتفي . عال هذا .. جيد .. ممتاز .

وسال فجأة وفي شوق كبير :

ـ مؤبد أم نفي أم اعدام ؟ ما هو الحكم .؟

ورد الصافي ، وقد بدا له صوته غريب الوقع في اذنيه :

ـ الثلاثة معا يا حارس الخلد .

واعجب الشيخ بهذا اللقب · في حين صدرت عن الرقي ضحكة قلبية ·
وسأل الشيخ وهو ينعطف في ممر ، يخرز ظلامه سنان من نور :
ـ هل حارس الخلد هو رضوان عليه السلام ؟
ورد الرقي وهو يتعثر بشيء ما :
ـ هو بذاته أيها الناسك الطيب ·· والآن ؟ الى أين تقودنا ؟

ورد الشيخ في جذل :
ـ ها نحن سنصل · هنا قد تكونان بعيدين قليلا ولكنه أكثر أمنا ··
يمكنكما أن تصيحا حسب مقدرتكما ، وان ترتطما بجميع الجدران · لا ··
بل تستطيعان أن تشتما الحكومة · هنا لكما ملء الحرية تفعلان ما تشاءان ·
قلت انكما محكومان بالاعدام ؟··
ورد الصافي :

ـ بجميع الاحكام يا جدي العزيز ··
واستقام ظهر الشيخ وهو يقول في حنان :
ـ وفقكما الله ، ان ذلك أفضل لكما فيما أظن · لأن النفوس الخبيثة
كنجاسة الخنزير ، لا تطهر الا بغسلها سبع مرات احداها بالتراب ··
هه ·· وصلنا ··

وأوقفهما أمام باب حديدي مفتوح ، ومد ساعديه الطويلين مرحبا :
ـ تفضلا · سأجلب لكما حصيرة · هل جرى تفتيشكما ؟

وفيما كان الرجلان يحملقان حولهما ، كان أبو راغب يمرر أصابعه
على أعضائهما كلها من الرأس حتى اسفل الحذاء ، دون أن يغفل فحص
الثقوب والنتوءات ، والاعضاء المتهدلة والغائصة · وقد اهتم بهذه الاشياء
أكثر من اهتمامه بفحص الملابس والجيوب · وبعد أن شبك القفل المصفح
في السلسلة وضغط على رتاجه ، تمنى لهما سهرة طيبة · وهنا سأله الرقي

بنبرة حادة :

ـ والعشاء يا ابتي ٠٠ ألا يوجد عشاء ٠؟

ورد الشيخ وقد توقف مفكرا :

ـ تقصد الغداء ٠ أين أنت والعشاء ، فما يزال الوقت ظهرا ٠ وعلى كل حال سأذكركما عند توزيع الاكل لا تخافا ٠ ولكن أريد أن أوصيكما ٠٠ أطعما هذه الجرذان المسكينة حسنة لله ٠ سوف تجزيان قريبا عندما تقفان بين يديه ٠ غدا أو بعد غد ٠٠

وظل صوت خفق أضلاعه الرتيب يتردد لفترة طويلة ٠٠ ووقف الرجلان داخل الزنزانة ، يتشاوران ساعة من الزمن ٠ ثم راحا يتسليان بفحص الجدران ٠ الى أن استحال امكانية استعمال حاسة النظر ٠ وبعد ذلك مزق الدكتور بطانة سترته ليسد بها الثقوب المفغورة في اسفل الجدران ٠ غير أن البطانة نفدت قبل أن تتم العملية ، مما جعله يطلب من زميله أن يخلع سترته ويحذو حذوه ليحشو البقية ٠ ولكن الصافي اعترض على ذلك ، وأفاد بأنه يخسر سترته الوحيدة للحفلات وأيام الاعياد ٠ ومن غير اللائق أن يبدو أمام الناس بسترة مسلوخة ٠ عدا عن أن نزع البطانة يضعف من فعالية السترة أيام الشتاء ٠ ولكن الدكتور ـ وقد بات يتصرف تصرف الانسان المغيظ ـ عاتب زميله ، وطلب اليه أن يكون واقعيا ٠ وذكره بأن الجرذان تنقل وباء الطاعون ٠ فضحك الصافي وأجاب :

ـ ان أي وباء مهما عظم خطره ، لا يعادل ولو جزءا صغيرا من الوباء الذي يكتسح الادميين حاليا ٠

وعندما نزع الرقي عقاله وشملته ليمزقهما في عصبية ، اختطفهما الصافي منه وصاح به :

ـ دكتور كن حذرا ٠٠ ان اعمالك تدعو للخجل ٠

واكتسبت لهجته فجأة نبرة صارمة وأضاف :

ـ خبرتك منذ خمس سنين رجلا عاقلا ·· فلا حاجة بك الآن أمام تجربة سخيفة لان تعيب نفسك ··

وهز الدكتور رأسه العاري الذي خف الشعر في اوسطه بينما تكاثف على جانبيه · وأجاب في حنق :

ـ أريد أن أفهم فقط ما هو الداعي لكل هذا ؟

ورد الصافي وهو يمسك أنفه بكل راحته :

ـ الداعي لكل هذا ؟ ألا تعرف ؟

وصرخ الرقي في نفاد صبر :

ـ ولكنهم يتهموننا اتهامات باطلة ما انزل الله بها من سلطان ··

وضحك الصافي في حبور وأجاب :

ـ أنت مغفل ·· مغفل لا أكثر ، أولا لم يتهمونا بل استفسروا منا مجرد استفسار ، وبعدما عرفنا الشرك الذي نصب لنا واجهناهم بما ينبغي ، فأودعنا هنا مجرد ايداع ··

ـ مجرد ايداع ·· قد يدوم الى القيامة ·· وقد ··

وعبر عن خواطره التي خالجته حول النفي الى مكان قصي ، أو الدفن أحياء · الا أن الصافي وقد شاركه الى حد ما بهذه الاحتمالات ، طلب اليه أن يبحث القضية بشكل موضوعي بعيد عن العاطفة · وعلى هذا فرش الصافي شملة رفيقه ، واقتعداها جنبا الى جنب ، في حين أزاح هو طربوشه الى الخلف ، وراح يحك ناصيته الضحلة في ترو وتفكير ··

●

## - ٢٢ -

بعد حوالي ثلاث ساعات سمع السجينان دبيبا ثقيلا يخب في الاروقة ٠ وظل الدبيب يتناهي مدة طويلة ـ تارة يقترب واخرى يختفي نهائيا ـ ثم عاد الى الظهور فجأة ، حتى خيل للرجلين أن هذا الجري ليس الا حركات هستيرية لسجين ضائع ضل سبيله للخروج منذ عهد نوح ٠ وفجأة هتف صوت الشيخ

ـ هـه ٠٠ هل نمتما ؟ بالعافية انشاء الله بالعافية ٠٠

واستغرب الرجلان : كيف يستطيع هذا العجوز أن يرى في الظلام ؟ وفتح القفل بحركةسريعة بارعة ، ثم دلف الىالداخل تسبقه رائحة الطعام ٠ في حين سمع ارتطام الحصيرة وهي تسقط على الارض ٠٠ قال العجوز وهو يلهث :

ـ هيا انهضا ، إفرشا هذه تحتكما خير من الجلوس على الارض ،

وبعد ذلك تعشيا وسأتعشى معكما .. هذه حصتي وحدي ولكنها تكفينا..

وفي الظلام التقت ايدي ثلاثة رجال في قصعة كبيرة مستديرة مملوءة بالبرغل واللحم .وتدانت الرؤوس بعضها من بعض كأنها تستعد للنطح . وقدم الشيخ نفسه واسمه الى الرجلين ، بينما هو يزدرد لقمة . ثم راح يسرد لهما انفعالاته السارة بوجودهما ، وعما عاناه خلال الفترة القصيرة الماضية . كان يتوقف عن المضغ ليسوق عدة كلمات ، ثم يهز رأسه ـ الذي بدا وسط الفراغ الخانق كتلة مقبضة كالقدر المحتوم ـ وقد دلت سرعة ازدراده الطعام ، على قوة اسنانه أو معدته أو كليهما معا . كان الشيخ يعود الى الحديث بعد كل صمت قصير هو زمن البلع ، فارضا ان كل الناس في شوق الى سماعه ، أو انهم مجبرون على الاصغاء له . كانت رغبته في الكلام لا تقاوم ، وقد ساعدته الدكنة وحالة الرجلين على بسط نفوذه كليا . ولم يدر السجينان ما كان يجري داخل القصعة الا بعد نفاد محتوياتها ، اذ راحت تسمع في قعرها اصوات مكتومة مصحوبة بخموش وخدوش .

وهنا قهقه الشيخ هاتفا :

ـ قلت في نفسي انتهى الطعام في سرعة .. ها ها ها ..

في حين وضع الرقي يده على معدته وحملق في الظلام في ذعر مميت . أما الصافي فقد ابتسم ابتسامة تنقط بالمرارة . وسأل الشيخ فجأة وهو يمصمص اسنانه وشفتيه :

ـ ما هو ذنبكما ايها المسكينان ؟ علكما لم تغضبا الوالي ؟

وفتح الصافي عينيه ، وكان قد ادخرهما توفيرا للجهد الذي تبذلانه في اسراف في تحديق لا طائل وراءه . في حين أجاب الرقي بعد أن أرسل زفرة طويلة :

بلنا على لحية جده .

وسحب يده عن الارض في سرعة ، حين احس بلسان دقيق يلحس عنها الزفر ٠ ومضت فترة من الصمت قبل أن يصرخ الشيخ :

بلتما ؟ كيف ؟ لا ٠٠ انا لا اصدق هذا ٠٠ عرفت منذ اربعين سنة واحدا بال على جدار القصر فخوزق لقد رأيته بأم عيني ٠٠

ورفع يده الى لحيته يمشطها باصابعه ٠

أما ان يبول احد على لحية فهذا غير معقول ، كيف بالله قل لي كيف حدث ؟

ورد الرقي :

ــ كان للوالي جد كسيح ٠٠

وصمت ، جامعا اطرافه الاربعة ، زهدا في مداعبات اصحاب البيت ٠ والحف ابو راغب بطلب اتمام القصة ، فيما كان الرقي يهمس في اذن رفيقه ، راجيا اياه ان يتخلص منه بوسيلة ما ٠ وقال الصافي وهو يعود الى اغماض عينيــه :

ــ كان جد الوالي كسيحا ، وبعد ان فحص الاطباء قدميه ، وجدوهما غير قابلتين للاصلاح بأية صورة من الصور ٠ ولكن طبيبا بيطريا بارعا ، كان يداوي اجفان السلطان سليم الاول ، الذي فطس منذ اربعماية سنة ، تكفل بهذه المهمة ٠٠

وتأرجح رأس ابي راغب في الفراغ وصدرت عنه غمغمة خافتة :

ــ اربعماية سنة ؟

ورد الصافي وهو يسلم ساقه لفأرة ضائعة دخلت عمدا أو سهوا في فوهة البنطال :

ــ ارجو الا تقاطعنا يا جدي المحترم ٠ ومن المعقول ان يكون الطبيب فطس مع السلطان في ذلك الوقت ، الا ان روحــه الطـاهرة لم تذهب الى

السماء ما فوق السابعة ، بدليل ان اسرافيل عليه السلام افتقدها فيما بعد ، وسجلها في سجل المتمردين الذين لا يحصى لهم عدد · اللهم ان روح الطبيب الطاهرة ، كانت مثقلة بالذنوب ، اللهم عافنا واعف عنا ·

ورفع الشيخ يديه الى وجهه ومسحه في خشوع ، فهربت بضع فأرات من حوله · ولفتت حركته هذه انتباه الرقي الذي راح يفكر مرغما في اصل الحكاية ، في حين أسند الصافي رأسه الى الجدار وسأل نفسه :

ـ ترى كان التحقيق معنا صوريا ؟ أم انه يستند الى دسيسة ما ؟

وصرخ الشيخ :

ـ ايوه كيف بلتما على لحية الجد ؟ لم افهم

ورد الرقي في ضيق صدر :

ـ اخبرك زميلي بالقصة ، ولكنك اضعت على نفسك فرصة سماعها خلال نومك ··

ورد الشيخ ورأسه ما يزال يهوم في الظلام :

ـ أنا لم انم يا بني ، ولكني قرأت بعض الادعية · لقد وصل زميلك الى روح الطبيب ·

وادرك الرجلان ان لابي راغب من الدقة وقوة الملاحظة ما يجعل المكر به مستحيلا ، من أجل هذا عاد الصافي يقول :

ـ كانت روح الطبيب مثقلة بالذنوب ··

ومال الرقي على اذن صاحبه وهمس فيها :

ـ ادفعها الى جهنم وخلصنا

وصرخ ابو راغب :

ـ وكيف أمسكوكما ؟

ورد الرجلان معا وقد بهرهما هذا السؤال :

ـ من هم ؟

رد ابو راغب :

ـ جنود الوالي ٠٠

ونسي الصافي انه كان يتحدث عن قصة القبض عليه وقال لزميله :

ـ ان بطانتك يا دكتور ذهبت هباء ٠٠

ورد الرقي في أسف :

ـ ان الجرذان تأتي من المرحاض ، ولولم اكن جائعا لعرفت كيف افرغ معدتي ٠

ـ وتنحنح الصافي ، في حين زقزقت الفأرة عندما وصلت الى فخذه في استغاثة مؤلمة ٠ وراحت تكافح للهرب ، مما اضطره الى أن يفك حزامه ويفسح لها طريقا للنجاة ٠

وعاد ابو راغب يسأل :

ـ وماذا حدث للروح ؟

وتنهد الصافي وقال :

ـ ان الارواح عادة لا تحب آلدخول أو الخروج من الجوانب ، من أجل هذا ، عندما اراد طبيب السلطان سليم ان يستعيد روحه ، أبت أن تدخل من اذنيه أو فمه ، ولم تجد لنفسها غير منفذ واحد هل تعرفه يا ابا راغب ٠٠؟

وهنا شهق الشيخ شهقة رهيبة ٠ ثم تلوى على نفسه كالدمية ،فعرف الرجلان بأنه يضحك ، بينما مضى الصافي في سرد حكايته :

ـ وعندما حاولت الروح ان تدخل من المنفذ الخلفي ، فوجئت بروح أخرى تخرج منه ، وهي تجر نفسها كالذبابة الزرقاء ٠

ووجد الصافي نفسه بعد ذلك يرهف السمع الى أنين ينخر القلب ٠ كما أحس بالرقي يرتعد الى جانبه ٠ وقطع السجان حبل الصمت داعيا :

ـ مرحبا بذكر الله ٠ اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله ٠٠

وهتف الرجلان بنبرة واحدة ، في وجل ورهبة بالغتين :

ـ ما هذا يا ابا راغب ؟

اجاب الشيخ :

ـ المؤذن يدعو لصلاة المغرب ٠٠

كان الصوت الذي جفف الدم في عروق السجينين غريبا لا يصدق ، فهو يشبه صراخ الجنين في بطن امه ٠ كان انينا عميقا ، ونحيبا وانيا معذبا يفتت الاكباد ، ويبعث القشعريرة في اجلد النفوس ٠ كان صدى ضعيفا خاشعا مفجعا ، يصل الى الاذان من مكان قصي سحيق ، وكأنما هو آت من اعماق رمس طواه النسيان ٠ وفسر ابو راغب الموضوع :

ان الوالي مدحت باشا بنى جامعا قرب القلعة ، وجعل مئذنته تشرف بطريقة ما على الزنزانات ليصل اليها نداء المؤذن ، وذلك حرصا على عبادة الله وطاعته واداء فروض الصلاة باوقاتها الخمسة ٠

وتابع ابو راغب وهو يتهجد :

ـ ان صوت المؤذن في الاساس يكون طبيعيا ورخيما ، ولكن ما ان يتغلغل عبر السطوح ويتسرب من الكوى والشقوق هائما في الدهاليز ، تائها في المنعطفات ، حتى تمتص الجدران حيويته ، ويطبعه السجن بطابعه المحزن الكئيب ٠

وتحدث السجان العتيد عن المشاق التي بذلت لتحقيق هذه الغاية ، وكيف ان مدحت باشا اشرف على بناء المئذنة ، وقاس ارتفاعها باشباره ، وقد امر بهدمها مرات عديدة واعادة بنائها من جديد ٠ وعقب الانتهاء ، كان يهبط الى السراديب ويوعز الى حاشيته بأن يكلفوا المؤذن بالصياح ، وبعدها يصدر تعليماته : اهدموها ، أو اجعلوا المؤذن يستدير يمينا أو يسارا ، أو يرفع رأسه الى الاعلى ، أو يخفضه قليلا ، وهكذا ٠٠ ومضى أبو راغب في

شرحه ، في حين كان السجينان يحملقان في الظلام ، ويقاومان كثيرا ليمنعا جلديهما من الانكماش ، بينما ظل الأنين المتوجع يخرز قلبيهما ، ويفتت امعاءهما قطعة بعد قطعة ٠

وتابع السجان حديثه :

ــ وبعد ان انتهى الوالي من بناء المئذنة بشكلها الاخير ، راح يتفحص ترتيل المؤذنين ، وهو يختبيء هنا ليتأكد من كيفية سماع الصوت ٠ ويبدو انه شاء ان يصل الاذان بهذا الشكل المؤلم في نفسه ٠٠

وهز الصافي رأسه موافقا :

ــ صحيح ان الغاية هي تعذيب السجناء واخراجهم من دينهم ٠

فمدحت باشا معروف الاصل ٠

ولم يلتفت الشيخ الى هذه الملاحظة بل استطرد :

ــ وفشل جميع المؤذنين وائمة الجوامع في تحقيق رغبة الوالي التي بدت لنا غامضة مجهولة ٠ الى ان جيء له ذات يوم بشاب بهي الطلعة حليق الشاربين جميل الصوت يقال ــ والعهدة على روح القائل ــ بانه يهودي اسمه موسى ، فالبسه قفطانا وعمامة وكلفه بمهمة الآذان ٠٠

وسأل الرقي بصوت مقرور :

ــ وهل هو نفسه الذي يؤذن الآن ؟

اجاب الشيخ :

ــ لا ٠٠ بل هو ابنه ابراهيم ٠ ومع هذا فصوت ابيه كان اكثر شجنا ٠

وتقلقل الشيخ في مكانه قائلا :

ــ والآن افسحا لي مكانا كي أصلي ٠٠

ونهض العجوز مقيما الصلاة ، في حين انزوى السجينان في الركن يبربران ٠

قال الدكتور :

ـ انها رواية مذهلة ٠٠ و

ـ لا ٠٠ هي معقولة ٠٠ ترددت شائعات كثيرة عن ان مدحت باشا لم يكن غير يهودي أو من اصل يهودي ٠ وكان هو احد افراد العصابة التي تغلغلت في نفوذ السلاطين لتمهد السبيل الى اعطاء الوعد باعطاء فلسطين لليهود ، بالاضافة الى التمهيد لاستعمار البلاد العربية من قبل الانكليز والفرنسيين ٠ ولكن السلطان عبد الحميد اكتشف المؤامرة في حينها وذلك عندما دفع له ملايين الليرات الذهبية لارضائه ٠

وصمت الرجلان ، وراحا يراقبان حركات العجوز الذي كان شبحه يبدو عملاقا هائلا وهو يجهر بصلاته وسط الفراغ الدامس ٠

وهمس الرقي :

ـ اذن فهذه غاية مدحت باشا من وراء الاذان ٠٠

ـ ليس هناك احتمال آخر ٠ فمدحت باشا لم يكن غيورا على الدين ، بل كان مهدما لكل شعور ٠٠ ولا شك في ان المؤمن سيرتجف عندما ينخر هذا المثقب في كيانه ثم يبصق دينه وحياته ٠ هل تصدق يا حميد ٠ ان ما يقال عن السلطان عبد الحميد مجرد اشاعات مغرضة للحط من نفوذه ٠ وكان من وراء هذه الاشاعات الموجهة اليه ٠ غايات مدبرة تقودها وتمولها ايد غنية ابليسية ماكرة ، مبعثرة في أرجاء الارض ، وكان بلفور لعبة في يدها ٠ ولا يستبعد ابدا ان تمتد تلك الايدي في المستقبل الى تزوير التاريخ وطمس الحقائق ٠ وها هي ذي ما تزال امامنا ماثلة اعمال جمعية الاتحاد والترقي التي اطاحت بالسلطان عبد الحميد ٠

وهمس الرقي بصوت مرتجف :

ـ شفيق ٠٠ يجب التخلص من هذا المكان باية سبيل ٠ ان هذه الميتات اليومية الخمس لم نكن نحسب لها حسابا ٠٠

واجاب صوت بدا في حينه باردا يبعث على القشعريرة :

ـ سوف تعتادان عليه يا ولدي ، سوف تعتادان عليه • اما اذا كبرتما الوهم على نفسيكما ، فسيدفعكما الخوف الى ارتكاب الاعمال التي أتى بها الكثيرون ••

وهتف السجينان :

ـ ماذا فعلوا ؟

اجاب الشيخ ببرود :

ـ اسقطوا رؤوسهم بالمراحيض ، بعد ان يئسوا من ايجاد وسيلة أخرى للموت •• ( واضاف ) اللهم عافنا واعف عنا •• يا رب •

كان الشيخ قد انهى صلاته في غضون انهماك الرجلين في الحديث ، وسلم على الملاكين رقيب وعتيد اللذين يتسنمان كتفيه • ولعله سمع أو خمن الموضوع الذي يشغلهما فطمأنهما على طريقته المعهودة • ثم رجع الى تهويمات رأسه في الفراغ وهو يسأل :

ـ هه لم تقولا لي لماذا سجنتما ؟

وبوغت الرجلان بالسؤال • وفكرا لحظة ( صحيح لماذا ؟ )

واسرع الرقي واجاب :

ـ والله يا ابا راغب نجهل السبب ••

ومن الغريب انينسى الصافي وزميله انهما اخترعاسببا وسردا وراءه قصة • والاغرب من ذلك هو استطراد الشيخ :

ـ اسمعا •• ان قصة لحية جد الوالي ، كذب في كذب ••

وبهت السجينان ، وزادت دهشتهما عندما اضاف :

ـ اذا كان الوالي قد ذهب ، فلا شك ان جده ذهب معه ايضا ••

وصرخ الرقي في رعونة :

ـ ولكن كيف سألتنا في البداية عن الوالي ••

واجاب الشيخ في طيبة قلب :

ـ غلطت • كلمة وهربت على لساني • ظننتما اني رجل كبير فرحتما تخلطان علي •

وبعد لحظة رفع السجان كتفيه الثقيلين ، واغلق الباب وراءه في ضجيج زلزل الكوة ، ثم سمع لرتاج القفل صكة شبيهة باطلاق رصاصة في الحلق • اما اللحظات القصيرة التالية ، التي انقضت الى حين اذان العشاء ، فكانت اسوأ واطول لحظات مرت على حياة انسان •

واعتاد الزميلان منذ الليلة التالية ، أن يأخذا بعض سنات من النوم • بعد الأذان الاخير ، بان يسند كل منهما ظهره الى ظهر الآخر ، ثم يغلق فتحتي سرواله بجرابه ويشبك ساعديه فوق صدره • وقد واتتهما هذه الفكرة الطيبة ، بعد تجارب عديدة فاشلة • كانت كل ذرة من الارض والجدران الشرسة ، تكن عداوة وبغضاء لئيمتين لكلّ ما يمسها • ولعل هذه الصفة العدوانية ، كانت موجهة في صورة خاصة لكلّ ما التصق به جلد بشري • فما ان يستريح عضو ما على سطح من السطوح ، حتى يشعر بوخزة أليمة مسمومة كلدغة عقرب ، تسري في الدم وتخرز العظم حتى تصل الى النخاع الشوكي وتسكن فيه • وقد أمكن الاقلال من شرور الفئران بواسطة الطعام ، أما اذا تأخر الخبز يوما واحدا ـ وهذا ما كانا يخشيانه ـ فكانت هذه تقتبس عادة من عادات الذئاب • أما الرائحة وكل ما له علاقة بالانف ـ وكان الموضوع حساسا بالنسبة للصافي الذي عاتب ربه في سره على هديته الثمينة ـ أنفه الكبير ـ هذه الرائحة تعقد أمرها في اليوم التالي ، وذلك عند طرح الفضلات البشرية ، وقد أمكن التحكم بهذا الامر بصورة جيدة • خطرت الفكرة الى الدكتور أولا ، فلم يشأ أن يفيد منها لوحده • اذ قال للصافي في وقت ما من أوقات الليل :

ـ اسمع يا شفيق •• سيصعد أحدنا على كتفي الآخر ثم نلقي بها

من الكـوة ٠

وعندما أجاب الصافي وكان الامر يؤرقه أرقا شديدا :

ـ وبماذا تحملها ؟

أجاب الرقي على الفور :

ـ فكرت بهذا أيضا ٠ فبما أن بطانتي ذهبت وبطانتك تخاف عليها ، نقتطع من الحصير ، وعند انتهائه يخلق الله ما لا تعلمون ٠٠

أما المعضلة التي نبا عنها التذليل ، فهي تأوهات المؤذن ابراهيم اليهودي ٠ وقد تبدت الكارثة على حقيقتها عند الصبح ٠ وذلك عندما سد الرجلان اذنيهما ، فهالهما أن الصوت اخترق الحواس الظاهرة والخفية ، وغرس انيابه في البصلة السلسائية ، وراح يمتص منها جوهر الوجود ٠ ولم يكن للاعتبارات السابقة ولا للاعتبارات الاخرى ـ الاقل أو الأكثر أهمية ـ مما يصادف الناس الذين فرض عليهم أن يدفنوا أحياء في قبر ، أعتم من القبر ، وجحيم أمر من الجحيم ، لم يكن لهذه الاعتبارات شأن يذكر أمام القضية الاساسية ، هي حجب الرجلين عن الجماهير في هـذه الاوقات العصيبة ٠ هذه الاوقات التي ما يزال الناس فيها يلهثون من الفرح ، دون أن يلحظوا المهاوي التي تفغر بين أقدامهم ٠ كانا يحسان بأنهما في حاجة الى رؤية الناس ، وانهما انفصلا عنهم كجذرين عميقين يغذيان اغصان شجرة السنديان ، استاصلتهما فأس حطاب جحود ٠ كانا يتشوقان لاهاجة الشعب ، للصراخ في آذانه ، لانذاره وتحذيره ، لشق اجفانه واطلاعه على الحقائق ، كانا يتعطشان للدعوة الى دعم الثورات القائمة ، واشعال ثورات جديدة ، ولربطها كلها بعضها ببعض في ثورة واحدة ٠ كانا يتوقان الى الاجتماع بهنانو وصالح العلي وشاعور والدنادشة وآل البيطار ورمضان شلاش ٠ كانا يتحرقان لحمل خطاب الامير الى كل البقاع والاصقاع ، وقراءته بنصه حرفيا على مسامع الناس دون شرح أو تعليق ٠ فهم يفهمون ويعرفون

أن لجنة الاستفتاء في طريقها للبلاد ، وسيفرغ الجو للعملاء والمأجورين ليلعبوا كما يشاؤون . سيرافقون اللجنة ويأمرون الشعب بنفوذهم أن يطلب الوصاية والانتداب ، تحت أسماء معونة ، وحماية ، وروابط ود ومحبة وأخاء .
وقاديش !؟ محمد قاديش ، زميلهما الصغير بقي هناك في الجبال لا يعرفان من أمره ولا من ذكره شيئا . هل مات ؟ هل عاش ؟ هل قبض عليه ؟ هل نجح في اعماله العسيرة ؟ ونجيب عويد وصالح العلي ، و .. انقضى اسبوع ..

وصباح ذات يوم من أيام أواسط مايس ، حيث عاد الرجلان الى مناقشتهما البيزنطية ، هل سيف الدين الخطيب كتب بدمه أولا ، أم نقش المجرم اعترافه أولا ؟ في ذلك الصباح دخل الدكتور عبد الرحمن الشهبندر الى القلعة وبيده كتاب رسمي من سمو الامير فيصل بن الحسين حاكم سورية العسكري .

●

## - ٢٣ -

اتضحت الافكـار الغريبة الفجـة في راس الشهبندر قبل سبعة عشر عاما ، عندما التقى في أروقة جامعة بيروت بشاب اسمر اللون نحيل البنية ، يبدو لفرط اكتئاب عينيه السوداوين ، وكأنه أهين اهانة لا قبل له على ردها . وما أن تعارفا حتى جرى بينهما حديث يشبه الهمس . وكان هـذا الحديث بداية تفتح خواطر الشهبندر ومعرفته لنفسه . كان اجتماع الشابين عملية خارقة تشبه عملية اللقاح . ولولا ذلك لظل الشاب يبحث عن ماهيته ، كأنثى ناضجة تلوب على ذكر . وقد فسرت أعماله وتصرفاته فيما بعد هذه الحقيقة . فكان لسانه وخياله أقوى أسلحته . كان يعالج الامور معالجة رفيقة ، ويسلك اليها الطريق من الطرف الهين ، محاولا أن يصل الى القلب متسللا دون ضجة . غير عالم أو متناس ، ان الحديد لا يمكن السيطرة عليه بغير الصهر والطرق الشديد المتواصل . كان يفضل المعدن الاقل صلابة ،

ولو كان ذهبا أو فضة ، دون أن تهمه اسعار التكاليف . لم تنبثق اعماله الوطنية عن بركان طبيعي ، بل عن جملة تفاعلات اخرى اتخذت شكل بركان ، ولكن ليست على المستوى المدمر . من أجل هذا وجد في حميد الرقي ضالته المنشودة . قال له الرقي في الحديث الاول :

– اني ربيب اعدائي . أنا ابن ورثة الوالي وهم الذين يعيشونني . هل تفهم معنى هذا ؟. هل هناك ابشع من تناول الرغيف من يد قاتل أبيك ؟ أنا افعل هذا . أريد أن أبصق عليهم بعد ان تموت أمي وبعدها سأتصرف كما أريد .

ورمقه الشهبندر بنظرة حاسدة وقال في نفسه : « يا لهذا الرجل .! أنه يعرف ما يريد أن يفعله في دقة وبساطة » .

وذات يوم اتفق الشابان وهما ، في الجامعة ، على أن يؤلفا جمعية سرية تنادي بمبدأ وطن العرب للعرب . وقال حميد :

– ان الطلاب يشكلون اربعة مذاهب من المسلمين ، وخمسة مذاهب من المسيحيين ، عدا عن الفرق الطائفية والعنصرية الاخرى . فكيف تريد أن نضمهم أو نجعلهم يعملون معنا قبل أن ينسوا مشاكلهم الذاتية ..؟ أرى أنه يجب ( فلاحة الارض ثم زراعتها ) ينبغي للجمعية أن تكون غايتها محو التفرقة قبل البدء في نشر الدعوة ، فقد عرفت من التيارات في هذه الجامعة ، بأن الذين يكرهون الاتراك يعملون للفرنسيين ، والذين يكرهون الفرنسيين يعملون للانكليز . وهناك جماعة تعمل للاميركيين وجماعة تحب القيصر ، فماذا يمكننا أن نفيد من هذا ؟

وأجاب الشهبندر :

– لن يكون عملنا للجامعة بل لكل الناس ، فضلا عن أن كره الاتراك أصبح قاسما مشتركا بين الجميع ، ما عدا القلة الذين يبنون مجدهم بالطين التركي .

وقال الرقي :

ـ حسنا .. اذاً علينا حجب شعار الجمعية على أن يبقى سرا في قلوبنا ، ولنسم الجمعية ( بالرابطة الثورية ) ، الى أن يتحقق الهدف الاول وهو الثورة ضد الاتراك . وبعدها ، يمكن محاربة الآخرين ..

وهذا ما حدث ، دخلت احدى البنات عضواً في الجمعية ، ثم سرقت بوسائلها الخاصة ورقة من أوراق الجامعة الرسمية ، وكتبت عليها الاعلان التالي ، ومهرته بخاتم الجامعة وتوقيعها :

« ان السلطات التركية أمرت منذ اليوم هدم الكنائس وتحويلها الى مآذن ، ومصادرة الصلبان وصور المسيح وأمه ، وحرقها في الساحات العامة . وفتح تجاويف في قاعات الكنائس تتجه ناحية الجنوب ليصار الى تحويلها ( محاريب ) وبأن لجنة تركية مؤلفة من أمام المسلمين ، ستأتي الى المدارس والاحياء لتلقين أصول الدين الاسلامي جميع الملل من نصارى بمذاهبهم كافة .. ويهود .. ودروز .. وشيعة .. وعلويين ... واسماعيليين ، والى كل من لا يؤمن بأن الله واحد أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . ومن يعارض بالمثول أمام اللجنة سننزع عنه ملابسه كلها ، ان كان ذكراً أو انثى ، ويخوزق عاليا على مرأى من جميع المتفرجين ولا الضالين آمين .. »

وفي صباح ذات الايام ، وجد هذا الاعلان معلقا على باب الجامعة . وصعق الشهبندر وهرع الى الرقي ، ـ وكان يهيىء للخروج بمظاهرة كبيرة ـ وهمس في اذنه :

ـ هل أنت من فعل ذلك ؟ انتبه ان الوالي كذب هذا البيان والجامعة محاصرة من جميع أركانها . والقناصل الاجانب يوالون احتجاجهم . والانكليز يهددون باعلان الحرب واحتلال البلاد .

واعترض الرقي صائحا :

ـ هل تخاذلت يا عبد الرحمن ؟..

ورد الشهبندر في عصبية :

ـ هذا ليس تخاذلا .. سمعت همسا يدور حولك .. انصحك بالتواري ..

ولكن الرقي لم يلتفت الى نداء صاحبه بل خرج من باب الجامعة على رأس الطلاب وهو يهتف :

ـ الدين لله والوطن للجميع .. فليسقط الظلام التركي عدو الانسان والاديان .. عدو الحرية .. والمساواة .. عدو الله والشعب ..

وقبل أن تصل المظاهرة الى مفترق الشارع ، لعلع صوت الرصاص . والتفت الرقي خلفه فوجد نفسه وحيدا . فأخذ نفسا عميقا ثم هتف وبرزت عروق رقبته الرفيعة كالحبل .. « فليسقط الظلام التركي .. فلي .. » وجاهد كثيرا لكي يتم هتافه، ولكن أيديا كثيرة ، وحرابا مسنونة ، وأعقاب بنادق، وشوارب معقوفة، وبزات عسكرية ، وقلانس حمراء ، وطلقات رصاص ، وأحذية مسلحة ، وايعازات تركية ، ورايات سلطانية ، وجميع ما يكره في الحياة ، جميع هذه الاشياء حبست الكلام في حلقه ، وسدت عليه الطريق وحاصرته من كل جانب . وبعد التحري الدقيق والاسئلة والاجوبة ، لم يدر ما حدث له . كل ما يعرف أن أيديا مجهولة حملته الى خارج البلاد واسقطته في باريس . وكانت الخطة من أولها الى آخرها مدبرة من قبل والد البنت الذي كان يعمل لمصلحة الانكليز للاطاحة بالشاب من الجامعة ، ومن البلاد أصلا . وفي هذا الجو المضطرب المشحون ، اضطر الشهبندر أن يعود الى وحدته ، ولم يشأ أن يغادر جامعته بعد تخرجه قبل أن يترك فيها أثرا من جهده . اذ انه أمضى فيها سنة في التدريس . وبعدها رحل الى اوربا ليجد بوقا

يصرخ فيه . التحق بالجمعية العربية الفتاة . وهناك تعرف على الصافي والتقى بزميله حميد الرقي مرة ثانية . وخلال عودته مر بالاستانـــة ، وانتسب الى جمعية الاتحاد والترقي ، التي ظل يعمل لها حتى وقت متأخر . بدليل انها انتدبته ليكون طبيبا خاصا لجمال باشا قبل أن يكتسب لقبه الشهير « السفاح » . وكان يظن أن بامكانه ، ما دام في خدمة هذا الحاكم ، أن يعمل عملا تاريخيا ، الفتك به مثلا . ولكن جمال باشا رفض أن يفتك بـــه أحد . وعرف بأن حماسة طبيبه بدأت تفتر تجاه الجمعية التي ينتسب اليها . وتأكد من حدسه ، عندما نمي اليه أن طبيبه على علاقة مشبوهة ببعض الاشخاص الذين كان يتخيلهم وهم يتأرجحون في الهواء . ومن أجل هذا راح يقيس محيط رقبة طبيبه . ثم أوصى جلاديه بأن يهيئوا حبلا من حرير . فاجفل الشهبندر وتلمس عنقه في ذعر ، وتوارى عن الانظار .

وظلت عينا الوالي ( المارشال التركي ) تطاردانه ، حتى وصل الى البادية . وعند حدود العراق قبض عليه الانكليز كرجل مدني يمتطي جملا ، وساقوه الى التحقيق . ولما لم يكن للانكليز شأن بالاطباء الهاربين ، الذين يحملون ضغينة للاتراك خاصة ، فلم يكتفوا بالافراج عنه ، بل رحلوه الى السويس على ظهر احدى بوارجهم .

وظل الدكتور في مصر حتى تأكد من أن عيني الباشا قد انطفأ بريقهما . فعاد ادراجه الى دمشق في أعقاب الجيش العربي الفاتح . وهنا راح يدرس الوضع عن كثب . فلاحظ أن أصدقاءه قد انشقوا الى فئتين متباعدتين . فئة كبيرة كانت تتوزع المناصب ، معتبرة أن النضال والعمل السياسي قد انتهى بوصول الشريف الى سوريا ، وفئة ثانية قد انشقت عن الركب وراحت تعمل الى اهاجة الجمهور ضد المطامع الجديدة . وعندما اجتمع بالرقي من جديد ، الفاه قد أصبح رجلا غريبا . وهاله التطور العجيب الذي طبع كل تصرفاته . وظل يتهيب الصافي ويحس بالفقر في حضرته . وذلك

منذ الوهلة الاولى ، منذ ست سنوات ، عندما وجده في باريس مكبا على كتابة مقال يتحدث فيه عن معنى القومية العربية من الناحيتين المادية والتاريخية . وعلى هذا بدأ الطبيب بقياس الشقة التي تفصل بين الفريقين، فوجدها هوة سحيقة لاقرار لها . وشرع يفكر الى أي منها سينحاز . وأخذت تتجاذبه التيارات العنيفة بين مد وجزر ..

●

## - ٢٤ -

كان الكتاب الاميري الذي قدمه الشهبندر الى قائـد مدفعية القلعة ، ينص على اخلاء سبيل كل من شفيق الصافي وحميد الرقي دون قيد أو شرط. وتسليمهما كل ما كان بحوزتهما من أشياء خاصة قبل توقيفهما . وسأل الدكتور رئيس الحرس وهو يهم بتنفيذ الامر :

ـ هل استطيع الدخول اليهما ؟ فلربما كانا بحاجة الى اسعاف ..

أجاب الضابط ساخرا :

ـ لا .. كن مطمئنا فهما على ما يرام .

كان وجه الصافي قد ضمر قليلا ، واكتست تقاطيعه المغضنة بالشحوب. أما زاويتا فمه فقد ازدادتا عمقا ، وبان العزم من خلال ثناياهما يكـاد ينطق . وبدا أنفه قد تورم وازداد ضخامة في شكل ملحوظ . وقد تهدلت نظارتاه قليلا لتقلص جلد صدغيه . أما هيئته العامة ونشاطه المعتاد فلم

يتطرق اليهما تعديل كبير · كل ما هنالك ، انه وهو يخترق ساحة القلعة في بطء شديد ، كان يظهر كالمتردد الذي يقارن بين المضي الى النور أو الرجوع الى الظلام · أما الرقي فكان يسير مغمض العينين بعد ان بهرت سوادهما أشعة الشمس · غمرت تقاطيعه كلها شملته الملطخة بالعفونة ، وتهدلت سترته فوق كتفيه ، حتى غاب كفاه في كميها المائعين ، بخلاف ما كانا عليه قبل الدخول · قال الدكتور الشهبندر بلهجة مبحوحة وهو يهب لمساعدتهما :

ـ صباح الخير ·· أتيت لكما بعربة ·

ولم يرفع الصافي وجهه ، بل ظل يسف بأنظاره الى موقع قدميه · وأرعش الرقي جفنيه في وجه المتكلم · ثم عاد الى اطباقهما من جديد · أما أبو راغب ، فراح يودع صديقيه بلهجة تشبه الندب على فقيد :

ـ الى اللقاء يا ولدي ·· الى اللقاء قريبـا انشـاء الله ، لاتنسياني بحق الرسول ··

في حين راح الشهبندر يفكر : « ترى ما يظنان بي ؟ وماذا يقولان في نفسيهما ·· » وحول الحوذي رأسه يمنة ويسرة وكأنه يقول ·· : « لا حول ولا قـوة الا بالله ·· » ثم هز الصرعين بيديه وطقطق بلسانـــه · ولاحظ الحصانان السمينان ، أن العربة قد امتلأت دون أن يصدر عن راكبيها حس أو انس · وهذه بادرة غريبة لم يعتادا عليها · وكانا على حق في ملاحظتهما هذه ، لان أسبابا عديدة كانت تقف حائلا دون أن يقال شيء تحت غطـاء العربة الاسود المكشوف · كان الصافي يفكر ، وهو يراقب ثؤلولة في اذن الحوذي : « لندعه هو يتكلم أولا ، ان حركات قدميه تدل على انه سيكشف لنا اسرارا هامة ·· » ·

وتنحنح الرقي مرتين ، وأزاح شملته عن عينيه ، ونفخ من بين شفتيه نفخات طوالا · أما الدكتور فظل يعبث بقفل حقيبته وهو ينتقي الكلمة الاولى التي سيفوه بها · وبعد دقيقتين وصلت العربة الى بداية شارع السنجقدار ··

فقال الصافي بنبرة تناهت الى اذنيه وكأنها صادرة من مكان بعيد :

ـ الى أين نذهب ؟

فشد الحوذي الصروع الجلدية ، في حين رد الشهبندر وهو يحرك يديـه في الهواء تغطية لشعور ما :

ـ سنذهب الى البيت ٠٠

ورد الرقي في حرون :

ـ لا ٠٠ سنعود الى الدكان ٠

وصمت قليلا ثم اردف بلهجة ذات معنى :

ـ كي لا ننفصل عن الجو الذي كنا فيه ٠ ٠

وابتلع الشهبندر ريقه وقال :

ـ سنذهب الى البيت ٠ عندي اخبار هامة يجب ان ابوح بها لكما ٠٠

وبعد ان اوعز الى السائق ان يكمل طريقه ، بلهجة مغايرة للهجة التي كان يتكلم بها ، تصفح وجه رفيقه ، فشجعته ابتسامة بريئة صبغت شفتي الصافي الزرقاوين ، على ان ينحني بينهما ويهمس :

ـ الامير فيصل يجهل الموضوع كله ٠

والتفت الرجلان الى زميلهما ، ودققا النظر في شاربيـه الاسودين المشذبين ، وتابع هو كلامه همسا :

ـ لم يكن لفيصل دخل في الامر ، وقد ظل يبحث عنكما طوال يومين ٠

وصرح الرقي بلهجة تنم عن خيبة الامل :

ـ ماذا تقول ياعبد الرحمن ؟

ورد الدكتور في ترو كبير ، وقد شعر بأنه قد بدأ يتسلم زمام الموقف:

ـ هناك امور غريبة كنت اجهلها ، الجو كله مشحون بالجراثيم ٠ لقد استاء الامير كثيرا من توقيفكما ، وكان صادقا في تأثيره ٠ لاحظت ذلـك بنفسي ٠

واتخذ الدكتور وكان يجلس في الزاوية ، وضعا لظهره ، ثم اردف :

ـ عصابات ٠٠ انه محاط بحاشية مؤلفة من عصابات ، ولكل عصابة جنودها وضباطها في قلب الجيش ٠ هناك امور منهلةٌ واعمال رهنية تعد في الخفاء ٠ ان القضية اخطر بكثير مما كنا نظن ، والرجل المسكين لا يدري ما يجري تحت كرسيه ٠ ان القصر مملوء بالافاعي ٠ انتظرا ٠٠ سأحدثكما عن كل شيء ٠٠

ولم يبد على الصافي انه فوجيء بهذه الانباء ، بل انه راح يهز رأسه موافقا ٠ فقد استطاع اثناء التحقيق في نفاذ بصيرته ، ان يخمن الوضع ، ولكن في صورة غامضة ، مما دعاه الى ان يطمئن زميله في السجن ، بانهما قد اودعا وديعة لاجل معين ، ولاسباب قد تكون خاصة جدا ٠ غير ان ما خشيه هو السرية والتكتم الذي احاط باعتقالهما ٠ وبهذا كان يسهل التخلص منهما ويضيع الغريم ٠

وعندما استوى المقام بالرجال الثلاثة في قاعة واسعة في بيت الدكتور الشهبندر ، وهيئت للصافي ورفيقه بعض وسائل الشبع والراحة ، سأل الشهبندر :

ـ والآن حدثاني من البداية ، ماذا جرى ؟ وما هي الاسباب ؟ وهل حقق معكما ؟

فرد الصافي :

ـ اريد جريدة تحوي خطاب فيصل وورقة لاكتب رسالة ، واريد منك أن تتعهد بايصالها الى قاديش على جناح السرعة ٠ ثانيا :

وهنا رمق الدكتور بنظرة معينة :

ياعبد الرحمن اريد ان اعرف باية صفة ، استطعت ان ٠٠ تمثل دور الملاك المنقذ ؟

وضحك الشهبندر لهـذا التعبير ، واجـاب وهو ينهض لاحضـار الصحيفة والورق :

ـ بصفتي ؟ انا اصبحت يا استاذ رجلا ذا شأن ٠٠

ورد الرقي ساخرا وبلهجة ذات معنى :

ـ طبيب الامير ؟

ـ معاذ الله ٠٠ انتم ما تزالون تأخذون علي هذا المأخذ ٠٠ كنت في ذلك الحين وحيدا مندفعا ، وكنت اظن اني سأجد في خدمة جمال باشا وسيلة لتحقيق هدف ثوري ، وقد انطوى ذلك الزمن ٠

قال حميد :

ـ اذن ما هو الشأن ؟

ـ كلفت بمرافقة لجنة الاستفتاء بصفتي اتقن الانكليزية ، وسأسافر قريبا الى حيفا لاستقبالهما ٠ ٠

ولاول مرة ، لوحظ على الصافي انقلاب في مزاجه ٠ فتوقف عن الكتابة ورفع رأسه ، وكأنه يراقب الحديث وقال :

ـ طيب يا عبد الرحمن ، هنا يمكنك ان تفعل شيئا ٠ ومع شكنا الكبير في صلاحية هذه اللجنة الا انه يمكننا ان نقدم منفعة ما ٠

واردف وهو يهز القلم امام عينيه :

الاستقلال الكامل ٠ دون اي نفوذ اجنبي ٠ هذا ما يريده الشعب ٠ الوطن العربي كل لا يتجزأ من المحيط الى الخليج ٠

وعقب الشهبندر :

ـ وان نغرق جميعا خيراً من ان نعيش متفرقين ٠٠

ورد الرقي متزلفا :

ـ ان هـذا شعـارك اساسا وانت اول من نادى به ، هل تذكـر يا عبد الرحمن ٠ ؟

وانهى الصافي رسالته الصغيرة ، ووضعها جانبا فوق الصحيفة • ثم اتخذ وضعية خاصة ، وكأنه أحس لاول وهلة انه اصبح طليقا • ونزع نظارتيه ومسحهما بطرف سترته قبل ان يقول :

ـ دكتور ، ساقول لك • أولا : اتهمنا المحقق باننا نعمل لمصلحة الفرنسيين ••

وفغر الشهبندر فمه حين استطرد الصافي :

ـ كان المحقق فلسطيني اللهجة ، وكما بدا لي من تنمره علينا انه كان يتمتع بسلطات مطلقة ونفوذ كبير ، وانه يحتمي وراء ـ أو أنه يعمل لمصلحة شخصية ـ مسؤولة • وعندما طرح علي السؤال الاول ، ادركت انه اخذ تعليمات مرتجلة ، وأنه ما يزال حديث العهد بهذه المهنة • وكان سؤاله الذي وجهه الي بحضور حميد : ( ما هي صلتك بفرنسا ؟ ) اسمع يا عبد الرحمن •• افهم هذا السؤال : ما هي صلتك بفرنسا ••؟ فمن المعروف ان الفرنسيين يعملون الى الحط من شأن الاشراف وثورتهم •• الخ •• للوهلة الاولى كان يجب علي أن أنكر هذا الزعم ، ولو كنت حقيقة أعمل لهم • ولكني لم افعل هذا • بل قلت ، وهذا ما حير حميد : ( ان الفرنسيين والانكليز هم حلفاؤنا في القضاء على الاتراك •• ) والواقع أن المحقق لم يكن ينتظر اجابة من هذا القبيل ، مما جعله يتخبط في طرح سؤاله الجديد • كان يهيىء نفسه مثلا لان يقول « ولكنك بعملك هذا تخون القضية •• أو ان الفرنسيين ساعدونا •• أو أن حلفاءنا •• ) ولكنه بدلا من هذا سأل بعد تفكير وتردد : ( لمصلحة من تعمل اذن ؟ ) فاجبته على الفور ( لمصلحة الامة فقط ) وهنا التفت المحقق الى حميد وسأله : ) هل انت تعمل مثله لمصلحة الامة ؟ ) فاجاب الرقي •• لا ادري ، ماذا قلت يا حميد ؟

ورد الرقي :

ـ قلت له انني اعمل ما يمليه علي الواجب •

وقال الصافي :

– ثم أمرنا بأن نغادر المكتب ليستلمنا السجان اياه ··

وبعد ذلك عبر الصافي عن شعوره الغامض بالمكيدة التي كانت تهيأ ليقعا فيها · كما ان الشهبندر الذي راح يستمع الى الحديث في دهشة مستطيرة ، استنكر هذا العمل ثم قال :

– اظن ان وراء هذه العملية اشخاصا معينين في حاشية الامير · فبعد ان انسحبت انا من المؤتمر – حين وصل الامير في خطابه ، الى الفقرة التي يقول فيها ( مطاليب الاقلية ) – انتظرتكما خارج السراي ، ولكن الاجتماع انفض بعد قليل ، ورحل اكثر المندوبين دون ان اعثر لكما على أثر · فعدت وسألت عنكما احمد قدري[1] فراح هذا يبحث معي ويسأل دون جدوى · ففكرت بانكما قد خرجتما في الزحام · وعدت الى باب شرقي لاجد الصيدلية مغلقة · وانتظرت هناك الى قرب العصر · ولا شك في أن شعورا ما خالجني بان مكروها أحاط بكما · بعد ان رجعت الى قدري خاصة ، الـــذي همس باذني – بعد ان شرحت له القصة – بانه هو نفسه لا يعرف كيف تجري الامور · وان سمو الامير واقع في ضائقة نفسية لا يمكن حصرها أو تفسيرها· وطلب منه أن يهيىء لي مقابلة معــه ، فوافق على أســاس الا أخوض معه باحاديث خارجة عن نطاق التهنئة بسلامة الوصول·وان اقدم له يد المساعدة اذا اقتضت الحاجة · واستطعت ان اقابل الامير بعد يومين ·

وصمت الشهبندر وهو يطلق تنهيدة حارة · أراد ان يعبر فيها عما بذله من جهد في سبيل العثور عليهما · كان الرجلان يصغيان الى زميلهما في برود ، وكانه يعيد عليهما قصة مملة · وكانت حركات اجفانهما الرتيبة

---

(١) طبيب وطني كان في خدمة الملك فيصل ·

تدل على انهما ينتظران اشياء تفسر حقيقة الـدور الذي يلعبـــه ٠ وهتف الشهبندر فجأة :

– انني اتساءل من ناحيتكما وناحيتي ايضا : لماذا لا نمد يد المساعدة للامير فيصل عسى أن نتمكن من فك السلاسل التي تقيد روحه ولسانه ؟

وسأل الرقي بلهجة ساخرة :

– هل هو الذي طلب اليك ذلك ؟

وفكر الشهبندر لحظة واجاب :

– والله هذه الفكرة لم تجر على لسانه ٠ غير انـي لاحظت استعداده لتنفيذها ٠ ومن اوحى بالفكرة صراحة هو احمد قدري ، بصفتـــه طبيبه الخاص ، واحد المحتكين به على الدوام ٠٠

وقال الصافي في روية :

– اسمع يا عبد الرحمن ٠٠ انت تعلم اننا انسحبنا من الجمعية منذ زمن طويل ، في حين انك ما تزال منتسبا اليها حتى الآن ولو اسميا ٠٠ ان انسحابنا كان لاسباب وجيهة ومعروفة ، واكبر برهان على هذا هو ما تراه الآن امامك ٠ فهم يوجهون الامور توجيها رهيبا ، أنا من رأيي ، اذا كان اميرك صادقا في براءة قصده هادفا في حقيقته الى الاصلاح ، ان يمحو اخطاءه وان يبدأ من جديد ٠ ان للرقي مثلا رائعا « يجب فلاحة الارض ثم زراعتها »٠ ونحن لا نريد ان نرمي بذورنا في الارض تفترسها الاعشاب ٠ ثم نريد لحس كل التواقيع والمقابلات التي اجراها الامير دون ان يعرف احد عنها شيئا ، هذه أولا ، او هذه شروطنا بالاحرى ٠ ثانيا : ان الافكار تستطيع ان تعيش في الرؤوس وحدها ولا تنبت من الرؤوس وحدها ، بل يجب اخذهـا من الناس واعطاءها الى الناس ، لان الفكرة في الاساس هي في خدمة الجمهور ٠ لهذا يجب اطلاع الناس بصورة مفصلة على كل ما يجري في البـــلاد وما سيجري فيها ٠ وهذا أبسط شكل من اشكال الحكم الصحيح ٠ فاذا كان

فيصل أو نوري السعيد أو عوني عبد الهادي أو غيرها ، صادقي النية في طلب التعاون سنفعل ، لا لخدمتهم ، بل لخدمة الناس الذين يكافحون الفرنسيين والانكليز ، ويخوضون المعارك بأسنانهم ، في حين تجد أن جيش الحكومة يقف على الحياد ··

والتفت الصافي الى الرقي وسأله :

ــ ما رأيك يا حميد ؟ انني بالطبع لا اعبر عن رأيي وحدي ··

وأجاب الرقي :

ــ والله المسألة تحتاج الى شرح طويل · فاذا ناقشنا خطب الامير وبياناته من اساسها ، لوجدناها كما تقول « تحير العقل » · ومن الغريب لا ادري ·· انني أتساءل : ترى هل يؤمن فيصل بما يقول ؟ طيب ما معنى هذه الفقرة: ان هدف الثورة العربية هي حفظ قسم من جسم البلاد الشمالية؟

ورد الشهبندر :

ــ لقد ناقشت الامير بهذا الخطاب متغاضيا عن نصيحة أحمد · والواقع ان فيصل شجعني على أن اتحدث معه ، وكان يعني من كلمته هذه ، ان يحافظ على وحدة البلاد التي كانت تحت النير العثماني ··

وهتف الرقي حانقا :

ــ وهل هو يحافظ عليها الآن ؟ ماذا فعل حتى هذا الوقت من أجل حمايتها كما يقول ؟·· أو ماذا ينوي أن يفعل في المستقبل ؟·· انني اتشرف بالمثول امام ضباط الجيش البريطاني · هذا كل ما يفعله ··

وقاطعه الشهبندر مهدئا :

ــ انه مطلع على كل شيء ، ومتألم جدا ، ولكنه واضع ثقته كلها في مؤتمر الصلح وباللجنة القادمة الى البلاد ، ويأمل ــ وهذا ما صرحه لي حرفيا ــ بان تسوى الامور سلميا وبالمفاوضات ، دون الحاجة الى استئناف الحروب · انه في صراحة ــ وهذا ما ادهشني ــ يخاف من الدم ··

قال الصافي :

ـ يخاف من رؤية الدم ، طيب ·· لنفرض انه لم يخض الحرب ضد الاتراك ، وانه لم ير في حياته رجلا تسيل دماؤه ، ولكن ما فائدة خوفه هذا اذا كانت الدماء تجري في البلاد انهارا ؟ وهل خوفه أو سلبيته بالاحرى ، تمنع هذه المذابح وهذا العدوان ؟ ثم ما الغاية من وراء هذا التخدير المتواصل، هذه الحقن الدائمة · « الاستقلال ·· الاستقلال » فأين هذا الاستقلال ؟ ثم هذه الافكار الرهيبة التي يصرح بها : العراق مستقلة ليس لها علاقة بسورية ، كما أن سورية ليس لها علاقة بسائر البلاد العربية ، ما معنى هذا ؟··

ورد الشهبندر :

ـ سألته أيضا عما يعني بهذه الفقرة فأجاب : انه يحرص كثيراً على مشاعر الانكليز ، ويريد ان يستفيد من معاضدتهم له ، خشية ان يتخلوا عنه في هذه الآونة · وفي النهاية سيتم كل شيء في صورة حبية · وانه لا يصدق بانهم سوف ينكثون بعهودهم ··

وضغط الرقي على اسنانه في عصبية وقال :

ـ يالله ·· اني اكاد انفلق ··

وفجأة سأل الصافي وبلهجة تنطوي على مغزى خطير :

ـ عبد الرحمن ·· اني اسألك سؤالا واحدا : هل اقنعك الامير بهذه التعليلات ؟

وفوجىء الشهبندر بهذا السؤال · واطرق برأسه لحظة ثم اجاب :

ـ في الحقيقة يا استاذ · انا أعرض عليكما ما اجابني به ، واظن أن أي انسان آخر كان مكاني ، لوجد ان لهجة الرجل ـ لا اقول مقنعة ـ ولكن تدعو وتحض على الاقناع · خاصة عندما يقول لك ـ وهذا ما قاله لي وعيناه مغرورقتان بالدموع : « أنا أعرف بأن حاشيتي لا تساعدني ، واعرف بينهم رجالا يتصلون سرا بالفرنسيين ، ويعملون ضدي بصورة خاصة » ·

واضاف الشهبندر :

ـ ولم يكتف الامير بهذا التصريح بل انه أقسم بتراب اجداده ورأس ابيه بانه مخلص النية ، يؤمن بما يقول ·· وكان يستشهد عند كل كلمة بقوله تعالى ( ولا تأمنوا الا لمن اتبع دينكم ) ··

كان الصافي يرمق الشهبندر من وراء نظارتيه ، ويستشف ملامح وجهه الغامضة · في حين كان الرقي يهز رأسه الى الاعلى ويفرك حاجبيه طوال الوقت ·

وعاد الشهبندر الى حديثه :

ـ والواقع يا استاذ ·· انت تكلمت عن الجمهور وعن الفكرة · ان الشعب ما يزال مفتونا باندحار الاتراك · ثم اين الجمهور الواعي الذي يمكنك ان تستمد منه فكرة ما ؟ قف الآن في أي مكان واصرخ : « ماذا تريدون ؟ » فلا تسمع غير اجابة واحدة : « نريد الشريف ·· نريد الشريف ·· )

ان ستة قرون من الجهل والاستعباد ، ليست فترة قصيرة يا استاذ ·· لكي تخلق وعيا ، تحتاج الى وقت · لا اقول ستة قرون ، بل سنين وايـاما طويلة ··

ورد الصافي :

ـ انني معك بهذه الحجة الى حد ما · ولعل هذه الحجة هي معنا ايضا · فعندما يكون الجمهور على مثل هذا المستوى من الفقر الثوري ، ينبغي للواعين ان يضاعفوا من جهودهم لكي يرفعوه الى مستوى الفكرة التي يحملونها ، لا ان يخمدوا جذوته ـ بالاباطيل والاضاليل ـ هل صحيح ما اقول يا حميـد ؟ طيب ··· ان فيصل ينـادي بالاستقلال وبناء دولة ، فاين هذه الدولة المحاصرة من جميع جهاتها والتي ليس لها منفذ على العالم ؟ وفلسطين بيعت بلا ثمن ، فما هذا الخداع ؟ من يصدق هذه الدعاوى ؟ · قل للناس هذا الكلام وانظر ماذا يفعلون ؟ ان القضية في غاية البساطة · قل لهـم ان الفرنسـيين

والانكليز هم اعداؤنا ، أو قل لهم انقلب حلفاؤنا علينا ، أو أي تعبير مشابه ٠ ثم قدهم الى الهدف ٠٠ لا ٠٠ ستجد نفسك مندفعا وراءهم ، سيقودونك هم الى الطريق الصحيح ٠

كانت الكلمات تتدفق من فم الصافي في حرارة وتهيج ، مشيرا بيديه بين الفينة والفينة ، مستعينا بأنفه احيانا على ابراز عباراته ، محاولا أن يجرد كلماته من جميع المؤثرات العاطفية ٠ واستأنف كلامه بعد ان مسح عينيه بسبابته وابهامه :

ـ اننا نعرف الغاية الحقيقية التي تكمن وراء من يريدون منا التعاون مع الحكومة ٠ انهم يظنون اننا نبحث عن منصب ، أو يحاولون ابعادنا عن الناس ٠ نحن نجهل الغاية الحقيقية ، لان فكرة قبول العمل مع جماعة من هذا النوع ، هي فكرة باطلة اساسا ٠ ان انسانا مهما كان شريفا لا يمكنه أن يفعل شيئا بينهم ، فان كان ضعيفا جرفه التيار ، وان كان عنيدا حطم كالعود اليابس ٠ وعلى كل حال خشية ان يقـال اننا تهربنا من تحمـل المسؤولية ، أو اننا لم نكن اهلا لتحمل اعباء العمل السياسي ، فسنملي شروطنا ٠ حميد هل توافقني ٠٠؟

ورفع الرقي رأسه واجاب وكأنه يحضر لهذا السؤال :

ـ أولا ٠٠ مؤازرة الثورات القائمة في البلاد مؤازرة فعلية دون مواربة أو خجل ٠٠

وصرخ الشهبندر :

ـ هل تعني اعلان الحرب على فرنسا في هذا الوقت ؟

وهز الرقي رأسه موافقا وقد تغير لونه :

ـ نعم ٠٠ اعلان الحرب ٠٠ سم ذلك ما شئت ٠٠ يجب ان يتدخل الجيش تدخلا رسميا ٠ فالامور كلها تدل على أن حربا ستقع ان آجلا أو عاجلا ٠ والوقت حاليا في صالحنا ، لان الفرنسيين ما زالوا يحشدون قواتهم

في كيليكيا مهزلة المهازل : أرض عربية يتنازع عليها طرفان أجنبيان ونحن نقف مكتوفي الايدي • اذن لا بد ان يتغلب في النهاية أحد الطرفين على الآخر وتكون نصف سورية له • ومؤتمر الصلح لا يتحرك • وفرنسا وانكلترا تقتسمان العالم تحت سمع ( ويدرو ولسون ) • انه هو يجلس في المؤتمر كلعبة من القش • لا حول له ولا قوة • انه مكروه حتى من قبل الفئة التي بدأت تسيطر في أمريكا ، كل ما قلته كان أولا • اما الشرط الثاني : فهو قضية دير الزور • يجب جلاء الانكليز عنها واعادة الحكم البلدي اليها ، والا فان رمضان شلاش ينتظر اشارتي ، وقد نصحته بالتريث لان هدفه من الحركة ـ في صراحة ـ هو ضم الولايـة الى الحكم الفيصلي • اما شرطنـا الثالث فهو الانكليز • يجب نبذ العاطفة معهم جانبا • على فيصل ان يستقبل جيش اللنبي وان يعلن استقلال البلاد ، ويجري انتخابات تنبثق عنها حكومة شرعية • ان عملنا هنا في البلاد لا في مؤتمر الصلح • فهناك لا نستطيع أن نأخذ شيئا ، ما دامت فرنسا وانكلترا تديرانه وتشلان اركانه الاربعة ••

وتبدلت لهجة الرقي فجأة وهو يسأل دكتور :

ـ هل انت مخول رسميا بمفاوضتنا ؟

أجاب الشهبندر :

ـ ولماذا تسأل هذا السؤال ؟

ـ لكي نعرف • ونكون على بصيرة • نحن لا نريد جدلا فارغا لا طائل وراءه • قل لي أيضا : هل انت موافق معنا على هذه الآراء يا دكتور •؟

وحدجه بعينين متسلطتين ، وسمر انظاره على وجهه ، وكأنه يريد ان ينتزع منه اعترافا خطيرا • وتململ الدكتور وهو يفرك جبينه • سـاترا عينيه وراء راحته :

ـ والله في صراحة •• أقول أن هذه الآراء لا تخلو من تطرف • لا يمكن ان يقال عنها انها خيالية او صعبة التحقيق ، بل انها واقعية جدا ، ويمكن

تنفيذها فيما اذا قلبنا كل شيء رأسا على عقب · انها تحتاج الى قوة ··

وأعلن الرقي دون مواربة :

ـ نحن اجتمعنا بيوسف العظمة في بيروت وتحدثنا معه طويلا بهذا الشأن ··

وسأل الشهبندر في لهفة :

ـ بماذا اجاب ··؟

والتفت الرقي الى الصافي ، وتبادلا نظرة معينة · ثم قال الاول :

ـ ان يوسف يبصق في مرارة · وحدثني بانه سيتخلص من رتبه واوسمته ليلتحق بهنانو وصالح العلي · وضحك الشهبندر وهو يقول :

ـ لقد صرح لي ايضا بهذه المشاعر ، بل لقد كلفني رسميا بالسعي لاعفائه من منصبه · وقال لي ان خجله من الامير يمنعه من تقديم الاستقالة · وشرح لي بالتفصيل حالة الجيش والحاشية وقال لي : « ان في الجيش الذي هو قائده ثلاث قوى تتطاحن ، وعلى رأس كل قوة رجالاتها من السكرتيرين والمستشارين · واليكم هذه الحقيقة الجديدة : ان يوسف نفسه الذي عثر عليكما في سجن القلعة بعد بحث طويل ·

قال الصافي ـ دون ان تهزه هذه المفاجأة ـ :

ـ يمكن معالجة القضية مع يوسف على مستوى آخر · فنحن لا نريده ان ينضم الى الثورات كفرد عادي ، بل نريد الى جانب مقدرته العسكرية أن نستفيد من وعيه السياسي ·

وتنحنح الرجل وهو يقول فجأة :

ـ دكتور ·· سألك حميد سؤالا فتهربت من الاجابة ، هل انت مخول بمفاوضتنا ··؟

قال الدكتور في صعوبة :

ـ لا ·· ولكني ·· استطيع ان انقل ما ترغبان في اقتراحه الى الامير

أو عوني عبد الهادي . ولكن شروطكما هذه ستطيش منهما الصواب . فالامير – كما فهمت – يتمسك في خطته هذه ، ولن يحيد عنها . وكما قال لي : « الى الغد يفرجها رب العالمين » .وعلى كل حال يا استاذ سنعمل من جهتنا على تعريف لجنة الاستفتاء آراء الشعب ومطاليبه كما تريد ، ننتظر النتائج فعسى ولعل ..

ونهض الصافي ، وقد احس بخدر يشل ساقيه . وراح يتمشى وسط القاعة ، ساندا راسه على كفه . ثم توقف فوق الشهبندر وسأله :

– دكتور .. متى ستقابل فيصل .؟

– أظن هذا المساء . أو صباح الغد قبل أن أسافر الى فلسطين لاستقبال اللجنة . .

– وبماذا ستحدثه عن رغبتنا في مساعدته ؟

وفكر الشهبندر قليلا ثم أجاب :

– سأقول له أنكما لاتشاركان الحكومة ثقتها في مؤتمر الصلح .

وفي تلك اللحظة طرق باب الدار ، وكان الطارق فئة من الشباب المتحمس ، وعلى رأسها شيخ في حوالي الخمسين من عمره ، مشذب اللحية ، يعم رأسه بعمامة أغبانية صفراء . عرف بالشيخ ( كامل القصاب ) .

●

## - ٢٥ -

عاد محمد قاديش الى دمشق في أواخر شهر حزيران · كانت الرسالة التي أنبأه عنها صالح العلي أثناء عبوره الوادي ، هي الكتاب الذي خطه له الصافي عقب خروجه من القلعة · وقد أخبره أن يعود بسرعة للعمل مع لجنة الاستفتاء · وقد تهيأ الشاب للعمل فور اسعافه ، وجاء يحمل معه طردا كبيرا ·

عندما أعطاه نجيب العويد القنابل الثلاث ، لم ينبهه الى أخطارها ، ونسي ان يقول له : لاتقذف بها الا اذا حميت نفسك · وكان أن تخلص من القنبلتين الاوليتين في بدء الالتحام مع العدو المتقهقر دون أن يصاب بأذى لأنه كان مختبئا في حفرته · أما الثالثة فقد رمى بها وهو واقف · وظل شاردا حتى تأكد من صدور الجئير البقري من حناجر الكولونيل وحاشيته· فتراجع خطوة للخلف دون ان يدرك ما أصابه · وراح يزحف على غير

هدى بعد ان غلبت عيناه وتباطأت أنفاسه • ثم توقف بعد قليل ، عندما أحس أن ساقه غاصت الى الارض السابعة • وراح يجيل عينيه في الفراغ الاحمر • أحسّ بأن السماء تمطر دماً • وراح يضغط على أسنانه كاتما صيحة ألم •ومد يده الى مكان الجرح ليجده ينزف بسائل لزج حار • ورفع يده الى عينيه فلم يرد شيئا • وقهر الالم الذي يكابده ، واستأنف زحفه نحو الغرب مفتشا عن مكان الحقيبة ، فاصطدم وجهه برزمة من الخزوق والقش ، حاول أن يزيحها جانبا ، فوجدها معلقة بشيء ، وتلمس ذلك الشيء ، فوجده قدما • وزحف الى جانب القدم حتى وصل الى الرأس وهمس :

ـ عبد الغني ••

فأجاب الرأس :

ـ آه ••

ـ هل اصابتك خطيرة ••؟

ـ آه••

ولسبب ما أدرك قاديش أن جسد الرجل ناقص • فصرخ في اذنه :

ـ انتظر ، سأجلب الحقيبة ••

ـ آه ••

واستأنف زحفه متجها ناحية اليمين • وكان عبد الغني الى يساره • ولكنه ما كاد يبتعد قليلا حتى لمحت عيناه كفا تشير سبابتها اليه ، وكأنها تتهمه « أنت •• أنت •• أنت •• » فادركه غيظ هائل • وانشب أظافره في الكف ورفعها ، فارتفع الساعد كله في يده • وظلت السبابة تشير اليه • ولكنه بدلا من أن يغضب وجد نفسه يرفع الكف الى فمه ويقبلها •• كانت هذه السبابة المتشنجة هي التي انقذته في المساء • هذه يد عبد الغني ، فصلتها عن جسده ساطور ماضية •

وفيما كان الصبح ينبلج . عثر المجاهدون وهم يكنسون الارض أمامهم ، على عبد الغني وقاديش يعانق أحدهما الآخر وقد فاحت منهما رائحة الاثير وصبغة اليود . وكانت فرصة طيبة جدا لقاديش ، إذ وجد نفسه يستلقي الى جانب زميله ومنتمده على فراش واطىء في قرية وادي العيون . وقد عكف طبيب شاب من حلب على مداواتهما ، مستعينا بالمواد المطهرة الموجودة في الحقيبة . كان عبد الغني يضحك على الدوام .. ويردد : « أخ .. أخ .. لو بقيت معي طلقة واحدة .. واحدة فقط .. » وفجأة يذكر انه أضاع ساعده . فيصمت . وترتسم على محياه علائم الخجل . وجيء لـه بأولاده مرة ، فصافحهم بيده اليسرى وقبل جباههم . كانوا اربعة ذكور أكبرهم في العاشرة . قال له أبوه في تأثر : « يا سليمان .. لم يبق لابيك يد .. ستكون أنت يدي .. خذ بارودتي .. انتبه ..دق لها مسمارين ، أو اربط خشبها بمرسة قوية . احذر السواطير يا ولدي احذر السواطير .. »

وتمكن قاديش أن ينتصب على قدمه بعد عشرة أيام . وبواسطة عصا غليظة وبغل قوي ، راح يجوب القرى ليحصل على تواقيع الفلاحين أو بصماتهم في اسفل بيان كتبه بخط يده . وقد اصبح هذا البيان طردا كبيرا حمله وعاد بـه الى دمشق ..

وجد قاديش عند وصوله الى الدكان أن بابها مقفل . فاستعان على فتحه ـ كما اعتاد أن يفعل ـ بشريط عكفه على شكل معين . وفي الداخل على سريره ، عثر على رسالة مطولة ، يتحدث فيها معلمه عن كل شيء . وأوصاه بالتكتم والحذر . وأخبره فيها بأنه سافر الى عمان مع الرقي وبعض الشباب ، للقيام بحملة واسعة النطاق لتعريف الناس على مطاليبهم وأهدافهم . وانه سيعود في أوائل الشهر القادم . وعليه اذا وصل هو باكرا أن يبدأ العمل . وما كاد قاديش أن ينتهي من قراءة الرسالة ، حتى أحس بأنـه يختنق . شعر بأنه الدكان التي عاش فيها أكثر من أربع سنوات ، قـد

أصبحت سجنا بغيضا • جحرا من جحور الفئران • قبرا مظلما ضيقا فارغا يخمد الانفاس • وتساءل في حيرة : « ترى ماذا حدث ؟ ما هذا الذي تغير في العالم ؟ » وألقى بحوائجه على الارض ومعها شملته المتسخة ثم خرج الى الشارع ••

كان ما يزال يرتدي بنطاله الدامي ، وقد رفى مكان الشرخ بخيط أسود ، يخالف لون القماش الاساسي • أما بقعة الدم فظلت كما هي دون أن يحاول ازالتها • والواقع أن حب الظهور والطيش الصبياني ، رفضا مغادرة صدره المتوسع • وراح يتأمل الناس ويقيس أطوالهم ويتفرس في عيونهم ويصرخ في وجوههم دون ضجة : « ماذا تفعلون ؟ أين أنتم ؟ ألا تعرفون ماذا يجري في هذا العالم ؟ » وآلمه كثيرا أن يمر المارون دون أن يعيروا التفاتا الى أحد • ولم يكن ألمه صادرا عن عدم التفاتهم اليه ، بل عن عدم التفاتهم الى انفسهم • وهاله أن يكونوا سعيدين منشرحي الصدور ، يضحكون في صوت مرتفع ، ويسرعون الخطا أو يتمهلون ، وهم ينشدون من القلب — دون أن تتحرك شفاههم — أناشيد السعادة والحب • وعندما وصل الى القصاع تساءل فجأة : « ترى ماذا تفعل مريم الآن ؟ وهل هي مثلهم ، مثل هؤلاء الناس ، تضحك دونما سبب وترضى بما قدر لها ؟ دون أن تطمح الى شيء — أو تفكر بشيء •• »

كان الوقت يدنو من المغيب ، فتذكر شفتها المتهدلة وأنفها الدقيق وعينيها الضاحكتين الباكيتين • وقال في نفسه : « سأذهب لزيارتها ، واذا سألتني حماتها — والعجائز سريعات النسيان — فسأقول لها : انني كاثوليكي أدين بدين أول بابا في العالم • لا شك في أن مستنقع الحارة قد جف ماؤه • ولن أخشى على ملابسي من الطين • انني اعرف الدار والغرفة وسأتوجه اليهما رأسا •

وعاد ادراجه وهو يستعيد في ذاكرته لقاء الغفران • وتذكر فجأة :

« ·· لن أذهب ·· سألتني في المرة السابقة : هل تعرف من أنا ؟ انك لا تعرف نفسك ··؟ هل هذا صحيح ·؟ ترى ألم أعرف نفسي حتى الآن ·؟ لن تسألني الاسئلة نفسها ، كانت سكرانة معذبة ; لربما هي الآن احسن حالا · قد يكون ابنها قد شفي وزوجها قد غاب من ذاكرتها في لجة النسيان · »

وشجع محمد نفسه كثيرا وتأمل بنطاله الدامي ، ويديه اللتين ازدادتا ضخامة وخشونة ، فنبذ تردده وأسرع الخطا ·

كان باب الدار مفتوحا ، وصياح الاطفال وضجيجهم يتصاعد من باحتها الترابية الواسعة · وهبط قاديش الدرجتين ، وتأمل الاطفال وهو يتقدم ناحية اليسار وتساءل : « ترى أي منهم ميشيل الصغير ؟ ولم يفعل أكثر من ذلك · بل وقف أمام الباب الموارب وطرقه بأصبعه · وتناهى الى اذنيه من العمق صوت يقول : « تفضلي » ·· فدفع الباب ووقف في العتبة ·

كانت الغرفة قد اظلمت تقريبا ، من أجل هذا ظل برهة غير قصيرة يدقق النظر حوله · وأول ما استرعى انتباهه التبدل الطارىء على ترتيب الغرفة · كان السرير قد نقل من الصدر الى جانب وحل مكانه مقعد كبير مفروش بغطاء ابيض · ولم يحاول أن يتتبع التفاصيل الاخرى ، لانه لحظ مريم تجلس على المقعد ، منحنية على ثوب تتدلى أطرافه من بين أصابعها · وسألت المرأة وقد رفعت رأسها :

ــ ماذا يريد الافندي ؟

وفكر قاديش في سرعة : ترى ألم تعرفني ؟ وأجاب في غبطة ماكرة :

ــ أريد السيدة ماري ابراهيم ··

ونهضت مريم واقتربت منه وما يزال الثوب في يدها ، ثم تسمرت على بعد خطوتين · خيل الى قاديش أن وجه المرأة راح يشحب ثم يتخضب على التوالي · ولمح في عينيها الواسعتين وميضا غريبا يتراقص تراقصا

محموما • واهتزت شفتهـا اهتزازات مرتجفة ، ثم ارتفعت حتى غطت اسنانها • ثم اهتز الوجه كله بغتة على انفجار ضحكة صاخبة • ونادت في صوت كالصراخ :

ـ محمد !•• يا يسوع •• ما عرفتك •• لشد ما تبدلت •• هل أنت هو ؟

وضحك قاديش في عنفوان • وسأل بصوت حاول أن يجعله خشنا :

ـ من تظنينني اذن ؟

ولاحظ أن عقل المرأة يكابد ضنى ثقيلا قبل أن تجيب ؟

ـ غربت عن بالي نهائيا ••

قالت هذه العبارة وهي تلوي عينيها لسبب ما • ثم اردفت :

ـ لم أكن أظنك أنت •• كيف أتيت ؟

وكانت تقصد : « لماذا أتيت لعندي ؟ »

كان شعرها الكستنائي قد انسدل على كتفيها في اهمال • كما بدا جبينها أكثر نصوعا ، وصدرها انضج مما كان • وكان ثوبها القطني الخفيف يكشف عن الصدر والساعدين ، التي ظهرت في الغبش تشع بياضا • وأجاب الشاب دون أن يدري ماذا تقصد بسؤالها :

ـ كيف أتيت ؟• أتيت على قدمي هاتين ••

وضرب بكفه على فخذه ، فوقعت على الجرح • فأحس بوخزة • والواقع أنه أراد أن يلفت انتباهها الى الشعار الذي يحمله • فرفع قدمه عن الارض • وتراجعت المرأة وكأنها تحاول الهرب من طريقه • قالت وهي تستدير :

ـ سأضيء المصباح •

واضافت وهي تدخل وراء الستارة وكأنها ترقص •

ـ هل تريد أن تجلس ••؟

وسأل قاديش وهو يخطو الى الامام :

ـ أظن أن ميشو الصغير يلعب مع الاطفال :

وما كاد ينهي سؤاله ، حتى سمع صوت زجـــاج يرتطم بالارض ويتحطم • وتبع ذلك صرخة مكتومة • وتوقف الشاب في منتصف الغرفة وصـــاح :

ـ ماذا : هل كسرت المصباح ؟

فلم يسمع جوابا • وبينما هو يجتر حيرته ، وقد نفذت الى منخريـه رائحة البترول سمع صوتا غريبا وكأنه ينبعث من لحن وتري جنائزي :

ـ ان ميشو الصغير لا يلعب على الارض فقد دخل في ملكوت السماء ••

وأحس قاديش بقشعريرة باردة تزحف في سلسلة ظهره • وآلمه جرحه المـا بليغا • وشعر فجأة بالتعب والانهاك • فاستند على الجدار ثم هوى على المقعد • وخامرته ظنون أليمة بأنه ضحية لنوبة كابوسية لم يدرك مصدرها • وتساءل في حيرة : « ترى أين أنا ؟ » ورفع أصابعه الى عينيه وراح يفركهما في قلق بالغ ، وتذكر الرسالة التي قرأها منذ قليل • وتصور نفسه يعيش في زنزانة • وأن صوت المؤذن ينخر في عظمه • وأفاق على نور ينبعث من شمعة نحيلة تتسلل في فراغ الحجرة دون حس • يتراقص لهيبها البارد تحت أنف المرأة • ورفع عينيه الى وجهها • فلم يدر بماذا أوحى اليه • ولكنه انتقل بأنظاره الى مكان ما في الجدار ، حيث لمح صورة العذراء المعلقة • انه الوجه نفسه ، والابتسامة ، والرضاء ، والحب ، والاطمئنان والسلام نفسها • وثبتت مريم شمعتها على قائمة السرير ، ثم رفعت رأسها • ظل قاديش يحملق في وجهها • فأحس بأنها تعذبه بهذه النظرة ، بهذه الابتسامة ، بهذا السلام والاطمئنان • واستحلى هذا العذاب ، فراح يرشف منه حتى الثمالة • ووقفت مريم أمام وجهه ، وراحت تدقق النظر في عينيه ، وكأنها تريد أن تتشفى منه ، أو انها تحاول أن تسترد منه ثأرا قديما ، بأرهب وسيلة من وسائل الالم ، بابتسامتها الالهية المعذبة ، عذوبة الموت •• عذوبة الفناء ••

عقوبة العدم ·· وصرخ قاديش وقد تخلى عن رباطة جأشه · شاعرا بأن قلبه يعتصر بين أصابع قاسية من جليد :

ـ لا ·· لا يمكن هذا ، أين ميشو ·· أين طفلك المريض ··؟ أريد أن أراه ·

وردت مريم وهي تشيح بوجهها ، وقد أدرك قلبها الرحمة · وردت بصوت رؤوف وديع :

ـ رفعه الرب اليه ، ادخله في ملكوته الواسع ، هناك يعانق الملائكة ··

وهتف قاديش بصوت مخنوق ، وكأنما المسألة تتكشف له لأول وهلة :

ـ هل مات ··؟

وأجابت مريم وكأنها ترتل صلاة مقدسة وهي تتيه بأنظارها في الفراغ :

ـ ذهب في الربيع ·· عند تفتح الزهر ·· وتغريد العصافير · نبتت شقائق النعمان على خديه قبل أن تسرقها الارض وتضمها الى حلتها القشيبة · اغمض عينيه عندما استفاق الزهر · انني أكره الزهر ··

واستدارت المرأة الى الحائط ، وراحت تخاطب المسيح بصلاة خافتة · لم تنحن له ولم ترسم على صدرها شيئا · ولكنها وقفت هكذا تخاطبه · وتناهت الى اذني قاديش بعض الكلمات :

أيها الرب ·· أيتها الصورة ·· أنا لا أخافك · ولست بحاجة اليك · أبق هكذا ·· معلقا الى الابد ·· آمين ··

ثم رجعت واقتربت من محمد حتى وصلت اليه ، فوضعت يدها على رأسه في لهجة أمومية :

ـ هل تبكي يا محمد ؟

كان يسند جبينه الى كفيه ، دون أن تصدر عنه نأمة أو ارتعاشة ·

والواقع أن كلمات صلاتها الرهيبة ، حبست دموعــه في حلقه ، وجمدت أوصاله عن الارتجاف • ولكنها لم تمنع اسنانه عن تمزيق شفته السفلى • ورفع رأسه ، مشيحا بوجهه جانبا • وقال بلهجة فشل في جعلها طبيعية :

ـ انني ما أزال لا أصدق ذلك ••

ـ تعني انك تستنكره ••

وحدث قاديش نفسه : « انها ما تزال امرأة عجيبة ، فهذا ما أقصده في الحقيقة • » وفجأة ، خيل له أن المرأة تضحك عليه ، وانها تستغل ضعفه وتخاذله لغاية مجهولة • وانها تعامله كطفل مدلل ، برغم أنه منذ قليل ، كان يتصرف تصرفا رجوليا كاملا • كان يسيطر عليها سيطرة تامة ، حتى بدت أمامه في منتهى الضعف والوجل • شعر الآن بأنها تهينه ، وتحط من قيمته ومن تجاربه ، ومن ثورته ، وحتى من دمه المبذول • وخامرته شكوك بأن ابنها لم يمت ، بل ادعت ذلك من أجل تحطيمه • أو أنها على الاقل فرحت بموت ابنها ، لانها وجدت سلاحا لمقاومته واضعافه • وعاد يتساءل : « ماذا تريد مني في الحقيقة ؟ ولأي سبب تفتعل ذلك ••؟ فلو كنت شخصا آخر ودخل حياتها على هذا الشكل فهل تعامله المعاملة نفسها ؟ ترى ألا تريدني أن أكون قويا أو رجلا ؟ ولكنها على العكس في المرات السابقة عابت عليّ طريقة تفكيري • ألم تقل لي أنت حساس والحساسية المفرطة ليست من شيم الرجال ••؟ لم هي تبتسم الآن ؟ لملا تبك وتعول وتندب ••؟ لم لا تسمح لي بأن اكفكف دموعها ؟ وأين العجوز ••؟

ـ وردت ماري ، دون أن يلحظ قاديش بأنه سأل بصوت مرتفع • حتى انه خشي أن تكون خواطره قد صدرت عنه على الطريقة نفسها :

أجابت مريم وهي تعود الى الثوب الذي كانت تحمله :

ـ هربت الى اختها في بيروت بعد موت ميشو •

وأضافت لسبب ما وبلهجة يصعب تفسيرها :

ـ أصبحت أنا وحيدة تماما ٠٠

واستعد قاديش للعمل ، فنهض واقفا ، وقد هيأ خطة لاسترداد ما فقده ٠ سألها دون مبالاة تكاد تكون سخرية :

ـ وكيف مات ميشو الصغير ٠٠؟

أجابت ماري بصوت منخفض وهي تراقب ذبالة الشمعة :

ـ كان مسلولا في دوره الاخير ٠ ومنذ تلك الليلة التي جئت فيها راح يبصق رئتيه ٠

وطاش سهم قاديش وتغيرت لهجته وهو يسأل من جديد :

ـ ألم تدركي منذ البداية ؟ ألم يقل لك الطبيب ؟

فردت في أناة :

ـ أنا كنت أعرف ٠ وأعلم بأن الطبيب كان يكذب عليَّ ٠٠

وابتعدت عن الشمعة ، ثم جلست على كرسي مقابل ٠ وبدا عليها كأنها أدركت غاية الشاب من هذا التحقيق ٠ فراحت تتطلع الى وجهه في شجاعة وصمود ٠ ومضت تقول :

ـ كنت أعلم بأن الطبيب يخفي عني الحقيقة ٠ ومع هذا رحت أكذب على نفسي ، أو بالاحرى ، رحت ألعب لعبة الحظ ، مع قناعتي بأني سأخسر ٠ كنت أخشى أن يراه طبيب آخر فيقول له أنه مسلول ٠ وهذه الحقيقة لن تفيدني شيئا فلم أكن أملك ثمنا للدواء ٠ حتى وان وجدت هذا الدواء ٠ سألت مرة عن ثمنه فقيل له ان يكلف خمس ليرات ذهبية ٠٠ وصرخ قاديش بصوت مرتجف ، صاعق ، مفجوع :

ـ ولماذا لم تخبرينا ٠٠ لماذا ؟ لماذا ؟٠ لماذا ؟٠

وحدجته المرأة بنظرة قاسية وأجابت :

ـ وماذا يمكنكما أن تفعلا ؟ أنا لا أؤمن بالصدفة ٠ ولا أحب أن يعطف عليَّ أحد ٠٠ أنا لست مسكينة ٠ الفقر ليس ذلا ، والشفقة لا تفعل شيئا ٠

أنا اعتقد أن لكل شيء ثمنا ، حتى أن الصلاة والركوع والخضوع ، كلها عبارة عن عملية شراء مزيفة ، أنا أكره النفاق ٠٠

وتراءت لقاديش علائم الظفر ٠ عندما لمح أن صوت المرأة أخذ يكتسب بحة مخنوقة ٠ فعالجها بضربة قوية :

ـ ولكنك أنت أول منافقة وكذابة ٠ كنت تعرفين بأن ابنك يعاني من السل ، ومع هذا رحت تلعبين مع الحظ مع قناعتك بالخسارة ٠ هل هناك أشد زيفا من هذا ؟

وانتظر ان تصرخ المرأة في وجهه وأن تبكي وتطرده وتلعنه وتبصق عليه و ٠٠ ولكنها ضحكت في فتور وردت :

ـ انك تقول هذا لتغيظني ٠ أنت تعرف بأني لست كما تقول ٠ وفوق ذلك ٠

ـ واكتسب صوتها نبرة جافة وهي تتابع :

ـ أريد أن أعرف بأية صفة توجه الي هذه التهم ٠٠؟ لماذا جئت الي ؟ ماذا تريد مني ؟٠

وصعق قاديش ، وحاول أن يتكلم ٠ ولكنها منعته عندما نهضت واقتربت منه حتى مس طرف ثوبها ركبته البارزة وقالت له :

ـ جئت لتتسلى أليس كذلك ؟ أم أتيت لتطلعني على مدى تطورك ؟ طيب ٠٠ سأقول لك : لقد تبدلت كثيرا أقصد أن ملامحك تغيرت ٠

وجرته من كتفه :

ـ اقترب من الشمعة لأريك ٠٠ لقد ارتفعت وجنتاك قليلا ، وسلت خداك ، وصار لك شاربان صغيران ولكن خشنان ٠ وطلي وجهك باللون النحاسي ، وتوضح العزم على شفتيك ، وتعاظم الجد والعبث في عينيك ٠

وأسفت بعينيها الى بنطاله وتابعت وكأنها منجمة عتيدة :

ـ وهذه بقعة باهتة من الدم ، لمحتها حين ضربت عليها بكفك ٠ ولكن

رقو بنطالك يدعو الى الخجل · هل تريد أن تعرف عن نفسك شيئا آخر ؟ طيب ·· أنت لا تفكر بأحد · الا على مستوى ما تجد فيه من ذاتك ، أو كما تشتهي أن تكون مثله · وأمامك مجموعة من القضايا تعمل لها بكل ما تملك من قوى ومواهب · أما هدفك الاساسي ، أو الهدف البعيد ، فلا تزال تبحث عنه · لم يتبلور بعد في خاطرك أنك ما تزال تلميذا لاستاذك ، ومنه تستمد شخصيتك · وسيأتي يوم لا محالة تفترقان فيه الى لقاء بعيد ، أو الى غير لقاء · من أجل هذا يجب أن تكون لنفسك شخصيتها من الآن ، لكي لا تضيع في المستقبل ، عندما تفقد المرآة التي تعكس صورتك ·

كان قاديش يصغي الى الكلمات ، تارة يطرق برأسه الى الارض ، وأخرى يتأمل عينيها الصافيتين على لهيب الشمعة البارد ، وفي صدره تعتمل شتى الاحاسيس · وابتعدت عنه المرأة وعادت الى كرسيها · واستطردت في لهجة كالدعاء :

ـ كم كان بودي لو رأيتك أكبر سنا مما عليه الآن ، لكنت كاشفتك بأمور أخرى ·· ولكنني أجدك الآن تضطرب وتدهش من كلمات بسيطة · قد تقول لنفسك أن هذه امرأة غريبة أو رهيبة أو ما أشبه ذلك ·· ولكنني لست كما تظن · أنا امرأة عادية · وتأكد من أن أي واحدة كانت مكاني ، لحدثتك عن نفسك المفتوحة كصحيفة بيضاء · لماذا تحدق بي هكذا اجلس ؟

وتقدم محمد من المقعد الكبير ، ثم تراجع وجلس مقابلها تماما ، على كرسي منخفض ، وبطريقة ادخلت الرعب في قلبها · رفع ركبته السليمة واحاطها بكفيه المتشابكي الاصابع · ومد ساقه الجريحة الى نهايتها فاحتلت عرض الغرفة · وراح ينوس بهيكله الطويل وقد اتسمت ملامح وجهه كلها بسيماء السيطرة والثقة بالنفس · وقال لها بصوت حاول أن يجعله دافئا فخرج قاسيا خشنا :

ـ طيب ·· والآن هل تسمحين لي أن أتكلم بدوري ؟

ونهضت المرأة على الفور مبتعدة وهي تقول :

ــ لا تنس انني امرأة وحيدة ، ومسيحية ، واسكن في دار تحتلها خمس عائلات ، والكل يعرفون بأنك دخلت لعندي في هذا الليل • أنا امرأة شجاعة ، ولكنني أخشى القيل والقال •

ونظر قاديش الى ظهرها فأحس بأنها تلهو بــه • وخامره ارتبــاك شديد • وأجاب ناسيا ما كان يريد أن يقول :

ــ وأنت ما هو شعورك الحقيقي تجاه هذا الموقف ؟

فاستدارت نحوه وغضت من طرفها مجيبة في خجل :

ــ أنا لا أخاف منك • ليس منك أنت فقط ، بل من أي رجل •

وهنا ازدحمت في عينيها دمعتان حائرتان ، وبــدا وجهها شديــد الشحوب • واردفت وهي تعود الى المقعد :

ــ ان أي رجل ــ هذا رأيي ــ مهما كان خشنا لا يستطيع أن يعتدي على امرأة الا بارادتها هي • ولكن الظروف والمحيط كما قلت لك ••

وشخص اليها من تحت جفنيه المسبلين • وقال بصوت متبدل وهو يفتل شاربه الوليد :

ــ هل أفهم من هذا انه ينبغي لي أن أرحل ؟

واعتصمت المرأة بالصمت • كــان البــاب نصف موارب ، وضجيج الاطفال بدأ يتوزع • وكان يتناهى من الخارج بين لحظة وأخرى صــياح نسوة أو سعال رجال عائدين من اعمالهم • في حــين أخذت ذبالة الشمعة تمط لسانها المتفحم ، وترسم على الجدران صورا متطاولة الاشكال توحي بالعذاب والضجر •

وتاهت على شفتي قاديش ابتسامة هادئة ونهض في فتور وهو يقول :

ــ كنت أريد أن أقول شيئا قبل أن تطرديني بهذا الاسلوب الطريف •

وتبدل وجهها ، وقد آلمتها اجابة الشاب • ونهضت قائلة :

ـ أنا لا أطردك يا محمد ، ولكي ابرهن على ذلك ·

وانفلتت من امامــه في عجلة وخطت بضع خطـوات حتى وصلت الى الباب · فتحته ونادت في احتجاج :

ـ أنيسة ·· أنيسة ·· أنيسة ··

وأجاب من الطرف الآخر صوت رفيع عميق :

ـ ماذا تريدين ؟

ـ تعالي امسكي لي الشلة ··

وعادت مريم وهي تدمدم في سخط :

ـ كي لا أكون عرضة للشكوك ·

ورفعت طرف مرتبة السرير ، واخرجت من تحتها شلة خيطان سوداء · واحس قاديش ابان حيرته ، بأن خيوط الشلة تدور حول قلبه وتعصره عصرا فسألها في غصة :

ـ هل ما زلت تعملين ؟··

وهزت المرأة رأسها دون أن تجيب · وفي هذه اللحظة دخلت البنت · كانت في حوالي العاشرة · مسطحة الوجـه نحيفة البنية · ترتدي ثوبـا قصيرا ، بدا أنها لم تقلعه عن جسدها منذ خمس سنوات · وبعد أن ألقت تحيتها قالت :

ـ تشترط عليك أمي أن تعشيني مقابل اتعابي ··

وردت مريم موافقة :

ـ طيب ·· اغلقي الباب ·· وسلمي على ابن خالتي جوزيف ··

والتفتت الى محمد وراحت تتكلم بالتركية :

ـ ماذا حدثك عني الصافي ؟

وأفاق محمد قاديش من ذهوله · وفكر قبل أن يرد :

ـ قال انك تشتغلين في معمل رجل يهودي مقابل اجر ضئيل • كما قال أنك تعترفين عند راهب ملحد ••

وسألت مريم في دهشة :

ـ هل قال لك ذلك حرفيا ؟

فضحك قاديش وأجاب :

ـ لا •• ولكن شيئا من هذا القبيل •

وبدا على المرأة انهـا فرحت بقدوم الطفلة • وأصبحت أكثر تكيفا واستجابة للحديث منها في السابق • ونشرت الشلة بين كفي البنت ، وراحت تلف خيوطها على بكرة • ورفعت رأسها دون تكلف وسألت قاديش :

ـ اذن لقد اصبحت تعرف عني كل شيء • اجلس لماذا لا تجلس ••؟

واقتعد محمد كرسيه مرة ثانية • وراح يراقب اصابع المرأة التي كانت تدور في حذق وعجلة ، مستغرقا في التفكير ، حانيا رأسه على صدره وسألته مريم :

ـ كنت تريد أن تقول شيئا •• هيا تحدث ••

ـ نسيت •

ورفع رأسه :

ـ كنت أريد أن أحدثك •• أن أدافع عن نفسي •• ان بعض ما قلته عني صحيحا والبعض الآخر يحتاج الى نقاش : وعلى الاجمال بدأت أشعر بأن هناك علاقة غريبة أخذت تنشأ بيننا • بيني وبينك ••

وأضاء وجه مريم ابتسامة رائعة • واومأت برأسها وكأنها تشجعه على متابعة الحديث • ومضى قاديش يشرح عواطفه :

ـ من ناحيتي اعترف بأنك أول امرأة اصادفها في حياتي • أعني هكذا •• استطيع أن أتحدث معها دون حرج • أحس أن وجودي معك يختلف كثيرا عن وجودي مع الاستاذ •• لا •• يصعب عليّ أن أربط بينك وبينه ••

أن أوضح الفارق .. ان شعوري نحو الاستاذ ونحوك .. لا أدري كيف افسر لك .. أنت تسدين لي نصائح جوهرية .. وتعمل كلماتك في نفسي عملا غريبـــا ..

وغبطت ماري نفسها وكأنها ظفرت ، أو لاحت لها بوارق الظفر بأمنية ما . في حين سكت الشاب ، وقد تميزت ملامحه بالارتباك والقلق . ثم أضاف في حزن :

ـ أنا ليس لي أحد .. أحس أحيانا بأنني ضائع أتعلق بأقرب شخص أجده .. وأعجب كثيرا بكل من أتعرف عليه لأول مرة . وعلى فكرة ، أنا وصلت اليوم فقط ، قبل ان آتي اليك هذا المساء ..

وبدا على مريم أنها فوجئت بهذا الخبر ، ثم عادت تصغي بجوارحها كلهـــا :

ـ قبل أن آتي الى هنا وجدت نفسي وحيدا في الدكان . فبدا لي ضيقا فارغا . بعد ان قرأت رسالة الاستاذ خاصة . هل أعلمك الاستاذ بقصة سجنه ..؟

وأومأت ماري بالايجاب وقالت :

ـ اجتمعت بهما أول أمس وحدثاني عن الاستفتاء . وبالمناسبة كان الرقي رجلا عظيما . أعجبني كثيرا .. وقد ..

وسكتت قبل أن يزلق لسانها بسر تحرص على كتمانه ، دون أن تكتم عيناها هذا السر . فظن قاديش أن صمتها كان طبيعيا . وسألها :

ـ وماذا اعددت أنت لهذا الاستفتاء ؟.

فأرسلت المرأة تنهيدة طويلة ، ورفعت عينيها الى الفراغ ، وراحت تدقق النظر الى مكان مجهول ، وكأنها تستجلي ذاكرتهـا وتنقيهـــا من الشوائب . وأجابت كأنما تقرأ سطورا حفظتها عن ظهر قلب :

ـ نحن باعتبار أننا نساء ، خبرنا الحياة من كل وجوهها .. ستختلف

عنكم كثيرا • ان اهدافنا دقيقة بعيدة المرمى •• يكتنفها الضباب والدخان ، وتقف في سبيل الوصول اليها كثير من العقبات • وعلى كل حال تبدو لنا هذه الاهداف واضحة وضوح الشمس •• انها السعادة •• سعادة كل انسان •• كل امرأة وطفل ورجل •• سنطلب : ألا تعصر حياة الرجال في الطواحين •• والا يموت الاطفال •• والا تترمل النساء •• والا تهرب العجائز من اليأس •• هذا ما نريده •• أن يمحى الشقاء والبؤس والقلق •• وان يحل مكانها الامل وحب الحياة •• سيسألوننا عن نوع الحكم الذي نحبه في بلادنا •• نريد حكما يوفر لنا هذه الشروط •• وسأكتب هذا في ورقتي ••

كانت أصابع المرأة تدور في سرعة • والخيط الاسود يتراكض من بينها منفلتا متحررا من كفي الطفلة الصغيرة ، ليطوق جسم البكرة ، ويلتحم بعضه ببعض مكونا شكلا جديدا • وترتجف ذبالة الشمعة دونما سبب ، وكأنما تدعو المرأة الى متابعة الحديث • ويظل قاديش ساكتا مفتونا بما يسمع من أفكار لا يعرف كيف يفصح عنها • أما أنيسة الصغيرة فقبعت في مكانها بين ركبتي المرأة • مادة ذراعيها تتابع شفتي جارتها ، وتلاحق كلماتها جاهدة في أن تفهم معنى أقوالها الحارة الملتهبة ، التي كانت تنشر في الجو الكئيب بريقا خاصا • وتعود السيدة لتحدق في وجه الشاب برهة ثم تضيف :

ـ كلفني الصافي أن أدور في الحي ، وأوقع الناس على مضبطة أكتب فيها ما أريد • ثم أقدمها للجنة حين حضورها • لم يعطني شيئا من أفكاره ، بل ترك لي حرية الكتابة والعمل ، ان هنا كثيرا من العائلات تطلب الحماية الفرنسية ، وبعض الارثوذكس يطلبون حماية قيصر روسيا ـ جاهلين ما جرى في بلاد القيصر ـ قلت لهم : لم يبق للكنيسة تأثير في الحكم ، ولا في تحقيق سعادة الناس • لقد تحالف الاسلام مع المسيحيين ، وتحالف الارثوذكس مع البروتستانت والكاثوليك ، واقتتلت الاديان بعضها ببعض •

وسقط ملايين القتلى والجرحى من الجانبين . أفهمتهم أن حجة حماية الاقليات ليست الا حجة واهية . وكما فعل الاتراك مع الاسلام ، سيفعل الفرنسيون والانكليز مع المسيحيين ، وسيكون هـــدف الاجـــانب تحقيق مصالحهم بالدرجة الاولى .

كانت خيوط الشلة قد نفدت بين يدي المرأة فسألت في تبرم :

ـ كم الساعة الآن ؟

وأفاق قاديش من تأملاته ونهض قائلا :

ـ لقد تأخرت .. يحسن بي أن أذهب .

والتفت الى المرأة :

ـ أشكرك يا مريم اذ أتحت لي فرصة طيبة..كنت.. لا أدري ما أقول .. ذهبت الى ثورة الجبال كمغامر ، ولكنني اكتسبت شيئا غير المغامرة . لقد عرفت الحياة عندما عشت مع الفلاحين والثوار . لا أدري كيف أعبر لك عما يجول في خاطري . والذي ذهب ضحية مجهولة . أخذوه بعيدا ليموت في أرض غير أرضه ، وليحارب أناسا لم يؤذوه . وهذا ما سيحدث مرة ثانية اذا دخل الفرنسيون أو الانكليز الى بلادنا ..

ولم يدر لماذا راح يحدثها عن نفسه :

ـ أنا ليس لي أم ولا أب ولا أخ أو أي قريب .. لم يبق ما يصلني بهذا المجتمع أية رابطة ، كان علي أن أخلق أو أساهم في خلق نفسي ..

ووثبت مريم من مكانها ، وحاولت أن تقترب منه . ولكن البنت في حركة غير ارادية ، وقفت في طريقها . ولم ينتبه الشاب الى ما حدث . ولكنه استند الى الحائط واردف :

ـ تصوري يا مريم .. أثناء المعركة الاخيرة ، زاملت رجــلا اذا مر من هنا لا يمكن لاحد أن يحسب له أي وجود كان ..

وأحست المرأة وهو يسرد عليها قصة الرجل ذي الاطمار ، بأن حاجة

ملحة تدفعها لان تفصح عن سرها الذي كتمته . وظلت تنصت له وهي مكتوفة اليدين ، تحيط جسده كله بعينيها وانكارها . ولكنه عندما وصل الى عتبة الغرفة اطلقت من ورائه صوتا يشبه صوت انذار ..

ـ محمد ..

ولفظت اسمه الحقيقي لفرط الهياج الذي تملكها ، عندما أزمعت على مكاشفته . وتسمر الشاب في مكانه متشبثا بقبضة الباب . ولم يلتفت الى الخلف . أحس احساسا غامضا بأن صاعقة ستنقض على رأسه . ومن مكانها من أقصى الغرفة صرخت مريم :

ـ كنت أريد أن أقول لك .. أن صديق معلمك .. حميـد طلبني لاتزوج منه .. انظر .. مالك ..؟ جوزيف ..

وما ان وصل قاديش الى الدكان ، حتى اعتراه شعورٌ أكيد أن جرح ساقه لن يندمل الى الابـــد ..

## - ٢٦ -

### ايها العربي

ايها العربي اياك ان يضللك الخونة ٠٠ لا تبع بلاد اجدادك فيلعنك أولادك واحفادك ٠٠ عش حرا ٠٠ فك اسرك من نير الاستعباد فتستريح ٠٠ ولتكن هذه مطالبك :

١ ـ اطلب الاستقلال السياسي التام بلا قيد ولا شرط ٠٠ لا حماية ولا وصاية ٠

٢ ـ لاتقبل بتجزئة وطنك وبلاد اهلك ٠ ٠

٣ ـ اطلب حدود بلادك من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي الى جبال طوروس ضمنا ٠٠

٤ ـ لا تنس اجزاء وطنك العربي الذي يذله الفرنسيون والانكليز

والخونة ، تمنَّ خلاصها واعمل من اجل ذلك ٠

٥ ــ عند الحاجة رجح ان تكون المعونة المالية من البلاد التي لاتطمع ببلادك بشرط الا تمس استقلالك وعزتك الوطنية ٠

٦ ــ اعلن احتجاجك على المادة /٢٢/ من قانون جمعية الامم ،القائلة بوجوب الوصاية ٠ لانك اهل للاستقلال ٠

٧ ــ ارفض كل حق تدعيه دولة ما ، بان لها حقوقا تاريخية في بلادك ٠

٨ ــ استعد من الآن لبذل دمك وحياتك في سبيل هذه المطالب ٠٠

وطني عربي مفادي

وعلقت في نواصي الشوارع والساحات العامة اعلانات كبيرة كتب عليها باللغات الثلاث :

( نطلب الاستقلال التام )

وفرشت الارض بقصاصات الاوراق التي كتب عليها :

« حرية الوطن العربي أو الموت ، فلسطين بلد عربي ، تهيأوا للدفاع عن حريتكم ، اياكم واليأس ، حاربوا التفرقة ، الاستقلال يؤخذ ولايعطى ٠ ليسقط الصهيونيون والفرنسيون والانكليز ، لاتخافوا الدم ٠ احذروا الدسائس ، اياكم والخنوع » و ٠٠ وكلمات أخرى تحمل هذه المعاني ٠٠

كان قاديش يترأس فصيلة من الشباب وهو يقفز كالمجنون ، يلقي بالقصاصات ، ويوزع الاعلانات ، ويهيب برفاقه ان يسرعوا ٠ كان يحاصر المارة ، ويصيح في الناس :

ــ الاجتمــاع في جــامع تنكز عقب الصــلاة ٠٠ الاجتماع هناك ٠٠ لاتنسـوا ٠٠

ويدس الاوراق في ايديهم وجيوبهم : خذوا ٠٠ اقرأوا ٠٠ الاستفتاء غدا ٠٠ لاتنسوا ٠٠ نريد الاستقلال والوحدة والحرية ٠٠ أو الموت ٠

كان يردد ماكتبه في القصاصــات ، ويضيف اليها شعارات جديدة ٠

وعندما كان يلتقي بمريم ، يغض من طرفه ويصيبه ارتباك شديد ٠ وما ان يلحظها قد ابتعدت حتى يعود الى الهياج ٠٠

كان الصافي والرقي قد وصلا عصر الامس بصحبة لجنة الاستفتاء ٠ واجتمعا فور وصولهما مع بعض اعضاء المؤتمر السوري من أجل تنسيق خطة موحدة للعمل ٠ واشتركا في وضع البيان والشعارات الاخرى ٠ ثم ذهبا الى المطبعة للاشراف على الطبع والتصحيح ٠ ولم يعودا الى الصيدلية الا في منتصف الليل ، حيث فوجئا بوجود قاديش ٠ وفتح الصافي ذراعيه وصاح في نشوة :

ـ أوه٠٠اهلا بالبطل ٠٠ هل عدت اما تزال حيا ٠٠ كيف اخبارك٠٠؟

في حين كان ترحيب الرقي باردا ، يكاد يتصف بالجفوة ٠ وفرك الصافي يديه وقال :

ـ اريد مريم ٠٠ هيا يامحمد ٠٠ اذهب واستدعها على الفور ٠٠

وصرخ قاديش محتجا :

ـ الآن ؟ في هذه الساعة ؟

في حين اشاح الرقي بوجهه دون ان ينبس ٠ ولم يستطع الشاب كتمان ما في صدره اذ تطلع الى الرقي وقال له :

ـ مبروك يادكتور ٠٠ اخبرتني مريم ٠

وانتفض الدكتور وسأله في حيرة :

ـ بماذا اخبرتك ٠٠؟

ـ قالت لي انك طلبت يدها ٠

وضحك الرقي في عصبية وقال :

ـ انني لاافهم ٠٠

وفسر الصافي الوضع على حقيقته عندما قال :

ـ لقد رفضت طلبه يامحمد ، وتعللت ببعض الاسباب ، مع انها

اعجبت كثيرا بشخصه ، وكنت انا من عرض الفكرة ،

كان الصافي يرقب انفعالات قاديش وهو يتابع :

ـ وعلى كل حال يجب الا ننا • علينا ان نتهيأ للعمل منذ الآن • هل تعرف اين ينام صديقك المصري سيد رجب ••؟ طيب سنعقد غدا اجتماعا شعبيا • وافضل ان يكون في جامع ( تنكز ) نظرا لقربه وعمق ساحته •• مالك ؟ ارى عينيك حمراوين منتفختين •• هل تعرج ••؟

ومن الغريب ان الهزات التي اصابت قاديش في الاونة الاخيرة كانت تنصب على جرحه • وهذه بادرة اقلقته كثيرا دون ان يستطيع ان يجد لها تعليلا • فعندما غادر مريم منذ يومين ، عانى كثيرا حتى وصل الى دكانه حيث استلقى فورا على سريره وشرع في حســاب ما له وما عليــه • « اذن •سيتزوجها الرقي ••مامعنى هذا ؟ هـل يجب ان احزن ام افرح ؟ ولمــاذا احزن أو أفرح ؟ وماذا يعنيني من كل ذلك ؟ ما علاقتي انا بالموضوع ؟ لم اذن اصابتني تلك النوبة من الرعب ؟ هل اخذت خيوط الجرح تتمزق ؟ هل •• هل انا احبها ؟ ماهو الحب ؟ هل تحبني هي ؟ لماذا ؟ ؟! لااجد دليلا واحدا يدعم هذا الظن • فلربما احتاج اليهــا فقط • والآن يجب ان انام واستريح •

ولكنه ما كاد يغمض عينيه ، حتى تتمثل أمامه ، فيجفل ويفتحهما من جديد • ويعود يسائل نفسه : « هل ذلك حقيقة ؟ أأفقدها ؟ ستذهب الى دير الزور ولن اراها بعد ذلك ؟ ألن أجد أحدا أذهب اليه في الليل عندما تضيق بي الامكنــة واشعر بالاكتئــاب ؟ لا •• يجب الا تذهب ••• ولكن كيف استطيع ان احول بينها وبين ماتريد ؟ انتهى الامر اذن •• يجب ان انام وان استريح » • ويغمض عينيه فيعود طيفها اليه ويوقظــه • ولم يبرح طوال اليومين الماضيين• وبعد ان اقنع نفسه اخيرا بأنه يجب عليه انيتقبل الامر مهما كان لونه وتأثيره ونتائجه ، كأي حادث آخر ، باعتبار أنه حدث

طبيعي كالموت وبتر الذراع والاصابة بشظية ، وبعد ذلك ٠٠ بعد ان جرع الكأس ، يصدم مرة ثانية بخبر لا يقل عن سابقه رهبة وغرابة ٠٠ لقد رفضت ان تتزوج ٠٠ لماذا ؟ هل يجب عليه الآن أن يفرح أو يحزن ؟ » ٠

ولم يدر ماذا يفعل ٠ فضلا عن ان نظرات الرقي اليه ـ فيما هو يرتدي ثيابه ـ كانت تحمل معاني يصعب تفسيرها ٠ وقبل ان يبرح المكان متوجها لمقابلة « سيد رجب » رفع رأسه الى الرقي وصافحه بنظرة امتنان قائلا :

ـ عفوا يادكتور ٠٠أخشى أن أكون قد سببت لك الما ٠٠ فهمت منها انك طلبت يدها ، ولم اعرف اكثر من ذلك ٠٠

فرد عليه الرقي في طيبة متناهية :

ـ لايابني ٠٠ كن مطمئنا ٠٠ لقد جرى كل شيء في حال سبيله ٠٠ وانا نسيت القضية ٠

احتشد في جامع « تنكز » ظهر ذلك اليوم ، عقب الصلاة ، جمع كبير من المصلين ، وكان اغلب المجتمعين من تلك الطبقة الدنيا التي تبحث عن المشاركة ، دون ان توفر اي شكل من اشكال التضامن ٠ وكان افرادها ينشدون الاجتماعات المجانية ليطمئنوا الى وجودهم بين الناس ، وليثقوا ان المجتمع يعترف بهم ويقر بأنهم من افراده ٠ وكان الرقي والصافي والشهبندر وسيد رجب وبعض الشباب القائمين على الدعوة ، يتهامسون ويدورون حول منصة واطئة نصبت في صدر الباحة الواسعة ٠ وكان المحتشدون يلوحون امام وجوههم بالاعلانات التي وزعت عليهم ليخففوا من لفح الحر الخانق ٠ في حين كان صراخ قاديش يطغي على الضجة القائمة ٠ مصدرا اوامره الى الشباب الذين تجندوا تحت إمرة الشهبندر ، والذين وضعهم الشهبندر بدوره تحت زعامة قاديش ٠ وقدر لمريم الاتحضر هذا المهرجان لأنه لم يسبق لامرأة سافرة الوجه ان دخلت بيوت الله ٠ وكان الاجتماع لا يخلو من نساء كثيرات ملتفات بالملاءات السوداء ٠ وطال انتظار الناس كثيرا حتى غص

المكان من جميع اطرافه • وقبل ان تراود احد فكرة الملل ، تقدم الصافي من المنصة • فسرى الهدوء من الخلف الى الامام تدريجيا حتى عم المكان بأسره • ورفع الصافي يده الى نظارتيه وكأنه يستمد منهما العون لاطلاق صوته • ثم تنحنح وقال :

ـ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا أبناء يعرب الاكارم ••

والتفت الى الشهبندر وكأنه يشكو اليـه عدم مقدرته على الخطابة وعجزه عن متابعة الكلام • غير ان احد الموجودين في الصفوف الامامية لوح في تلك اللحظة باعلانه في الهواء فأسعفت هذه الحركة لسان الصافي الذي انطلق من عقاله :

ـ سوف لن اقول لكم شيئا اكثر مما ورد في هـذه البيـانات التي تحملونها •• ستأتون غدا ـ والامانة على عنق كل من يتخلف ـ ستأتون الى اللجنة التي ارسلها مؤتمر السلام ، لتعبروا عن مطاليبكم الوطنية•• وكونوا على يقين انكم احرار في كل ماتريدون قوله •• او فعله •• وكل منكم يعرف مايريد •• والان اقدم لكم شابا مجاهـدا من مصر ، ليسمعكم كلمـة و •• السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ••

وهبط الصافي عن المنصة ، وهو يمسح العرق المتصبب عن جبهته • كان « سيد رجب » شابا كروي القامة ، اسمر اللون ، جعد الشعر ، مفلطح الانف ، يرتدي ملابس عتيقة • وعندما اعتلى المنصة قوبل بتصفيق كاد ان يكون اجماعيا • ونادى قبل ان يعم الصمت :

ـ يا اخوان يا أبناء سوريا الحبيبة لن أحدثكم عن شيء •• الا عن الانكليز •• اما الفرنسيون ، فأنتم تعرفونهم اكثر مني • سأحدثكم اولا عن دنشواي ، عن تلك الحادثة التي جرت في بلدتي منذ ثلاثة عشر عاما ، والتي اعدم نتيجتها الكثيرون ، وحكم بسببها على الكثيرين ـ وانا منهم ـ بالاعدام •

وبعد ان سرد عليهم بلهجته الغنائية تفاصيل القصة ، مفيضا بوحشية

الانكليز واساليبهم الجهنمية بالقمع والتعذيب ، انتقل الى الوضع الحضر هنــاك :

ـ لقد عانى الشعب العربي ـ اخوانكم في مصر ـ اشد الوان الايذاء والاعتداء في فترة الحرب :

١ ـ اعلن الانكليز الاحكام العرفية ، وشددوا في تطبيقها • وجعلوا مصر قاعدة حربية لجيوشهم القادمة من استراليا والهند وافريقيا الجنوبية•

٢ ـ فرضوا على مصر ان تمون مائة الف جندي من البريطانيين، وان تبعث الى مناطق القتال بخيراتها وغلاتها ••

٣ ـ اجبرت السلطــات البريطانيــة اكثر من مليون من المصريين على مساعدتها في الحرب في الشام والعراق ••

٤ ـ ابعدت انكلترا عددا من الوطنيين العاملين الى جزيرة مالطة • ووضعت الصحف والمراسلات الخاصة تحت المراقبــة الدقيقــة ، ومنعت الاجتماعات • وشكلت المحاكم العسكرية • واحتل الجنود الانكليز المدن والقرى ومنافذ الطرق •• حتى اخمدوا انفاس الشعب •• اخوانكم هناك•• وعندما انتهت الحرب اعتقدنا ان انكلترا ستقدر لمصر مساعدتها وتضحياتها ولا تضن بالاستجابة لامانيها الوطنية • بعد أن سبق ووعدت الشريف حسين بتحرير العرب ومنحهم الاستقلال •• فرأى فريق من المصريين ان يرفعوا صوت بلادهم في مؤتمر الصلح • ويطالبوا بتطبيق مبادىء الحرية والعدالة • وتزعم الحركة الوطنية استاذي سعد زغلول • فتقدم مع زملائه الى المندوب السامي البريطاني يعرضون عليه السمــاح لهم بالسفر الى لندن لمباحثــة الحكومة البريطانية بمطالب البلاد • ولكن جاءهم الرد من وزارة الخاجية بالرفض •• وعندها وجد الشعب ـ اخوانكم في مصر ـ الا بد من الثورة وان يجاهد بكل قواه في سبيل تحقيق استقلاله •• والآن يااخواني ، ابناء الشام الحبيبة •• عليكم ••

واهاجت هذه الخطبة القصيرة مشاعر الجمهور في شكل لم يكن في الحسبان . فقد تطايرت الطرابيش في الهواء . وانتشرت اغطية الرأس حتى ظللت الوجوه ومنعت لفح الشمس . وأسفرت النساء المحجبات ، ورحن يصرخن « الله أكبر على الكفار .. نار نار على الكفار » ..ولم تهدأ الضجة نسبيا حتى صعد الشهبندر . ولم يكن الدكتور شهبندر في حاجة الى دعاية او تعريف ، فقد عرف نفسه للناس بأكثر من مناسبة . وقد هيأ خطابه على عدة صفحات من الورق نشرها امامه . وتأمل الحاضرين مليا من خلال جفنيه المسبلين . ثم صرخ فجأة دون انذار :

– ايها الشعب العربي الأبي .. افتحوا آذانكم جيدا وعيونكم اذا امكن ، لتفهموا ماأقول :

وراح يشرح للناس ماهية اللجنة القادمة ووظيفتها والنتائج المترتبة عليها :

– اننا نطلب ان تكون حكومة هذه البلاد السورية ملكية . مدنية نيابية . تدار مقاطعاتها على طريقة اللامركزية الواسعة وتحفظ فيها حقوق الاقليات . على ان يكون ملك هذه البلاد الامير فيصل المعظم ( هتاف شديد متواصل يبح الحناجر ) .. فيصل الذي جاهد في سبيل تحرير هذه الامة . وبما ان الشعب العربي الساكن في البلاد السورية شعب لا يقل رقيا من حيث الفطرة عن سائر الشعوب الراقية . وليس هو في حالة احط من حالات شعوب البلقان والصرب واليونان ورومانيا في مبدأ استقلالها ، فاننا لانقبل ان يعتبرنا الفرنسيون امما متوسطة تحتاج الى وصاية ، بعد ان اعلن الرئيس ولسون ان القصد من دخوله الحرب مع الحلفاء هو القضاء على فكرة الفتح والاستعمار من اجل هذا لن نعترف بأى حق تدعيه الدولة الفرنسية في اى بقعة كانت من بلادنا ، ونرفض ان يكون لها مساعدة لنا ويد عندنا بأية صورة من الصور .. كما اننا نرفض مطالب الصهيونيين بجعل القسم الجنوبي من بلادنا وطنا

قوميا لهم ، ونرفض هجرتهم اليها لانه ليس لهم فيها ادنى حق · ولانهم خطر شديد على شعبنا من حيث الاقتصاد والقومية والكيان السياسي · اما سكان البلاد الاصليون من اخواننا الموسويين فلهم مالنا وعليهم ماعلينا ··

وهنا نهض الشيخ كامل القصاب من بين الصفوف وصاح في روية · متوقفا عند كل كلمة ، وفي صوت كلذع السياط :

ـ أيها المسلمون ان كل من آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره من الله تعالى ، عليه ، ان يعمل ، ويقول ، ويكتب ، بوحي هذا الايمان ·· ولن نخشى في الحق لومة لائم ·· والسلام عليكم ، ورحمة الله ··

ومضى الشهبندر يتابع خطابه :

ـ كما نطلب أن تكون وحدة البلاد مضمونة لا تقبل التجزئة · وان يتحرر القطر العراقي وتنزع الحواجز الاقتصادية ما بيننا وبينه · ان القاعدة الاساسية من قواعد الرئيس ولسون التي تقضي بالغاء المعاهدات السرية ، تجعلنا نحتج على كل معاهدة تقضي بتجزئة بلادنا العربية· وانا بعد أن أرقنا من الدماء ما أرقناه في سبيل الحرية والوحدة والاستقلال ، لن نبخل ببذل دماء جديدة للذود عن مكاسبنا اذا تعرضت لأي طامع أثيم ··

وما كاد الشهبندر يختم خطابه بكلمة السلام عليكم ، حتى هب الناس جميعهم مصفقين هاربين من لهيب الشمس المحرق ··

وفي صباح اليوم التالي ، كانت ساحة المرجة والشوارع المتفرعة عنها ، مسرحا كبيرا للدعاية والنشاط السياسي · أو بمعنى أصح ، سوقا تجارية رائجة · تجمهرت جموع غفيرة · وأقيمت منابر للخطابة · وصعد اليها دعاة ينادون والزبد يعلو اشداقهم : « اطلبوا وصاية فرنسا المجيدة ·· كل صوت لها بعشر فرنكات ·· الدفع نقدا ·· » وفي أماكن أخرى كان دعاة آخرون ينادون : « اطلبوا حماية ملك انكلترا الذهبي ·· صاحب الرفع

تاج وأغنى بلاد ٠٠ عن كل بصمة ليرة ذهبية أم جورج ٠٠ » ووسط تدفق الفرنكات وسيول التبر ، كانت نداءات غفيرة هائجة مبحوحة تهتف من وسط الجموع : « الاستقلال أو الموت ٠٠ الحرية أغلى من الذهب ٠٠ يسقط الدخلاء والاعوان » ٠

وفي زقاق رامي المؤدي الى ساحة المرجة كان الموكلون والدعاة وحاملو التواقيع ، يصعدون الى بناء ضخم أغبر ليقدموا عرائضهم ٠ حيث افردت الحكومة للجنة جناحا واسعا في سرايا « أحمد عزة باشا » ـ بناية العابد ـ لتقوم بمهمتها على أكمل وجه ٠٠

كان المستر ( تشارلز كراين ) رئيس اللجنة ، يجلس بخلقته السمحة ، وراء منضدة كبيرة ، يصف عليها العرائض حسب ترتيب معين ٠ والى جانبه جلس الدكتور ( كينغ ) بهيكله الطويل ، يفحص الاوراق قبل تقديمها الى رئيسه ٠ وفي الوسط ، كان يقف الدكتور عبد الرحمن الشهبندر يتكلم مع المقترعين ثم ينقل حديثهم ورغباتهم في أمانة ، الى الرئيس الذي راح يسجلها على مذكرة امامه ٠ وكانت القاعة الفسيحة تغص بمستشاري اللجنة والمتنفذين ٠ وعندما دخل قاديش بطرده الغريب ، كان الشهبندر يشرح لعضوي اللجنة بعض التفاصيل المتعلقة بحالة البلاد عقب خروجها من الحكم العثماني ٠ وحين لمح محمد قطع حديثه قائلا لرئيس اللجنة :

ـ سيدي ٠٠ اقدم اليك عينة من شباب هذه البلاد الذين ٠٠

وصرخ فجأة :

ـ ما هذا ؟

ورد قاديش في هدوء وهو يزم شفتيه ويفتح بكرة هائلة من الورق :

ـ عريضة يا دكتور ٠٠ جلبتها معي من جبال الثورة ٠٠

كان قاديش قد حصل من هناك على رزمة من ورق الكتابة مؤلفة من مئتي طبق ٠ لصقها بعضها ببعض حتى شكلت شريطا طوله ستون مترا ،

كتب بيانه في اعلاه ثم ملأه بالبصمات • وانفجر المستر كراين في ضحكة مجلجلة :

ـ اوه •• اوه •• وات ايز ذات •؟

في حين حملق الدكتور « كينغ » في وجه قاديش دون أن يتمالك عن الدهشة • وهرع المستشارون على الضجيج ، وكان بينهم شاب وسيم ينادونه ( بوب ) عهدت اليه عدة شركات اميركية ـ اتحدت فيما بينها على شكل ( تروستات ) ـ بدراسة الوضع وموافاتها بتقارير مفصلة عن عملية الاستفتاء • وقد اصبح هذا الموظف فيما بعد مساعدا لوزير خارجية الولايات الاميركية • قال كراين وهو يزن الشاب بميزان حساس :

ـ هل هذه وثيقة ؟

أجاب الشهبندر في شموخ :

ـ نعم يا سيدي انها تنقل آراء عشرات الالوف من الناس ••

وقال قاديش :

ـ أرجو يا دكتور ان تقول له ان هذه وثيقة تنقل آراء عشرات الالوف من الناس الذين يخوضون الآن ثورة ضد الفرنسيين ويدفعون ثمن حريتهم من دمائهم •

وأضاف الشهبندر الى المستر كراين :

ـ الذين يحاربون الفرنسيين ويدفعون غاليا ثمن حريتهم ••

واجفل السيدان كينغ وكراين وهتفا بلهجة واحدة :

ـ وهل كان هناك ؟

أجاب الشهبندر :

ـ نعم •• وقد جرحته شظية قنبلة ••

قال قاديش :

ـ أرجو يا دكتور أن تقول لهما اني كنت هناك ، وان التواقيع

حقيقة لا تزوير فيها ولا اعادة .. يمكن فحص البصمات ..

قال كراين في فضول :

ــ ماذا يقول ؟ اقرأ لنا هذا البيان اذا شئت ..

ورد الشهبندر وهو يتناول طرف الشريط :

ــ يقول ان هذه الالوف من البصمات تثبت صحة هذه الوثيقة وتنفي عنها صفة المبالغة والتكرار . وقد جاء فيها :

وراح الشهبندر يقرأ ويترجم الى الانكليزية :

ــ ان الشعب العربي في عدة اماكن من البلاد يحمل الآن سلاحه دفاعا عن وطنه ولن يلقي السلاح حتى يرى ان ارضه تحررت نهائيا من كل اجنبي . وحتى يتأكد من ان كل النيات السيئة ــ مكشوفة كانت ام مستورة ــ قد انقلبت الى معاهدات ومواثيق تعترف وتثبت أن أرض العرب كلها الى العرب . ولن نعترف بانتهاء الحرب العالمية حتى يعود كل معتد الى بلاده الاصلية ..

وفيما كان الدكتور يترجم الخطاب ، كان الاميركيان يرمقان الشاب في نظرات دهشة واعجاب . أما المستر « بوب » فكان يكتب تقريره السري . وأوعز كراين الى مساعده بأن يضع عريضة قاديش مع العرائض ذات المطالب المتطرفة . ولحظ الشاب ان عريضته قد استقرت جانب بعض العرائض قرأ في رأس احداها ( نحن المسيحيات ) ، فعرف بأن مريم سبقته الى تقديم طلبها . وخالجه شعور غريب ، وراح يتساءل : « ترى ما هذه المصادفة الطيبة ؟ كيف التقت نتائج اعمالنا هكذا دون سابق اتفاق أو تصميم ؟ » . وهرع الى الخارج ليضم نداءه الى نداءات رفاقه ، للاكثار من كتابه عرائض وطنية أو متطرفة . كما كان المستر كراين ، رئيس اللجنة ، يصنف العرائض حسب الترتيب التالي : « وصاية فرنسا ، وصاية انكلترا ، الاستقلال وتنصيب الامير فيصل ملكا ، المتطرفون .. » وقد وجد في بعض

العرائض موقعين يطلبون حماية ايطاليا أو امريكا . ولكنها كانت اقلية جدا ، لدرجة انها أهملت في النهاية اهمالا تاما . ولكنها وضعت في مذكرات رئيس اللجنة في حقل الملاحظات ..

وما ان علم المسؤولون الفرنسيـون والانكليز والامريكان بنتـــائج الاستفتاء ، التي كانت راجحة الى جانب الاستقلال التام ، - برغم جميع الاحتياطات والجهود التي بذلوها لتشتيت الاصوات - حتى هبوا الى العمل على الفور بعد ان كتموا الحقيقة عن شعوبهم . كانت حصيلة أعمال اللجنة تخالف أماني الدول الاستعمارية مخالفة صريحة . اذ انها تكشف عن رغبة السوريين الحقيقية ، وكانت النسبة التي حصلت عليها كل دولة من الدول الاجنبية ، تعبر عن مدى النفوذ الذي اكتسبته بتأثير الدعاية والمال الذي بذلته في هذا السبيل ، والذي تم بشكل علني ومفضوح .

## - ٢٧ -

طار لويد جورج الى باريس كالغراب المذعور · وعبر عن مخاوفه الهائلة الى جاره الخبيث · فراح هذا يساوم · قال كليمنصو :

ـ اذا لم تتفق معي فسأعمل منفردا · ان حكومتي تقوي سلطاتها في لبنان · وتقوم هناك بدعاية واسعة من أجل الانفصال عن سورية وقبول الانتداب الفرنسي · ولقد دفعنا مجلس ادارة لبنان ـ الذي شكلناه ـ لرفع قرار الى مؤتمر الصلح ، بواسطة الحكومة الفرنسية ، يطالب فيه بالاستقلال الاداري والسياسي ، واخراج قضية البقاع وبعلبك وحاصبيا وراشيا من نفوذكم وضمها الينا · كما أوعزت الى أحد المتنفذين المرموقين هناك بالسفر الى هنا ، والمطالبة بانشاء لبنان الكبير تحت الحماية الفرنسية ··

وصاح لويد جورج حانقا :

ـ وفوق كل ذلك فان صحفكم تهاجمنا بتهمة التآمر على حقوقكم في

سورية وتأييد فيصل ضدكم ‥ مع اننا لم ننقض اتفاقية سايكس بيكو ‥

وسخر كليمنسو من شكايات زميله واجاب :

ـ ارى اذن أن نتفاوض من جديد • وسنبقى حلفاء اذا قبلتم باجلاء قواتكم عن المناطق الشرقية والغربية وان تحل قواتنا مكانكم هناك •

وفكر لويد جورج مليا ، متأملا عيني غريمه السامتين ، ثم قال :

ـ حسنا ‥ انني اقبل هذا الشرط على أساس ان تترك لنا حـــرية التصرف بفلسطين وشرقي الاردن والعراق كلها • والا تدسوا انوفكم فيما يجري في مصر والخلجان العربية •

وضحك الرجلان وتصافحا • وكانت اتفاقية سجلها التاريخ باسم ( اتفاق لويد جورج ـ كليمنصو ١٥ ايلول ١٩١٩ ) •

وكان انسحاب الانكليز من الاقضية اللبنانية الاربعـــة وتسليمها للفرنسيين ، دليلا صارخا على تنفيذ اتفاقية سايكس بيكو بحذافيرها • تلك الاتفاقية التي قال عنها الانكليز للامير فيصل ، انها حبر على ورق ، والتي قال عنها فيصل للناس انها ماء على ورق • ومهما كان شأن هذه الخدعة من قوة الاقناع ، فان الشعب افاق فجأة على حقيقة مروعة • وهب بمجموعـه تحت تأثير خطب ومقالات اللجنة الوطنية العليا • هب من شمال البلاد الى جنوبها ينادي بسقوط الفرنسيين والانكليز • ونودي على فيصل فلم يجب احد • فقد ذهب الامير الى باريس ليطلب الاستقلال • واغتنم الرقي هذه الفرصة ، فرصة النقمة على الانكليز ، فقرر بدء العمل • ولكنه قبل ان يرحل اجتمع بمريم ، وعرض عليها للمرة الثانية والاخيرة فكرة الزواج • ونصحها بأن تتنازل عن رفضها وتعللها باسباب غير صحيحة ، مبينا لها أنه اختارها لتكون شريكة حياته هو باعتبار انه عاش في الغرب ويعرف قيمة المرأة • ولكن مريم اكتفت بأن تمنت له حظا سعيدا وودعته وداعا حارا •

لم ينقطع الدكتور الرقي مدة وجوده في دمشق عن الاتصال برمضان

سلاش . وكان يستقبل رسله على الدوام ويمونهم بالسلاح والذخائر . وظل يمده بالاخبار ويستمهله في الاتيان بحركته حتى الفرصة المناسبة .

وعند سفره عرض عليه قاديش ان يصطحبه . غير ان الصافي نصحه بالبقاء ريثما ينجلي الوضع السياسي . آملا في ان تندلع في الجنوب شرارة الثورة . فضلا عن ان اللجنة الوطنية التي كان يعمل على تشكيلها بمساعدة الشيخ كامل القصاب قد اصبحت جاهزة للعمل . كما وان يوسف العظمة بدأ يفكر على مستوى واقعي . وغادر الرقي المدينة مساء يوم على ظهر عربة فارغة متوجهة الى « النبك » (١) ، يجرها بغل نشيط ..

وبعد شهرين تسلمت السلطات العسكرية في بغداد اشارة من المندوب السامي البريطاني في القاهرة، تفيد بأن ثورة ستندلع في جهة ما في دير الزور. ويخشى ان تمتد الى داخل العراق . ونصح بأخذ الحيطة والحذر . وعلى الاثر اعلنت القوات البريطانية حالة الاستنفار في شرق العراق واستعدت لكل طارىء . أما في دير الزور فقد اعلن الحاكم العسكري البريطاني الاحكام العرفية . وبث عيونه ورجاله في كل مكان . وراح يرسل الدوريات المصفحة الى جميع الانحاء ، على طريق الرقة والحسكة خاصة ، الى الجنوب الغربي والشمال الغربي من المدينة . وكان رجال هذه الدوريات يعودون ويقدمون تقاريرهم : « ان كل شيء هادىء ولا حادث يستحق الذكر » . والواقع انهم كانوا يلحظون حركة تعتبر عادية جدا : وهي رحيل قبيلة كبيرة من قبائل البدو ، كانت تنتشر بجمالها المحملة على طول الطريق من الشمال الغربي . وفي المساء تنصب خيامها وتشعل نيرانها وتبيت . حتى ان احدى الدوريات ــ وكانت تستعمل سيارة كبيرة وتستخدم دليلا عربيا ــ اضطرت مرة ، اثر عطل حدث في المحرك ، الى قضاء الليل في احدى خيام القبيلة ، حيث اجتمع

---

(١) قرية في منصف الطريق بين دمشق وحمص

رئيس الدورية بدوي حسن الطلعة ، انظف من زملائه نسبيا ، تطل من عينيه السوداوين الكبيرتين نظرة حقد وكآبة ، وفهم منه أن اسم هذه القبيلة هو ( العقيدات ) ، وأنها متجهة نحو الجنوب بحثا عن الماء والمرعى وفهم البدوي بدوره ايضا أشياء تهمه كثيرا معرفتها والاطلاع عليها • وفي اوائل شهر كانون الاول ( ١٩١٩ ) كان قد استقر المقام بعشيرة البدو هذه على ضفة النهر قرب جسر الدير •

كانت ترابط عند مدخل الجسر سيارة مصفحة مسلحة بمدفع قصير عيار /٢/ انش ، ورشاش من طراز لويس /١٤/ ، مع سدنة مؤلفين من ( ٤ ) ورقيب • وفي نهاية الجسر كانت ترابط سيارة مصفحة أخرى مسلحة على الشكل نفسه • وكان يربط بين السيارتين دورية مؤلفة من جنديين ، يحمل أحدهما رشيشا من طراز فيكرز /١٤٤/ ••

وذات ليلة مقرورة شاتية مظلمة تقدم من السيارة الاولى بدويان يحملان رفيقا لهما من نهايتيه • فسلطت عليهما الانوار وطلب اليهما الوقوف ، وهبط المترجم تفوح منه رائحة الويسكي ، وصاح بلسان اعوج :

– ماذا تريدون في هذا الليل البهيم يا اولاد ستين زانية ؟••

فاجاب أحد البدويين :

– ان رفيقنا يموت يا ابن عمي ونريد ان نحمله الى البلدة ••

ورد المترجم ساخطا معربدا ، فهم من لهجته انه عراقي :

– عليكم الف لعنة من الله ورسله ، متى كان البدو يهتمون بأمواتهم ؟ ارموه في النهر ، اين انتم والبلدة ؟

وصاح الرقيب من داخل برجه الفولاذي :

– وات •• تيز •• كذا ••؟

– ورد المترجم بالانكليزية :

– اولاد كلب يريدون العبور ••

وقفز من البرج احد الجنود ، وراح يفتش البدويين الصحيحين وهو يسخط ويلعن . ثم تحسس جبين المريض ، واوعز لهم بالدخول .

كان ماء الفرات في الاسفل يرسل قرقعة مبهمة ، ويدوم بين الحين والآخر بصوت كئيب ، وكأنه ينوح بشكل خاص على شيء فقده منذ الازل ، وكان الجو كنه مصبوغا بالوحشة والدموس ، ومشحونا بما لا يحصى من ذرات البرد والمطر والغموض . وبعد ان سار البدويان عشر خطوات ، أوقفا زميلهما وراحا ينتزعان من ظهره ، وبمساعدته ، أدوات مستطيلة باردة معقوفة النهايات . ثم تركاه وحيدا وابتعدا الى الجانبين ، حيث قفز كل منهما من فوق الحاجز ، وراح يسير على الافريز الخارجي. واستأنف المتماوت سيره في جلبة وضوضاء . وعندما وصل الى قرب منتصف الجسر ، سمره بغتة صوت ناب مجفل :

ـ هو ؟. هو ؟.

فرد البدوي على الفور ، وحسب التعليمات التي تلقاها بالا يقف صامتا ، والا أردي في مكانه :

ـ أنا مسعود . جئت ارقص رقصة التيوس على ظهور الماعز ..

وحملق البدوي عينيه ثم ارهف سمعه على دبيب وارتطام . ثم تناهى الى أذنيه جعير مكتوم . وبعد أقل من لحظة استقبلت مياه النهر الصاخبة جثتين جميلتين ، سقطتا تباعا . ففغرت جوفها في نهم ، وطوتهما الى الاعماق . وصوتت بضع اسماك جائعة من فصيلة ( السللور ) ، وتسابقت تطلب الدفء . في حين تابع النهر تدويده الهادىء . وعندما التقى الرجال الثلاثة قال البدوي المتماوت :

ـ هل مثلت الدور كما يجب يا دكتور ؟

ورد الرقي وهو يتفحص في الظلام السلاح الاوتوماتيكي الذي حصل عليه .

ـ بقيت لدينا النقطة التالية وعندها اجيبك ٠

وقال لزميله :

ـ كان يجب عليك يادهمان الا تدعه يخرج صوتا ٠ قلت لك في قلبه ، الا تعرف مكان القلب ٠٠؟

ورد دهمان في نشوة غامرة :

ـ العنق ايضا هدف سمين يا دكتور ٠٠

وكانت العملية التالية تقضي بأن يتم القضاء على أفراد المصفحة الخلفية في طريقة مدروسة ودون ضجة ،وعندها تعطى الاشارة المتفق عليها لمهاجمة السيارة الاولى بأية وسيلة كانت ٠ ثم عبور الجسر واحتلال الجزء الغربي من المدينة ٠ غير ان عاملا لم يكن في الحسبان ، جعلهم يضطرون الى تبديل الخطة ٠ وكان هذا العامل هو عدم ايقافهم عند الوصول الى السيارة الثانية ٠

كان رجالها قد وكروا في داخلها واغلقوا دونهم النوافذ والابواب ٠ معتمدين كل الاعتماد على الدورية الجوالة والسيارة الامامية ٠ من اجل هذا كان على البدو الثلاثة ان يعالجوا الامر كما لو أنهم أمام سلحفاة خبأت اعضاءها ٠ ودار الرقي مع زميله حول المصفحة عدة مرات دون أن يجدوا منفذا يثبتون وجودهم من خلاله ٠ كان قد سلح أحدهم ببندقية الخفير وحمل هو الرشيش ٠ ثم نزع مسدسه وسلمه الى الثالث ، مستغنيا في هذه الخطة عن الخناجر ٠ وفكر قليلا ثم همس :

ـ يجب مضايقة الافعى لكي تمد لسانها ، اصعدا معي على الظهر والاصابع على الازندة ٠

وفتح كفه وضرب على سطح البرج صائحا بالانكليزية :

ـ هيه ٠٠ ايها الاصدقاء ٠٠ ايها الاصدقاء ٠٠

وارتفع الغطاء ٠ كان الرجال الاربعة يجلسون حول مائدة ضـــيقة

عامرة ، عندما وجدوا ثلاث فوهات متباينة من حيث الشـــكل والحجم ، تصوب الى زجاجة فارغة تنتصب بينهم · ويبدو ان الرقي سكر من الرائحة، لانه بدأ يصدر أوامره على الشكل التالي :

ـ ايها القائد العزيز · هل يمكنك ان تسمعني صوت محرك عربتك الانيقة ؟

وانبعث من الاسفل صوت متجلد :

ـ من انت أولا ؟

ورد الرقي بين ذهول زميليه ودهشتهما المستطيرة :

ـ أنا بشير ·· من هؤلاء البشر الذين يعبدون العيون الزرق ··

ورفع الرقيب الانكليزي رأسه الى عقال محدثه واجاب في تماسك :

ـ انني لا أفهم ··

كانت ثماني عيون سابحة في بحيرة سماوية تتجه الى الاعلى وتستشف ملامح ثلاثة وجوه سمراء ولحيتين قصيرتين · ورد الرقي :

ـ ليس الذنب ذنبي ايها الصديق المبجل ·

ويبدو ان هذه الاجابة جعلت الرقيب يحس بأن الاشياء ليست على ما يرام ، اذ أصدر أمره الى السائق بادارة المحرك · وصرخ الرقي :

ـ اضيء النور أولا · ثم ·· قس لي طول هذا الجسر بعجلات سيارتك المقدسة · وفيما كان الرقي يتكلم ويصدر أوامره كانت الفكرة تختمر في رأسه · وأحس البدويان ـ اللذان لم يريا آلة في حياتهما ، بلذة فائقة وهما يهتزان فوق الفولاذ المصفح · وتمنيا أن تدوم هذه الرحلة الشيقة الى الابد· حتى أن أحدهما قال في نفسه : « ما اجمل الثورة في صحبة هـذا القـائد العجيب » · كانا يتمليان موجودات قلب المصفحة المضيء : قنابل مرصوفة على الجانبين ، صناديق ذخائر ، بنادق لامعة معلقة ، مائدة عليها بقايا علب لحم وخبز ، ومعدات أخرى ، لا يعرفان لها اسما أو معنى · كان الماء يقطر

من ظهريهما ، ويخترق العباءة والسروال حتى يصل الى الجلد ، ثم يتسرب حتى اليتيهما دون ان يشعرا بجريانه ٠

ظلت عيونهما تحدق الى الاسفل ٠٠ الى البئر الغريبة ٠ هناك اربعة رجال ، يعيشون في الدفء واللهو والشبع ، في منجى من شرور الطبيعة ٠ ومع هذا يقتلون الناس ، ويحاسبونهم حتى على نواياهم ، ويحتلون أرضا ليسوا بحاجة اليها ٠ ولا يمكن ان يصدق العقل ان يكونوا بحاجة اليها ، وتساءلا لاول مرة في حياتهما : « ماذا يريد الانكليز منا ؟ من فقرنا وجوعنا وظمئنا الدائم ! ماذا يمكنهم ان يستفيدوا من نعاجنا الهزيلة ٠٠؟ من دمنا الرخيص ٠٠؟ من حريتنا الغالية ٠٠؟ » وافاقا على صوت زميلهما يصيح :

ـ قف هنا ٠٠

والتفتا الى اليسار ، فشاهدا على ضوء المصفحة وهي تسلط انوارها ، السيارة الامامية وقد وقفت على بعد عشرة امتار ٠ وصاح الرقي بلهجة غريبة افزعت صاحبيه :

ـ ايها القائد الباسل ٠٠ هل يمكنني ان اختبر قوة مدفعك ؟

وحملق الآمر عينيه وغمغم كأنه يكلم نفسه :

ـ ان هذا مستخيل ٠٠

وضحك الرقي ضحكة اقرب الى البكاء وهو يضغط على الزناد قائلا :

ـ لا شيء مستحيل في هذا العالم ٠٠ ايها البطل المغوار ٠٠

وصرخ الرقيب البريطاني في يأس :

ـ ان هذه خيانة وطنية تدنس حرمة التاج ٠٠

وشخر الرقي من أنفه محشرجا :

ـ لقد أزمعنا ان نستخدم التيجان مباول للاطفال ، لان لنا نحن ايضا حرمة وطنية لا نريدها ان تدنس ٠٠

ولمح البدويان في عيون الجنود معان تدل على الشكوى فناديا بصوت واحد :

ـ اطيعوا رغبة الدكتور يا أولاد آوى ...

وصرخ الرقيب دون أن يجزي :

ـ اقتلوني اذن .. اقتلوني .

ورد الرقي بلهجة مخيفة :

ـ لا ... لقد دفعنا ثمن هذه الرصاصات من ذمائنا يا صديقي الطيب .. اسمع لا أريدك ان تقذف قنبلة من تلك القنابل التي تثقب ... بل اريد قنبلة محرقة .. هكذا لها لهب احمر .. يشع في الطريق .. وينير لعشيرتي سبيل المرور ..

واضاف الرقي في روية وهو ينتقي العبارات ، مأخوذا بروعة الموقف :

ـ ان هنا رجالا يريدون ان يروا اطفالهم وزوجاتهم .. وابناء يرغبون في ان يعانقوا امهاتهم واباءهم .. لقد طالبتهم برؤوسهم .. لا لسبب .. الا لانهم عرب .. وأنت كما ترى .. ان الجو معتم قليلا .. وقد يتعثرون في العبور .. لهذا اطلق قنبلة ذات لهب على هذه المصفحة لكي يندلع النور في الفضاء ..

وفكر الرقي : « وبهذه المناسبة سأفتش عن قبر أمي الذي لا اعرفه وسأزور قبر « الغزال » . ثم صرخ :

ـ هل تعرف الغزال ؟

ظل الرقيب يرفع رأسه من خلال الفجوة ، ويحدق طويلا في عينين تومضان وميضا خاصا . كان يفهم الكلمات وتغيب عن وعيه المعاني . وبينما هو يقاسي عذابا امر من الموت البطيء اصدر أمره الى الرامي صارخا :

ـ اطلق قنبلة محرقة .

وعلم فيصل خلال وجوده في باريس بانباء الثورة المندلعة في الشرق ،

وباحتلال دير الزور من قبل العشائر العربية ونزوح الانكليز عنها . ثم ما لبث ان فوجيء باحتجاج رسمي ، قدمه له مبعوث لويد جورج الخاص . فاحمر وجه الامير من الخجل ، وخانته الكلمات في التعبير عن سخطه واعتذاره . وبعث الى الامير زيد اخيه ونائبه ، الحاكم العسكري للبلاد السورية ، ببرقية شديدة اللهجة ، مستنكرا ما فعله رمضان شلاش ، وصرح بأن هذه الاعمال المستهجنة ، انما هي موجهة ضد الحليفة الطيبة بريطانيا العظمى ، وضد مصالح الامة العربية جمعاء . وهي مخالفة للاتفاقات والعقود المبرمة بين الانكليز والعرب . وطلب من الامير زيد اعتبار الثوار كعصاة خارجين على القانون . والضرب على ايديهم في قسوة ودون رحمة . وحملت الطائرات البريطانية هذه الكلمات مطبوعة على اوراق زاهية ذات شكل خاص ، ورمته على اهالي الدير .

ولكن هذه المناشير ـ مع الاسف ـ فعلت مفعولا معاكسا ، اذ قام الناس هناك ، وطالب بفصل الدير عن الحكومة الهاشمية وبالاستقلال التام ، حتى عن حكومة فيصل . وانتشرت ثورة الدير الى الشمال والشرق حتى عمت غرب العراق وشمال سورية باجمعها ..

●

## - ٢٨ -

كان الفناء واسعا مكشوفا · تظلله سماء داكنة ، وينيره ضوء كهربائي باهت يبعث على الكمد · تحيط به أصص نباتات وازهار مفرشة على الجدران ، وتنشر في الجو رائحة حزينة · وفي الوسط كانت نافورة ماء ترش رذاذها على صفحة بحيرة مستديرة طافحة ، مرسلة ترنيمها حنونا كرنين الاجراس الدقيقة ·

كان الدكتور يسير بخطوات متمهلة حاشرا رأسه بين كفيه ، يقيس البلاطات السوداء بنظرات ضائعة · في حين وقف يوسف العظمة بلباسه العسكري ، متجمدا تماما امام احدى الزهور ، وكأنه ينتظر منها ان توعز اليه بأمر حاسم · وعندما دخل الصافي الى الباحة ظل المنظر على حاله ماعدا نسمة هواء بليلة سبقته عندما فتح الباب ، فتحركت زهرة القائد وجعلته يستدير الى الخلف · وبعد تحية مقتضبة ـ القى بها الزائر وهو يتصفح

سيماء الوجهين ـ اقترب من البحيرة وراح يداعب باصبعه صفحتها المرتعشة . ورفع الدكتور رأسه وقال بلهجة تنم عن عدم الاكتراث ، وكأنه أراد أن يفتح ثقبا صغيرا برصاصة :

ـ قدمت حكومة الركابي استقالتها الى جلالة الملك ..

وانتظر الشهبندر قليلا ليسمع تأثير طلقته في أذني الصافي . الا ان هذا لم يرفع عينيه عن آثار أصبعه ، وكأنه اراد ان يبرهن عن ضعف سمع لاوجود له وقطف يوسف العظمة زهرته بقسوة متخلصا من سطوتها عليه . واقترب من الرجلين في هدوء في حين أخذ الدكتور نفسا عميقا وتابع :

ـ ان جلالة الملك يعقد اجتماعا في القصر لتأليف وزارة جديدة .. وقد كلف هاشم الاتاسي باجراء المشاورات .

وهنا كف الصافي عن مداعبة الماء ورفع رأسه في فتور . فالتقت عيناه بعيني العظمة الزرقاوين ، حيث لمح فيهما بريقا خابيا . وقال الدكتور الشهبندر :

ـ ان مظاهرتكم في الامس ـ كما علمت ـ زلزلت العرش . وكادت تحدث أزمة هائلة .

ورد الصافي في مكر :

ـ وهل انت دهش من هذه النتيجة

فرد الدكتور مستنكرا :

ـ أبدا ، انا ؟ لماذا ادهش ؟ كانت نتيجة منتظرة . ولكن ليس هذا هو الموضوع .. الموضوع هو أن الاتاسي اشترط على الملك الا يتدخل في شؤون تأليف وزارته . وان يترك حرية انتقاء عناصرها .

وابتلع ريقه وهو يردف في صعوبة :

ـ وقد عرض علينا الاشتراك فيها ..

ورفع الصافي حاجبيه عدة مرات ، وكان يريد أن يصلح من وضع نظارتيه .

في حين اتسعت فتحتا انفه قليلا · وسأله وهو يواجه الدكتور في جبهة متغضنة :

ـ عليكم ؟ على من ؟

قال الدكتور متجنبا تسلسل المكالمة :

ـ عهد الى يوسف بوزارة الحربية ، وانا ·· لم اقبل غير وزارة الخارجية ، والآن هو · · يبحث عن وزير للداخلية · ·

وتغيرت نبرة صوته وهو يكمل :

ـ اسمع ياشفيق · · سيكون بيدنا الوزارات الثلاث · · اهم ارات الحكومة وعندها سنتصرف كما نريد · · ان وزارة الداخلية تخرجك ابدا عن السير في الطريق · · وسيظل محمد مسيرا للجنة دون ن ينقطع ( ش · ص ) عن ترتيب كل شيء · ·

وهنا تكلم العظمة لاول مرة ·· وخشي ان تصدر نبراته في شكل حازم ، فظهرت مرتجفة :

ـ عدا عن اننا ثلاثتنا سننسق خطتنا معا · · اعني نستطيع ان نشكل جبهة قوية ونفرض آراءنا · ·

وراح يراقب وجه الرجل في صمت · وكأنه يتوسل اليه ان يقبل هذا العرض ·

وأجابه الصافي :

قلت لي مرة يا يوسف انك ـ باعتبار انك رجل عسكري ـ لا تحب الخوض في الشؤون السياسية ، أو أنك لا تتقن هذا الفن ، فهل تنازلت عن هذا الرأي ؟

ورد العظمة في ارتباك :

ـ كنت يا استاذ في ذلك الحين في وضع مختلف · · اعني مكتوف ،

اليدين ٠٠ مرؤوسا ٠٠ اما الآن ـ فبصفتي سأكون وزيرا ـ يتحتم علي ان اعمل في هذا المجال وأتكلم ٠

وسأل الصافي :

ـ وماذا ستكون مهمة الوزارة الجديدة هل اتفقتم على شيء ؟

ورد العظمة في اندفاع :

ـ نعم ٠٠ اشترطنا ان تكون مهمة الحكومة ٠٠ هي الدفاع عن استقلال البلاد بكل ما لديها من قوة ٠

واحرج يوسف العظمة عندما لمح على وجه الصافي دلائل تشير على ان هذه المهمة ، على ضخامتها ، قصرت عن ارضائه ، فأكمل الدكتور :

ـ ليس هذا فحسب يا استاذ ٠٠ اشترطنا ايضا ان يسن قانون لعقد قروض وطنية لتأمين ضمان حاجات الدفاع ، وقانون بالتجنيد الاجباري الشامل لجميع افراد الامة ، ووجوب مساعدة الثورات ومؤازرتها ٠

وسأل الصافي وقد انفعل قليلا :

ـ هل استطيع ان اجد لديك سيكارة يا دكتور ؟ أرى انني سأعود الى التدخين ٠

وأسرع الدكتور نفسه الى غرفة الاستقبال وجلب له لفافة غليظة وعلبة ثقاب ٠ وقال وهو يشعلها له ، وقد عبرت سيماؤه عن الارتياح :

ـ أظن أن اشتراكنا الآن في الحكومة في هذا الوقت بالذات ـ له أهميته القصوى ، لا ٠٠ بل يعتبر واجبا وطنيا ٠

ورد الصافي وهو ينفث الدخان عاليا :

ـ وردتني بالامس رسالة من باريز ، تفيد بان مشروع وزارة الدفاع الفرنسية باعتماد الملايين لتجهيز الحملة ، قد نجح في الجمعية العمومية ٠٠

وقاطعه العظمة :

ـ من اجل هذا طلبنا ان تكون مهمة الوزارة هي الدفاع ٠ فضلا عن

ان التقارير التي تردنا ، تشير الى تجمعات الجيوش الفرنسية في شرق لبنان ، والى التكتم والسرية المتبعة في هذا السبيل ..

وهز الصافي رأسه سلبا وقال :

ـ ان هذا ايضا ما يجعلني اقول : ان المهمة التي ستقوم بها وزارتكم .

وكانت لفظة ـ كم ـ قد ازعجت الرجلين ازعاجا كبيرا .

ـ هي مهمة ناقصة . .

والتفت الصافي الى العظمة وقال له :

ـ لا شك في انك يا يوسف ، قد درست في كلية الاركان حرب مبادىء ( كلوتزيتز ) التعبيرية . فماذا يقول بشأن الدفاع ؟

انه يقول : ان الهجوم هو افضل طريقة للدفاع ، وهذه هي الفكرة المعقولة .

وتحرك الصافي من أرضه . ثم اتجه ناحية مقعد وأردف :

ـ هيا بنا نستريح . .

وجلس الدكتور الى جانب الصافي . في حين ظل العظمة يراوح في مكانه . ومضى الرجل في شرح افكاره :

ـ الهجوم خير وسيلة للدفاع .. او كما يقول ابن سيناء : درهم وقاية خير من قنطار علاج .. واذا كان يخالجكما ادنى شك في نيات فرنسا فاخبراني . .

وصمت الرجلان .

ـ نحن رفضنا الانتداب .. فماذا يكون موقف الفرنسيين ؟ تنفيذ مقرارات سان ريمو بالقوة ، وستكون حرية العمل بايديهم . وسننتظر نحن الضربة الاولى دون ان ندري من أين أو كيف أو متى ستكون . وانتظارنا على هذاالشكل المتوتر سيفيد العدو . لان قلقنا هذا ـ في حد ذاته ـ يعتبر فوزا لهم .

ورفع رأسه الى يوسف العظمة ليستشيره في شؤون يجب ان تكون من اختصاصه • فتخلص هذا من هواجسه وقال :

ـ ان رجال القصر يعتقدون بان المعركة في دورها السياسي • وأن أي حركة نبدأ بها تجيز للفرنسيين ان يقلبوا الرأي العالمي كله ضدنا ، وتضعنا في موقف المعتدين ••

وهز الصافي رأسه نفيا داحضا هذا الاعتقاد :

ـ ان شعوب العالم الحر ـ اذا كنت هذا ما تعنيه أو يعنونه بالرأي العام ـ ان شعوب العالم تميز الحقائق عن الاباطيل ، في الوقت الذي تؤخذ فيه بالعاطفة • وبدؤنا في العمل يكسبنا التأييد المطلق ، عدا عن المكاسب الاخرى التي تحصل عليها • فضلا عن أن ظروفنا الحالية تساعدنا على ذلك اكثر من الغد •

والتفت الى الدكتور الذي ظل يصغي الى المناقشة :

ـ ان وضع الفرنسيين الحالي معروف • فهم ما زالوا يلعقون جراحهم • وقواتهم كلها محشوة في كيلكيا • والثورات القائمة في غرب البلاد وشمالها تعيق أعمالهم ، وتستنزف جهدهم • لهذا فكل يوم يمضي يكون خسارة لنا وربحا لهم • فاذا ما عقدوا صلحا مع الاتراك ـ وهذا ما يفكرون به ـ تنتهي متاعبهم كلها ، ويتفرغون للمعركة الحاسمة • في حين ليس لنا نحن أمل في أي كسب يأتي به الغد • لان الانكليز كما تعلمان ، يقترون على جيشنا بالمؤن والذخائر ، ولن يستبعد ان يقطعوها نهائيا ••

قال الدكتور بنبرة يائسة :

ـ ان جلالة الملك ينبذ فكرة اللجوء الى القوة نهائيا •

وانتفض الصافي فجأة وصاح دون روية :

ـ وماذا قلت عن عدم تدخله في شؤون الوزارة ؟

ـ سيظل البلاط هو الحاكم • عدا عن الوزراء الآخرين ـ الذين

يشكلون الاكثرية – فهم لا يوافقون على هذا الرأي • ان افكارك يا استاذ مقنعة للغاية ، برغم ما تنطوي عليه من مغامرة غير مضمونة العاقبة • ولكن ما العمل ••؟

ورد الصافي بلهجة تدل على الانتصار :

–اذن استطيع ان اقول : بأن مهمة وزارتكم قاصرة عن اتخاذ الوسائل المجدية • وأعود الى كلمة الرقي ( يجب فلاحة الارض وقلب التراب •• ) وقد حرر الرجل بلده وشكل فيها حكومة مستقلة •• ما العمل ؟ هذا هو العمل ••

كان يوسف العظمة يفكر : « اذا استطعت ان أسيطر على الجيش ثم قدته الى الغرب ، فماذا سيكون موقف انكلترا ••؟ » اما الشهبندر ، فكأن يسأل نفسه : « ترى ماذا يكون موقف الانكليز اذا هاجمتنا القوات الفرنسية ؟ » ••

ورفع العظمة يديه من جيبيي بنطاله ، وشد سترته الى الاسفل في قوة ثم تقدم من الصافي قائلا :

– استاذ •• شعوري أنا •• أني احس أننا بين فكي ذئب •• وهذا وضعنا اذا صور تصويرا واقعيا •• اننا ضعاف ووحيدون وأقلية في وجه اكبر دولة منتصرة في الحرب • ان وجود فريسة بين فكي وحش يشل يديها عن الحركة ، ولا تستطيع أن تضرب ، ولكنها تدافع ما امكن •• هذا شعوري •• دكتور ! أليس هذا ما كنا نتحدث فيه منذ قليل ؟ من جهتي انا ليس هناك ماهو أغلى من دمي سأبذله رخيصا•• سأدخل الوزارةوأعمل بكل قواي • وسأحارب بنفسي اذا اقتضى الامر •• هذا كل ما استطيعه ••

وتنحنح الدكتور وأكمل في حرارة :

– وسنقترح في اول اجتماع وزاري ان يكون دفاعنا وعملنا من اجل سلامة البلاد ايجابيا • ولكن •• كنت اظن ان ثلاثتنا في الوزارة سيؤلف

كتلة ذات شأن . عندك حق يا استاذ . انك تجد ان عملك خارج الاطـــار الرسمي يتيح لك فرصة أفضل . ولكن ينبغي لنا ان لا ندع قضية البلاد في ايد يميل اصحابها الى الاستسلام .

كان الصافي يتأمل فقاقيع الماء على صفحة البحيرة وهو يردد في صدره: « اذا اشتعلت في العراق فسيبقى الفرنسيون وحدهم امامنا ».وعندما أنهى الدكتور كلامه ، نهض الصافي يتمشى في هدوء عاقدا كفيه وراء ظهره . وقال وهو يحني رأسه في حركة دائرية :

ـ لن اخشى ان تظننا بي . أنا لا أشك في اخلاصكما .. ولكن ظروفنا في الواقع ، تجعلنا نفترق الى حد ما . كنا الى حين في حالة تشبه الحصار المعنوي ، لاتساعدنا بما فيه الكفاية على هضم حقائق السياسة العالميـة ووقائعها . ان هذه البلبلة في الآراء لها أسبابها . ومن سوء الحظ انهـــا تزداد يوما بعد يوم ، ولعل وجود انكلترا وحده من أهم هذه الاسباب ..

وتوقف الصافي عند البحيرة ، مراقبا الرذاذ المتساقط . وخـالجه حنين يصعب كبته ، الى ان ينحني عليها ويشرب ماءها الى نهايته . ومن طرف البحيرة المقابل ، كان الرجلان يتابعان انطباعات وجهه ، ويراقبان ، على الاخص ، أنفه الذي بدا وكأنه يعيق عضلات وجهه عن الحركة . ومصمص الرجل شفتيه وتابع قائلا :

ـ لا شك في ان انكلترا لا ترغب من صميم قلبها ان ترى فرنســـا تسيطر على سورية ، وهذا ما يقوي من شوكة انصارها هنا . ولكن باعتبار أنها عازمة على حكم فلسطين والعراق فهي مضطرة الى مماشاة الفرنسيين في أطماعهم .

وفجأة ، ودونما سبب ، وجد الزملاء الثلاثة انفسهم يقفون الى جنب، امام فراشة تاهت بين خيوط النافورة وراحت تكافح للتخلص ، بعد أن سدت امامها جميع المنافذ . وضحك الدكتور معلقا على الحادث :

ـ ان تستحق ذلك ·· كان عليها ان لا تزج نفسها في موقف يصعب التخلص منه ··

ورد العظمة بلهجة رثائية :

ـ مسكينة هذه الفراشة ·· كتب لها ان تموت دون ان تعلم السبب··

بينما استدار الصافي قائلا وهو يغادر المكان :

ـ قليل من الجرأة ·· اندفاعة صغيرة الى الخارج ، فتنجو ·· تنفض جناحيها وتفتح املها السماء من جديد ··

●

## - ٢٩ -

كانت الحياة قد اتخذت شكلا جديدا بالنسبة للصافي وقاديش منذ انبثقت اللجنة الوطنية العليا الى الوجود • كانا يعودان في المســـاء أو في منتصف الليـــل ، وأحيانا في الاصباح ، ذاويين جائعين خائري القــوى • يتناولان عشاءهما الذي يكون جاهزا ، ثم يتذاكران قليلا في ما تم انجازه من اعمال ، ويضعان برنامجا لعمل الغد • واحيانا يكتب الصافي مسودة المقال، أو أنه يضطجع على الفور ويسلم جسده لتنفسه العميق • اما قاديش فانه يدور حول الآثار التي تركتها مريم • يقف عند بعضها قليلا ـ محاولا أن يجد لها تفسيرا ما ـ ثم يصعد الى سريره • فيغفو لتوه ، أو أنه يستجدي النوم استجداء •

وكانت مريم قد عرضت على الصافي ان تقدم للجنة ما تستطيع من مساعدة • فكلفها ببرنامج طويل ينفذ على مهل ، وهو ان تشيع في محيطها

انها لا تثق بالفرنسيين · وتكشف للناس أسباب ذلك · كما أعطاها مفتاحا للدكان · ورجاها أن تمر كل يوم وتهيىء طعاما من الموجود · غير أن قاديش لاحظ بعد مدة ان المرأة كانت تصرف من جيبها ثمن الخضار والاشياء الاخرى التي تفتقر اليها مؤونة الدكان · فلفت انتباه معلمه الى ذلك · وأمعن هذا النظر في مساعده واجاب :

ـ انك يا محمد لم تنضج بعد ، ومن الغريب ان تفهمك المرأة منذ المقابلة الاولى · فمريم تعرف أنها تنفق من كدها وعرق جبينها . وهي تقدر معنى ذلك اكثر منك ومني ومن أي انسان آخر · والآن اسأل نفسك: « لماذا تطعمنا هذه المرأة ؟ هل هي تخاف ـ ولا اقول تخجل ـ منا ؟ هل يقسرها احد على ذلك ؟ واخيرا هل تأمل في أن تسترد منا ما انفقته ؟ ثم لنرجع الى مسألة النقود بمعناها المجرد ـ وبالمناسبة ، هناك في هذا الكتاب فصل عن النقد ونشأته وقيمته يجب ان تطلع عليه ـ طيب ·· ما هي قيمة النقود عند مريم ؟ ان قيمة النقود عند مريم تساوي قيمة اتعابها وهذا اثمن قيمة للنقد في العالم ، ومع ذلك تراها تقدمه دون ثمن ·· على ماذا يدل هذا ؟

كان الشباب يصغي الى محاضرة معلمه · وعندما بدأت تنبلج أمامه حقيقة هائلة ، توقف جفناه عن الحركة ، وراح قلبه يرقص لهذه المعرفة ، وتابع حديث الرجل بكل حواسه ·

ـ ان مريم لا تريد ، ـ برغم انها وحيدة ـ ان تدخر مالا · لانها تعرف بأن رأسمال اليهودي يأكلها · ومن الغريب ـ كما هو ملاحظ ـ ان النقود ، بقدر السهولة التي تدخل فيها الى الجيب ، بقدر الصعوبة التي تخرج منه فيها · لا بل الادهى من ذلك ، هو ان النقود عندما تتراكم ، تأخذ لنفسها تلقائيا صفة بشرية وهي غريزة المحافظة على النوع وغريزة التناسل ، لا تضحك ·· ان ذلك حقيقة ··

ورد قاديش :

– أنا لا أضحك من شيء بل من بساطة هذه الحقيقة ..

وتابع الصافي :

– نعود الى مريم .. انها امرأة عقائدية قد لاتعرف لعقيدتها اسما ، ولكنها تعرف ما تريد وتعمل في سبيله ، وعندها القدرة على أن تشق في المستقبل . انها ترفض ان تأخذ شيئا آنيا ، ولكنها تأمل بالغد فتعطي الآن كل شيء تصور : انها رفضت ان تتزوج الرقي برغم اغراء هذا العرض ، مسلم يطلب يد مسيحية في هذا المحيط المخنوق ، أليس وحده سببا كافيا ؟ ناهيك عن الاعتبارات الاخرى ، من كونها أرمل وتعيسة وذاوية الصبا .

قال قاديش وهو يغض من طرفه :

– علها ظنت انها تعيقه عن ترتيب مهماته أو أنها تخشى الكنيسة .

– لا .. لا اظن ان هذا هو السبب .. على الارجح ، انهـا وجدت نفسها ستكون الرابحة ، ففضلت قفل الموضوع .

وابان العمل في اللجنة الوطنية ، كانت العلاقة بين قاديش ومريم تدخل في طور آخر ، أغرب من علاقتهما في السابق ، اذا كانت ثمة علاقة ما . فمن ناحيته ، كان يحس بأن المرأة تسبقه بالشوط ، وان المسافة بينهما تبتعد تدريجيا ، برغم اصراره المتردد على أن يلحق بها . في حين كانت هي تشعر بانها اقرب اليه من حبل الوريد ، . وظلت توحي اليه بأنه لم يتوقف ، بل أنه يعدو بخطوات واسعة لكي يصل اليها . وأصبح يداخله نحوها من الشعـور ، أشبـه مايكون بالشفقة . فارضـا انها ضحت بالزواج في سبيل هدف لايستحق التضحية . كانا يلتقيان في الدكان او في اجتماع أو في مظاهرة ، دون ان يبوحا بمشاكل فردية تتعلق بأي منهما ، كان يلمح في عينيها أنها على استعداد لان تخوض معه في حديث من هـذا القبيل . الا أنه كان يهرب من نظراتها الى ما يحيط به ، مبديا انشغاله

التام بأمور اكثر اهمية ، ومتمنيا ان تقصره على سماع ما تريد قوله ، دون ان تفاجئه بكلمة ما عن نفسها أو نفسه ، أما علاقة المرأة مع الصافي فكانت تختلف كل الاختلاف. نصحها الرجل ، منذ تأليف اللجنة ، بأن تصطنع لرأسها غطاء مناسبا . وان تتصرف تصرف المرأة المسلمة التي أسفرت عن وجهها لأول مرة . وأشعرها بأنه سيترك لها خطابا في الدكان عند الحاجة اليها. وهكذا قدر لها ان تدخل وتشترك في اعمال اللجنة اشتراكا فعليا ، ولكن بصفة غير مباشرة ودون ان تكون لها سمة العضوية . كانت تحضر اجتماعات معينة ذات هدف محدود ، وفي الاغلب يكون رئيس الجمعية فيها غائبا . وبعد مدة وجيزة ، اكتسبت قدرة غريبة على استنفار النساء ودعوتهن الى خوض المظاهرات والمناداة بالشعارات الوطنية . وفي المظاهرة الكبرى التي اندلعت عقب اعلان قرار ( سان ريمو ) اضطرت لسبب ما ان تصرخ قرب السراي وامام جمع غفير من الناس : « انني مسيحية .. ومع هـــذا فلتسقط فرنسا وانكلترا » . مما أكسبها شعبية كبيرة ، لا بين رجال الدين فحسب بل بين النساء المحجبات ايضا . أما رأي رئيس الجمعية الشيخ كامل القصاب فيها ، فكان ينطوي على التحفظ البالغ . كان يصرح احيانا : بأن سجن المرأة في بيتها ، وحده يشكل خدمة وطنية . وكان يعتبر أن اشتراك النساء في المظاهرات ، شر لا بد منه وانه كالخمرة « اثمها أكبر من نفعها . »

وظل الصافي كالجندي المجهول ، يعمل في القلب دون ان يطفو على الجلد . كان شرارة الكهرباء التي تدير المحرك . برزت الى الناس حروف « ش . ص » بمعنى ذي ضجيج يبعث على اليقظة والتأهب وحشد القوى . كانت الاخبار تأتيه من باريز مباشرة . فيعلنها فورا على لسان الشيخ كامل بشكل خطب نارية ، وفي صفحات الجرائد مع الشرح المبسط . ثم ينقلها

اعضاء الجمعية الى قلب الاحياء التي لايسمع سكانها صوتا ولايقرأون حرفا.
وقد احدث مقاله الذي وضع له عنوانا :

( ولنر أعمال الحكومة الجديدة )

احدث نتائج باهرة . لافي نفوس الناس فحسب ، بل بين اعضاء الحكومة ايضا . مما قوى جبهة زميليه ورفع من معنوياتهما . كان احيانا يشعر بانه مراقب ، وانه متبوع بخطوات صارمة لحوحة ، وان عيونا قاسية حمراء يتطاير منها الشرر ، تتربص به وتهدده . الا ان ذلك كله لم يزده الا حقدا وغضبا واضطراما . ثم يأتي دور المحرك وسط المعمل الكبير . كان الانتاج مذهلا للغاية .. فالمواد الخام متوفرة في كثرة ولكنها تحتاج الى صنع . ولم يكن قاديش يعمل في صمت ، لان الشحنة التي تدفعه كانت جبارة ، ولهذا كان يمضي كقذيفة مدفع ثقيل ، مثيرة حولها هديرا ورعدا وصواعق . ثم تنقض على الهدف وتنبش الارض نبشا . فما ان يصل الى حي من الاحياء أو قرية من القرى ، حتى يستنفر أهلها على بكرتهم . كان يهيج الناس في شكل يدعو الى الرعب ، رعب اعدائهم . كان يصرخ :

ـ انقذوا رغيفكم .. ان لقمتكم في خطر .. الانتداب معناه أكل لحومكم .. ولحم الاطفال طري لايحتاج الى شيء ...

ويهرع الاطفال الى آبائهم وامهاتهم وفي عيونهم نظرات الضراعة . ويحمل الرجال ما يقع تحت ايديهم ثم يغيرون .

●

- ٣٠ -

انتشر بين الناس خبر مفاجيء مفاده : « ان نوري السعيد مرافق الملك عاد من بيروت يحمل انباء مشؤومة أحدثت في القصر بلبلة لاحد لها » • وكان الملك قد ارسل مرافقه الى هناك ليطلب من السلطات الفرنسية السماح له باعداد ترتيبات السفر الى باريز ، ليعرض القضية على مؤتمر الصلح •

وأذيعت حقيقة هذه الانباء في منتصف تموز ، في عيد الثورة الفرنسية الكبرى • كان الشعب الفرنسي يرقص على انغام السلام ونشيد المارسيلييز ، ويلوح بالاعلام المثلثة الالوان ، وبين الحين والآخر تصل الضجة الى ابواب القصر ، ويتذكر الحكام عيد حرية الشعب فيطلون من نوافذهم الضيقة ، تلوح على وجوههم ابتسامات منكودة غبراء • ثم يتوارون خلف مكاتبهم ، سابحين بافكارهم الى ما يجري في شرق البحر الابيض المتوسط •

وكان غورو في قصره الصيفي في « عاليه » امام المرآة ، يفتل شاربه

الرعيع باصابع يده اليسرى ، ويتملى سحنته في عجرفة بالغة ، ثم يعود الى طاولته ليستعيد قراءة مسودة الانذار ٠٠ ثم ما يلبث ان يذكر عيد الثورة ويتخيل لفترة ما زعيما اسمه ( ميرابو ) يصرخ تحت قبة مجلس الامة ، ـ قبل مئة وثلاثون سنة ـ : ( نحن هنا بارادة الشعب ولن نخرج الا على أسنة الحراب ) ٠ وتلدك غورو حمية غامضة ، ويقبض بأصابع متشنجة على كمه الايمن الفارغ ويصرخ : « انا هنا بارادة الجنرالات ولن أدخل الا بأسنة الحراب ٠٠» وتظلم عينيه فجأة عندما يطوي قماش الكم في كفه ، ويصرخ وفي صدره الم مكبوت :

« ها انا ذا قائد بلا يد ٠٠ ولي ساق خشب ٠٠ واضلاع صدري مفقودة ٠٠ من أنا ؟ انا نصف بشر لا ٠٠ يجب ان أكون الهاً ٠

ويستدير فجأة ، فتتمرد ساقه على طاعته ، ويعتريه نوع من الجنون ويستأنف صياحه :

لا ٠ ٠ يجب قتل كل البشر ٠ ٠ كل البشر ٠ ٠

ويهرع الجنرال ( غوابيه ) على الصياح تتراقص على شفتيه ابتسامة فضية ويهتف :

ـ انني احتفل يا سيدي بالعيد على طريقتك ٠٠ وكم اتمنى من صميم قلبي ان لا تستجيب حكومة الشام لهذا الانذار ٠٠ لشد ما يجرفني الشوق لان أحرق هذه المدينة بكل اهلها ٠٠ ( ويتوقف عن شرح عواطفه النبيلة ، ويرفع رأسه قليلا ثم يغمض عينيه ويقرأ في شاعرية مؤلمة ) :

« انا في دمشق ٠٠ ان هذا الاسم ـ عندما كنت اسمع به ـ كان يمثل لي شيئا خرافيا وانا بعد في سن الطفولة ٠ » ثم يفتح عينيه ويطرق برأسه فيتهدل كتفاه ، ويقول في لهجة دعائية :

ـ ان ( جان مونكو ) الجد البعيد لجدتي لويز ، كان وقع في الاسر خلال الحرب الصليبية الثالثة ، ونقل الى مدينة دمشق ، انه كان من السواد

الاعظم فلم يعامله « اللصوص » المعاملة الحسنة اللائقة بالفرسان اللامعين ، لقد جعل منه أهل دمشق عبدا يشتغل في احد المصانع التي يصنعون فيها الورق من القطن • واشتغل جدي المسكين هنا شغلا شاقا خلال ثلاث سنوات حتى اطلق سراحه • ولكنه عاد الى مسقط رأسه بعد غياب طويل • •

لا بأس • • فقد اسس اولى طواحين الورق التي عرفتها اوروبا كلها • أو ليست هي العدالة الالهية التي سمحت لي •• لحفيد أمير الحروب الصليبية ، بأن يأمل في دخول المدينة التاريخية •• اقدم مدينة في التاريخ •• ان يأمل في دخول هذه المدينة ، ظافرا وفاتحا ومنتقما • ؟

وفي دمشق ، في قاعة واسعة من قاعات السراي ، كان الوزراء وبعض رجالات القصر ، مبعثرين في جميع الزوايا والارجاء ينظر بعضهم الى بعض في فزع ، وكأنهم اضاعوا قنبلة موقوتة ، تصل الى اسماعهم دقاتها المتسارعة المحمومة ويكاد عقربا ساعتها يتعانقان ، كان كل منهم يكتم في حنجرته تعبيرا خاصا عما يعتمل في صدره من رهبة وانفعال ، ويقطع الصمت الوزير ( س ) وقد صمم على ان يكون اشجع الموجودين ، ويقول في لهجة راثية :

ان كل شيء يدل على ان دمشق ستكون الهدف الاساسي • • والمسافة لا تفصلنا عن الفرنسيين باكثر من ستين كيلو مترا •• ان هذا الوضع الغريب ، يجعلنا في موقف على غاية من الخطورة والحرج ••

وتجحظ عيناه ويغص بريقه وهو يقترح :

– ارى ان ننقل خزينة الدولة مع الاوراق الهامة الى درعا •• استعدادا لنقل الحكومة ايضا عند الاقتضاء • •

وينبري ( علاء الدين الدروبي ) رئيس مجلس الشورى للرد على هـذا الاقتراح :

– انا اعترض على هذا الرأي • •

وتتلاقى نظرات يوسف العظمة والشهبندر وكأنما عثرا على نصير ، غير

ان الدروبي يفسر قائلا :

ـ انت لا تعرف الحوارنة ٠٠ والله سيذبحوننا ٠ ٠ سيذبحوننا هكذا ٠٠ ( ويشير بيديه علامة الذبح ) كما تذبح النعاج ٠٠

ويهتز يوسف العظمة في مكانه هزة تنم عن خيبة الامل ويقـول في اصـرار :

ـ أنا اعارض اي اقتراح يدعو الى الهزيمة ٠٠ وأنا اعمل الآن على اتمام الترتيبات العسكرية اللازمة وقد خصصت جبهة ( مجدل عنجر ) وعينت أسماء قوادها وتعداد قطعاتهـا ٠ وسيصبح في القريب العاجـل بمقدورنا أن نستعد لكل طارىء ٠

ويرد أحد العسكريين الكبار في لؤم وكان مرافقا لجلالته :

ـ ان الجيش الموجود لا يستطيع أن يدافع عن البلاد ٠٠ ولا يمكنه أن يصمد أمام العدو أكثر من ساعتين على أعظم تقدير ٠

ويصيح يوسف العظمة في وجهه في غيظ لا حد له :

ـ ألم تقل لي أنت وقبل استلامي وزارة الدفاع : أننا نستطيع أن ندافع بكل سهولة ؟

ويجيب المرافق في لؤم أيضا ولكنه مصبوغ بابتسامة خبيثة :

ـ نعم قلت لك هذا في ذلك الحين ٠٠ ولكن الاوضاع تبدلت حتى الآن تبدلا كبيرا ، فقد أتى الفرنسيون بقوى جديدة ، وأما نحن فلم نفعل شـــيئا ٠

ونقل العظمة بؤبؤي عينيه الى اليسار ، في حين فتلهما الشهبندر الى اليمين ٠ وتذكرا معا ما قاله الصافي منذ شهرين ٠ وأكمل المرافق حديثه :

ـ ان المدافع التي مرت أمامكم في الاستعراضات ـ عند الاحتفال بتتويج صاحب الجلالة ـ ليس لها الا عدد قليل من القذائف ٠ وهي لا تكفي لحرب

ساعة واحدة · فضلا عن أن الجيش سيصبح بلا عتاد بعد خمس دقائق من الحرب ·

وفعل تصريح المرافق هذا ــ على صدقه ــ بالموجودين أناعيل شتى · تنفس بعضهم في ارتياح ، وكأنه فرح بتجنب المعارك · بينما كتم بعضهم ضحكة متشفية ، وكأنه يقول : « موتوا بغيظكم » · وزلزلت معنويات آخرين · واستسلم آخرون الى اليأس المطبق · وقال يوسف العظمة هادفا الى احياء التوتر الذي يسيطر على الموقف :

ــ أنا اعرف اننا نحارب عندما نؤمر بالحرب دون أن نفكر في ما اذا كنا سنخسر المعركة أو نكسبها ، علينا أن ندافع مهما كانت النتائج ·

وهنا سأله صوت مرتجف من أقصى القاعة :

ــ ولكني أود أن أعرف : هل لدينا من القوة والعتاد ما يكفي لحرب جدية ؟

وانبرى الشهبندر للرد عليه :

ــ الدلائل تشير بأن ليس لدينا مقدار كاف من العتاد · ولكن قد تساعدنا الظروف ويقدر لنا أن نستولي على عتاد العدو في أول صدام يقع بيننا وبينه ، وعندئذ نحاربه بالعتاد الذي نأخذه منه كما يحدث ، كثيرا في الحروب ··

واقترب العظمة من زميله وهمس في أذنه :

ــ ان هذه فكرة خيالية يا دكتور ··

ورد الشهبندر ساخطا :

ــ وماذا تريدني أن أقول ؟ ألم ترهم يتساقطون كالاوراق الجافة ؟ يجب زرع بعض الامل في نفوسهم · كما أني اعجب منك أنت · كيف لم تخبرني بهذه الحقيقة من قبل ؟

ورد يوسف العظمة ، وقد تاهت على شفتيه ابتسامة شاحبة :

ـ أقول لك الحق ؟ كنت لا أدري كيف ٠٠ لم أكن أتصور الامر على مثل هذا القدر من السوء ؟ ان ياسين الهاشمي يعرف امكانية الجيش أكثر مني ، باعتبار انه عاش فيه كثيرا ٠٠

وقال الشهبندر في صرامة :

ـ ولكن اسمع يا يوسف ٠٠ ان الامور تجاوزت حدودها ٠ وأصبحنا أمام تهديد حقيقي ٠٠ قل لي هل نستطيع أن نأمل بدفع العدوان بقوة السـلاح ؟

ورد العظمة بلهجة المتألم الآسف :

ـ لو كان الملك فيصل يسير معنا على طول الخط منذ البداية ، لكان من المحتمل أن نتدارك النقص ٠ أما الآن ٠٠

وهنا فتح باب القاعة ودخل ( ج ) أحد مستشاري الملك ٠ كان قصير القامة متورد الوجه ممتلئ الجسد واعلن دون مقدمات وبلهجة صارمة متعاليـــة :

ـ ان جلالة الملك ـ بعد ان اطلع على الحقائق والاسرار العسكرية ـ اتخذ رأيه النهائي في هـذه الازمة ٠٠ ان رفض شروط الانذار سيؤدي الى الحرب ٠ والحرب ستنتهي بانكسارنا وهزيمتنا ٠ وفي هذه الحالـة ستخسر سورية كل شيء من غير أن تكسب الاستماتة في الدفاع ٠ وستدخل تحت ادارة الفرنسيين ادارة مباشرة ٠٠ ولذلك رأى أنه من الاوفق واصلحة البلاد ٠٠ وبنصيحة الانكليز ٠٠

وصمت قليلا وهو يتصفح وجوه الوزراء قبل أن يختم اعلانه بالقنبلة:

ـ رأى قبول شروط الانذار ٠٠

وهنا حلت في القاعة حركة مجنونة ، كأنما ريح عاتية عصفت بأوراق الخريف ٠ فقد رقص بعض الوزراء وهم يفركون ايديهم من الغبطة ٠ وتمتم آخرون في ارتياح ، وتهالك بعض آخر على أقرب مسند اليهم ٠ وجحظ

آخرون ، عيونهم حتى لتكاد تطير بعيدا ٠ في حين أوعز المستشار الى الحاضرين بالمثول بين يدي صاحب الجلالة للتوقيع على كتاب القبول ، لانه سيرسل الى بيروت قبل فوات المدة القصيرة المحددة ٠ وقد ارسلت اشارة تلفونية بقبول الشروط وتنفيذها ٠ وفيما كان رجالات القصر يتدافعون للمثول بين يدي جلالته ٠ نودي على وزير الدفاع فلم يقع له على اثر ٠

- ٣١ -

في حي من احياء الميدان – في حارة من حاراته الضيقة – هرعت الجارات في الصباح على زعيق امرأة :

– يا ولدي ٠٠ يا صياح ٠٠ اين رائح ٠٠ ؟

كانت العجوز تقف عند بوابة الدار ، حانية منكوشة الرأس ، تشمر عن ساعدين أعجفين طلي كفاهما بالعجين ٠ وكان الشاب قد توارى في المنعطف ، لا يسمع غير عدو أقدامه ٠ وسألتها جارة مقابلة ، أطلت من نافذة متهالكة :

– مالك يا ام صياح ؟ لم تصرخين من بكرة الله ؟

وردت العجوز نادبة :

– يا اختي يا ام عبدو ٠٠ لا ادري ما حدث له في هذه الايام ٠٠ انه لا ينام الليل ٠ ومن الصبح يقفز من فراشه ويغيب ولا يذهب الى الدكان ٠٠

وردت الجارة :

ـ لا تخافي ياعمتي .. أنه يذهب الى المظاهرات .. وابو عبدو راح من الصبح ..

ويفتح باب جانبي ، ويطل منه رأس يجلله شعر احمر ، ويشترك الرأس في الحديث :

ـ صحيح سرح الشريف عساكر الشام وبقيت الشام بلا عساكر ؟ .

وترد ام عبدو :

ـ يقول زوجي ان هذا احد شروط الانذار التي طلبها غورو .. ومن هو هذا الغورو ؟

وتقول ام الشعر الاحمر :

ـ غورو يعني الفرنساوي ، ابن الحرام ..

ـ صحيح والله . رجع عديل جوز اختي من الجيش البارحة .. وقال هذه الحكاية .

وتزعق العجوز

ـ وهل سيأخذون ابني عسكريا ؟

فتطمئنها الجارتان : بان الشريف لم يبق في حاجة الى عساكر . وتتوارى النسوة وراء ابوابهن على صوت هرج ينبعث من الجادة القريبة . ويبرز خمسة رجال يهرولون في خفة ، تمنطق ثلاثة منهم بالسيوف وتنكب الرابع بندقية على طريقة الرعاة . اما الخامس فكان يعتز كل الاعتزاز بعصاه الغليظة التي أخذ يلوح بها في الهواء . كان الرجال يتدفقون من الجادات الكثيرة على الجانبين ، ثم ينصبون في شارع الميدان الفوقاني ، ليتجمهروا في الساحة قرب دار « محمد الاشمر » . كان الاشمر في حوالي الثامنة والعشرين من عمره وقد بدأ الناس يلتفون حوله عندما وجدوا فيه شابا جديرا بالزعامة . وكان الصافي بنفاذ بصيرته ، قد توسم فيه بطولة غنية صامتة . وعندما

اقترح عليه قاديش ادخاله في اللجنة الوطنية ، هتف الصافي كمن عثر على كنز :

ـ اصبت يا ولدي ‥ كنت افتش عن رجل الميدان وها هو ذا الرجل ·

غير ان الاشمر تمنع في البداية عن تلبية الدعوة · واعتذر في تواضع محتجا بانه لا يتقن فنون الدعاية والحديث ، ولكنه مستعد فقط لحمل السلاح وتقدم الصفوف عند أول بادرة · وضحك الصافي من هذه الحجة ، وأقنعه بأن لو كان جميع الناس مثله ، لما دعت الحاجة الى نشر الوعي ، ولاختفى الظلم والاستعباد من العالم ، ولما كانت هناك حروب اطلاقا · وبرز الاشمر منذ اليوم الاول الذي اعلن فيه حمل السلاح والاستعداد للجهاد والدفاع عن الوطن ·

كان الرجال يتكاثرون في الساحة ، فيما كان الاشمر مجتمعا الى بعض الشباب · كان ينصحهم بضبط النفس وعدم الخروج عن الصف · وصاح أحدهم ، وكان يتميز بجثة هائلة وندبة غائرة في الجبين :

ـ يجب ان نقتل الخونة قبل كل شيء ‥

وانتفض شاب آخر ، تراقص شارباه المعقوفان وهو يهدد بمسدسه ويتكلم :

ـ يجب احراق القصر ايضا ‥ من قال لهم ان يقبلوا الشروط ؟

وتكلم الاشمر بصوت يكاد لا يسمع :

ـ الافضل ‥ ان لا نفعل اعمالا طائشة ‥ وعلى كل حال سنلتقي مع الاهالي كلهم في المرجة ، وهناك يقررون ما يجب ان نفعل ‥

ووصل أهالي القرى دون تأخير وبدأ الضجيج والهتاف يرتفع في شكل يصعب معه الزيادة في التروي · وارتفعت من بين الجموع فجأة صرخة تند عن حنجرة فولاذية :

ـ ميداني كفك محنى · ·

والتفت الناس الى مصدر الهتاف ، فحبسوا أنفاسهم وعبسوا وهم يرددون بنبرة واحدة :

ـ وابعد يا فرنساوي عنـا ٠٠

وعاد الشاب يصرخ وقد احمرت عيناه من الغيظ وبرزت عروقه من فرط الغضب

ـ نحنا اهل الحرب نحنا ٠٠

ودهش الناس لجمال هذه القافية فرفعوا رؤوسهم الى الخلف وعقبوا دون تأخير

ـ لعلع البارود وغنى ٠ لعلع البارود وغنى ٠٠

وثارت بضع طلقات متعاقبة من مكان واحد ، كانت بمثابة الهشيم اذا سقط على النار ٠ والتفت الرجل ذو العصا حول نفسه خجلا ٠ وأراد ان يثبت وجوده بطريقة ما ، فقفز في الهواء ثم سقط مع عصاته على الارض ، وراح يطرق بها احجار الساحة في عصبية وجنون ٠

ـ هاي هاي ٠٠ هاي ٠٠ هاي ٠٠

وانبعث من العصا صدى ثاقب متعاقب شبيه الى حد بعيد بانفجارات القذائف ٠ اما حملة السيوف فقد امتشقوها على الفور ٠ وابتعد الناس الى الخلف ، ليفسحوا المجال امام مبارزات حامية الوطيس ٠ كان اصطكاك السيوف والتروس شديد الوقع يلهب الحمية في أوهى النفوس ٠ ولمعت الاسنة تحت وهج الشمس ، وتطاير منها شرر مكظوم ، واتقدت عيون اللاعبين من فرط الهياج ، وأخذت تنبعث الهمهمات من صدور موغرة ٠ ولسبب ما اخذت المبارزات بعد شوط قصير تنقلب الى حرب جاهلية ٠ ودخلت الشوارب في المعمعة في صورة فعلية ، فراحت ترتفع وتنخفض وتتقدم وتهتز وتتراجع تبعا لحركات اصحابها بين الكر والفر ٠ وراحت نداءات عميقة تصدر من بين الجموع تدفع الوقود الى السعير ٠

ـ عليه ‥ وانا اخوك يا اختي ‥ ابو الفوارس يا عنتر ‥ نحنا رجال ابو صياح ‥

وسمع احد اللاعبين هذه النخوة ، وكان ضئيل القامة ، يقاسمه شارباه الاسودان المعقوفان حصة كبيرة من وجهه الممصوص الى الداخل ٠ فصاح صيحة رهيبة ، وانقض على خصمه في خفة الهر ٠ فانطوى هذا على نفسه وحاول الفرار ٠ الا ان ابا صياح تعقبه على الفور ، ورفع سيفه في الهواء يريد اجتثاث رأسه ٠ وكاد يفعل ، لولا ان ازدحم الرجال على حين غرة وبرز من بينهم محمد الاشمر ٠ ولاول مرة سمع الناس صوتا قويا جهوريا قاسي النبرات ٠

ـ قفوا ٠ ما هذا يا اخوان ؟ يالله ٠ سيروا على تهوين الله ‥

وتجمع الموكب ثم تدافع الى الامام وراء الرجل الذي كان يرتدي عباءة بيضاء ويجلل رأسه بغطاء من نفس اللون ٠ وقد بدا بملابسه كملاك هبط نظيفا من السماء ٠ ولم تأخذ الجمهرة شكل مظاهرة حقيقية الا بعد ان اجتازت الساحة وسارت في الشارع العام ‥

كان الرجال يرتدون سراويل سوداء ضيقة الساق متدلية السرج ، تكاد ثقوبها من الاسفل ان تكنس الارض ٠ وقد جللوا رؤوسهم بشملات مبرقشة ، يميل معظمها الى الزرقة ، كما ان الفلاحين لم يخرجوا عن هذا التناسق ، الا ان شملاتهم كانت متباينة الاشكال ٠ وانبرى شابان قويان بغتة ، وانقضا على صاحب الحنجرة الفولاذية ٠ انتزعاه من الارض ورفعاه الى عنق رجل يسير أمامه ٠ وعندما وجد الشاب نفسه يسير دون مساعدة قدميه ٠ تلفت حوله في ذعر وصرخ بنبرة مدوية وهو يشرع سيفه في الهواء :

ـ معنا خناجر معنا سيوف ‥

واعترى المظاهرة حركة غير منظورة لم يدر بها احد ٠ ولعلها كانت

ارتعاشة بسيطة تحت تأثير هذا النداء الذي تجاوبت أصداؤه جميع الآذان · وتقلصت الحواجب تحت قوة العزم · ورد الجمع بأصوات صادرة :

ـ معنا خناجر معنا سيوف ··

وزمجر الشاب في كبرياء :

ـ وباكر كل الارض تطوف ··

وخانته الكلمات عند الشطر الثاني فأكمل دون ان يتنازل عن كبريائه :

ـ بدمك يافرنساوي ··

كان الحشد يتزايد في استمرار · متجها في تهاديه وهتافاته نحو المدينة · وكانت الشمس ترتفع الى قبة السماء ، مرسلة أشعة تسخن بالتدريج · ولكن ما ان تصطدم بسنان السيوف المشرعة ، حتى تخبو حدتها على الفور · وقد ظل حملة البنادق والمسدسات يشعرون بتفوقهم · كان الواحد منهم يطلق رصاصة أو رصاصتين وهو يرفع سلاحه عاموديا في الهواء · ولم يخمد غضب المسلحين بالعصي حتى وضعوا خطة لاظهار وجودهم · اذ راحوا يزاحمون الصفوف ويتجمعون الواحد الى جانب الاخر ، حتى أصبحوا باقة كبيرة وسط الموكب · فرفعوا عصيهم عاليا واخذوا يهيجونها بعضها ضد بعض في عداوة وشراسة · وبعد نصف ساعة احس الذين يسيرون في المؤخرة ان الموكب اخذ يتباطأ · ولكنهم ظلوا يتقدمون دون ان يعلموا ان الصفوف الامامية توقفتمنذ اكثر من دقيقتين ، وتناهى الى اسماعهم أصوات تزمجر من الامام:

ـ لا ·· لن نقبل ان نسير وراءهم ··

والتفت رجل الى زميله مستفسرا عن القضية ، فأجاب :

ـ يبدو اننا وصلنا الى الشاغور ، والشواغرة يريدون ان يسيروا في الرأس ٠٠

وصاح الرجل في حنق شديد :

ـ لا ٠٠ لن نسير وراءهم نحن لانسير وراء احد ٠٠

ومن الامام كان الاشمر يقول لقائد مظاهرة الشواغرة :

ـ باعتبار اننا الاكثرية ، دعونا نمر ثم سيروا انتم خلفنا ٠٠ ماذا تريد ان اقول للشباب المتحمسين ؟

وفكر أبو محجوب قليلا ، وكان ذا وجه يطفح بالتزمت ، ثم اعلن في ثبات :

ـ ظللنا ننتظركم ربع ساعة وبعد ذلك نسير خلفكم ؟ ان رجالي لايقبلون ٠ بالاضافة الى انني أكبر منك سنا ؟ ٠

وشد الاشمر على ذقنه الصغيرة ، وراح يفركها في عصبية ٠ وقد وجد نفسه في مأزق يحتاج الى حزم وروية ، وزفر زفرة عميقة ثم سأل :

ـ أين قاديش ؟ لا أظن أحدا يستطيع حل هذه القضية ٠

ورد ابو محجوب ، وهو يحس انه يعاني شعورا بالمهانة ٠

ـ قاديش كان هنا في الليل ، وغادرنا الى الغوطة ٠ قال انه ينتظرنا في المرجة ٠ وعلى كل حال ماذا يستطيع ان يفعل هذا الولد ؟ ٠

وبرم الرجل شفته وهو يضيف :

كان يجب علينا ان نسبقكم ٠ ولكنها اوامر قاديش التي أوقعتنا في هذا الحرج ٠٠

قال الاشمر وهو يلتفت ناحية جماعته ليخمد اصواتا بدأت تثير فتنة:

ـ طيب ارى ان يختلط الرجال بعضهم ببعض ، ويسيروا سوية على تهوين الله ٠٠

ورفع ابو محجوب طربوشه الاغبر المكسو بوبر الجمال · ومسح بكفه صلعته التي كان يسح منها العرق ، في حين انطلقت من فوق كتفيه خمس رصاصات متعاقبة اجيب عليها من الناحية الاخرى بسيل من الطلقات · وتململت السيوف بأيدي أصحابها ، ولغطت العصي لغطا رهيبا · وزمجر الناس من كل جانب ، و·· برز قاديش · جاء الشاب يعدو من باب الجابية ، منتفخ الوجه ، دامي العينين ، لاهث الانفاس · ولاحظ على البعد ان الجو متحفز بعد ان ثقب اذنيه صوت الرصاص ، فترنح في عدوه وكاد يسقط لولا ان تمالك نفسه وهتف بصوت خرج منفصلا عنه ، نابعا من روعه :

ـ قفوا ·· قفوا ··

وعندما وصل الى نقطة التقاء المظاهرتين كان الناس يحبسون انفاسهم في حين ظل الدخان يتصاعد من افواه البنادق · ولم يخف قاديش حقيقة ما ، اذ اعلن على الفور :

ـ والله نبهني الاستاذ في اللحظة الاخيرة الى قضية لم تخطر على بال · يبدو انني وصلت في اللحظة المناسبة ·

وتابع وهو يلهث وينفض العرق عن جبينه :

ـ طيب ·· مشي الحال ·· سيسير الزعيمان في المقدمة ، ويختلط الاهالي بعضهم مع بعض ·

وانطلق صوت الهتاف من جديد ·

ـ ميداني وشاغوري اخوان ··
ـ ضد البغي والطغيان ··
ـ يالله نهجم ياشباب ··
ـ على الفرنساوية ·

وارتفع قاديش فوق حجر في زاوية الطريق ملوحا بقضيب غليظ وهتف :

( صحائف الشيخ محمد الاشمروصحائف العم ابومحجوب وصحائف شباب الشاغور والميدان وكل الشباب الوطنيين وبيض الله ٠٠٠ )

وهدرت الجموع بعاصفة :

« وجهووو ٠٠ وو »

وتتابع الهدير من الجموع وبنبرة واحدة متماوجة ذات لحن :

هبـوا عـلى الخصم اللـدود نـار الوغـى ذات الوقـــود
يا ايهـــــا العـرب الـكرام الى متـى انتـــم نيـــــام
هـــبوا الى المــــوت الزؤام وامشــوا لـــه مشي الاسـود

وراح قاديش يتأمل الوجوه بنظرات سريعة ٠ وجوها غاضبة متنمرة تتلاحق امامه ٠ آلاف الرجـال الذين بدوا له أشـداء موتورين ، كانـوا يزحفون الى الامام ، اختلط الشاغوري مع الميداني مع القروي ٠ تلاصقت الاكتاف وتوحد الزند ولم يبق اي فارق ٠ تم ذلك كله بلمسة سحرية ٠ وسار الموكب يتدافع كالموج الهادر ، وكان في المقدمة ابو محجوب والاشمر، يتأبط كل منهما ذراع الآخر ، ويتحدثان بنبرات ضاعت في خضم الهدير ٠ وتردد الرجلان قليلا عند مدخل سوق الحميدية ٠ هل ينعطفان في شارع جمال باشا ام يتبعان طريقهما من السنجقدار ؟ وكانت الحوانيت مغلقة على آخرها ٠ وفوق السطوح على الجانبين ، اتشحت النسـاء بملاءاتهن السوداء وأسفرن عن وجوه بدت كالاقمـــار الصغيرة في سماء مدلهمة ٠٠ وبين الحين والآخر كانت تصدر من بينهن زغرودة حماسية تثقب الهـواء كنفير بوق نحاسي ٠ وتعجلت ميسرة الرتل الى ساحة المرجة باقرب فرصة٠ فانفصل رجالها عن الصف واندفعوا في الشارع الجانبي ٠ في حين تابعت المظاهرة سيرها الى الامام ٠ وما ان انعطف النهر البشري يسارا ليصب في

المحيط الكبير ، حتى فوجىء المتقدمون بأنه لم يبق في الساحة مكان لقدم · وفيما كان السيل ينحدر في الشارع ، تناهت الى الاسماع صرخات مجلجلة، صادرة عن خطيب يعتمر لفة صفراء ويرتفع فوق حاجز النهر· كان القصاب ينادي :

– علينا ان نمحو كلمة الذل · علينا ان نمزق صفحة العار · ان شروط غورو ·· هي قيود الحديد الصدىء وان قبولها هو العبودية ·· هو العار ·· هو الخيانة ·

وتنفجر براكين حارة من قلب المحيط فيتماوج الناس · وتصدر عنهم زمجرات رهيبة · كان الصافي يقف عند اقدام الشيخ كامل · ملتصقا بالحاجز ، تحت ضغط الجمهور ، يرفع عينه بين الحين والحين الى وجه الخطيب ثم يهز رأسه في روية وتمعن ، وكأنه يسمع مايقال لاول مرة ، ويتابع القصاب خطابه :

– ايها المسلمون · ايها العرب · بجميع ملاتكم · ايها الناس · على اختلاف طوائفكم · ان فرنسا على لسان غورو تطلب الينا ان نسلم لها اعناقنا وارزاقنا ودينا واعراضنا ، فهل تقبلون بهذا الطلب ؟

ويعبر الناس عن معارضتهم ، بهمهمات ساخطة غاضبة ، كأنما وضعوا في مقلاة يغلي فيها الزيت · وينتصب الصافي على رؤوس اصابعه ، ويتملى الجموع من أعلى ويسأل نفسه : « ترى أين قاديشر ؟ » ويلمح على البعد توافد الجموع من زقاق رامي والسنجقدار ، ثم يلتفت ناحية اليسار فيلمح مريم تقف مع النساء قرب قصر العدل فيعاوده الاطمئنان ، ويرفع عينيه الى الشيخ كامل ويهز رأسه :

– ايها المؤمنون · ياابناء مدينة الشام الشريفة · يااحفاد صلاح الدين ·· يا تلامذة الشيخ محي الدين العربي ·· ان تراب الاجداد يستصرخ قلوبكم ··

كانت مريم تقف على رأس جمع من النساء يزيد على المائة ، اتخذ له ركنا في الزاوية الشمالية من الساحة • وقد تلفعت كأكثر رفيقاتها بغطاء ابيض يخفي كل شعرها ونصف جبينها • وانسدل ثوبها حتى وصل الى قرب كعبيها • كانت ترقب الناس بعينين واسعتين ، دون ان يرتعش لها جفن • ولم تكن لتحرك رأسها الى اي اتجاه ، وكأنها تنتظر ان يمر انسان ما من النقطة التي ركزت انظارها عليهـا لتهتف فجأة من خـلال شفتيها المنفرجتين « النساء المسيحيات ••» ومن وراء نظارتي الصافي المتمعتين لمعانا واخزا تحت اشعة الشمس النافحة ، كانت عينان مدورتان ، يتضاءل بؤبؤاهما بالتدريج وكأنهما يذوبان على لهيب ينبعث من الاعماق • وتابع القصاب خطابه :

ـ ان سياسة التخدير كانت اعظم خدمة لسياسة الكفار •• وكانت افدح مصيبة على وطننا من جيش غورو نفسه ••

ويخفض القصاب عينيه فتلتقيان بنظارة الصافي ويتم التفاهم • كان قاديش ينافح في شدة كي يصل الى المقدمة زائغ العينين من فرط النعاس ، يدور رأسه دورانا شديدا • ولكن قدميه ظلتا تطاوعانه تحت تأثير الهياج الذي تملكه • واصطدم برجل مربوع القامة ذي شارب رمادي رفيع ، يتخذ من بندقيته مسندا لساعديه الطويلين • وصاح الرجل :

ـ كفى ياناس : نريد ان نسمع ••

• ورد قاديش في ابتسامة متعبة :

ـ معـذرة يا أخ سنـذهب الى القصر ونسمـع صوتنا الى الملك والحكومة ••

وعندما سمع الرجل هذه العبارة تنكب سلاحه واندفع وراء قاديش وهو يهتف : « الى القصر •• الى القصر •• »وغوجـىء النـاس الذين في

الوسط بهذه الدعوة • فراحوا يشقون لانفسهم طريقا في الزحام الخانق • وشعر الشيخ كامل وهو في الاعلى بهذه الحركة ، فانحنى على الصافي واخبره:

– ان الجمهور تعب من الوقوف وهو يتزاحم لبدء الزحف ، واخشى ان يختلط الرجال مع النساء ، نعوذ بالله ••

واجاب الصافي :

– طيب انبئهم اخيرا بما قلته لك من ان الفرنسيين قد ••

وانتصب الشيخ قبل ان يفرغ الصافي من حديثه ورفع يديه الى أعلى في حركة حاسمة ، وانطلق يحمل الخبر بصوت مرعب :

– اسمعوا •• اسمعوا •• ان الحكومة بعد ان قبلت شروط هذا الانذار الملعون وسرحت الجيش، وافرغت الجبهات •• ماذا فعل الفرنسيون! اسمعوا • • إسمعوا لقد احتلوا حلب وجسر الشغور • و ••

وتهاوى قاديش في مكانه • ولكن قوة الدفع اجبرته على المضـــي • فأمسك صدره بيده وصرخ :

– نجيب عويد •• نجيب عويد ••

وفي هذه الاثناء لمحته مريم ، فظنت بأنه سقط بين الاقدام • فاندفعت نحوه بلا ارادة وهجمت من ورائها النسوة ، فاختلط الحابل بالنابل ، وعندما لمح الشيخ كامل هذا المشهد اقشعر بدنه واعتراه انفعال غريب ، وراح يصرخ ناسيا ماهية الموقف :

– ياعباد الله • ان الفرنسيين •• اتقوا الله • يحتلون البلاد •• حافظوا على الدين • • اصبحت محطاتنا بأيديهم نحن محاصرون • • اسمعوا •• وعوا •• عو •• عو

وفي هذه اللحظة حدث امر غريب لم يكن يتوقعه أحد • ففيما كان الشيخ يهبط عن سدته ويمسك بذراع الصافي ليتوجها بالحشود الى القصر • سمعت من الخلف هتافات تمزق الضجيج :

- الى القلعة ‥ الى القلعة ‥

وانتقل الهتاف من الوراء الى الامام ، ومن اليمين الى اليسار ، وسرعان ماسيطر هذا النداء على العواطف القلقة · واجتاح النفوس في صورة تحير العقل · ومن جميع المنافذ التي تتفرع من ساحة المرجة زحف الرجال ارتالا طويلة ، يتراكضون صائحين مزمجرين متمايلين ، كالسيل الذي يجري في واد ضيق ، دون ان تجسر أية قوة على ايقافهم أو تحويلهم ، أو أن تسد دونهم الطريق وللحظة قصيرة ، وجد اعضاء اللجنة الوطنية انفسهم وحيدين ، وقد تخلى عنهم الجمهور بصورة مفاجئة · وتذكر الصافي ماقاله يوما للشهبندر : « انر السبيل للناس وستجدهم يندفعون من تلقاء انفسهم ، وستجد نفسك وراءهم · » وهذا ماحدث · نصح شفيق الصافي النسوة بالتوجه نحو القصر · واستدار هو مع رفاقه متخطين الساحة الفارغة متوجهين نحو القلعة ‥

كانت قلعة دمشق - التي سجن فيها الصافي والرقي - عملا مجيدا من اعمال الرومان · اتخذت لنفسها في قلب المدينة حصنا منيعا ضد جميع الغزوات · وساهمت في حفظ كيان بناتها ردحا من الزمن · ويبدو انها شيدت على أساس أن تكون مأوى للجيش كله ، لهذا كانت مفرطة في الاتساع مرتفعة الابراج، ضخمة الاحجار، حصينة الابواب· حفرت دهاليزها على شكل أوكار المناجذ ، وعمقت سراديبها الى الارض السابعة · وقد افاد منها الفاتحون اللاحقون فادخلوا عليها من التطور والتعديل مايكفل لهم التجاوب مع متطلبات الزمن · أما شكلها الخارجي ، فما برح محافظا على شكله الاساسي · وفي ظهيرة ذلك اليوم ، فوجىء ماتبقى من جنود الجيش العربي المرابطين في القلعة بحشود هائلة من الرجال تقتحم الباب الغربي وتدلف الى الداخل ، دون ان تصادف اية مقاومة · كان الباب مفتوحا والخفير يقف في المدخل يفتل شاربيه بعد ان مل من التثاؤب · وماكاد

يصحو ويهم باستعمال بندقيته ، حتى وجد نفسه في الشارع ، فارغ اليدين دون بندقية او شوارب • وارتفعت هتافات متفرقة من هنا وهناك :

ـ الى السلاح •• الى البنادق •• الى الرصاص ••

واخترقت المستودعات وحطمت الاقفال التي تضم السلاسل وتربط البنادق ، وتسلح العزل بطرفة عين • وماكاد الصافي يشرف على مدخل القلعة لاهثا يتصبب عرقا ، حتى دوى اطلاق الرصاص • وهنا التفت الى قاديش واطلق صيحة رعب لم تند عنه في حياته •

ـ قاديش •• وقع المحذور : يجب تدارك الامر في الحال ••

كانت بضع عشرة جثة تتلوى على الارض ، ومن حولها وقف الناس مباعدي مابين الاقدام ، محملقي العيون ، يطرفون اجفانهم في حيرة وذهول ، ويفغرون افواههم من الدهشة البالغة • كانت ايديهم تشد على الاسلحة ، وصدورهم ترتفع وتنخفض بتأثير نبضات قلوبهم المتسارعة • ومن وراء أحد الاعمدة ، وعلى بعد حوالي عشرين مترا ، وقف ضابط مرتفع البنيان ، لم يظهر منه غير نصف وجهه الايمن وطرف من عقاله وشملته • ومن حوله تبعثرت عشرات الغلافات الصفراء • كان الضابط قد نزع مذخر الرشيش الفارغ ، ووضع مكانه مذخرا جديدا مرصوفا بالخراطيش ليستأنف الحصد• وكان الموقف يمضي في سرعة مجنونة ، لدرجة ان الصافي استسلم الى الشعور الذي كان قد اكتنف الناس جميعا • وحاول قاديش ان يفعل شيئا ، لولا أن سمع صوت طلقة منفردة • والتفت الضابط الى الاعلى ، فوقعت عيناه على جندي سوري متطوع يصوب اليه بندقية من البرج • وهنا رفع اليه الضابط فوهة رشيشه ، وقبل ان يضغط على الزناد ، سبقه الجندي واطلق رصاصة اخرى • وفكر الضابط قليلا ، ثم تراقصت على وجهه الكامد ابتسامة واهية ، فأرخى سلاحه ، ومشى خطوتين ، الاولى الى الوراء

والثانية الى الامام ثم هوى على الارض · وبعد ذلك ساد الهدوء جزءا صغيرا من طرفة عين قبل ان تثور العاصفة · وصرخ قاديش :

ـ الى القصر ايها الشهداء ·· الى القصر ··

وفيما كانت الجماهير مندفعة من باب القلعة ، تقدم الصافي من الجثث وتلفت حوله ، فلمح جنديين يقتربان منه في حيرة وتوجس · فأوعز اليهما بطريقة ارجفت اوصالهما ، أن يهيئا نقالات على الفور · ثم مشى في هدوء نحو اول غرفة صادفها ، وكانت نفسها التي زارها في السابق مع زميله · وطرق الباب بقدمه ودلف الى الداخل .

كان الضابط رئيس الحرس يمسك بسماعة الهاتف · وما ان لمح رجلا غريبا يقترب منه حتى اوقفه بحركة من يده اليسرى · غير ان سحنة الصافي في هذه اللحظة ، جعلت الضابط يتشبث بالسماعة بكلتا يديه ، وكأنه يهم بطلب النجدة · وزمجر الصافي :

ـ مع من تتكلم ؟ قم ·· آمر بنقل الجرحى الى المستشفى ··

ولاحظ أن نبرته ، هو نفسه ، غريبة على سمعه كل الغرابة · كان قلبه يلتهب في صدره · وأحس بأن حنجرته غدت محترقة جافة · وفي اعماقه كانت تتولد مشاعر وأحاسيس لم يختبرها في حياته · وقال وهو يطحن الكلمات بين أسنانه :

ـ ان الجماهير لم تفهم ·· كانوا مذهولين ·· حائرين ·· ولكنهم غير خائفين ·· لم يفهموا كيف أن ضابطا عربيا يطلق عليهم النار ·· ويرديهم قتلى ·· كان من السهل أن يصيبه أي منهم بضربة سيف ·· ولكن ·· لم يفعلوا ·· هذا ·· لان ذلك يحدث لاول مرة في التاريخ ·

كان الضابط في حوالي الاربعين ، أبيض الشاربين ، تطل من عينيه نظرة متبلدة ، ويزين كتفه تاج أصفر لامع · ورد في جزع وهو يستعد للهرب ··

ـ ولكني أتكلم مع القصر ·· من أنت ·· أنت ؟

واختطف الصافي سماعة الهاتف من يده دون أن يجيب · ثم دفعه بنظرة رهيبة لان يقوم بالعمل الذي انيط به · ونهض الضابط في استسلام وخرج من الغرفة · ونقلت سماعة الهاتف الى أذن الصافي مواء ضعيفا · فصاح فجأة :

– من يتكلم ؟

وماءت السماعة :

« هنا ياسين الهاشمي » ·

وصرخ الرجل في بوق السماعة ، وهو يكاد ان يفتتها بين أصابعه :

– أريد يوسف العظمة أو عبد الرحمن الشهبندر ·

وردت السماعة :

« من يتكلم ؟ »

وزعق الصافي :

– رجل من القلعة يتحدث اليك ·· ان هنا عشرات القتلى يريدون العظمة أو الشهبندر فورا ··

وخشخشت السماعة قليلا · ونقلت العديد من الاصوات المتبادلة الصعبة الفهم ، قبل أن يعود المواء بصورة واضحة ··

– « من » ؟

وعرف الصافي بحة يوسف العظمة ، فرد :

– يوسف اسمع ·· ان هنا حوالي عشرين قتيلا ·· والمظاهرة اتجهت الى القصر ·· بعض أفرادها مسلحون بالبنادق والرصاص ·· انتبهوا ··

وردت السماعة :

« ان أصوات البنادق وصلت الينا ·· ولكن لدينا أخبارا اشد سوءا ·· الفرنسيون احتلوا مجدل عنجر وكافة المواقع التي اخليناها هذا الصباح ·· وهم متجهون مباشرة نحو دمشق ·· دون أن يصادفوا أية مقاومة · »

وسقطت السماعة في يد الصافي • فعض على شفته ، وبذل جهدا خارقا ليطاوعه لسانه الذي جف جفافا تاما •• وعادت أصابعه تتشنج على السماعة، وسال في بحة :

ـ وماذا قررتم ••؟

أجابت السماعة :

« استلمت زمام الموقف بنفسي •• وأعطيت الامر بايقـــاف تسريح الجيش •• وسأنتقل الى ميسلون •• مع من تبقى • »

وضاع صوت العظمة وسط ضجيج ينبعث من داخل السماعة •• وصرخ الصافي :

ـ ما هذا اللغط انني لا أسمع •

ورد العظمة :

ـ « جلالة الملك ينشج ويضرب راسه بالحائط •• لقد أمر الحرس بمواجهة المتظاهرين •• وداعا يا أستاذ •• يجب حقن دم آخر ••وداعا • »

وهتف الصافي :

ـ اسمع يا يوسف •• اسمع •• أنقل الى المتظاهرين هذا النبأ •• انبئهم بزحف الفرنسيين الى دمشق •• وستنتهي الحـــال •• سيتركون القصر والملك ويستديرون الى الغرب••اسمع•• هيىء لهم وسائل النقل من الآن •• انهم مندفعون •• هل تسمعني ؟ ألو •• يوسف •• ألو •

وطوّح الصافي بالسماعة وقذف بها في الهواء••ثم اندفع الى الشارع••

●

## - ٣٢ -

برغم أن مقدرة ( غورو ) تحولت جميعها الى رأسه ، فلم يكن في يوم من ايام حياته ليحلم بامتلاك قصر ، كذلك القصر الذي اختاره مقرا لقيادته في «عاليه» · تلك البلدة التي تسلقت أعلى قمم جبال لبنان ، لتعانق السماء بيد ، ولتشير الى روعة الطبيعة باليد الاخرى · وفي منتصف ليلة ٢١ تموز ١٩٢٠ كان الجنرال يتمشى في حديقة قصره ، وقد ارتدى فوق لباسه العسكري الكامل معطفا ثقيلا ليدفع عن نصف جسده غائلة الانسام البادرة· وعندما سمع من خلفه خطوات عسكرية تطرق البلاط في شدة وتعجل قال دون أن يلتفت :

ـ غوابيه ··

وأتاه الرد مع طرقة ثابتة صدرت عن عقبي حذاء ضخم :

ـ نعم يا سيدي الجنرال ··

قال غورو وهو يستدير :

ـ هل تعلم لماذا طلبتك في هذه الساعة ·· هل انت جاهز ؟

ورفرف جناحان في صدر غوابيه وهو يرد :

ـ نحن على أتم الاستعداد يا سيدي الجنرال ··

وأضاف وهو يتقدم في ابتسامة من ابتساماته الفضية :

ـ قائد جيوش المشرق والمندوب السامي لسوريا ولبنان وكيليكيا ·

وارتعش كم الجنرال الفارغ · ثم رفع يده اليسرى في حركة تنم عن أن هذه الالقاب لم تكن كافية لتدير رأسه · وقال في لهجة حانية وهو يعاود السير :

ـ اني أحس إحساسا عاما بعاطفة تشبه الخجل ··

وتوقف جناحا غوابيه عن الحركة · وخشي أن يتغلب على عزم قائده شعور يتصل بالشهامة أو النخوة أو الشرف · وتابع غورو وهو يتأمل البعد ، من خلال ضباب بارد كثيف :

ـ انني لا أستطيع أن أفسر لنفسي هذا الشعور ·· هل هو الشفقة ؟ أنا لست خجلا منهم ، ولكن اذا أردت الدقة ، خجلا عليهم · اخبرتك في المساء بأن شروط الانذار قبلت عن آخرها وبدىء بتنفيذها على الفور ··

وصمت قائد جيوش المشرق وهو يفكر في نفسه: «فماذا سيقول التاريخ؟» وانفرجت شفتاه عن حركة ساخرة ·· التاريخ ·· ما أسهل اللعب على هذا التاريخ ·· وعاد يستكشف الغيب من خلال الضباب المتجلد :

ـ ولكن هناك سرا لا يعلم به أحد ·· ان قبول أحكام الانذار لم تصلني حتى الآن ·· ولا أظنها ستصل قبل ظهر الغد ·

ورفع غوابيه حاجبيه ، ثم زواهما في حركة تدل على الغوص في التفكير · واستدار غورو وواجه مرؤوسه بنظرة متفحصة ، وقال في لهجة ماكرة :

ـ ان القضية لا تحتاج الى عبقرية ، ففي قطع خطوط الهاتف تخلص

من كل عذر • ولكن هناك قصة سأرويها لك باعتبار أنك قائد لفرقة الهجوم ••• ان عصابتك التي كلفت بهذه المهمة ، ما ان قطعت الاسلاك بين الزبداني وسرغايا وشرعت بالانسحاب ، حتى فوجئت بعصابة من الثوار العرب أتت لهذا الغرض •• تصور هذا الموقف • على ماذا يدل ••؟

وعاد جناحا غوابيه الى الرفرفة •• وتقدم من سيده متجاوزا حدود الانضباط وهتف في سرور :

ـ وعلى كل حال تمت الخطة التي كنتم تسعون اليها يا سيدي •

وحول غورو رأسه يمنة ويسرة ، وكأنه عتب على بطء فهم زميله،وقال :

ـ ليس هذا ما يشغلني •• ولكنني أتساءل : ترى لو تأخر عملاؤنا دقيقة قبل قطع الخط ، أما كانت حركاتنا تجري دون مسؤولية • كما ان ما يشغلني أيضا هو شخصية هذا الملك •• ترى هل كان قبوله شروط الانذار محاولة منه لاحراجنا •؟

ورد غوابيه :

ـ كنت بدوري أظن أن جنون العظمة قد يدفعه الى رفضها كلها • أو بعضها على الاقل • وعلى كل ، وكما قلت في الامس : ان توقيف زحفنا على دمشق سيقضي على نفوذنا في الشرق قضاءمبرما ••

ورد غورو وهو ينسحب الى الداخل :

ـ كما أن احتلال العاصمة سيفت من عضد الثورات القائمة ويعجل باطفائها ، اذا لم يخمدها على التو ••

وتوقف الجنرالان أمام خارطة كبيرة فرشت فوق المنصة ، وحددت بعض احداثياتها بغرس الدبابيس • وأشار غورو برأسه نحو نقاط معينة وهو يغمغم :

ـ ستنتهي حلب غدا أو بعد غد •• ومحطات حمص وحماة أصبحت بأيدينا ••

وسأل غوابيه فجأة :

ـ وما قصة ذلك القطار يا سيدي الجنرال ؟٠

ورد غورو في أسف :

ـ اقتلع بعض المخربين سكة الحديد قرب محطة حمص ، فهوى القطار وتفجرت الذخائر وقتل جميع من فيه ٠٠ والدنادشة يعيقون سيرنا كثيرا ٠٠ وهذه مشكلة المشاكل ، أولئك الذين يهيجون الناس ضدنا ٠٠

وتناول غورو لائحة من على طاولته ولوح بها في الهواء :

ـ هذه لائحة باسمائهم ٠٠ « صافي ، كاديش ، كساب ، اشمار ، وآخرون ٠٠ » وعند وصولنا سننتهي منهم قبل الاتيان بأي عمل ٠٠ كما أن حكومتي في دمشق قد شكلت نهائيا ٠٠ كم الساعة الآن ؟ الواحدة ٠؟ حسنا ٠ ان بعض مرافقي الملك يطلب منا مرتبات خيالية ٠٠ لا بأس ٠٠ ان بنكنا يطبع الاوراق دون حساب ٠

وتوقف الجنرال عن الحديث ٠ ثم رفع رأسه وقد استرجع هيبته المتعرجفة ، وأصدر أوامره :

ـ اسمع ايها الجنرال ٠٠ بعد ثلاث ساعات يبدأ الزحف ٠ ولتكن الساعة الرابعة وثلاث وثلاثون دقيقة من الصباح هي ساعة الصفر ٠٠

وشد الجنرال غوابيه قامته ، وطرق عقبي حذائه ، وأدى التحية العسكرية اللائقة ٠ ثم استجاب لرفرفة جناحيه اللذين طارا به الى السهول ٠٠

كانت القيادة الفرنسية قد وضعت لاحتلال دمشق خطة محكمة التنسيق ٠ وقد بنى جنرالاتها هذه الخطة على أساس أن تنفذ في أقسى الظروف ، مفترضين انهم سيجابهون قوى تفوقهم خبرة وعتادا وعددا ، في أرض محكمة صعبة في غير صالحهم ٠ وحشدوا من الادوات والجند والامكانيات ما يكفل لهم النصر في اسوأ الحالات ٠ وعند وضع الخطة استعرضوا حركات الحرب العالمية ٠ ودرسوا بالتفصيل أرهب معاركها ٠

حللوا مواقع ( نهر المارون وتنبرغ والدردنيل وبحر البلطيق ) ومعـــارك ( السوم وفردان وباريس ) • وخلصوا الى اتخاذ تكنيك وتكتيك جهنميين• مدخلين في اعتبارهم ، وفي دقة متناهية ، الوضع العام والخاص،والاتجاهات، ومراحل السير ، ونقاط التوقف ، والاهداف القريبة والبعيدة المدى وأوضاع العدو والصديق ، ومهمات القوات العامة ، والاحتياط •• غير مغفلين تعاون صنوف الاسلحة من برية وجوية وثابتة ومتحركة • وبالاجمال كانت خطة خليقة بأن تطبق لاحتلال امبراطورية أبراجها من فولاذ وحماتها من الشياطين•

كان الجيش الزاحف يضم فيالق قناصة ، وألوية مشاة،وكتائب خيالة، ومفارز رماة ، وسرايا مدافع رشاشة ، وفصائل هندسة ، ودبابات هجوم ، وسيارات مصفحة ، ومدافع من عيارات مختلفة ، ثقيلة وخفيفة وجبليــة وأرضية، بالاضافة الى اسراب طائرات قصف وطائرات استطلاع، مستخدمين في نقل عتادهم ، سكة القطار ، وعربات اتوماتيكية ، وعربات تجرها دواب ، وبغالا وخيولا وآدميين • منتشرين عبر الطرق الملتوية ، وبطون الوديان ، وظهر السهول ، وسفوح الجبال • مستطلعين لدى كل خطوة ما يمكن أن يبرز أمامهم من حركة أو علامة من علامات العدو ••

بدأت القوى الفرنسية زحفها في تمام ساعــة الصفر ، فعبرت نهــر الليطاني بعد أن وجد المهندسون ان الجسور سليمة والمياه آمنة ، وحينما تقدمت الى الامام بضعة كيلو مترات ، لاحظ الجنرال غوابيه أن لا حس ولا انس ، ولا حتى ما يعكر صفو السلام • وخالجه نوع من الشك الذي يعتري العسكريين • وظن بأن انسحاب الجيش « الشريفي » ـ كما كان يسميه ـ كان خطة مدبرة للايقاع به وبجيوشه ، لهذا أمر قواده بالتقدم مع نشـــر الجنود على فرج ومسافات ، وأخذ كامل الحيطة والحذر ، والاستعداد التام لكل طارىء • ولكن ما أن وصلت مفارز الاستطلاع الى سفوح جبال مجدل عنجر واستولت عليها دون طلقة واحدة حتى وجد الجنرال الا مبرر لاضاعة

الوقت ، فأمر قواده بجمع الجيش والسير به في طريق دمشـــق مباشرة ، وامتطى هو صهوة حصانه وسار وراء المقدمة ٠

وحوالي الظهر أعلم الجنرال بأن سيارة آتية من الشرق على الطريق الرئيسي ٠ فأمر بأن توجه اليها فوهات الرشاشات دون اطلاق ، ودون أن يتوقف الرتل ، عن المسير ٠ وعندما وصلت السيارة الى محاذاة الجنرال ، هبط منها ضابط فرنسي برتبة كولونيل ، في حين ظـــل قابعا في مقعدها الخلفي ثلاثة ضباط يرتدون الملابس العربية ٠ وصاح غوابيه في جذل :

ـ هو ٠ كولونيل كوس ٠٠ ماذا تحمل وراءك ؟

كان كوس أحد أفراد البعثة الفرنســـية التي تقــوم مقام التمثيـــل السياسي والعسكري لدى الشريف فيصل ، ورد كوس في جد واهتمام :

ـ انني لا أفهم شيئا يا سيدي ٠٠ انكم تحتلون الاراضي الشريفية مع أن الملك أذعن لجميع مطالب المفوض السامي ٠٠

ورد غوابيه في بساطة متناهية فيما هو يربت على عنق حصانه :

ـ لدي أمر من المفوض السامي بالزحف على دمشق ، وأنا أنفذ هـذه المهمـــة ٠

وتوقف أحد السنغاليين المشاة عند قائمة حصان الجنرال ، وراح يحك شفتيه المحترقتين احداهما بالاخرى ويطرف عن جفنيه قطرات العرق المتصبب ، كان يحمل بيديه بندقية قصيرة ركب الحربة في اعلاها ، ووضع اصبعه على الزناد ٠ ورفع السنغالي رأسه حذاء الجنرال ، وكأنه يشـــكو اليه التعب والظمأ الشديد ٠ ولكن رأس الحصان تحرك في هذه اللحظـة مما جعل القدم تشير ـ بطريقة لا ارادية ـ اشارة خاصة ، فهم منها السنغالي أن يتابع سيره فجرض ريقه في صعوبة فائقة ، وراح يجرر مسامير حذائه على الارض ٠ واعترض كوس في براءة :

ـ ولكن يا سيدي لا أظن بأن الجنرال غورو يحاول أن ٠٠

وقاطعه غوابيه دون اهتمام :

ـ انك تؤخرني أيها الكولونيل ·· أنا من جهتي أنفذ مهمة عسكرية محددة تحديدا واضحا ·· أما القضايا السياسية فعليك أن تراجع بها هناك ··

وقبل أن ينتهي من رده ، لوح بسوطه في الهواء ، فقفز الحصان ، وفر من حوله جماعة من الهنود الصينيين وهم يلهثون من الذعر والعطش · في حين عاد كوس الى سيارته ، وصعد الجبال الى عاليه ··

وعند حوالي الظهر أفادت طائرات الاستكشاف بأن لا قوة شريفية على طول الطريق · وبناء على هذه الافادة ، قرر الجنرال الاسراع بالسير لاكتساب أكثر ما يمكن من الاراضي السورية قبل غروب الشمس ، وفي الساعة الخامسة من بعد الظهر كانت مقدمة الجيش قد وصلت الى « عين جديدة » ـ أربعين كيلو مترا غرب دمشق ـ · وهنا أمر الجنرال بواقه بعزف بوق الاستراحة ، بعد أن لاحظ أن حصانه بدأ يشكو من الحر والعطش · وبرغم أن البوق كان يبعد عن القائدمسافة تزيد عن الخمسين مترا ، وبرغم أن غوابيه كان فارسا ماهرا ، فما أن انطلقت الصرخة الاولى من البوق حتى سقط الجنرال عن حصانه ، وفيما هو ينقلب في الهواء أحس بأن القيامة قد قامت ، وأن كل شيء قد تبعثر بفعل زلزلة هائلة بدلت النظام من جذوره ··

والواقع أنه لم تكن هناك قيامة ولا زلزال وانما كان شيئا طبيعيا جدا ومألوفا للغاية ، وهو ينبوع صغير من الماء · كانت البهائم أول من شم الرائحة · فاندفعت الى السهل اليميني ، تتسابق بأثقالها وأحمالها وبما شدت وراءها من عربات ومدافع وذخائر ، مقطعة صروعها ، باصقة شكائمها، غير مبالية بضرب السياط ولا بمن وراء هذه السياط · وأفاق الجند على هذه

الرؤية فألقوا بأسلحتهم وتعلقوا بأذناب الحيوانات ، أملا في أن يصلوا في سرعة الى ما يطفىء لهيب اجوافهم ٠

ووقف الجنرال يتأمل المشهد وقد طار صوابه من الرعب ٠ لم تـر عيناه غير عربات مقلبة ومدافع مبعثرة وعتاد محطم وأسلحة ضائعة وجنود منطلقين على غير هدى ، كانت الحيوانات تتسابق وتتشابك ويصطدم بعضها ببعض وتدعس في بطون الحوذيين ، تتخطى العسكر والعسكر يتخطونها ، صائحين مرغين مزبدين ، ولم تسمع اذنا الجنرال ، في غمار تلك الفوضى الرهيبة ، الا صخبا وشتائم ، ولعنات ، وارتجاج اعتدة ، ووقع حوافر ، وفرقعة سياط ، وصرخات استغاثة وصيحات ألم ٠ وكان الازدحام يتزايد كلما اقترب الخليط المنفر من عين الماء حتى أن الجنرال بات يحسب بأن الارض قد انبثقت منهـا أبالسـة وشياطين ٠ وكلما اقترب الحشـد من عين الماء كانت أصوات جديدة تنبعث الى الوجود ٠ يتميز بينها فرقعـة السطول والمطرات والاواني والقصعات وسقوط الجند والحيوانات في الماء ٠ ولم يستسلم الجنرال طويلا الى هذا الموقف ، بل أنه التفت حوله صارخا على أركان حربه ٠ كان الضباط الصغار الذين قطعوا المسـافة سيرا على الاقدام ، قد انساقوا مع الفوضى وهرعوا مع الهارعين ٠ وانتفض امار فيالق والالوية والكتائب ، وراحوا يركضون هنا وهناك ، زاعقين لاعنين مصـدرين أوامر ليس لها معنى ، ولكن اصواتهم كانت تضيع في الهدير ، ثم يقفون وقد تملك اليأس حناجرهم ، بادية على وجوههم المتقلبة المكفهرة خيبة الامل في ايقاف هذه الفوضى أو الحد منها ٠ ومما زاد الامر سوءا هو سدنة العربات والدبابات ، لانهم كانوا يزحمون الحشد ليشربوا ويملأوا خزانات عرباتهم ٠ ولا شك في أنه لو بقي في مجدل عنجر أو في السفح القريب من عين الماء ، لو بقي مدفع واحد أو مفرزة من الجنود ، لكان مجرى التاريخ الحديث قد تبدل من أساسه ٠

وبعد أكثر من ساعتين ، وعندما بدأ النظام يعود تدريجيا الى طبيعته ، أحصيت الخسائر الناجمة عن العطش. وعزل الجرحى والمصابين من الجنود. وأبعدت الخيول النافقة . وعملت الورشة الميكانيكية المرافقة على اصلاح ما أمكن أصلاحه من الاسلحة والعتاد . ثم تقدم الكولونيل ( بتلا ) أركان حرب القيادة العامة من الجنرال غوابيه ، واشار عليه باتخاذ اجراءات هامة جدا . لفت نظره الى أن الطريق الصاعدة شرقا باتجاه دمشق ، تخفي وراءها وديانا ومنخفضات غير مأمونة الجانب وأرتأى أن ترسل الى قمة الطريق قوة مصفحة . أولا لاستكشاف الارض القادمة وثانيا : للسيطرة على الوادي المتعرج الذي يليه والمسمى بـ ( وادي القرن ) ، وللتحكم بالوادي التالي والمسمى ( بوادي الزرزور ) . وتفحص غوابيه الوضع مليا ، وبعد التشاور مع ضباطه ، قرر تنفيذ الفكرة قبل حلول الظلام . وفيما كان الجيش يقيم معسكره عند نبع الماء ، كانت خمس دبابات تصعد المرتفع لتقوم بهذه المهمة . وقال غوابيه في نفسه وهو ينزع حذاءه : « سيكون الجيش خلال الليل في مأمن من كل هجوم . وفي الصباح الباكر سأكون قادرا ومهيئا للزحف الى دمشق .

كانت الطريق الصاعدة كثيرة الالتواءات . تدور بشكل حلزوني حول جبل مرتفع . وكانت الدبابات الخمس تسير بالرتل ، تفصل ما بين الواحدة والاخرى أكثر من خمسين مترا ، وكان السائقون يجدون عناء كبيرا في تغيير السرعات وفي الالتفاف حول المنعطفات الضيقة . وعندما أشرف الرعيل على وادي القرن ، تلقى آمره ايعازا لاسلكيا بعبور الوادي والتوقف عند مدخل وادي الزرزور . وكانت الطريق الهابطة التي تشكل الوادي محصورة كمضيق بين جبلين وكلما تدنت في الانحدار كلما ازدادت ضيقا وعمقا . وبعد قليل، وفي الوقت الذي شاهد سائق الدبابة الاولى أنه يكاد يصطدم بالجبل ،

تكشف له منعطف صغير ، فاضاء النور ، ثم غير السرعة وعطف مقوده نحو اليمين ٠ وما كاد سائق الدبابة الثانية يحذو حذوه حتى رفع الجنرال غوابيه رأسه داخل ملجئه الواطىء السقف وهتف :

ـ كولونيل ٠٠ هل تسمع شيئا ؟ ٠

●

## - ٣٣ -

كان يوسف العظمة قد ترك سماعة الهاتف قبل ان ينتهي الصافي من شرح تعليماته ، وعكف مع الوزراء الآخرين ورجالات القصر على تهدئة ثائرة الملك ، الذي راح يصرخ :

ـ هدئوهم أين الحرس هدئوهم ··

ثم فقد اتزانه فجأة ، واخذ يطرق رأسه بالجدار ويشد على لحيته وهو يندب الاحداث والظروف الخبيثة · وقد افلح يوسف العظمة في اعطاء أوامر مشددة الى رئيس الحرس بالا يتصدى للمتظاهرين · ثم وكب عربته المكشوفة النمسوية الصنع ، واوعز الى سائقه المدعو « خيري » بالتوجه الى ميسلون ، بعد ان غهد الى عبد الرحمن الشهبندر بمهمة افهام المتظاهرين حقيقة الحالة بكل حذافيرها · وعندما وصل الى الربوة تذكر شيئا · فاهاب بالسائق ان يعود على الفور الى محطة البرامكة · وهناك طلب الى مأمور المحطة

اعداد جميع العربات والقاطرات وتهيئتها لنقل المتطوعين وانزالهم في محطة التكية . واثناء عودته وقبل ان يصل الى دمر ، طلب مرة ثانية من السائق ان يرجع . وتوجه العظمة الى القلعة ، واشرف على الترتيبات التي أوعـز باتخاذها ، من أجل نقل الذخائر والعتاد والاسلحة الباقية الى ميسلون بأي وسيلة ممكنة . كما كلف العقيد « تحسين الفقير » ، الـــذي انسحب من الخطوط الامامية بناء على الاوامر ، كلف بجمع ما تبقى من الجيش مهما كان عدده ، وان يشكل منه قوة عسكرية لترحل بعد تهيئتهـا على الفـــور الى ميسلون ، حيث ينتظرها هو هناك .

وقطع السائق شوارع المدينة واستقام على طريق بيروت ، ولكنه ماكاد يضغط على دواسة السرعة ، حتى سمع من الخلف صرخة غريبة :

ـ الى اين ذاهب بي يا ابله ؟

وضغط السائق على الشكائم . والتفت الى الخلف في حيرة بالغة دون ان يجيب ، كان السائق « خيري » ضخم الجثة طويل القامة ممتلىء الوجه ، يبدو لاول وهلة انه خلق ليؤمر فيطيع ، ومهما كان نوع هذه الاوامـر . وصرخ العظمة في وجهه :

ـ الى اين ستأخذني ؟

واطرق السائق برأسه واجاب مغمغما :

ـ الى ميسلون .. ( دون أن يتبع كلمته بأية رتبة أو لقب ) .

ورد القائد وكأن شيئا لم يحدث ؟

ـ طيب يالله :

ثم أردف بعد ان بدأت العربة تتحرك :

ـ ولكن اوصلني اولا الى القصر ..

كان الوقت حوالي العصر . وكانت السـيارة تمخر براكبهـا عبـاب الشوارع التي كان بعضها فارغا فراغا تاما ، وبعضها الآخر مكتظا اكتظاظا

هائلا ، لدرجة ان السير فيها كان مستحيلا ، وكان يوسف العظمة ، وهو غائص في مقعده ، يرى كثيرا من الوجوه ، ويسمع اشتاتا من التعليقات والصيحات ، دون ان يفهم لما يراه أو يسمعه أي معنى ، كان مشتت الخاطر في صورة تتجاوز حد المعقول • ولبث بعد ان توقفت به العربة ، اكثر من نصف دقيقة قبل ان يسأل :

ـ هل وصلنا الى القصر ؟

وتقدم احد الحراس وفتح له الباب •

كان ما يزال بعض المتظاهرين يهتفون :

ـ فليسقط •• فليسقط ••

وهجم احدهم عليه وصرخ في وجهه وكان يهبط درجة العربة :

ـ عليكم ان تتحملوا النتائج •• عليكم ان تحاربوا •• في الصف الاول •• ايها •• الخونة ••

ولم ينظر الوزير اليه • حتى ولم يسمعه • كان يفكر في « مجدل عنجر » • كانت جبال مجدل عنجر تشرف على سهول البقاع ، وتسيطر على الطريق العام الذي يصل بين دمشق وبيروت • وترى من سفوحها حدود رياق في الشمال الغربي الى شتورا في الغرب • وكان قد كلف بحمايتها قوة تتألف من لواء مشاة وسرية رشاشات وبطاريتين ونصف من المدافع المختلفة العيارات • وكانت هذه القوى على قلتها ، كافية ـ نظرا لتمكنها من الارض ـ من دحر العدو او منعه من التقدم على الاقل • واصطدم العظمة اثناء دخوله بالشهبندر فاستقبله هذا في حرارة بالغة وهتف في شوق :

ـ اتفقنا •• سنرسل وفدا الى غورو لمفاوضته وايقاف الهجوم • لا تزعج نفسك كثيرا يا يوسف •• سينتهي الحال على خير الوجوه ••

ورفع القائد الى زميله عينين معتمتين وسأل في برود :

ـ ماذا ؟

قال الدكتور في حماس :

ـ سيذهب الوزير ( س ) مع المستشار ( ج ) لمفاوضة غورو ٠٠ واظن ان ذلك سيسوي الامور ٠ لقد نصحنا الكولونيل « كوس » بذلك ٠ ان برقية قبول الانذار لم تصل ٠ نظرا لانقطاع اسلاك الهاتف ٠٠

وهز العظمة رأسه رافضا سماع بقية الحديث ٠ واقتحم باب مكتبه فلاحقه الشهبندر قائلا وقد تبدلت لهجته :

ـ ماذا يزعجك يا يوسف ؟ قل لي ٠٠ ان الملك قد هدأ قليلا ٠٠ ولكنه يرى مع الاكثرية أن أية معركة نخوضها ستكون خاسرة ٠

ورد العظمة في مرارة وهو يقلب بعض الاوراق :

ـ الاكثرية ٠٠ الاكثرية هراء ٠٠

ثم انتصب فجأة وهتف بلهجة خطيرة :

ـ دكتور ٠٠ ان احدا لا يرى ٠٠ كان شفيق الصافي على حق ٠٠ هذا ما اقوله ٠٠

وعاد يقلب بين الاوراق وهو يكمل في سخط :

ـ لا ادري ٠٠ لا اعرف ماذا افعل لماذا عدت الى هنا ؟٠ هل تذكر اجتماعنا في دارك قبل تشكيل الوزارة ؟ لقد اشتركنا في الحكم وعلينا ان نتحمل المسؤولية ٠٠ هذا ما اعرفه ٠٠ مادام غوابيه قد اجتازمجدل عنجر ، فلن تستطيع قوة على ايقافه ٠٠ الوزير (س) هــه !٠ وماذا يمكنــه ان يفعل ٠٠ مع هذا المستشار ٠

وبدا على الشهبندر ، انه احترم انفعالات زميله الى مدى بعيد ٠ لهذا راح يماشيه :

ـ انا معك يا يوسف ٠٠ كان الصافي محقا ٠٠ ولكن الا ترى أنه قد افلت المارد من القمقم وهيج الناس في وجه الحكومة ؟ من يستطيع الآن ان يسيطر على الموقف ؟

ورد العظمة في تبرم :

ـ عن ماذا كنت ابحث ؟

والقى الاوراق جانبا :

ـ نسيت ٠٠ يجب ان اعود الى ميسلون لأوقف عملية الانسحاب ٠٠ هل جاء الصافي الى هنا ؟

ورد الشهبندر :

ـ لا ٠٠ ولكنني رأيت قاديش ٠٠ لقد أنقذ القصاب من الموت ٠٠ وجعل المتظاهرين يجلون عن القصر ٠٠

وفي هذه اللحظة قرع الباب ودخل الوزير ( س ) ٠ ووقف الرجال الثلاثة صامتين ينظر كل منهم الى عين زميله دون ان يقول شيئا ٠ وتحرك يوسف العظمة وقال لـ ( س ) ٠

ـ اخي ٠٠ انا ذاهب الى الجبهة لاعادة تنظيم الجيش على قدر الامكان فارجو باعتبار انك ذاهب الى المفاوضة ، ان تعمل على اكسابي اكثر ما يمكن من الوقت ٠

ورفع يده بالتحية ثم غادر الغرفة ٠

يعتبر طريق دمشق بيروت من اغرب الطرق التي عرفتها الطبيعة ٠ فسلاسل الجبال المتلاحقة التي تعترضه ، تجعله لا يستقر على حال ، فهو يتحايل بشتى الاساليب حتى يخترقها جميعا ، ان صعودا مباشرا ، او لفا ودورانا ، او احاطة بشكل حلزوني ، ثم يهبطها عن الاسلوب نفسه الذي ارتقاه اليها ، واحيانا يجتاز سهولا واسعة وممرات ضيقة ، متخذا في كل مرة شكلا عجيبا من الاشكال ٠ وهضبة ميسلون ـ التي تبعد ٣٠ كيلو مترا عن المدينة ـ تكون حلقة في هذه السلسلة ٠ كما انها تعتبر هضبة خيرة لانها تجود بنبع غزير من الماء ، يسيل عند اقدامها ويسقي كل شيء حي ، كما انها تعتبر حصنا منيعا ومركزا تعبويا هاما ، بصفتها تشرف على مضيق ٠

وعندما وصل يوسف العظمة الى هناك عند غروب شمس ذلك اليوم ، كانت مدفعية مجدل عنجر قد وصلت من الغرب في انسحابها المرير ٠

فاستنادا الى اوامر القيادة ـ تنفيذا لشروط غورو ـ اخلت القوات المرابطة في مجدل عنجر اماكنها وعادت الى دمشق ٠ وكان لواء المشاة مع سرية الرشاشات قد وصلا الى المدينة عند الظهر ٠ محمولين على السيارات٠ اما المدفعية ، باعتبار انها مقطورة على البغال ، فقد بعثرت جزءا من ذخيرتها اثناء التراجع ، واضطرت ان تتأخر مع سدنتها وضباطها ٠ وفي منتصف الطريق شاهد قائد المدفعية أن القوات الفرنسية تسير في اعقابه ، فعجل السير ما امكن حتى لا تتلاقى وحداته مع جيش العدو الزاحف ٠ وما ان تجاوزت المدافع وادي الزرزور ووصلت الى ميسلون ، حتى اصدر قائدها امرا بالتوقف ٠ واتصل بالقيادة العامة ليخبرها عن مجرى الحوادث ٠ فاستلم يوسف العظمة زمام الموقف على الفور ، وامر القائد بالتوقف في مكانه ، واتخاذ هضاب ميسلون خطا دفاعيا ، وأوعز اليه بحفر التحكيمات اللازمة ، والدفاع حتى الرمق الاخير ، وذلك ريثما يسنده بقوات مشاة ويحضر هو بنفسه ٠

وعندما وصل العظمة الى ميسلون في المساء ، عين اماكن الدفاع ، واعطى بعض الارشادات ، ونقل مدفعين من مربضيهما ، واختار لهما مربضين اكثر ملاءمة ٠ وفي الساعة السابعة تقريبا ، سمعت اصوات محركات الدبابات الفرنسية التي ارسلت للاستطلاع ٠ فوقف الوزير بنفسه كراصد للمدفعية واعطى ايعازات النار ٠٠

وكان ان صرخ غوابيه ٠

ـ كولونيل بتلا ٠ هل تسمع شيئا ؟

ورد بتلا في رعب :

ـ اسمع قصفا يا سيدي ٠٠ لا بد من ان حادثا قد وقع للمدرعات ٠٠

وبعد قليل ، حضر عامل اللاسلكي وقدم للجنرال برقية تفيد بأن المدفعية السورية تصدت للرعيل عند خروجه من وادي الزرزور ، وان دبابتين قد عطلتا اما الثلاثة الباقية فقد تراجعت على الفور قبل ان يصيبها الاذى .

●

## - ٣٤ -

غادرت دمشق بعد العصر سيارة مفتوحة تضم الوفد المفاوض ، والمؤلف من الوزير ( س ) والمستشار ( ج ) والكولونيل( تولا ) وقد ورد الاسم الاخير في مجال بحث قضية نزول القوات الفرنسية في السواحل العربية مع لورانس . كانت السيارة تسير في بطء شديد ، بسبب ازدحام الطريق بالجماهير الزاحفة ، وقوافل البغال والجمال وقطعات الجنود المبعثرة ، وكانت تضطر الى التوقف بين الحين والآخر ، انتظارا لتخلية الطريق من القافلين او الهارعين . وعندما توقفت السيارة في « الديماس » بسبب كثرة الجنود المنسحبين اخذ ( ج ) يسألهم : « من اين اتو والى أين يذهبون ؟ كم عددهم وماذا يعملون ؟ » وبما ان تولا يفهم العربيةلاحظ ( س ) ان هذه الاسئلة تضر بالمصلحة ضررا كبيرا فقال ل ( ج ) بالتركية :

ـ لا تنس ان صاحبنا يعرف العربية . وقد يستفيد من هذه الاسئلة

ويطلع بواسطتها على احوالنا فلا يجوز لك ان توجه الى احد امثال هذه الاسئلة ٠

وانقطع ( ج ) عن الاسئلة بناء على هذا الاخطار ، ولكن عندما توقفت السيارة مرة اخرى ، عاد يسأل الجنود متناسيا التحذير ، فاضطر ( س ) الى تكرار اخطاره ، وبلهجة اشد من الاولى :

ـ اما قلت انه لا يجوز ٠٠ انت جندي ، فيجب ان تكون اكثر تقديرا لهذه المحاذير ٠

وعندما توقفت السيارة مرة ثالثة ، عاد الرجل الى اسئلته السابقة٠ كما انه أخذ يتكلم مع تولا بثرثرة غريبة ، وينتقد زحف الجيوش الفرنسية بلهجة شديدة ولكن غير واعية ٠ ورد تولا عندئذ :

ـ المسألة ليست ذات شأن ٠٠ أظن أن القضية ستحل في سهولة ، ويتوقف الجيش عن الزحف ٠٠ ولكن ضباطنا مع أركان الحرب سيدخلون دمشق كترضية معنوية وتطوى بذلك القضية ٠

وأخذ ( ج ) يرد على أقوال تولا دون تبصر ٠ وبلهجة أكثر صراحة من المرة الاولى ٠ فاضطر ( س ) الى تنبيهه من جديد وتحذيره من ابداء الرأي في أية قضية من القضايا ٠ وحينما اجتازت العربية ميسلون ووصلت الى السفوح المطلة على وادي الزرزور ، شاهد ركابها جماعة من الجند ٠ وعلموا بأن يوسف العظمة قد انتخب الموقع المذكور لتجميع الجنود وتكوين الجبهة الجديدة ، شارعا في تحصين المنطقة بحفر الخنادق في مختلف الاتجاهات ٠ وقص الجنود على الوفد ما حدث هناك قبل مدة وجيزة ، من ضرب المصفحات الفرنسية من قبل المدفعية السورية ٠ وقد ظهر لاعضاء الوفد من ذلك انهم أصبحوا على مقربة من ساحة الحركات ٠ وانهم سيلتقون ببعض مفارز العدو بعد قليل من الزمن ٠ وعندما ودعوا الجنود وتقدمت بهم السيارة قليلا ،

شوهد يوسف العظمة يقف في المنعطف الذي حدث فيه الاصطدام · وما ان لمح ( س ) حتى تقدم منه وهمس في اذنه :

ــ اكرر ما كنت رجوتــــه منك ·· اكسب لنا اكثر ما يمكن من الوقت ··

وهبطت السيارة سفح الجبـل في بطء كبير بسبب وعورة الطريق وكثرة المنعطفات · ثم قطعت وادي الزرزور عرضا ، فوصلت الى مدخل وادي القرن ، وأخذت تقطع الطريق الملتوية التي تمتد على طول الوادي · وكان ظلام المساء قد أخذ ينتشر ، فاضطرت العربة الى السير في بطء أشد من ذي قبل · وبعد أن قطعت في جوف الوادي بضعة كيلو مترات ، صادف الوفد مفرزة فرنسية مع دبابتين مقطورتين معطلتين · وعندما شاهد قائد المفرزة المقطورة الكولونيل « تولا » بين الوفد ببزته العسكرية الفرنسية ، اقترب منه واخذ يقص عليه ما حدث ، بلهجة تجمع ما بين الحيرة والهياج :

ــ أطلقوا علينا النار ، اطلقوا علينا النار ··

ونزل تولا من العربة ، وانتحى بالضابط زاوية من الطريق ، وبعد أن كلمه مدة من الزمن ، عاد الى السيارة قائلا :

ــ سنصل عما قريب الى مقر قيادة الحملة ··

وتابعت العربة طريقها على طول ملتويات وادي القرن ، حتى بلغت صحراء « الجديدة » ، حيث شوهدت عن بعد اضواء مبعثرة وعرف أن قيادة الحملة تخيم هناك · وبلغت السيارة بداية المعسكر · فنزل تولا وحده متوجها نحو المخيم ، وغاب مدة طويلة · ثم عاد واوصل الوفد السوري الى خيمة القيادة · وهناك قدم الجنرال غوابيه الى الموفدين السوريين ، كما قدم اليهما الكولونيل بتلا رئيس أركان جيش الجنرال · وبعد أن تم التعارف قال ( س ) بلهجة دبلوماسية :

ـ ان الحكومة قد قبلت جميع الشروط الواردة في الانذار ، وسرحت الجيش عملا بتلك الشروط ، كما تأكدتم من ذلك ولا شك ، خلال تقدمكم الى هنا ·· فيظهر اذن أن تقدم جيشكم كان نتيجة سوء تفاهم مؤسف ·· وأنا ذاهب الآن الى مقابلة الجنرال غورو في عاليه ، فأرجو أن توقفوا الجيش حيث أنتم الآن حتى يتيسر لي اتمام المقابلة ·

ولكن الكولونيل بتلا رد في تعصب :

ـ نحن يا سيدي الوزير جنود ·· لا نعلم شيئا عن سير السياسة ، ولا نفكر فيها أبدا ·· تلقينا من مراجعنا المختصة أمرا بالزحف ، فزحفنا · ولا يسعنا أبدا أن نتوقف عن مواصلة تنفيذ الخطة التي وضعناها لاي ملاحظة سياسية كانت ·

وتابع « بتلا » حديثه في أنفة وفي شكل حازم :

ـ ومع هذا اذا كنا مسؤولين عن الحركات العسكرية ، فاننا نستطيع أن نعقد معكم هدنة لمدة أربع وعشرين ساعة ، على أساس قبول بعض الشروط ··

قال ذلك وهو يقود الوزير السوري الى منضدة كبيرة عليها خريطة مفصلة منارة بالمصباح · وأشار فيها الى موقع المعسكر ، محاولا جهده أن يخفي الاسباب الحقيقية التي تدفعه لعقد الهدنة وراح يشرح :

ـ نحن الآن في هذا الموقع · ولا نرى بأسا في الموافقة على التوقف فيه حتى صباح ما بعد الغد ، على شرط أن تقبلوا أنتم هذين الشرطين :

أولا ـ يعتبر الوادي الذي يمر من تحت سفوح خان ميسلون ، حدا فاصلا بين الجيشين ، فتنسحب الجيوش السورية الى ما وراء هذا الوادي ، وتكتسب الجيوش الفرنسية حرية الحركات في هذه المنطقة ·

ثانيا ـ تنقل المؤن التي تحتاج اليها الجيوش الفرنسية المرابطة هنا بواسطة السكة الحديدية من « رياق » الى محطة « التكية » ·

وأشار « بتلا » – خلال حديثه على الخريطة – الى الوادي والمحطة السكة الحديدية ، ثم ختم شروطه قائلا في حزم :

– واذا لم تقبلوا هذين الشرطين فاننا سنواصل الزحف ٠

وفي لمحة خاطفة استعرض الوزير السوري قصة الذئب والنعجة ٠ وعلى الفور وافق على هذين الشرطين ، نظرا لما يعرفه عن حالة الجيش العربي من تفكك ٠ وعاد الى سفوح ميسلون لايصال أخبار هذه الهدنة الى يوسف العظمة ٠ وبرغم جميع الاعتبارات ، وجد العظمة نفسه مضطرا للسرور ، لان هذه الهدنة الظالمة أتاحت له فرصة من الوقت ٠ واستأنفت سيارة الوفد سفرها نحو الغرب ٠ فدخلت الاودية التي تلي « الجديدة » وهناك أخذت تضطر الى التوقف ، لان الطريق كانت محتشدة بقوافل العدو ٠

وصلت السيارة أخيرا الى « المريجات » عند الفجر ، حيث أخذ افرادها يشاهدون على طول الطريق أكداسا مكدسة من الاسلحة والعتاد والذخائر ٠ وعندما توقفت السيارة في « عاليه » صباح اليوم التالي نزل « تولا » عند باب قصر غورو ٠ غاب مدة طويلة ثم رجع يبلغ الوفد استعداد الجنرال لاستقبال الوزير المفاوض ٠

كان الجنرال يقف متهيئا أمام مكتب كبير ٠ وبعد أن صافح الوزير ( س ) باليد اليسرى ، أشار عليه بالجلوس ٠ وقد لاحظ ( س ) أن كم يد غورو اليمنى فارغ ، وتذكر أن الجنرال فقد نصفه في حروب الدردنيل ٠ أما المستشار ( ج ) والكولونيل ( تولا ) فقد راحا ينتظران في الحديقة ٠

جلس الجنرال على الكرسي بوضع عسكري ، مستقيم الجذع مرفوع الرأس ٠ وبعد ان قرأ رسالة الايفاد الموقعة من الملك فيصل بلهجة مدرسية ، أخذ يتكلم بنبرة هادئة ولكن جافة ٠ بدأ بتعداد الوقائع المذكورة في الانذار واحدة فواحدة ، بالكلمات والتفاصيل نفسها ، وكأنه يكرر نصوص الانذار

عن ظهر قلب ، دون أن يحذف منها شيئا أو يضيف اليها شيئا ٠ وقد بدا وهو يلفظ الكلمات انه كان يفكر بأشياء أخرى ٠ وبعد ذلك ذكر كيف اضطر الى ارسال الانذار ، وكيف قبل تمديد المدة يومين آخرين ، الى أن وصل بالحديث الى قضية جواب القبول ٠ وهنا بدأ يتكلم بلهجة مغايرة :

ـ انتظرت جوابكم حتى منتصف الليل ٠٠ وبقيت انتظر بعد ذلك أيضا مدة من الزمن ٠٠ ولما لم يأت أي جواب اصدرت أمري الى الجيش بالزحف الى الامام ٠٠ وأما البرقية التي تنبيء عن قبول الشروط ، فقد وصلتني بعد مرور نصف ساعة على صدور أوامر الزحف ٠

قال ذلك ثم توقف عن الكلام لسبب لا يعرفه الا هو ٠ وكان ( س ) قد أصغى الى حديث الجنرال اصغاءا تاما ، دون ان يقطعه بحرف ٠ وعندما رآه يسكت ، عقب على كلمته الاخيرة قائلا :

ـ ولكن يا سيدي الجنرال لا بد من أنكم اطلعتم في الوقت نفسه على البرقية المذكورة ، وكانت قد سلمت الى ممثلكم في دمشق قبل منتصف الليل بست ساعات ٠٠

ورد الجنرال غورو على الفور :

ـ نعم ٠٠ اطلعت على ذلك أيضا ٠٠ غير أن البرقية تأخرت « مع الاسف » في الطريق أكثر من عشر ساعات ٠ وقد علمت بعدئذ أن هذا التأخير نتج عن انقطاع الاسلاك بين الزبداني وسرغايا ٠٠

ولسبب ما ، أضاف :

ـ كما علمت أن ذلك نجم عن عمل احدى العصابات ٠

ثم اردف في حكم قاطع :

ـ ولما كانت السياسة التي سارت عليها حكومتكم قبل ذلك ، هي التي افسحت مجالا لتشكيل العصابات ، فان مسؤولية هذا التأخر يجب أن تقع عليكم في طبيعة الحال ٠٠

وهنا رأى ( س ) أن يتبسط في الحديث ٠ وان يشعر خصمه بأنه لن يكون نعجة لا حول لها ولا قوة :

ـلا بد أن ممثلكم يا سيدي اعلمكم بأن حكومتنا لم تكتف بقبول الشروط بل أقدمت على تنفيذها أيضا ٠ فقد أصدرت الاوامر بتسريح الجيش وسحب القطعات من مواقعها ، وتعرضت من جراء ذلك الى سخط الجماهير ، واضطرت الى استعمال السلاح لتسكين الهياج العام ٠٠

ورد غورو في تخاذل :

ـ نعم عرفت كل ذلك ، واعترف به ٠ ولكن ماذا كنت أستطيع أن أعمل والبرقية لم تصلني في حينها ؟

ورأى الوزير أن يذكره بالبرقية الشخصية التي كان قد أرسلها اليه الملك فيصل ٠ فقال متحصنا بمغزاها :

ـ ولكن يا سيدي الجنرال ٠٠ انكم تذكرون ولا شك أن الملك فيصل أرسل لكم برقية تعلمكم بانه قبل الشروط بمجموعها ، وكانت مؤرخة بتاريخ ١٩ تموز ، وقد تسلمتم هذه البرقية ، بدليل انكم ارسلتم جوابا تظهرون فيه ارتياحكم لها وتشكرون الملك عليها ٠

ولكن الجنرال قاطعه متعنتا :

ـ نعم ٠٠ غير أنني طلبت في الجواب نفسه تأييدا رسميا لما جاء في البرقية ٠٠ كما أن طلبي لم يكن محصورا بقبول الشروط بل كان يتضمن تنفيذها أيضا ٠٠

راح الوزير ( س ) يتأمل سحنة الجنرال في طيبة وعطف مفروضتين ٠ ورد في تحبب بغيض :

ـ ان الطلب المذكور في الانذار كان يتضمن الشروع في التنفيذ ٠ وهذا قد حصل فعلا ٠ واما اتمام التنفيذ ، فان الانذار نفسه ضرب له موعدا أطول من ذلك ٠ وهذا الموعد لم ينته بعد يا سيدي ، فهو يمتد حتى آخر

هذا الشهر حسب النص الوارد في هذا الانذار • راجعوا نص الانذار ••
ارجوكم راجعوه ••

وتثاءب الجنرال في ضجر :

ـ ولكنني كنت طلبت في البرقية التي ارسلتها جوابا لبرقية الامير تأييدا للقبول بوثيقة رسمية تبين الشروط شرطا شرطا •• أعني •• كل شرط على حدة •• هل هذا مفهوم • ؟

وشرع الوزير فجأة يتميز غيظا • وقد أدرك أن تعليلات الجنرال ماهي الا أحابيل • وأنه عزم على أمر قرر تنفيذه مهما تكن النتائج والاسباب • وأجاب وهو يتخيل نفسه وكيل دفاع في قضية يائسة :

ـ ان التفاصيل يا سيدي كانت تتعلق بالشكليات على كل حال • وأنا اعتقد بأن تأخر برقية تتضمن التفاصيل الشكلية ـ بعد وصول برقية الملك الصريحة ـ ما كان يبرر تقدم الجيوش الفرنسية الى الامام ، لاحتلال المواقع التي كانت تركتها الجيوش السورية عملا بأحكام الانذار ••

ولكن الجنرال عاد الى معزوفته الاصلية متذرعا بقصة الذئب والحمل :

ـ مهما يكن الامر ، فان البرقية تأخرت ، وما كان يسعني أن أنتظر أكثر مما انتظرت ••

ورأى الوزير اليائس أن يغير مجرى المناقشة • فقال وهو يتنهد :

ـ لنترك هذه القضايا كلها جانبا •• لقد اعترفتم يا سيدي بأن برقية القبول وصلتكم بعد اصدار أوامر الزحف بنصف ساعة أليس كذلك •؟ أما كان من الاوفق اذن اصدار أوامركم السامية بتوقيف الزحف ؟

فرد الجنرال في ابتسامة خفيفة ، ومضت لفترة ثم ما لبثت أن اختفت:

ـ أنت لست جنديا يا سيدي الوزير • ولذلك لا تستطيع أن تقدر خطورة هذه المسائل حق قدرها • ان الجيش اذا بدأ الزحف لا يستطيع أن يقف في أي محل كان • انه لا يستطيع أن يتوقف قبل أن يصل الى مكان

يأمن فيه من جميع الطوارىء والاحتمالات ٠٠ مكان يوجد فيه الماء اللازم للجنود والحيوانات ٠ هذا من مبادىء الفن العسكري التي لا يمكن أن ينكرها أحد ممن لهم اطلاع على احوال الجيوش وحاجاتها ٠٠ لـذلك لم يكن في استطاعتي أن أصدر أمرا بالتوقف بعد نصف ساعة على صدور أمر الزحف ٠٠ هذا أمر واضح ٠٠ واضـح ٠٠

واستعاد الجنرال الابتسامة التي كانت قد ارتسمت على شفتيه عند بدء كلامه هذا ، ثم هز رأسه في طريقة تنم عن اعتماده الشديد على قـوة الحجة التي أبداها في هذا السبيل ٠

●

## - ٣٥ -

ظن العضو السوري المفاوض الوزير ( س ) بأن حجة الجنرال هـذه قد دججته بسلاح سريع المفعول ، فقال في تروٍ كبير :

ـ لنترك يا حضرة الجنرال كل الماضي جانبا · ان جيشكم الآن يرابط في موقع تتوفر فيه كل ما ذكرتم من ترتيبات الامن والتموين · وأعتقد بأنه لم يبق لديكم أي مانع يمنعكم من اعطاء الاوامر بانسحابه الى قواعده ·

ويبدو أن الجنرال لم يكن متحصنا ضد مثل هذه الاقتراحات الغريبة، لانه فقد اتزانه فجأة ورفع يده صائحا في عصبية :

ـ أوه ·· نو ·· نو ·· نو ·

واقترن هذا الرفض بانتفاضة جسدية هائلة أعقبتها ردة غاضبة :

ـ اننا لم نعد نثق بكم ·· أبدا ·· أبدا ومن واجبنا أن نطلب منكم ضمانات جديدة ·· ضمانات ·· جديدة ··

قال الجنرال هذا ، ثم مد يده الى مكتبه واخرج منه مذكرة مهيأة من قبل • وكأنه كان ينتظر الوصول الى هذه النتيجة الحتمية كحتمية الموت • كان يستعجل ، وفي صبر فارغ هذه اللحظة المناسبة •

قال وهو يلوح بالمذكرة :

ـ هذه هي الضمانات التي نطلبها الآن :

ووضع المذكرة أمامه وأخذ يقرأ سطورها في هدوء تلميذ حفظ درسه • كانت المذكرة تبدأ بمقدمة قصيرة :

« •• ولو أن التأييدات المطلوبة لم تصل خلال المهلة المضروبة لذلك ، غير أن الجنرال ـ نظرا الى التدابير الاجرائية التي كان قد اتخذها الامير قبلا، يوافق على توقيف الزحف بالشروط التالية ••• »

وقرأ الجنرال الشرط الاول :

« على حكومة دمشق أن تنشر البيان المرفق الذي يوضح أسباب الزحف على دمشق ، كيف تم الاقدام عليه ، ثم كيف جرى وقفه •••• » •

وتناول الجنرال بعد تلاوة هذا الشرط الاول ورقة أخرى ، كان قد أعدها قبلا مع المذكرة نفسها • وقرأ منها ( البيان ) الذي كان يطلب نشره ، باسم حكومة دمشق ، عن قضية زحف الجيوش الفرنسية • على الرغم من قبول شروط الانذار وتسريح الجيش وسحب القطعات العسكرية من مواقعها • وبعد ان أتم غورو قراءة البيان ، عاد الى ذاكرته • واخذ يتلو الشروط الجديدة • وكانت هذه الشروط تدل دلالة صريحة على أن الفرنسيين لن يعدلوا عن فكرة احتلال دمشق مهما تنوعت الاسباب • بل انهم بهذه الشروط ، كانوا يسعون لخلق حجة للقيام بحملة أخرى ، وانزال ضربة جديدة • كانت احدى المواد تفسح أمام الجنرال غورو مجالا واسعا جدا لتحقيق هذا الاحتمال •

قال الوزير وقد تاه في دوامـة عنيفـة من اليأس وعدم الثقة بالشرف العسكري :

ـ أواه ياسيدي •• تصورا كم دهشت لهذه الطلبات الجديدة • فنحن قبلنا جميع الشـروط الواردة في انذاركم وشرعنا في تنفيـذ تلك الشروط وفقا لطلبكم • وأنا الآن لا أرى أي مبرر كان لتقديم ، مثل هذه الشروط والطلبات الجديـدة •

ورد الجنرال في انتصار :

ـ هذه ليست شروطا جديدة بل ضمانات جديدة ، أرجوك أن تميز جيدا •• ونحن نرى من واجبنا أن نحصل على هذه الضمانات •

وايقن ( س ) أن المناقشة في هذا الصدد لن تجدي أي نفع • فقال معتمدا على مسؤوليته الخاصة :

ـ ان الالفاظ لا تبدل شيئا من حقائق الامور يا سيدي • فأنتم تطلبون منا شروطا جديدة وأنا لا يسعني والحالة هذه الا أن أعود الى دمشق لاعرض شروطكم هذه على مليكي وزملائي هناك •

فاعترض الجنرال في شدة :

ـ أوه • نو • نو أنا لا أرى أي موجب كان لتأجيل حل القضية لان الامير أوفدك بسلطة كاملة •• كاملة • نعم •• كاملة •

قال ذلك ثم أخذ بيده رسالة الايفاد التي كان وضعها على جانب المكتب، وصار يقرأ منها بعض الفقرات : ( أوفدنا وزير معارفنا السيد ( س ) الى طرفكم مع تفويض تام •• ) •

كرر غورو التعبير الاخير ثم قال :

ـ أنت ترى أن الامير يقول : تفويض تام •• فأنت تحمل الآن منه سلطة كاملة وعليك اذن أن تستعمل سلطتك هذه دون أن تعود الى دمشق •

لك أن تقبل أو ترفض · ولكن عليك أن تفعل ذلك هنا من غير تأخـير أو تأجيـــل ·

غير أن الوزير ( س ) وجد أن مسؤوليته تقصر عند حد معين فأجاب :

ـ صحيح أن الملك كتب ذلك يا سيدي ، غير اني أؤكد لكم أنه لم يخطر في باله قط ، انكم ستطلبون منا شروطا جديدة ، فلا الملك ولا أحد من زملائي الوزراء فكر في مثل هذا الاحتمال · وكلنا كنا نعتقد اعتقادا جازما بأنكم عندما تطلعون على تنفيذ ما طلبتموه ، لن تترددوا في سحب جنودكم من الاماكن والمناطق التي احتلوها خلافا لاحكام شروط الانذار · فأنا لا أجد نفسي والحالة هذه ، مزودا بسلطة لاتخاذ أي قرار فيما يتعلق بهذه الطلبات الجديدة ، والتي فوجئت بها مفاجأة ···

وجفف الوزير العرق المتصبب من جبهته ، بالرغم من برودة المكان · فيما كان الجنرال يكرر كلماته السابقة :

ـ أقول لكم مرة أخرى بأنني لم أطلب منكم شروطا جديدة ، بل طلبت ضمانات جديدة لتنفيذ الشروط القديمة نفسها · وأنت يا سيدي الوزير موفـــد بسلطة تامة · فعليك أن تقرر حالا : اما قبول الشروط أو رفضهـــا ··

وكان غورو يفكر : « أتمنى أن تقال لي كلمة ( لا ) واحدة ، وأنا مستعد لان أقطع ذراعي الاخرى ·· ) ولكن الوزير المفاوض ، ويبدو انه عرف أمنية الجنرال ، لم يشأ أن يبقيه بلا ذراعين · فأجاب في تباطؤ :

ـ يا سيدي أنا اعرف ما قصده الملك وزملائي الوزراء من ايفادي الى هنا · وأنا لا استطيع أن أتخذ أي قرار ، لا بالقبول ولا بالرفض قبل أن أشاورهم في الامر ·

ونهض الجنرال رافضا في شدة وعنف :

ـ وأنا لا أسمح بتأخير القضية أبدا ان الامير زودك بسلطة مطلقة

فيجب عليك أن تستعمل هذه السلطة حالا · وان تجيب على الفور : نعم أو ···· لا ·

وتجاه هذا الاصرار الشديد رأى المفاوض أن يلجأ الى وسائل اقناع اخرى · وشعر بالاسى وهو يرى اسلحته تفل سلاحا بعد سلاح :

ـ ولكني لا أفهم حكمة لاصراركم في هذه القضية يا سيدي الجنرال · فأنا لم اطلب منكم مهلة جديدة · فالحركات العسكرية أوقفت بموجب الهدنة التي عقدناها مع قوادكم لمدة تنتهي صباح الغد · والآن الساعة العاشرة ، ويمكنني أن أصل الى دمشق ـ اذا سافرت حالا ـ قبل الثانية بعد الظهر · فاعرض القضية على الملك وبعد ذلك تعلمكم الحكومة قرارها قبل انتهاء مدة الهدنة المعقودة يوم أمس ·٠٠

ولكن الجنرال ظل « يغامر بذراعه » منتظرا كلمة الرفض :

ـ ومع هذا فلا لزوم للتأخير · لديك سلطة تامة للبت في الامر وحدك فعليك أن تبت فيه فتقول لا أو نعم ···

ولم تكن الشروط الجديـدة التي حوتهـا المذكرة غير طلب الموافقة والاعتراف بحكومـة غورو التي شكلهـــا في دمشق · وبعد أن استنفد الوزير ( س ) كل ما توصـل اليـه من الادلـة المنطقيـة والاستشهادات البالغة ، وجد أن يطرق العوامل العاطفية فقال :

ـ ولكن ، اسمح لي أن أسألكم يا سيدي الجنرال ، هل تعنون بذلك ابطال الهدنة التي كانت تقررت بيني وبين ممثليكم ·؟ ان هذا ما لا انتظره قط من قائد يمثل فرنسة العظيمة ويحمل بين يديه شرفها ، فاذا ما تمسكتم بوجهة النظر التي تبدونها طول الوقت ، فسيكون لذلك أثر أليم جدا · لانه سيكون أعظم خيبة عرفتها في حياتي ·· وسأعتقد أن كل ما قرأته وسمعته عن فرنسة ما هو الا ··

وهنا بدا على الجنرال انه تأثر كثيرا · واشتد تأثره في وجه خاص ، عندما سمع شرف فرنسة ، مما حمله على المناورة ورد وهو يتلعثم :

ـ فليكن ما تريد •• على شرط ألا يحدث أي تأخير جديد ••

واجاب الوزير في لهفة :

ـ اني اعاهدكم على ذلك • وسأذهب حالا لأرسل قرار الحكومة في أعظم ما يمكن من السرعة ، وقبل انتهاء مدة الهدنة المعقودة بيننا • اني اعاهدكم •• اعاهدكم ••

ثم تسلم بيده المذكرة والبيان ونهض مودعا • ولحق به الجنرال مذكرا • وقد ظهر من ارتباكه ، انه يخشى بالدرجة الاولى ، السيف المسلط على رأسه ، ( أوامر باريس ) •

ـ لا تأخير هه •• ارجوكم •• لاتأخير ••

فطمأنه الوزير رافعا يده ، ثم خرج من المكتب ، وهو يشعر كأنه نجا من كابوس كان يجثم على صدره • ولكنه ماكاد يبتعد عن درجات القصر ، حتى نسي الكابوس وصار يفكر في هول الكارثة التي تنذر بها المذكرة التي يحملها بيده ، خرج الى الحديقة • الى حيث كان يجلس ( ج ) والكولونيل « تولا » وقال لهما :

ـ فلنذهب على الفور ••

ونهض تولا قائلا :

ـ انتهيتما • حسنا فلنهييء السيارة اذن ••

ودخل الى مكتب الجنرال حيث تلقى امرا بأن يعمل جميع الوسائط ليؤخر وصول الوفد الى دمشق • وعندما رجع قال للوزير (س) :

ـ ان الجنرال يريد مواجهة ( ج ) بيك •• اذا أردت ••

ولم ير (س) معنى لهذا الطلب • كما انه لم ير مجالا للاعتراض عليه• ومع هذا فقد خشي أن يعود ( ج ) الى الثرثرة التي كانت صفة من صفاته البارزة فقال له بالتركية :

ـ لاتبد أي رأي كان •• لقد امتنعت انا بنفسي عن ابداء الرأي ،

حذار أن تقول شيئا يشعره بما سيكون عليه موقفنا من مطاليبه الجديدة ·

وعاد (ج) من مقابلة الجنرال بعد نصف ساعة بصحبته الكولونيل تولا الذي قال :

ـ ان الجنرال يرجوك أن تنتظر قليلا لأنه سيكتب رسالة خاصة للأمير · وهذا التأخير لايضر ، لأن هناك قطارا يتحرك من رياق الساعة الثانية عشرة والنصف ، سنسافر فيه ونصل الى دمشق قبيل المساء ··

أثارت فكرة السفر في القطار في نفسه مخاوف كبيرة · غير أنه لم ير أية جدوى من اظهار هذه المخاوف · فالوقت قصير ومحدود ، وسنان المقصلة سيهوي في كل لحظة · وها هو ذا ينتظر ايضا · وماذا ينتظر ؟ الجنرال يريد مقابلته « لأنه سيكتب رسالة خاصة للامير » لقد اعطاه الجنرال وقتا ، وها هو ذا يصرف هذا الوقت في كتابة الرسالة ·· انتظر ·· انتظر ·· انتظر ··والشمس تركض في السماء وعقارب الساعة لاتتوقف ، واعصاب الوزير (س) تتقصف · والله وحده يعلم كم ستستغرق هذه العودة في القطار · وسيتخذ الجنرال عدم وصول الجواب ذريعة للزحف الاخير ·

استقبله الجنرال واقفا ·· وسلمه كتابا خاصا ممهورا :

ـ أرجوك أن توصل هذه الرسالة الى سمو الامير ·· اني أناشد فيه وطنيته وكلمته الغالية ··

لفظ الجنرال هذه العبارة وهو يشيح بوجهه · هل من الحكمة اذن أن يسلم الامير عرشه وهو يحني رأسه شاكرا ؟

ها هي ذي محطة «رياق» · هنا تعبئات واستحضارات هائلة ، اكداس من قضبان سكك الحديد ، عوارض ، شاحنات ، صناديق ذخيرة · وأدرك الوزير ( س ) الغاية الاساسية التي رمى اليها الجنرال من سفر الوفد في القطار : اضاعة الوقت أولا ، واستغلال الفرصة لنقل مايحتاجه الجيش الغازي من مهمات · ولكن ·! أليس خط السكة مقطوعا في بعض

الاماكن ٠؟ ماهذه اللعبة الشيطانية ؟ وماذا ينبغي له أن يفعل الآن ؟ راح ـ وهو يتمشى على رصيف المحطة ـ يتذكر بنود الهدنة التي عقدهـا مع ( الكولونيل بتلا ) ، فيما كان ( ج ) و ( تولا ) يتمازحان خاليي البال ٠

سيستفيد (بتلا ) من الهدنة في منح الجنود استراحة طويلة ، بعد يوم من الزحف الشاق قاموا به في الجبال القاحلة تحت لهيب الشمس المحرقة ٠ وينتفض الوزير (س) فجأة :

ـ « سيتخذ الجنرال عدم وصول الجواب في حينه ذريعة » ٠ ويعود بأفكاره الى الهدنة ٠ سيعيد « بتلا » تجميع قطعاته المبعثرة ، وسيصفي النتائج المترتبة عن معركة « العطش » ٠ الوقت يمضي قطرة قطرة ٠٠ انه يلفظ انفاسه بالتدريج ٠٠ وسيتخذ الجنرال عدم وصول الخطاب ذريعة ٠ سيستفيد الفرنسيون من الهدنة ، في اظهار حسن النية امام القناصـل الاجنبية الذين يمثلون اوربا في دمشق ٠ وكان ( غوابيه ) قد استدرك اثناء عقد تلك الهدنة « ان توقف الجيش ذو محاذير ، فسيضيع علينا الفوائد التي جنيناها في تقدمنا السريع » ٠ ولكنه اضطر الى الموافقة عليها أيضا لأنها أعطته حرية العمل حتى ميسلون ، بالاضافة الى استعمال سكة القطار ٠ ولكن يوسف العظمة ايضا ٠٠ الا يحتاج الى وقت يسترد فيه الانفاس ٠؟

كان الوزير (س) يقف في محطة «رياق» ظهيرة ذلك اليوم ٢٣ تموز ٠ وهو يبدد أعصابه بددا ، ويبحث في نفسه عن طريقة ترد عن البلاد أخطار هذه المكيدة الجديدة ٠ ومضى على موعد سير القطار ربع ساعة ، ثم نصف ساعة ، والنقل والتحميل مستمران في صورة لاتدع مجالا لتوقع سفر قريب ، فاضطر أن يقول لتولا :

ـ لقد تأخرنا كثيرا ، وهذا التأخير أوجد في نفسي بعض المخاوف ، سنكون في الوادي عند حلول الليل ٠ واخشى أن يحدث مايضطرنا الى

التأخر أكثر مما يلزم · وبما اننا سنفقد بعد دخول الوادي كل وسائل المخابرة مع الجنرال ، فأرى من الضروري أن نعدل عن السفر في القطار ونسافر بالسيارة ، وفي الطريق نستطيع ان نخابر الجنرال في سهولة عند الاقتضاء ··

ولكن تولا أجاب :

ـ لم يبق مع الاسف مجال لذلك لان السيارة التي أوصلتنا الى هنا عادت الى عاليه ·

وأحس (س) بالمؤامرة فرد في هياج :

ـ نحن هنا في محطة عسكرية وبجانب معسكر كبير فيه كثير من السيارات وفي استطاعتك ان تطلب واحدة منها ·

ورد تولا في بساطة :

ـ ان هذا المعسكر وهذه السيارات لاسلطة لي عليها ··

وقال (س) في انفعال :

ـ كيف ؟ أعتقد ان القائد الكبير الذي يرافق مفاوضا رسميا ، يستطيع أن يستخدم أية عربة يصادفها في طريقه ··

وفي هذه الاثناء اقتربت سيارة عسكرية ووقفت في المحطة ، فهتف (س) :

ـ ارجو ان تطلب هذه السيارة ··

ولكن الكولونيل أجاب :

ـ ان السفر بالسيارة متعب جدا ، والسفر بالقطار اكثر راحة وأمنا وأنا أرى أنه من الاوفق لك ··

وهنا تدخل (ج) في الموضوع وأضاف :

ـ سيما وانت لست عسكريا ولم تعتد مشاق السفر ··

وبان على (س) أنه بدأ يفقد السيطرة على نفسه · وأجاب بعد أن

تكشفت له الخيانة :

ـ ليس هذا وقت البحث عن الراحة والمشقة . وأنا لن أستطيع أن أسافر بالقطار بعد كل هذا التأخير .. اسمع ياكولونيل .. اذا كنت لاتجد هنا عربة توصلنا الى دمشق ، فأنت تستطيع على الاقل أن تجد سيارة توصلنا الى مقر قيادة الحملة . ولا شك في اننا في القيادة ، سنتزود بواسطة لايصالنا .

وبدا على الكولونيل انه أحرج ، اذ اقترب من العربة وتحدث مع ضابط فيها ثم عاد يقول :

ـ تفضلا ستوصلنا الى ( تعنايل ) مقر قيادة الحملة ..

وما كاد (س) يتنفس الصعداء ، بعد أن قطعت العربة مسافة ٢٠٠ متر حتى توقفت . وقال تولا متنهدا :

ـ ماأسوأ هذه البلية .. أرجوك ياسيدي أن تقلع عن فكرة السفر بالسيارة ولنذهب بالقطار .

ولم يجب (س) بل انه قفز من العربة صائحا ومشيرا بيديه في يأس :

ـ سأعود سيرا على الاقدام .

وبعد ان سار مسافة الكيلو مترين التفت الى الخلف فوجد ( ج ) والكولونيل يتبعانه . وبعد قليل مرت سيارة فأوقفها تولا ، و.. وصل الوفد الى الجنرال غوابيه . وهناك دخل (س) الى المخبأ الواطيء السقف وراح يصرخ :

ـ لقد فارقت الجنرال غورو قبل مدة تزيد على ست ساعات ولاأزال هنا . ولا أعرف اذا استمر الحال على هذا الشكل متى استطيع اجتياز منطقتكم الى دمشق . لقد مضى أكثر من نصف المدة المحددة لاعطاء الجواب . لذا يجب عليكم أن تتخذوا التدابير اللازمة لتضمنوا لي مخابرة تليفونية مع الجنرال لأبسط له القضية ..

ورفع غوابيه رأسه متثائبا في ضجة :

ـ من الصعب جدا الاتصال بالجنرال ولانعرف اين هو الآن ··

وقدر للوزير المفاوض أخيرا ان يصل الىدمشق ، ويدخل فور وصوله الى قصر الملك في وقت متأخر من ليلة ٢٤ تموز (يوليو) وهناك سرد على مسامع الملك والوزراء بالتفصيل ماحدث له · وأخبرهم أن القوم مصممون على احتلال البلاد احتلالا كاملا · وأنهم يعملون على استكمال وسائل هذا الاحتلال مهما تقلبت الظروف والاحوال ، حتى ولو استجيبت المطالب الجديدة · واطلع الوزراء على الشروط واستمعوا الى البيانات ، ولكن احدا ، حتى الملك نفسه ، لم يشاطر (س) رأيه بالموضوع · وتوالت الوقائع بعد دقيقة واحدة لتؤكد حكم (الوزير) · فقد وردت برقية الجنرال غورو :

« اعلمني الجنرال قائد الفرقة ان الاربع والعشرين ساعة التي قضاها في منطقة عين الجديدة تحمله على التصريح بعدم امكان بقاء فرقته معسكرة هناك ، نظرا لقلة الماء وعدم صلاحيته ·· اعلموا الامير فيصل بأن قائد الفرقة يرى من الضروري أن ينتقل بمعسكره الى ميسلون ··» ·

وقد اتخذ الجنرال غوابيه مبررا كافيا لتقدم جيشه بعد ان زعم ان القتلى والمصابين الذين وقعوا من جراء العطش والتسابق على الماء ، كان بسبب تلوث الماء بمرض الجمرة الخبيث ··

## - ٣٦ -

ما أن علم المتظاهرون بأن الفرنسيين تجاوزوا الحدود التي كانت خطوطا أمامية ، وانهم يزحفون في اتجاه العاصمة ، حتى تملكتهم مشاعر متفاوتة في حدتها وتأثيرها في النفوس · لم تخمد هذه المفاجأة من هياجهم ، بل حولته الى تفاعلات في درجة الغليان · استولى الذعر على بعض المتطوعين وظنوا بأن المدينة سقطت بيد العدو ، فهرعوا الى بيوتهم لينقذوا نساءهم من السبي في حين رابط بعضهم الآخر امام القصر دون ان يتنازلوا عن مطاليبهم : وهي رفع اعضاء الحكومة والحاشية من أسفالهم على عصي مدببة الرؤوس · أما من أوتي حظا وافرا من التروي والحكمة ، فقد أخذ ينادي : الى الحرب ·· الى الحرب ···

وكان قاديش من الزمرة الثانية ولكنه بعد ان هتف طويلا ، تذكر أن مطاليبه لم تبق لها قيمة تذكر · وخالجه الى فترة شعور الفئة الاولى · وهم

بترك المكان والهرع الى الانقاذ · ولكن صيحة الحرب ألهبت حماسه وأدخلته في صفوف هتافها ، وكان على رأسهم الشيخ كامل القصاب · أحس قاديش عندما سمع بالخبر المشؤوم بما يشبه الاهانة البالغة · وتفرس في وجه الشهبندر وهو يخطب في الناس ، فتملكه غيظ لا حد له · كانت اسارير الشهبندر تعبر عن الخطورة الممزوجة بالالم · وقد بدا وهو يتكلم ، كأنما ابتلع لتوه دواء شديد المرارة · وقد ظهرت هذه التعابير على اطراف شفتيه اللتين كانتا مستقيمتين ثم انحنتا من تأثير المصيبة · واقتحم كامل القصاب بوابة القصر ، متجنبا حراب الحرس · وراح يصرخ :

ـ اريد فيصل ، أريد الملك ·

ولكنه اضطر للتراجع ، بعد ان جوبه في قسوة ، وضرب بأخمص بندقية على رأسه ، وسقطت لفته على الارض · وهرع قاديش لنجدته ففسر الجنود هرعه تفسيرا خاطئا ولعلع الرصاص في جوانب متعددة من حوله ، فارتد عن غير وعي ، في حين توارى الشهبندر عن الشرفة ، ودخل القصر الذي كان سكانه يتأهبون لترك البلاد والهرب ···

وانتشر الجمهور على طول الطريق المتوجه الى الغرب ، من مدخل المدينة الى « الربوة فدمر فالهامة » وهو يتابع الزحف · أما من كان يملك دابة ترفعه عن الارض فلم يشأ ان يتعب قدميه ، اذ انفصل عن المشاة وعاد الى داره · وهناك ـ بعد ان وجد نفسه بعيدا عن دواعي الهياج ـ صادفه من الاسباب ما جعله ، اما ان يرجىء ذهابه الى الحرب ، أو أن يلغيه نهائيا · وقد لعبت الزوجات والامهات دورا بارزا في هذه القضية · وتحركت القاطرات من محطة البرامكة ، تحمل ما امكن جمعه من المؤن والعتاد وبقايا جنود · وتعلق سائقوها بحبال الصفارات من أول لحظة . واضعين ساعد الحركة على أبطأ سرعة ، نظرا لان المتطوعين وقفوا بالمرصاد لكل ما يسير على عجلات · وعلى هذا كان صاحب الحظ السعيد من أدركه التعب قبل

غيره • كان بطء القطار يسمح بالتعلق بعرباته في سهولة تامة ، فضلا عن أنه كان يتوقف من تلقاء نفسه لاسباب خارجة عن ارادة السائق • اما اولئك الذين عرفوا بأن أمر الدفاع عن المدينة قد تسلمه رجل مسؤول فقد ذهبوا مباشرة الى المحطة ، دون ان يكلفوا انفسهم عناء السير وكان من هؤلاء شفيق الصافي •

كانت سكة الحديد تنهج الاسلوب نفسه الذي تتبعه الطريق البرية في اختراق سلاسل الجبال للوصول الى بيروت • فهما تتوازيان عندالخروج من المدينة ـ في استقامتهما ودورانهما ـ حتى تصلا الى الهامة وهناك تلتقيان حيث تدوس احداها على الاخرى ، ثم تفترقان : سكة الحديد تنحرف شمالا لتمر في محطات : عين الخضراء ، دير قانون ، التكية ، الزبداني ••• لتصل الى رياق ، بينما تتابع الطريق البرية اتجاهها نحو الغرب •

دخلت تفاعلات المتظاهرين بمراحل متعددة ، منذ مغادرتهم القصر حتى وصولهم الى اماكن الدفاع • في البداية ألهبتهم الحماسة الى درجة ان أنستهم الى أين هم ذاهبون ، أو ماذا هم فاعلون • وكان نداء : « الى الحرب » الذي جرهم وراءه ، غامض المعنى الى الحد الذي جعل الكثيرين منهم يهتفون « الى الحرب » ، دون أن يعوا معنى هذه الكلمة • ولكن بعد مدة قصيرة ، أخذ رجال الدين ـ وكانوا اكثرية لا يستهان بها ـ يفكرون بالموت والاجل والجهاد و •••• « اذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون : وسيدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة » • أما الواقعيون ، فقد أخذوا يحللون القضية من جانب آخر ، من مفهوم الرصاصة أو شظية القنبلة • وأنها قد تصيب وقد لا تصيب •• وان أصابت ، فهي تميت أو لا تميت • وان أماتت ، فما أحلى من موت الشهيد • أما حملة السيوف والاسلحة البيضاء ، فكانوا يقولون في أنفسهم : « ان القضية لا تستحق كثيرا من

الجهد » • وكانوا يعولون على اخافة العدو وارهابه أكثر من محاربته • وفي الاجمال كانت الفكرة المهيمنة • هي الذهاب لمقابلة الفرنسيين ودحرهم •

كان الجو بالغ الحرارة وشمس ٢٢ من الشهر تحرق الاخضرواليابس، وكان الرجال بمسحون العرق عن وجوههم ويلهثون ويصرخون ويهتفون ، ويداعب بعضهم بعضا بالكلمات والايدي وأحيانا برؤوس الحراب • كان بعضهم يحمل البنادق التي حصل عليها من مهاجمة القلعة دون أن تكون لديه فكرة عن استعمال هذه الآلة ، ولكنه قانع بأن حمل السلاح وحده كاف لأن يؤدي المهمة • ومن لم يحصل على سلاح ، ظل على خنجره أو عصاته أو سيفه المثلوم • ونخرت القاطرات وأخذت تنفث من خراطيمها سموما سوداء • وتجاوزت بساتين الهامة ثم غابت في الظلال ، بين مجاري المياه ، في الرياض الغناء ، على أحضان الجبال • وهبت الانسام البليلة ، واختفى الحر اللاهب وبدأت مشاعر الحماسة تتحول ، ونسي المثل القائل : « في تموز يغلي الماء في الكـــوز » •

كانت القاطرات تتوقف في محطة التكية ــ ٢٤كم شمالي غربي دمشق ــ تفرغ أحمالها ثم تعود ، ويعود معها الناس ليأتوا بحوائجهم • لم يكونوا في البداية ليعرفوا أماكن الدفاع ، أما الآن ••• وبما أن أماكن الدفاع هي جبال « المصايف » ، فالامر أصبح ذا لون آخر •

وعند المساء امتلأت شعاب الجبل ، وضفاف وادي بردى ، ومغايض شجر الحور والسنديان ، ( بالمتنزهين والمصطافين ) • جماعات جماعات افترشت الارض وعقدت حلقات السمر ، حول نيران موقدة راحت تزمجر فوقها أغطية أباريق الشاي • وانتفخ خيشوما أحد الشباب وهو يرفع عينيه الى السماء ويتصفح الجو البديع وأخذ نفســا طويلا ثم أفرغ رئتيه دفعة واحدة بموال : « أوف ••• أوف ••• أوف ••• يا باي •• » وتجاوبت ترانيم الطرب في جميع الانحاء ــ « الله ••• يا سلام ••• يا عيني ••• تسلم

لأمك يا رب ٠٠٠ » وفي مكان آخر ، اضطجع أحد الكهول وسط حلقته ، ماسكا نربيش نرجيلته ٠ رامقا جمرها المتوقد بعينين متلذذتين ، ثم امتص من المبسم الفضي دخانا شهيا ، ورفع بوزه الى الاعلى وصرخ : « يا ليلي يا ليلي يا ليل ٠٠٠ يايا ٠٠٠ يا ليل ٠٠٠ » ومن بعيد ترامى الصدى :

« آه ٠٠٠ يا روحي أنا ٠٠٠ يسلم ها الفم ياحق ٠ ما صار ٠٠ ما صار ٠٠ ما صـــار »

ومن أمكنة أخرى كانت تسمع قرقعة النرد على ضوء فانوس صغير ٠ أو ضجة صادرة عن لعبة ( خاتم الوزير ) أو صياح وضحكات منبعثة عن ألعاب أخرى ، أو شجار حدث بنتيجة خطأ في نقل بيدقة ( البرسيس ) ٠

أما رجال الدين فقد اتخذوا حلقات اتسمت بطابع خاص ٠ لم يخرج عن النوعيات السابقة ، بل عن كيفياتها ٠ فقد ابتعدوا عن الشباب الجاهلين وشكلوا لأنفسهم حلقات ذكر وتراتيل وأدعية وصلوات ٠ واجمالا كان يبدو على الناس ، على المتطوعين الذين ذهبوا الى الحرب ٠٠ كان يبدو عليهم الهدوء التام واللامبالاة الى أقصى حد ٠ وكانوا ينصرفون الى جميع الاعمال التي لا يمكن أن يكون لها أية علاقة بالحرب ٠

وفي صباح اليوم التالي طرأ على المكان تبديل عجيب ٠ وكان هذا التبديل في صالح « المصطافين » من جميع الوجوه ٠ فقد ارتفعت الى جانب المحطة عريشة من أغصان الحور ، وعلق في سقفها خروف مذبوح وقف الى جانبه جزار قزم يسن سكينه الطويلة ، تسطع من ثيابه رائحة الدم الطازج ٠ والى جانب عريشة الجزار — غير بعيد — اتخذ اسكافي عجوز لعدته مكانا تحت شجرة باذخة ، وراح يخيط ويلمع حمالات البنادق ٠ وفي مكان آخر ، فرش على الارض بائع صغير أرغفة الخبز وبيضا مسلوقا ٠ وبائعون آخرون حملوا بضائعهم على رؤوسهم وأخذوا يجوبون المنطقة وينادون ٠ وقد وصل الحلاقون في أوانهم تماما ، أما من نسي منهم صابونة ايقاف الشوارب فكان

حظه من اتعس الحظوظ · وفكر رجل محترم بأن يفتتح فندقا سياحيا · وعزم تاجر آخر على انشاء مقهى · وفي اختصار ، كانت الحالة تنبيء بان كل شيء على أحسن ما يرام ··

وفي بناء المحطة المؤلف من أربع غرف ، عزل مأمورها العجوز مع عائلته المشدوهة في غرف عليا ، وأفرغت الغرف الباقية لتكون مستوعا للجيش · ووضع للاشراف عليها « صف ضابط » كهل سمين لم يكف طوال الوقت عن الشتم والتثاؤب والصراخ على جنوده الاربعة ، الذين كانوا من عمر أولاده · وقد أغرتهم الحالة الجديدة فخرجوا عن حدود النظام والطاعة ، ووضعوا أيديهم في جيوبهم وراحوا يتفرجون على الناس ·

وقد أضاع الصافي مساعده منذ الصباح بعيد اقتحام القلعة ، وجلس على رصيف المحطة يرفع رأسه الى ذرى الجبال ويفكر : « ترى من أين سيبدأ الهجوم ··؟ » وشرع يضع بنفسه مخططات عن الوضعية العامة · وعند المساء ، وقد خفت حدة الشمس ، أخذ يتمشى قليلا ليبحث عن طريق تصل الى الغرب · فارضا أن العدو اذا أراد الهجوم من هذه المنطقة فعليه اتخاذ طريق صالح لسير عرباته · ووجد أن هناك طريقا تمر من جانب المحطة وتصل ميسلون بالزبداني · وسأل مأمور المحطة عن طول المسافات فأجاب : « ثمانية كيلو مترات الى ميسلون واثنى عشر الى الزبداني » · ولم ينسجم الصافي أبدا مع صف الضباط هذا لا سيما عندما سأله عن أقرب طريق يصل المحطة بطريق بيروت فانفجر في وجهه صارخا :

ـ عجوز ·· أبله ·· مجنون ·

ولكنه ما لبث عندما غابت الشمس أن وجد الطريق بنفسه · كانت المسالك ترابية عريضة · تمتد من المحطة وتخترق الجبل حتى تصل الى الغرب ، الى وادي الزرزور مباشرة · وعكف الرجل منذ تلك اللحظة على تدوين مشاهداته في ورقة صغيرة ، ناظرا بعين الكمد الى حالة المتطوعين ·

وكلف نفسه في حالته الحاضرة ـ على دراسة الخطوط الرئيسية للمعركة المقبلة ، مغفلا جميع التفاصيل ، آملا في أن يجتمع في لحظة ما بيوسف العظمة لمساعدته ببعض الملاحظات ·

كان قاديش قد وصل الى التكية في أول قاطرة ، تعلق على افريز احدى عرباتها في دمر ، وانهمك منذ وصوله في نقل صناديق الذخيرة الى متطوعي الزبداني · فقد أفاد قائمقام البلدة ، بأن عنده حوالي خمسمائة متطوع بدون ذخيرة · وأوكلت الى ضابط الصف في التكية مهمة ايصال الذخائر اليهم بأية طريقة كانت · غير أن ضابط الصف وقف مكتوف اليدين عاجزا عن القيام بهذه المهمة ، فضلا عن أن جنوده سخروا منه ومسوا من هيبته ، حين طلب اليهم حمل الصناديق والارتقاء بها الى مسافة طويلة · وعندما وصل القطار الاول تقدم صف الضابط من سائقيه وأمرهما ـ أمرا عسكريا ـ بعدم العودة ، بل استئناف السفر الى الزبداني لنقل الصناديق · ولكن أحد السائقين وكان شابا ، مسح تعابير وجهه دخان الفحم والوقود ، وأفرغ صبره ضجيج الناس وعرقلة السير ، حتى وصلت روحه الى أنفه كما يقولون، اقترب هذا السائق من صف الضابط وركله بقدمه ليزيحه عن الطريق ، ثم أدار مكبس الحركة عائدا لا يلوي على شيء · ومن ذلك الحين أخذ الرجل يتصرف تصرف المهان ، دون أن ينسى المهمة التي كلف بها · وعندما وجد أن حوله كثيرا من الشباب راح ينادي دون وعي :

ـ من يوصل هذه الصناديق الى الزبداني ؟ ·

وسمع قاديش هذا النداء ، فهرع على التو ، وتبعه الاشمر ومتحمسون آخرون · وقال الاشمر :

ـ نحن يا حضرة الضابط ·· ·ما هي الوسائط ؟

وجعر صف الضابط من زلعومه :

ـ بوسائط الشياطين ··· يا تيس ···

وأطرق الاشمر برأسه خجلا ، بينما تنطح قاديش للرد :

ـ أليس لديكم عربة صغيرة ٠٠٠؟

وهنا انفثأ غضب الرجل العسكري ، واستدار الى بناء المحطة وهو يعطس :

ـ تعال ٠٠٠ خذ ٠٠٠

وكانت هذه الفكرة لم تخطر له على بال ٠٠ كانت العربة من تلك العربات التي يستخدمها عمال سكك الحديد ، تدفع باليد وتجري على أربع عجلات ٠ وتعاون الشباب على حملها ووضعها على السكة ٠ ثم وضعوا عليها حوالي عشرين صندوقا من الذخيرة تحت انظار الجنود الاربعة الذين ظلوا يتفرجون في استخفاف ويعطون أوامرهم ، واجدين فرصة لاثبات وجودهم ٠

ـ اوع ٠٠ احمله هكذا ٠٠٠ انت يا حيوان ٠٠٠ احذر الصندوق مثقوب ٠٠

كان الاشمر يحمل ـ منذ خروجه من داره ـ بندقية عثمانية ( انختارية الطراز ) ٠ أما قاديش فظل حتى اللحظة بدون سلاح ٠

ودخل الى غرفة صف الضابط وطلب منه سلاحا ليدافع به عن نفسه ٠ ولكن هذا انتفض من جديد وأجاب في غيظ مقلدا صوت قاديش :

ـ ومم انت خائف يا جرو ٠٠٠؟ من سيأكلك ؟

ولم يبتلع قاديش الاهانة ، لانه استقام على الفور وأجاب في فخر :

ـ جئنا الى هنا للدفاع يا بيك ٠٠٠ ولم نأت لنلعب ٠

ولكن ضابط الصف بصق على الارض في قرف كبير ولم يجب ٠ ودرجت العربة في البداية في سرعة قصوى أمام بضع عشرة يدا ، واصوات مهللة تدب النخوة في النفوس ، ولكن بعد مسافة قصيرة أخذت العربة في التباطؤ ، ونقلت ثقلا رهيبا ٠ اذ بدأ ارتقاء الجبال نحو الشمال ٠

كانت الشمس لافحة الحرارة ، غير أن الهواء الرطب أخذ يلطف الجو ٠

وراحت الايدي تنسحب من العمل زوجا بعد زوج ، حتى توقفت العربة تماما ، ولم يبق وراءها غير ثلاثة شبان ، أصبح همهم الوحيد هو سندها من الخلف لمنعها من النكوص • والتفت قاديش حوله في غضب ، ثم وضع حجرين وراء العجلتين الخلفيتين وجلس مع زميليه يستريحون •

كان الشاب الثالث في مثل عمرهما تقريبا احمر الوجه ، مربوع القامة يتسلح ببندقية المانية « موزر » الطراز ، غنمها أثناء الهجوم على القلعة • وكان في الصباح يتوقد حماسا • الا انه عندما وجد المتظاهرين يسقطون بين أقدامه ، اعتراه ما يشبه الوقار الزائد عن الحد • وراح منذ تلك اللحظة يضع الخطط الدائمة ليضمن سلامة نفسه • وقال وهو يقلع من كفه شوكة :

ـ اننا قد نجد الفرنسويين على الطريق وأنا لا أعرف كيف استعمل البندقية ، فماذا افعل •••؟

فرد الاشمر في تعقل :

ـ ليس من المعقول أن يصلوا الى الزبداني دون أن نسمع اطلاق الرصاص ••• وعندها ندبر أمورنا ••• سنفتح الصناديق ونأخذ الذخائر منها •• تعال لاعلمك كيف تحشو بارودتك •• تعال لأريك ••

أما قاديش فظل يفكر ! « والآن ماذا نفعل •••؟ » وكما يحدث دائما ، لفظ سؤاله بصوت مرتفع ، مما حدا بالشاب الوقور أن يجيب :

ـ ليس أمامنا غير العودة •••

وتأمل قاديش المكان حوله • كان الجبل الغربي ـ المشرف على طريق بيروت ـ يبدأ من يمين سكة « الجديدة » منحدرا حتى مسافة المائتين من الامتار تقريبا ، حيث تفترق الطريق البرية صاعدة مباشرة الجبل الشمالي • فعرف بأن السكة لن تبدأ صعودها الحقيقي الا بعد ان تقطع سفح الجبل الغربي • وعندها أيقن باستحالة ايصال الذخيرة بهذه الكيفية • لان ارتقاء الجبل الشمالي يتطلب جهودا كبيرة • وخطر له خاطر في الوقت الذي لمع

فيه عن قرب فلاحا يدفع أمامه ثورا وسكة حراثة · وهب واقفا وهو يقول :

ـ يالله يا شباب ، سنأخذ هذا الثور ···

ولسبب ما اردف الشاب الوقور :

ـ انهما ثوران ····

ولم تعجب هذه النكتة محمد الاشمر ، لانه صعق الشاب بنظرة لا يمكن أن توصف بالاحترام · في حين ركض قاديش ناحية اليسار ، وراح يصرخ ويلوح بيديه :

ـ يا عم ···· يا عم ····

ورغم أن الصوت كان يجب أن يسمعه « العم » الا أن عدا ـ دون أن يرفع رأسه ـ ضرب فخذ دابته فأخذت تسرع أمامه· وضطر الشبان الثلاثة أن يتبعوه ويقطعوا عليه سبيل الفرار · ويصرخ قاديش في عصبية :

ـ لماذا تهرب ···؟ هل عرفت أولا ماذا نريد منك ····؟

ووقف الفلاح ـ وكان في حوالي الخمسين من عمره ـ وفي عينيه نظرة خائفة · وأجاب في تردد ووجل :

ـ أنتم تريدون الثور ···

ورد الاشمر في صعوبة :

ـ نحن لا نريد أن نأخذه ··· بل نستخدمه فقط لجر هذه العربة الى الزبداني ·

وأطلت من عيني الفلاح ابتهالة ضارعة ، وكانه سمع أشد ما كان يخشاه · وراح يتوسل :

ـ اقبل ايديكم اتركوني اقبل ارجلكم · أنا دخيل نبيكم ··· أنا دخيل الاسلام ···

وعرف الشباب اسباب ذعر الرجل ، ولكنهم لم يشفعوا له · وقادوه

مع ثوره ـ دون أن يمسوا شعوره بأذى ـ حتى أن قاديش أخذ يلقنه درسا وطنيا ويكذب له مزاعم الفرنسيين ، ويبرر له الظرف الحرج الذي حدا بـه الى طلب الدابة · وأخيرا ربطت العربة بالثور ، وسارت القافلة صعدا الى الاعلى ، بين دهشـــة الحيوان وصياح المتطوعين · أمـــا الفلاح فراح يضع الترتيبات اللازمة ليضمن براءة نفسه من تهمة معينة قد يواجه بهـــا في المستقبل ·

وعند العصر ، شاهد افراد القافلة مفرزة من الجند مع مدفعين جبليين مقطورين على البغال ، يغذون الصعود الى جانبهم على الطريق البرية الموازية لسكة الحديد · وتقدم قائد المفرزة ـ وكان يمتطي حصانا ـ وطلب من الفلاح أن يدله على الطريق الاقرب الى الزبداني · وعندها سأله قاديش عن مهمته ومهمة مفرزته فأجاب الضابط في كل بساطة : « بأن يوسف بك كلفه باحاطة جناح الفرنسيين الايسر ومهاجمتهم من الجرود المشرفة على سهل الجديدة ، وأضاف : « أن المتطوعين الموجودين في الزبداني سينضمون اليه · »

## - ٣٧ -

عاد قاديش في ضحى اليوم التالي من الزبداني ليجد الامر قد تطور تطورا كبيرا ، دون أن يطلع على ما كان عليه في الليلة السابقة أو في الصباح . وجد أن المتطوعين قد خف عددهم في شكل ملحوظ . وعرف بأن الجميع قد تسلحوا بالبنادق ، كما وجدهم يتاجرون بالذخيرة ويتبادلونها علنا . وفهم من البعض أن « يوسف بيك » حضر في الصباح مع بعض الضباط وأوعز بتوزيع الاسلحة والذخيرة على المتطوعين دون حساب . وأن ضباطه اقتسموا جزءا من المتطوعين وقادوهم الى ميسلون . كما سمع همسا يدور بين الناس يقول : أن جماعة منهم اصطدمت مع الوزير وكادت تندلع فتنة رهيبة ، وذلك عندما اتهمهم بانهم جاءوا للسلب والنهب .

وجرى قاديش الى بناء المحطة ليحصل على بندقية ، ولكن ضابط الصف هاج عليه وراح يصرخ في وجهه ظانا اياه ، وقد تذكر انه التقى به في يوم

ما ، انه سائق القاطرة الذي رفسه بقدمه ، وراح ينعته باللصوصية ، وطلب اليه فورا أن يحضر البندقية التي استلمها مع ذخيرتها والا أمر باعدامه في الحال • ونادى على جنوده :

ـ امسكوا هذا الحرامي •• امسكوه •

كان صفّ الضابط حانقا أشد الحنق ، وقد وصل توتر اعصابه الى نهايته ، وراح يتصرف تصرفات مهينة • ويبدو أنه قاسى كثيرا في توزيع السلاح على المتطوعين ، فأراد أن يتشفى لنفسه وينتقم لها من الاهانة السابقة التي لحقت به • وهرع الجنود على الصياح ، وما ان لمحوا قاديش حتى عرفوه • وسأله أحدهم وكان سمينا قصير القامة في حوالي الثلاثين :

ـ هل اوصلت الذخائر يا شاطر ؟

وخرج قاديش عن جموده ، واومأ برأسه ايجابا • وقال للجندي مهملا رئيسه كل الاهمال :

ـ أريد بارودة يا افندي •• فأنا كنت غائبا عند توزيع السلاح •

ورد الجنود في اريحية :

ـ تكرم عيونك •• يا قبضاي •• •• تكرم •• مائة بارودة تخدم شواربك •

ودخلوا الى المستودع ليحملوا بندقية انكليزية ( أم كعيب ) مع كمية وافرة من علب الخرطوش ، تناولها الشاب وقفل راجعا الى الجبل ، وهو يمط شفتيه من الغيظ والاستغراب ••

وعند العصر وخلال بحثه عن معلمه ، التقى عند جماعة رجال الدين بالشيخ كامل القصاب ، فأفاد هذا : « بان الصافي يبحث عنه وقد تعب في التفتيش عنه قبل أن يساق الى ميسلون مع جماعة كبيرة من المتطوعين » • ثم دعاه الى تناول طعام الغداء ، وكان لحما مشويا • وأخذ قاديش وهو يأكل في شراهة يرتب نفسه للحاق بمعلمه في ميسلون • ولكنه ما كاد يبتلع

لقمته الاخيرة حتى توقف عن المضغ · ولا يعلم فيما اذا كان أحد آخر غير قاديش ميز ذلك الصوت ، وكان هدير طائرة ينبعث من الغرب ·

كان المتطوعون ما يزالون على ترتيبهم السابق ، يجلسون على الارض حلقات ، اما يتناولون الطعام، أو انهم فرغوا وعادوا الى ما تتفتق عنه اريحيتهم من ألعاب · وكانت بنادقهم وأكوام الذخيرة مبعثرة هنا وهناك · اجتازت الطائرة ذروة الجبل ثم بدأت بالانقضاض ورفع الناس رؤوسهم الى الاعلى دون أن تطرف اجفانهم · بل ان كثيرين منهم تركوا نرابيش نراجيلهم ووقفوا يشيرون اليها أن تبتعد أو تقترب · وصرخ قاديش في ذعر وبصوت خرج من قلبه :

ـ ناموا على الارض يا جماعة ·· ناموا على الارض ·· انها طائرة فرنسية ·· فرنسية ·

والتفت الناس الى مصدر الصوت وراحوا يحولون رؤوسهم مغمغمين :

ـ سخيف ·· أحمق ـ جبان ··

وقال أحدهم ساخرا :

ـ ولماذا ننام على الارض يا ··؟ هل ستأكلنا هذه البعوضة ·

والواقع أن الطائرة كانت صغيرة وبمحرك واحد ، تشبه شكل الجرادة الى حد بعيد ، بجناحيها المزدوجين الطويلين ، وارتجافهما وميلهما الى الاعلى والاسفل · وحامت الطائرة ـ في انخفاض بالغ ـ فوق الرؤوس عدة حومات حتى رؤي وجه سائقها ومساعده ، ثم بدأت بالارتفاع بعد ان بصقت من جوفها شيئا ما لبث أن تبعثر وطار في الفضاء كندف الثلج · وركض الناس في كل الاتجاهات ليحصلوا على الهدايا الثمينة · في حين جعرت الطائرة جعيرا خاصا وارتقت السماء بصورة عمودية · وكانت الهدايا عبارة عن مناشير ارسلها الجنرال ( غورو ) · والتف الناس بعضهم حول بعض وأخذوا يقرؤون بأصوات مرتفعة :

أيها السوريون :

اني أتوجه اليكم لاقول : لماذا تحاربون ٠٠؟

قيل لكم أن فرنسا تريد أن تستعمركم وتستعبدكم، وهذا كذب صريح ٠٠ ان فرنسا قبلت في مؤتمر الصلح الانتداب على بلادكم وان أداء هذه المهمة لهو من رغائبها وواجباتها ٠٠ وهي تتمسك بماضيها الكريم وتراعي في تنفيذ الانتداب منفعة البلاد ورفاهيتها ٠ انها تود أن تقدم مساعدة خبرائها الفنيين لتنظيم المصالح العامة على أحسن وجه ٠٠ كما تقدم رؤوس أموالها لاستثمار ثروات البلاد أحسن استثمار ٠ وستحترم حرية الاديان ولكنها لم تسمح لمذهب من المذاهب أن يتعدى على حقوق غيره ٠

أيها السوريون :

أنتم لا تجهلون انكم تسترسلون مدفوعين بأقلية متطرفة ـ الى أقصى حدود الاسترسال في اتباع سياسة معادية للفرنسيين كل المعاداة ٠ هؤلاء الفرنسيين الشرفاء الذين خلصوكم من نير الاستعباد التركي ٠٠ ورحتم تقومون باعمال العصابات في المناطق الغربية والشمالية ٠٠ وانكم جررتم على انفسكم أعظم الاضرار بعدم تداولكم النقد السوري الجديد وتحريم التصدير واحداث حاجز اقتصادي بين دمشق والساحل ٠ وفي الاخير اضطرت حكومتكم الى مسايرتكم بهذه السياسة الخرقاء ٠٠ فاثقلت كواهلكم بالضرائب الباهظة وفرضت عليكم الخدمة العسكرية الاجبارية وذلك ليس بغية الدفاع عن استقلالكم وحرياتكم ـ لان ذلك الاستقلال وتلك الحرية ليسا مهددين أبدا ـ ولكن لخدمة مصالح فئة قليلة جدا ٠

وظلت فرنسا العظيمة صابرة طوال هذه المدة لانها كانت قوية ٠٠ ولكن لكل صبر حدود ٠٠ ولقد ابلغت حكومة دمشق ـ باسم حكومتي ـ طلبات معتدلة وحكيمة يتوقف ادامة السلم على قبولها ٠ واذا رفضت حكومة

دمشق اليد التي مدتها اليها فرنسا ـ وقررت الحرب ـ مستسلمة بذلك الى تأثير الحمقى ـ فانكم ستتحملون انتم مسؤولية ذلك ...

ولكنني آمل أن يكون لدى السوريين من شيم الذكاء والوعي ما يمنعهم عن الموافقة الى الهرولة نحو الحرب والفناء منساقين وراء أقلية مجرمة .. انكم لن تعرضوا أولادكم وبيوتكم لفتك الآلات الحربية الحديثة المدهشة .. من برية وجوية ـ لخدمة غاية واحدة تتلخص في الانصياع لاوامر خطباء ومخربين وسفلة مجرمين .. انني لا أنوي استعمال الطيارات ضد الاهالي المحرومين من السلاح ، متبعا بذلك مقتضيات الشعور الانساني ، الذي يشترك فيه جميع الفرنسيين . ولكن خطتي هذه مشروطة بشرط واحد هو ألا يقتل أحد من الفرنسيين أو المسيحيين . واما اذا حدث شيء من ذلك فستقابل تلك الاعمال بمثلها وبمنتهى القسوة وبالطيارات أيضا ..

وأنا لا أشك في أن كل من يشعر بوطنية حارة مخلصة وكل من يريد لبلاده الثروة والطمأنينة سيرفض الحرب .. وسينضم الى جانبنا .

اني أوجه كلامي اليكم باسم فرنسا وسورية . فقوموا واتحدوا ضد الفئة المتسلطة عليكم والتي تدفعكم الى الموت دون ثمن ... وثقوا بروح الحرية والايثار التي تتصف بها فرنسا الكريمة والنشيطة والمتمدنة ..

تعالوا الى أصدقائكم الفرنسيين بكل ثقة واطمئنان كما فعل ذلك قبلكم اللبنانيون الشجعان وغيرهم . ـ باندفاع جميل ـ .

فلتعش فرنسا ولتعش سورية حرة مرفهة ..

ومنذ بدأ الناس يقرؤون خطاب الجنرال غورو بدأت البلبلة والتفكك تعمل أعمالها .

وسمع اثنان من الوسط يتصايحان :

ـ ان هذا صحيح ..

ـ لا يا حمار .. انه كذب وخديعة .

ـ أنت حمار وأبوك حمار ٠

ـ أنت وكل أهلك حمير ٠٠

ـ انتظر لاريك يا كلب ٠

ـ انت كلب وخنزير و ٠٠ خائن ٠٠

وعندما اعيتهما الكلمات هرعا الى السلاح ، فخف جملة من المتطوعين للحيلولة بينهما ٠ وفي أمكنة أخرى اتخذ النقاش شكلا آخر :

ـ ان الفرنسيين يخافوننا ٠٠

ـ انهم لا يخافوننا ولكنهم لا يريدون ايذاءنا ٠٠

ـ لا ٠٠ لن يستطيعوا ايذاءنا ٠٠

ـ طيب وماذا يمنعهم ؟ جيشك ٠٠؟ هذا الانكشاري ٠٠

ـ نحن سنذبحهم ٠٠

ـ اي روح ٠٠ روح خبي بارودتك العتيقة وسيفك الصدىء ٠٠ والله فرنسا قوية ولن نقدر عليها ٠

وسمعت في مكان قريب طلقة نارية ٠ فخف المصالحون ليجدوا محمد الاشمر يملىء بندقيته من جديد ويهدد ثلاثة رجال ٠ وراح قاديش يتصرف كمن أضاع كل شيء ٠

كان يصغي الى نقاش الجماعات دون أن يفهم شيئا من أحاديثهم ، كما يقع عادة لمن ينصرف بكليته الى أمر ما دون أن تشاركه فيه حواسه العاملة ٠ وارتفع صياح الشيخ قصاب :

ـ أيها المسلمون ٠٠ أيها المسلمون ٠٠

ولكن صوته ضـاع في شعاب الجبـال ٠ وعند هبوط الليل كانت المشاحنات قد اتخذت شكلا فاترا ، لعب جمال الطبيعة الاخاذ دورا كبيرا في اخمادها ، وفي الساعة الثامنة تقريبا سمع هدير الطائرة من جديـد ٠

ووقف الناس ينتظرون هدية أخرى ، وهم يتأملون نورها الساطع يقترب منهم رويدا رويدا دون أن يصل اليهم أبدا ٠

وفيما هم يرفعون أيديهم لاستقبالها ، مدللين على وجودهم وعلى الامكنة التي هم فيها ألقت الطائرة أحمالها ٠ ولم تكن تحمل في هذه المرة أوراقا ناعمة تذروها الرياح ، بل قنابل متفجرة ٠ وكان الطيار على درجة من الحذق والمهارة ـ الى درجة نفذ فيها المهمة الموكلة اليه على أكمل وجه ٠ اسقط قنابله حول الجماعات ، وعلى بعد كاف ، دون أن يتجاوز مسافة ( حيطة الامان ) ودعم غورو بيانه بالبرهان ٠ وربح المعركة المعنوية ٠٠

في منتصف الليل ، أفاق ضابط الصف في مستودعاته على صياح وهياج وطرق شديد على الباب ٠ فايقظ جنوده وأمرهم بحمل الصناديق ووضعها وراء الباب ٠ وأهاب بهم أن يسرعوا لان الفرنسيين قد وصلوا ٠ واعترض أحد الجنود قائلا :

ـ ولكني اسمع أصوات المتطوعين ٠٠

فضربه الآمر على رأسه بفردة قبقاب ثقيلة ٠ في حين انصاع الثلاثة الباقون وراحوا ينفذون الامر ٠ وانتبه الرجال في الخارج الى هذه العملية ، فتأكدوا من ظنونهم وهموا باستعمال السلاح ٠ ولكنهم تذكروا أن ماهم آتون من أجله هو عدم استطاعتهم الافادة من هذا السلاح أصلا ٠ ونودي على الاشمر ، وكانت بارودته وذخيرته من عنده ، فنفذ الفكرة على الفور ٠ القم سلاحه واطلق رصاصة في الجو ، وأرجع المغلاق ليضع فشكة جديدة ثم صرخ،وهذه بادرة كانت غريبة عن الشاب الذي كان لسانه أضعف أعضائه:

ـ افتح أيها الخنزير ٠٠ أيها العجوز المنحوس ٠٠

ونادى قاديش :

ـ افتحوا انتم أيها الابطال ٠٠ أيها الشجعان ٠٠ افتحوا ٠٠

وسمعت من وراء الباب ضجة عراك ، فعرفوا أن ضابط الصف قد اشتبك مع جنوده • وبعد عشر دقائق اقتحم باب المستودع ودخله المهاجمون •

وعلى ضوء فانوس هوائي خافت النور ، شوهد ضابط الصف قد انتبذ زاوية المكان متحصنا وراء كومة من الصناديق وهو يرتدي قميص نوم ابيض ويتسلح ببندقية ركب حربتها • كانت ملامح وجهه تدل على انه عزم على الدفاع عن نفسه ضد الفرنسيين ، بينما وقف الجنود الاربعة لا يريمون من الدهشة • وزأر قاديش وهو يهجم :

ـ اتحداك •• اتحداك ان تطلق رصاصة واحدة •• يا ••

ولكن القصاب امسك به من كتفه وخاطب صف الضابط في اتزان :

ـ اسمع يا بني • انك وزعت علينا ذخيرة مخالفة لنوع السلاح الذي نحمله •• ولا يوجد مع اي منا رصاصة واحدة تركب على بندقيته ••

وهتف قاديش :

ـ ماذا يمكننا ان نسمي هذا العمل •• ؟ قل •• ماذا نسميه •• غير خيانة ••

ورد شاب من الخلف :

ـ خيانة نعم •• غدر • يجب ان تحاكم وتعلق من كعب قدمك ••

وحملق ضابط الصف عينيه ، وقد دلت سيماؤه على انه ارتكب خطيئة لا تغتفر • واجاب في ارتباك شديد :

ـ وما علاقتي انا بالموضوع ••• ؟

وردت عليه اصوات عديدة ساخطة مهددة متوعدة ، تميز بينها صوت الاشمر الذي اراد ـ كما يبدو ـ ان ينتقم لنفسه من اهانة الامس ، من كلمة ( تيس ) على الاقل • كان الاشمر يصرخ :

ـ كيف ما علاقتك •؟ كيف ؟ الست انت المسؤول ••• ؟

وعاد قاديش الى الاتهام :

ـ علاقة من اذن يا ··· مأجور ·· يا من تساعد العدو ·· يا ··

وهدأه القصاب من جديد وراح يستفسر من الجند عن حقيقة الامر ·

فأجاب احدهم ـ وقد بدا وجهه على الضوء الباهت ـ ينطق بالصدق :

ـ والله يا استاذ عندنا ذخائر مشكلة ، تركية والمانية وانكليزية ·· ولا احد منا ـ ولا حتى طلعت بيك ـ يعرف كيف يفرقها بعضها عن بعض·

وشعر ضابط الصف بانه كسب القضية من وراء هذا الدفاع المتواضع · فأردف وهو ما يزال في وضعية الاحتراس·

ـ كما انني اقسم بالله ··· لم افعل ذلك عن قصد ·· فانا اعرف بأن كل الفشك يركب على البواريد ··

وسبحل القصاب وحوقل بينما هتف قاديش وقد عيل صبره :

ـ والآن ·· ماذا نفعل ·· ؟ خذ ··

وناوله البندقية وعلبة خرطوش :

ـ بارودة انكليزية وفشك تركي ···

انظر ··· هل يجوز من الله ان يحدث هذا وفي هذا الوقت ···؟

وهمس الاشمر في اذنه :

ـ الم تنتبه انت للموضوع ·؟ كيف لم تنتبه مع انك خبرت الاسلحة والذخائر في معارك الجبال ؟ ·

واجاب قاديش بصوت مرتفع مفجوع :

ـ انا ·· ؟ ومن يخطر في باله هذا الموضوع ··· ؟ من يعلم بأن هذه الذخيرة لا تركب على هذه البارودة ·· ؟

واضيء مصباح آخر،وفتحت الصناديق،وبدأ البحث والفرز والتنقيب· فلوحظ لاول مرة ، أن الذخيرة ضمن الصناديق كانت مختلطة · ومما زاد الامر سوءا ، هو ان النوع الواحد من البنادق ، كان مختلف العيارات،

ولكل عيار منها ذخيرته الخاصة . لهذا اضطر المتطوعون الذين قاموا بالمهمة بانفسهم ـ على تجريب الذخيرة باطلاقها اولا ، ثم انتقاء الخراطيش التي هي من قياس الغلاف الفارغ ـ وكثيرا ما كان يختلط الامر عليهم ، لان الفروق في القياسات كانت ضئيلة جدا لدرجة يصعب تمييزها .

وانبلج صبح الرابع والعشرين من تموز دون ان يحصـــل اكثرية المتطوعين على ما يلائم سلاحهم من ذخيرة ، في حين اخذت أصوات الانفجارات تنبعث وتتوالى من الجنوب ... من ميسلون ...

وكانت آخر ضربة في المعركة المعنوية ، هي مفاجأة كواكب الخيـالة السريعة .

●

# - ٣٨ -

كان الصافي قد امضى ليلة الثالث والعشرين من تموز منعزلا وحيدا قرب شجرة صفصاف جانب محطة التكية ٠ وهو يعاني شعورا لا يمكن ان يتصف بالسعادة أو التفاؤل ٠ ومن ورائه كان ماء بردى الازرق يخر خريرا يبعث على الكمد ٠ كان قد اطلع بما فيه الكفاية على ما آل اليه المتطوعون ، وعلى الحالة التي باتوا عليها ٠ والتقى خلال تجواله بالقصاب حيث دعاه الى العشاء وقدم له كأسا من الشاي ، وعندما اطلعه الصافي على عدم ارتياحه من هذه الفوضى واللامبالاة ، اجاب القصاب :

ـ لا تخف ٠٠٠ ان الناس يرفهون عن انفسهم قليلا ، ولكن ما ان يحسوا بأن الحديدة حميت ، حتى يتركوا اللهو والعبث ويستديروا للمعركة ٠

ثم سأله عن قاديش والاشمر وبقية الجماعة ، فاجاب الشيخ :

ـ لا اعلم ••• ربما كلفوا انفسهم بمهمة صبيانية ••

وهز الصافي رأسه نافيا هذه الفكرة ، ثم عاد الى اعمال ذهنه بشؤون المعركة المقبلة ، التي كان يؤمن بوقوعها تمام الايمان • متتبعا الطوارىء والاحتمالات المتوقعة وغير المتوقعة ، بعد أن درس الارض حسب مقدرته الفلسفية وعقله التنظيمي ، مستغربا كيف يهمل يوسف العظمة طريق التكية ـ وادي الزرزور ، مع انها صالحة ومفتوحة امام العدو • وادخر معلوماته على ورقة ، آملا في أن يقابل الوزير ويطلعه عليها ••

وفي الصباح ، لاحظ الصافي بأن تجمعات وحركة مريبة تجري هناك في الجبل عند مدخل الوادي ، فوضع نظارتيه وشخص بعينيه الى المكان • ثم هب على الفور حين لاحظ أن سيارة العظمة تقف على الطريق • وفيما هو يشد في الصعود ، وصلت الى اذنيه اصوات مشاحنات وصياح ؟ :

ـ نحن لسنا قطاع طرق يا يوسف بيك نحن لم نأت للسلب والنهب •

ثم شاهد ابان ذهوله وتعثره بالارتقاء بعض العسكريين يحولون دون عمل ما • وما كاد يقترب من المكان ، حتى كانت السيارة قد استدارت وعادت صعودا في الطريق الجبلية ، ثم سقطت في الطريق العام عائدة من حيث أتت • وسمع صوتا من جانبه ينادي :

ـ انت •• يا ابا انف كعرنوس الذرة •• يا ابا النظارات •• أنت •• يا مسطول ••

والتفت الاستاذ ، ليجد ضابطا يشير اليه وقد صف امامه جماعة من المتطوعين •

ـ تعال قف هنا لا تهرب •• تعال ••

كان الضابط المذكور برتبة نقيب ، في حوالي الستين من عمره ، قصير القامة ، يابس العود يبدو ـ وهو يتحرك فوق الارض ـ كأنما هو اخف

من الهواء • لهذا كان يبذل جهدا كي لا تنفصل قدماه الصغيرتـــان عن الجبل • وكان له وجه وشاربا جرذ • فقد حاول ان يعقف شاربيه الى الاعلى، فابتعدت شعيراتهما بعضها عن بعض •

وتوقف الصافي وهو يلهث ، وراح يقيس محدثه بنظرات فضولية • غير ان الضابط لم يمهله حتى يتم القياس ، – برغم قصر المسافة – بل تابع نداءه :

– لا تقف هكذا مجفلا كالارنب ، تعال •• مالك : ؟ هل أنت خائف •!

وبما ان الصافي لا يعرف الى أية جهة سيساق ، لهذا تردد كثيرا قبل ان يجيب :

– سأبقى مع زملائي هنا ••

واستشاط الضابط وصرخ بنبرة نابية :

– ايها الصرصور الاعمى ، هل ترفض الاوامر انت أيضا ••؟ تعال والا أمرت بشنقك من انفك •

وضحك الرجال الذين يقفون بالصف ، وكانوا حوالي المائة ، وهتف الصافي من خلال غضبه – ولم يكن ناتجا عن الاهانة ، بل عن اشياء أخرى :

– اريد ان اقابل يوسف العظمة ••

وهنا انفثأ هياج الضابط ، وحل مكانه عامل آخر اشد غظيا من الهياج، واجاب في قرف :

– يوسف العظمة •• انت ايضا تقول ذلك يا بقة •؟ لعلك تنوي ان تغتاله أنت ايضا •• اين سيفك يا مجرم •؟

واقترب الضابط منه وجره من كتفه جرا • والغريب في أن يده كانت قوية كالفولاذ • ثم رمى به بين الرجال ،فتلقفته عدة ايدي قبل ان يسقط على الارض •

ونخر الضابط من انفه :

ـ هيا ‧‧ الى الامام مرش ‧‧ واحد اثنين ‧‧واحد

وسيق المتطوعون الى بناء المحطة وهم يتنادون ويمرحون « واحد ‧‧ اثنين » ‧ وعن بعد غير قليل راح الضابط يصرخ :

ـ يا طلعت ‧‧ يا طلعت ‧‧ يا بغل ‧‧

وخرج ضابط الصف ، وما ان لمح التشكيلة القادمة حتى استعاذ بالله من الشيطان الرجيم‧ ثم استعاذ بالشيطان الرجيم عندما رأى الضابط‧ وصرخ هذا من الوراء :

ـ لماذا تقف هكذا يا لوح ‧‧؟ الم تتعلم بعد ‧‧؟ يالله وزع عليهم بواريد وفشك ‧‧

ثم اردف منبها :

ولا تنس الوطاويط الآخرين ‧

ولو قدر لقاديش ان يصل قبل ساعة واحدة من مهمة ايصال الذخيرة الى الزبداني لالتقى بالصافي اولا ، ولحضر هذه الحفلة ثانيا ، ولكنه اضطر الى ان يتأخر في العودة لانه راح مع زميليه يضعان خطة لنسف احد الجسور ‧

واعطيت للصافي بارودة عثمانية من طراز « أم فلس » مع ذخائر مختلطة ، وحار كيف يحمل هذه الآلة الشيطانية ، فضلا عن انه لا يعرف كيف يستخدمها ‧ على الاخص عندما رأى بعض المتطوعين من زملائه يحاولون حشو البنادق من فوهاتها ‧ وكان الرجل ـ عندما عزم على الحضور الى لجبهة ـ قد وضع نفسه امام العديد من الاحتمالات : من الوقوف الى جانب يوسف العظمة ومحضه المشورة ، الى الاشتراك في المعركة والهاب حماس المتطوعين ، دون ان يخطر في باله أبدا كيف تستعمل البندقية ‧ والادهى من كل ذلك ، هو ان المسؤولين انفسهم ، لم يخطر لهم هذا الخاطر العجيب‧

وتأبط الرجل بندقيته وحشا الذخائر في جيوبه ، ثم سار مع فئة

المتطوعين الى ميسلون · يخالجه شعور قاس بأنه بات ليس هو نفسه باية حال من الاحوال · ومن الخلف ظل الضابط يصدر تعليماته : « لا تخرج عن الصف · لا تتكلم · اسرع أنت · يا جحش ٠٠ و ٠٠ » هكذا ٠٠ وأخذ يلهب ظهور رجاله بالكلمات النابية تارة والحماسية تارة أخرى ، حتى اجتـــاز المنعطف الشهير الذي اصيبت فيه الدبابات الفرنسية قبل ثمان واربعين ساعة · ومضى بمتطوعيه قدما نحو الجنوب ، ثم توقف عند الذرى المطلة على طريق « دير العشائر » ( هب ٠٠٠ هنا ٠٠٠ قفوا ٠٠٠ )

كانت هضاب ميسلون تمتد في العمق على حافتي الطريق العام من الشرق الى الغرب · وكان يوسف العظمة يزرع السفوح بخطواته المحمومة ، ومن حوله حفنة من الضباط والمساعدين يتبعونه أحيانا ويصطدمون بـه أحيانا أخرى أثناء استدارته المباغتة · وكـان يشير بيديه ورأسه ويصدر الاوامر والتعليمات :

« هنا احفروا خندقا طولانيا ٠٠٠ وهناك خندقا عرضانيا ٠٠٠ صلوا هذا بذاك ٠٠ لا ٠٠ صلوا ذلك بهذا ٠٠ اين الاسلاك الشائكة ٠٠ ؟ انصبوها هنا ٠٠ لا ٠٠ هناك افضل ٠٠ من أين سيكون الهجوم فيما تظنون ٠٠٠ ؟ »

ويجري الى مكان آخر ، ويرفع رأسه ويتأمل الافق :

ــ « اين العقيد تحسين ٠٠٠ ؟ » ·

ولا يجيب احد ، أو يجيب ، ولكن الوزير ينسى ما كان يريد أن يقوله، وينسى ايضا أنه طلب احدا · ويقفز الى مكان جديد :

ــ هنا مدفع ، اين المدافع ،٠٠؟ لم يبق مدافع ٠؟ رشاش اذن ٠٠ اين الرشاشات ٠٠؟٠

ويرفع عينيه الى الغرب ، ويتوه بافكاره ، ويحمل المنظار ويتـــأمل المنافذ ٠٠ ثم يعود أو يذهب · ويتعثر بصندوق ذخيرة ضـــائع ، أو بكرة اسلاك شائكة مفكوكة ٠٠٠

ـ اين صاحبها ٠٠؟ لمن هي ، من المسؤول عنها ٠٠ ؟ نسيت شيئا آخر ٠٠٠ هل وصلت جماعة الهندسة ٠٠؟ الم تصل ٠٠؟ بقيت في الشام ٠٠؟ سرح افرادها ٠٠؟ طيب نريد الغاما ٠٠٠ ضعوا الالغام هناك في المنعطف الضيق ٠٠٠ اين وضعنا الراصد ٠٠؟ اسألوه هل ظهر الفرنسيون ٠٠؟ ٠

كان يدور حول نفسه ويتقدم ويتراجع ، يخطو بسرعة ويقيس الارض، ويرفع رأسه الى السماء ثم الى الغرب ، ويعطي اوامر لا تنفذ ، او لا يمكن أن تنفذ على الاطلاق ٠ موعزا الى اشباح موجودة أو غير موجودة ٠ كانت قسماته تدل على انه يحاول ان ينتشل العزم من الغرق ، وان يوقظ الهمم من سباتها العميق ٠ دون أن يدري بأن القضية لم تكن قضية عزم غارق أو همم مثبطة ، بل كانت اعمق من ذلك ، ان لم تكن مختلفة تماما ٠ كانت المسألة أنه كان يسابق الزمن بخطوة ، بشبر ، بنقطة واحدة ٠ كان يعمل ليكسب الوقت ، لحظة من الوقت ، ويتساءل احيانا « اين هو الصافي ياترى؟ ماذا حل به ٠؟ هل يعرف باننا نخوض معركة غير متكافئة ٠٠؟ وليس فيها أي ظل من الامل ٠٠ » ٠

ومن حوله كان الضباط القلائل يدورون في فلكه ، ساهمين غارقين في تخيلاتهم ، في وجوه كامدة حزينة ٠ يبدون وهم يتحركون في قلق ، كأنهم يفتشون عن شيء ما لا يمكن أن يوجد ٠ كان بعضهم يتحدث في همس عن هدنة جديدة ويعتبرها حلما من الاحلام ، وبعضهم الآخر يتحدث عن المعركة دون ان يصدق بوقوعها او جدواها على الاطلاق ٠ بينما عكف الجنود ـ في سرعة قصوى على اقامة حفر مرتجلة تقيهم من المفاجآت ٠٠٠

وانقضت ليلة الرابع والعشرين من تموز ويوسف العظمة يضغط على اسنانه ٠ كان يقف وراء صخرة ناتئة تشرف على الطريق العام ، عيناه وحواسه تعمل في مكان ، وافكاره غارقة في خضم الحوادث ٠٠٠

طارت مخيلته اكثر من مرة الى ( ليلى ) ، ابنته ليلى الصغيرة ، • التي تركها مع زوجته في تركيا ، وحيدته ذات العينين الزرقاوين والفم الدقيق الذي تنقلب شفتاه بسرعة لأصغر سبب ، لتبكي وتهرب الى صدره • ولكن افكاره لم تكن لتتوقف كثيرا امام هذا المشهد ، كان ينبذها على الفور قبل ان تدمع عيناه • ثم ينتقل بافكاره الى القصر ، ويستعرض الحوادث من البداية الى النهاية • ويتساءل : « ترى الى أي مدى كان نصيبي من المسؤولية ••؟ » ويتذكر نصائح زملائه الوزراء :

( لا تذهب يا يوسف الى ميسلون ••• انت تقوم بعملية انتحارية لا فائدة منها • تعال معنا ••• سنشكل حكومة في حوران •• اسمع يا يوسف لا تنتحر •• ) •

وكانت العبارة الاخيرة تدوي في أذنيه طوال الوقت ، وتحول دون تمتعه ـ ولو قليلا ـ بنسيم الليل المنعش •

وانبلج نور الفجر • واخذت الانباء تتلاحق : اعلم الراصد الامامي عن ان بطارية مدافع صحراوية فرنسية تتمركز في مدخل وادي القرن • واعلم رسول آخر عن أن لواءاً مختلطا مدعوما بالدبابات يتقدم لاجتياز المضيق • وتواردت انباء أخرى : عن زحف لواء مدعوم بمدفعية ثقيلة من ناحية دير العشائر على الطريق الجنوبي •• وان كتائب مدرعة وهندسية تسير في الوسط • وأن عدة بطاريات مدفعية منعيار ١٥٥ تربض على الذرى• وانباء أخرى عن الوية قناصة وسرايا رشاش ( هوتشكيس ) وفيالق خيالة تزحف من اتجاهات ثانية •• وفرك يوسف العظمة عينيه وبدأ العمل •••

كان يرتدي بزته الرسمية ، معلقا على صدره كل اوسمته ، ويغطي رأسه بخوذة قماشية ذات رأس متهدلة الاطراف • وفيما هو يغادر صخرته متسلقا صخرة جانبية ليقترب من الراصد ، دوى انفجار هائل صم اذنيه • وكان رد الفعل المباشر هو ان التفت ليرى مكان سقوط القذيفة ، ومن حوله

ـ من نقاط متفرقة ـ لمح الجنود ينبشون الأرض باظافرهم كالدجاج ليعملوا على أخفاء اجسادهم · وحدث نفسه بصوت مسموع « ها هي ذي اذن ، لا بد من معركة ، ! طيب ··· ) ·

وعندما وصل الى الراصد وراء صخرته المجوفة ، دوت قذيفة جديدة سقطت بعيدا جدا ، في الخلف تماما · وادرك العظمة ان المدفعية العدوة تعمل على احكام الرمي الفعال ، بادئة برمي التجريب · وشاهد على نور الصباح وبالعين المجردة ، دخانا وغبارا يتصاعدان من بقعة في السفح المطل على وادي القرن ، وهبط على الفور ليقود مدفعيته · وما كاد يبتعد قليلا ، حتى اقترب منه احد مساعديه :

ـ يوسف بيك ـ يوسف بيك ··

ولوح العظمة بيده دون ان يتوقف أو يجيب ، وتبعه الضابط وهو يقرأ تقريرا عن آخر الانباء :

ـ ان المفرزة التي ارسلناها لتضرب جناح العدو من ناحية الزبداني قد تأخرت في الوصول ··· وعاد بعض افرادها دون ان يعثروا على العدو ···

وهز العظمة رأسه من غير ان يعي شيئا ، وكانت عيناه ـ في تخطيه الصخور ـ لا تستقران على حال · وبدا أنه لم يفاجأ بهذا الخبر ، لان ملامحه المتهيجة ظلت دون تغيير ، وحدث المرافق نفسه :

« هل انقل اليه الخبر الثاني ··؟ » واستطرد في قراءته :

ـ كما ان قوات الخيالة التي ارسلناها من ناحية دير العشائر قد اندحرت ··· لانها هوجمت من الخلف وتكبدت خسائر كبيرة ···

ووصل العظمة الى المدفع الاول وكان المانيا من عيار ١٠٥ ، وقد اختار له مربضه بنفسه · كانت سدنته ـ وعلى رأسهم ضابط ضخم الجثة برتبة رائد ـ يتشاورون ، فيما كان المسدد وراء منظار المدفع يوجه السبطانة

الى الهدف ، وصاح العظمة دون غضب ولكن ببعض الدهشة :

ـ ماذا تفعلون ؟. ماذا تنتظرون ؟

واجاب الضابط وكأنه ينفي عن نفسه فكرة لم تخطر لاحد على بال :

ـ ليس لدينا يا يوسف بك غير خمس قذائف .. فاذا اطلقناها الان ماذا تفعل عند الهجوم ؟ ..

وصرخ العظمة :

ـ اطلقها ( م ) .. اطلقها ( م ) .. على تلك البطارية قبل ان تحاصرنا النيران ..

واكمل جريه الى المدفع الثاني . وما كاد يبتعد حتى انطلقت القذيفة، مثيرة حولها لغطا وغبارا فظيعين . وقبل ان يصل الى مربض المدفع الثاني ، عاد مرة ثانية ليتأكد من نتيجة الرمي . كان المنظف يستل عصاته الطويلة ذات الرأس اللبادي ليمسح الجف . ومهما كان تأثير هذه القذيفة من قوة الفعل فقد أجيب عليها باربع قذائف متتالية سقطت حول المربض ، وكأنها تنصحه ان يصمت والا .. ورفع العظمة يديه الى عينيه ليكشف امامه . ودون أن يحني هامته صرخ :

ـ ماهي النتيجة .. ماهي النتيجة ؟.

ولم يجبه أحد . فقد انطلقت القذيفة الثانية . وحدث نفسه : « بقيت ثلاث قذائف .. فلارجع الى المدفع الثاني » والتفت الى مساعده ليعطيه امرا ما فلم يجده . وعندما وصل الى المدفع الثاني وجد ان السدنة يحصون قذائفهم القليلة ضمن حفرتهم الكبيرة المستطيلة الشكل .

كانت ملامح العظمة تدل على الذهول اكثر مما تحمل من معالم اخرى . وراح يفتش عن البطارية الجبلية الثانية . ولفترة ما نسي مكان مرابضها . كان الهواء قد اشبع بالدخان واصبحت الرؤية متعذرة وبدأت صيحات متفرقة تتعالى من عدة امكنة . والوقت يسرع ويسرع . والشمس ترتفع

من فوق جبل قاسيون • وبعد مدة قصيرة كانت اكثر من خمسين قذيفة عدوة تنفجر مقابل كل قذيفة واحدة تنطلق من ميسلون ، ولاول مرة شوهد أن خطوط الجبهة حوصرت بالنار • كانت مدفعية العدو تضرب الخطوط الخلفية بقنابل متفجرة • اما مدفعية ٧٥ و ٦٥ فراحت تحصد الخط الامامي بقنابل الهداد ، وفيما كان العظمة في جريانه الدائم من المدفع الاول الى المدفع الثاني ، كان يلاحظ جنودا مصابين بجراح يزحفون الى غير اتجاه ، وجنودا آخرين اصاباتهم اعمق يستلقون على الارض ويرفعون الى السماء المغبرة انظارا ضارعة • وعندما وصل الى الطرف الجنوبي من الهضبة ، شاهد المتطوعين • كان بعضهم يصرخ في حماس ، وهم ينتصبون في الهواء ويطلقون النار جزافا ، وبعضهم الآخر كان يحاول ان ينزع الغلاف من حجرة الانطلاق باظافره واسنانه • ولفترة ما سمع صوتا ينادي : لله « يا يوسف » فلم يلتفت • ولكنه تذكر شخصا اسمه شفيق الصافي ، ثم غرب عن باله على الفور • وعاد ناحية الشمال متجها الى اصوات نابية تصرخ بين الضجة والهدير : « المدرعات المدرعات •• » وتذكر بغتة انه وضع الغاما في مدخل المنعطف الشهير • وهرع يزاحم نفسه ويجري هابطا السفح الغربي ، وأحس بايد تمسك به من سترته وتجره الى الخلف :

ـ يا سيدي ••• يا سيدي ••

ولكنه تخلص في سرعة ومضى الى المنعطف • ثم استدار ليعبره • وهنا تسمر في مكانه • وجد نفسه وجها لوجه امام سلاسل دبابة ثقيلة • وكما يحدث ان يرى حلما ، لمح من وراء نافذتها الضيقة عينين كامدتين • وحاول ان يرجع الى الوراء ، الا ان سلاسل الدبابة دارت حول نفسها وراحت تبتعد • ومن الاعلى كان رامي الرشاش يصارع سلاحه ليحني فوهته ويوجهها الى الصدر الذي تلتمع فوقه الاوسمة والنياشين • كانت المسافة قصيرة الى الحد الذي جعل الهدف يغيب في الزاوية المستورة عن خط التسديد •

اما رامي المدفع عيار ٢٥ فقد تمردت بذالات التوجيه على مطاوعته في الميل الى الاسفل ·وراح قائد الدبابة يصرخ ويعربد ويشتم :

ـ فوفو ·· نار ·· اطلق النار ··

ثم تناول قنبلة يدوية واقحم نفسه في فوهة البرج ليصعد · وفي هذه اللحظة وبينما كانت الدبابة تتراجع ، ويوسف العظمة يتبعها دون فكرة معينة دوّى في المنعطف انفجار رهيب وتطايرت اثره أحجار كثيرة · وبعق صوت من داخل الدبابة ·

ـ حوصرنا ·· تفجرت الالغام وراءنا ··

وصرخ قائد الدبابة موعزا الى السائق وهو يرفع يده في الهواء :

ـ تقدم اذن واسحقه بالسلاسل ·

وعالج السائق مقود الحركة في عنف بالغ ، فنبح المحرك نباحا غاضبا · وانتفض جسم الدبابة ثم سقط الى الخلف · واندفع يوسف العظمة وراءها شاهرا سيفه في وجه الدخان · ثم ··

ـ من جميع الانحاء ، وكصدى لانشقاق السماء دوى ذلك النعيق المشؤوم ، قتل يوسف العظمة ··

●

## - ٣٩ -

كان الصافي ينبطح في حفرة عميقة ، أمره الضابط الجاف في صورة خاصة ، أن يحفر لنفسه مكانا يحجب جسده وانفه عن الانظار · كما أمره بأن ينزع نظارتيه · كان الضابط ، على ضآلته الجسدية ، يتمتع بنبوغ عسكري · أمره بأن ينزع نظارتيه لانهما اذا لمعتا في ضوء الشمس فستلفتان أنظار العدو · واستجاب الاستاذ – ولم يكن يحس بانه سيىء الحظ – لهذه المطالب ونادى بلهجة تلميذية :

– ولكني أريد فاسا او شيئا آخر ·

ورد الضابط ساخرا :

– طيب هذا طلب معقول ··

واحضر له محفارا صغيرا استعاره من أحد الجنود · ولاول مرة في حياة الصافي راح يراقب السماء ، والصخور ، والاحجار ، وفجوات الطرق ،

وذرات التراب ، ويصغي لكل حس ونأمة · ومن حوله كـــان متطوعون يرتجلون لانفسهم حفرا أو يختبئون وراء احجار بارزة · وجنود يحفرون الارض في اهتمام وحذر · وأخذ يقلد الجنود في حركاتهم · كان يعود الى بندقيته عقب كل فترة ليدرس معالمها ، ويجرب سيرها ، ويتفحص القطع المتحركة فيها · وكان الضابط العتيد يمر من أمامه أو خلفه في كل لحظة ويعطي أوامره :

ـ أنت رأسك ظاهر ·· وأنت هنـــاك امسك بندقيتـك جيـدا ·· صوب فوهتها الى أمام وليس الى جانب · اين ذلك الرجل صاحب النظارات ؟ ها هو ذا ·· طيب اياك ان تهرب · لا تنس أني اراقبك ·

ويختفي مدة ثم يسمع صوته من جديد :

ـ انظروا راقبوا ذلك الطريق جيدا ·· قد يحدث الهجوم من هنا ·· فهذا طريق سالك ·· ويؤدي الى دير العشائر ·· هل تفهمون ؟ عال ·· عـــال ··

ويصيح أحد المتطوعين :

ـ ولكننا نريد ماء يا ضابط بيك ·· اننا نموت من العطش ··

ويجيب النقيب :

ـ على عيني فوق رأسي ·· انتظروا سأحضر لكم برميلا ضعوه هناك وراءكم ··

وتسمع من اليسار صيحة نابية :

ـ ما هذه البارودة الملعونة ؟ ان الفشك لا يدخل فيها ··

وقضى الصافي ليلته وهو يحملق في الظلام ويفتح اذنيه لكل طارىء · ولفترة ما شارك العسكريين وساوسهم ، ثم انفلت منها وراح يفكر في اتجاه آخر : ( لقد انهمك اعضاء الجمعية العربية وجمعية العهد والآخرون في اعداد الخطط لانفسهم بدلا من أن يعملوا على تجنيب البلاد كوارث الاحتلال ··

وساروا مع الملك دون أن يجاروه في النهاية بضرب رأسه في الحائط ·· فأين افراح الناس ؟ وأين أهازيجهم ؟ ) وراح يذكر تلك الايام أيام النصر ·· التي لم تمض عليها غير أيام قلائل ·· ولكنه لم يستطع ابدا أن يتخيل كيف ستكون المعركة المقبلة ، والتي كان يؤمن بوقوعها تمام الايمان · وعلى هذا فقد خاضها عند الظهر على طريقته الخاصة ··

كان قد يئس يأسا تاما من الاجتماع بيوسف العظمة بعد ان وجد أن مغادرة حفرته هو من رابع المستحيلات · فضلا عن أن الضابط كان يتفقده في أوبته وذهابه ، على طول الخط الممتد على السفح الغربي · وفي الصباح عندما بدأت المدفعية العدوة تقذف حممها راح الرجل يبحث عن نظارتيه بعد أن ألقم بندقيته خرطوشة على الطريقة التي شاهد الجنود يفعلونها · وأخذ يرفرف جفنيه طوال الوقت مصوبا انظاره الكليلة الى مالانهاية· وظل يفتش جيوبه ويغمض عينيه ليجلو بصرهما الضائع ، حتى سقطت قذيفة بالقرب منه ، فوجد نفسه بدلا من أن يغوص في الارض يقوم على أربعته · وأحس بأن يده اليسرى تقع على شيء يتفتت · ثم عاود الانبطاح بعد أن أيقن من أنه أضاع نظارتيه ، وبالتالي امكانية الرؤية الواضحة ، وعندما سقطت من حوله القذيفة الثانية والثالثة ، أحس بالاحجار تتطاير من فوق رأسه وتصيب ظهره وكتفيه · وسمع صرخات استغاثة وتوجع ترتفع من يمينه وخلفه ، فاعترى ملامحه تحول مفاجيء وأخذت قسماته توحي بالعزم المتفتح الموجه ، شأن من يريد التصدي لوحش لا مناص من القضاء عليه · واختفتسيماؤه الجامدة المفكرة·وتبدد مظهرهالذي كان يضعه فيعدادالمفكرين المتعمقين · واتقدت عيناه ببريق حماسي ينضح بالكراهية والاحتقار · وراح يقسر عينيه على الرؤية الى أبعد مدى ، ويقنعهما بان تحاولا الاعتماد على نفسيهما دون معونة أي شيء كان · وسمع صوت العظمة وهو يصدر أوامره على نحو خاص ، فرفع رأسه وراح يناديه · وخيل اليه أنه رآه حقيقة ·

وتأكد تماما من أن عينيه لامستا وجهه المحتقن من الانفعال • ولكنه عاد الى تكذيب نفسه عندما لم يسمع ردا أو اجابة • وظل صوت الضابط النقيب يصرخ من مكان ما :

ـ لا تخافوا ••• يا رجال ••• لا تخافوا أن مدافعنا ستحرقهم •• وتلعن آباءهم واجدادهم •

ولم يدر كم مضى عليه من الوقت قبل أن يسمع صيحات تتعالى : « قتل يوسف العظمة » •• وظن لفترة ، أن هذا النداء ما هو الا صدى لقذيفة من تلك القذائف المدوية • وانه ليس غير مجرد تشويش في الاذن ، كما يحدث لحاسة النظر عندما ترى سرابا •••

وعندما لمح ضابطه يمر من فوقه وهو يرقص من الذعر ، ومن ورائه يندفع بعض المتطوعين والجنود ، نهض واقفا في مكانه • وأخذ يصرخ كالمفجوع ولكن في منطق :

ـ لا يهم يا اخوان •• لا يهم ارجعوا الى أماكنكم •••

وفي تلك اللحظة مرّ من امامه أحد الجنود ، وكان مجللا بالتراب من قمته حتى فرعيه فأمسك به الاستاذ من ياقته وجره اليه صارخا في وجهه :

ـ الى أين ذاهب ؟ الى أين ؟

ورد الجندي في هدوء بالغ وبلهجة لا تخلو من الاحترام •

ـ أنا لست هاربا يا عم ••• ولكنني ذاهب لابلغ القيادة بأن الفرنسيين يتقدمون من هذه الناحية •

وأشار الراصد الى هضبة واطئة تحجب الطريق الغربية عن الانظار • وأرخى الصافي قبضته عن عنق الجندي ، وراح يتلفت حوله في غضب « هل مات يوسف حقيقة » ، وفيّ نظرات قاسية ، كنظرات نسر يهم بالانقضاض وفجاة ضجت شعاب الجبل بهدير يهز القلب ، وكأنه ينبعث من جوف الصخور ، معلنا عن أن بركانا سيثور • ورفع الرجل رأسه • كانت ثلاث

طائرات تنقض من فوقه حتى لتكاد أن تحط على كتفيه • ولكنها تجاوزته كالبرق • وتشقق ظهر الجبل بفعل انفجارات محمومة • وظل الصافي مسمرا في مكانه حتى لمح الطائرات ترقى السماء عائدة الى قواعدها في رياق ، لتملأ اجوافها بالقذائف المدمرة • وتساءل في غصة وهو ما يزال واقفا : « لا بد من أن المدينة ايضا قد اصبحت ركاما ، ولن يبدأوا هجومهم حتى يحيلوا الجبل الى رماد » •

ومرت بقربه قذيفة مدفع ، جعله دويها يسقط على الارض • وعاد يبحث عن حفرته وسط الدخان والغبار فلم يجدها • وانبطح من جديد وراح يزحف الى الامام حتى توقف عند صخرة ناتئة تشرف على الطريق الجنوبية مباشرة • وأخذ يغرز انظاره في الابعاد اللامتناهية • وشرعت تترامى الى اسماعه لعلعة الرصاص في شكل جدي ومتواصل ، في حين شعر بأن المدفعية سكتت عن القذف • وعكف في صبر بالغ على ترويض عينيه وتجريبهما الى أي مدى تستطيعان أن تميزا الاشياء • وأطل من فوق صخرته ونظر الى الاسفل ، فرأى بعد تجويف في بطن الجبل ، بضع صخور ناتئة وتحت هذه الصخور كان السفح يتدرج في الهبوط بشكل بطيء تصعب معرفة نهايته • وراح ينتقل بأنظاره من علامة الى علامة ، ويدقق النظر فيها طويلا • وفيما هو يقوم بهذه الرياضة الغريبة شعر بأن ازيز الرصاص يقترب منه في شكل جنوني • وثارت من جانبه بضع طلقات أجيب عليها بسيل من رشاش ثقيل ، راح يبربر بربرة متواصلة • فسكتت الطلقات في حينها • وتساءل الرجل : « ترى هل قتلت هذه الرشة جماعتي أم هربوا ؟ » •

وفيما هو يتأمل الصخور في القاع ، لحظ علامة لم تقع عليها انظاره من قبل ، علامة سوداء تتحرك • وظل يدقق اليها النظر حتى اختفت في الفجوة • وعندها سدد بندقيته الى الاسفل ووضع اصبعه على الزناد ، حابسا انفاسه منتظرا حادثا ما سيقع بعد لحظة • وقال في نفسه « سأقتل الآن

انسانا أو ·· سأموت ·· » ولفترة ما أحس بأن الهدوء سيطر على الطبيعة · ثم تأكد من أن المعركة قد استمرت في الطرف الشمالي · والواقع ان فيلق « الصباحين المراكشين » الزاحف على الطريق الجنوبية ما أن وصلت طليعته الى السفح الغربي حتى انحرفت باتجاه الشمال لتنفذ من الطريق العام · وعاد الصافي الى مناجاة نفسه :

« انهم يهجمون على ثلاث جبهات ·· »

وتذكر قاديش ، واعتراه حنين لا يقاوم الى رؤيته وسماع صوته وتساءل : « ترى ماذا يفعل الآن هل قتل برصاصة أم ما يزال مرابطا في حفرة عند طريق التكية ؟ ويوسف ؟ يوسف ·· هل فقدناه ؟· ترى هل سيقدر لنا أن نجتمع مرة ثانية أم انتهى كل شيء ··؟ وأين يمكن أن نلتقي ؟ في دمشق ··؟ دمشق ··؟ دمشق ··؟ دمشق ··؟ وأحس بيد جليدية قاسية تعصر قلبه :

« الى أين نرجع ؟ الى باريس ؟ لا ··· الى استنبول ·؟ لا ··· الى لندن ·؟ لم تعد باريس ملجأ لاحد ·· ولا لندن ولا استنبول ولا أي شيء ··· اما دمشق أو القبر ·» وارهف اذنيه ، وقد اصبحتا حاسته الوحيدة التي يمكنه أن يعول عليهما ، وسمع فحيحا يصدر في شكل خاص · « هل هي أفعى ··؟ لا ·· انه لهاث ·· » وأطل برأسه ، ثم انحنى وأسقط نصف جسده في الهواء ، فلمح العلامة السوداء · كانت على بعد ثلاثة أمتار فقط · كان جنديا عدوا يرفع يديه – والبندقية باحداهما – ويتسلق الصخرة الاخيرة · وهو يلهث فيصورة أقوى ·· « يجب أن أقتله ·· أنه لا يراني ·· » وصوب الفوهة الى العلامة السوداء ، في الدقة الى الخوذة الحديدية الضيقة الاطراف · وضغط الضغطة الاولى على الزناد · وهنا رفع ، الجندي وجهه الى الاعلى وتجمد في مكانه هكذا ·· معلقا في الفضاء ·· لا حول له ولا قوة· وكانت بين الوجهين مسافة قصيرة جدا · كان الصافي يستطيع ـ لو ركب

الحربة ـ أن يغرز رأسها في عينيه ، دون أن يتمكن ذاك أن يفعل شيئا سوى أن يغمضهما ، أو يفلت اصابعه عن الصخرة فيهوي الى الاسفل · ولكن احدا منهما لم يفعل شيئا · ولمح الصافي ، وكأنه ينظر من خلال عدسة مكبرة ـ عينين سوداوين ملتهبتين ، تصرخان بالحاجة الى الحياة ، وسط وجه اسمر مستطيل ينضح بالعرق المترب · وتحت شاربين رفيعين ، كانت شفتان كلون الملح وشكله ، تحكان احداهما الاخرى ، فيصدر من بينهما حفيف كحفيف أوراق الشجر ، ثم تنفرجان عن لسان كورق النشاف يمتص العرق من زاويتي الفم العميقتين · وهتف الصافي بالفرنسية :

ـ هل أنت عطشان ···؟

وأسف الجندي برأسه ولم يجب · بل رفع قدمه اليمنى وادخلها في فجوة الصخرة ثم دفع بجسده الى الاعلى ، فالتقى الرأسان عند الحافة العليا · وغمغم الجندي قبل أن يرفع رأسه :

ـ ماء ··· أريد ماء ···

قال هذه العبارة باللغة العربية · وما ان صدق الصافي أذنيه حتى قذف ببندقيته بعيدا ، ثم انحنى ووضع يديه تحت ابطي الجندي وأخذ يسحبه الى الاعلى · وقال في انفعال شاذ غريب عنه :

ـ انتظر ··· انتظر ··· هنا برميل ماء ··· تعال اشرب ·· هل أنت مغربي ؟·

واندفع الجندي الى البرميل وهو متعلق بسلاحه دون أن يجيب · اسقط جسده في داخله لحظة ، ثم خرج منه مستديرا الى الخلف ونادى على نحو محزن :

ـ اياك أن تقتلني من الوراء ·· ارجوك ·· أتوسل اليك ·· انا مسلم ··

ولم ينتظر ردا ، اذ أمال البرميل الى ناحيته وراح يعب عبا · وكان

يسمع لصوت الماء وهو يسقط في معدته قرقعة سريعة، كتصفيق جناحي طائر.
وفعلت عبارة الجندي الاخيرة في نفس الصافي فعلا مغايرا لما كان ينتظر، اذ
انه جرى اليه وأخذ يرش له الماء على وجهه :

ـ اشرب في هدوء .. لا تخف .. لن أقتلك .. هل انت مراكشي أم
جزائري . ؟ هل وصلتم الى دمشق . لم تصلوا بعد .؟ رفاقك كثيرون في
هذا الجيش ؟. قل .. لا تخف .. نحن عرب .. نحن عرب .. لاتخف ..

كان الرجل يتكلم في سرعة محمومة . ويلقي بأسئلته تباعا ، مغفلا
الحالة العامة ، مصما اذنيه عن لعلعة الرصاص التي أخذت تغطي السفوح.
ولاول مرة لاحظ أن كتف الجندي تنز دما . فعاد يسأل وهو يتأمل
الجو حوله :

ـ هل أنت جريح ؟ لا بأس .. سيأتي قاديش .. ولكن لا .. لم
يأت معه بأدوية .. أظن بأن هناك خيمة للاسعاف .. لا تخف .. سأقول
ليوسف انك عربي .

وانتصب الجندي جاحظ العينين لاسباب عديدة وقال :

ـ اخبرونا انكم انتم السوريين تكرهوننا ... وانكم وضعتم السم
في مياه الجديدة ..

وشده الصافي من ذراعه في رفق بالغ :

ـ اجلس ... استرح ماذا اخبروكم ؟ سم ، أعوذ بالله ، نحن نكره ..
نكره من ....؟ نكرهكم ..؟ نحن ..؟ من كذب عليكم هكذا ..؟ من ؟..

جلس الرجلان ( العدوان ) على الارض ، ناسين مهمتهما الحقيقية .
مستديرين بظهريهما الى جبهة القتال . ودون أن يتخلى الجندي عن بندقيته،
أخذ يتمايل في مكانه ، وكأنه أحس بالحرج لسبب لم يستطع تعيينه . وراح
يصغي الى ضجيج المعركة ويفكر : « ماذا يتعين علي أن افعل الآن ..؟ هل

أعود الى جيشي أم ٠٠؟ » وخطر له أن يطلق رصاصة على رأس الرجل منقذه، ثم يهتف من أعلى الجبال :

ـ هو هاي ٠٠ هو هاي ٠٠ اقتحمت الجبهة لوحدي ٠

وفكر : « سأنال وساما ورتبة عالية ، وسأذهب في اجازة طويلة الى بلدتي في ( المغرب ) ٠

ثم شرع يتفحص وجه خصمه ، في نظرات تائهة ٠ ويتمحص الاسباب التي دعته الى هذا التصرف الخيالي : « لم فعل ذلك معي ؟ لماذا لم يقتلني وكان باستطاعته أن يفعل ٠؟ » ثم يعود ويلتفت الى الوراء : « ترى هل شربت حقيقة ٠؟ ألم أمت من العطش ؟ هل أنا الآن مرتو ٠٠؟ وكل ما حدث لي حقيقة لا التباس فيها ؟ » وعاد الصافي الى اسئلته المتلهفة :

ـ هل اطلقت الرصاص انت على أحد من السوريين ٠٠؟ أو أحد من رفاقك فعل ذلك ٠؟ لا أظن بأن جرحك بليغ متى جرحت ؟ من أنت !٠ ما هو اسمك ٠؟ محمد ٠!

لم يكن أي من الرجلين يجيب الآخر على اسئلته ٠ كانا غارقين في خضم هذه المصادفة الاخاذة ينصهران على حرارة مجهولة،في بوتقة بحجم السماوات. تنفعل في اعماقهما رغبة مشبوبة لان يعانق احدهما الآخر ، ويملآن الحياة هتافا مدويا خاصا يعبر عن مشاعر لا توصف ٠ ولم يسمعا هدير طائرة تهوم في الفضاء ، راحت تقترب شيئا فشيئا حتى وصلت الى رأس الهضبة ، فانخفضت كثيرا تبحث عن هدف ثمين ٠ وشرعت ترقب المعركة المستعرة في السفح الشمالي ٠ واسقطت قنبلتين من قنابلها الثلاث ، ثم ارتفعت ٠ ودقق ربانها النظر طويلا ، حائما فوق المنطقة ٠ فلم يجد هدفا آخر يستحق الذكر ٠ فعاد أدراجه ٠ ولكنه ما لبث أن كر راجعا ٠ بقيت لديه قنبلة واحدة ماذا يفعل بها ؟ يجب أن يتخلص منها ليذهب الى غير أوبة فقد انتهت المعركة ٠ وتلقى أمرا بالرجوع ٠ ها ٠٠ ها هنا رجلان :

وهتف الجندي المغربي في سرور رافعا بندقيته الى الاعلى :
ـ هذه طائراتنا ٠

وصرخ الصافي وهو يجره من ساعده :
ـ تعال لنهرب ٠٠ تعال ٠٠ ستضربنا ٠٠
وحملق الجندي عينيه في رعب قاتل ٠
ـ صحيح ٠٠ صحيح ٠٠ نسيت نفسي والله ٠

وتراكض الرجلان فوق الجبل ، وراحا يتدحرجان على الارض ٠ ثم نهضا كل في اتجاه ٠ ولكن الطائرة بدأت تنقض ٠ فعاد الرجلان في الاتجاه المعاكس ٠ والتقيا فجأة عند البرميل ، واشتبك صدراهما وايديهما في حركة لا ارادية ، في حين ضغط الطيار على زر في مقود الحركة ، وتخلص من قنبلته الوحيدة ٠ ثم ارتفع الى كبد السماء عائدا من مهمته الاخيرة بعد معركـــة مجيدة ٠

أفاق رجال الدين في منتصف ليلة الرابع والعشرين على الضجة المنبعثة من كل مكان ٠ وظنوا بان القضية ما هي الا عبث وتهريج ٠ فدعوا الله سرا وعلانية أن يصلح من خلقه ويثبت عليهم العقل والدين ٠ ثم انحدروا الى النهر ليتوضأوا ويهيئوا انفسهم لصلاة الفجر ٠ ولكن ما ان عرفوا مسألة الذخيرة المختلفة ، حتى كانوا من أبطالها الاوائل ٠ واعترض أحد الشيوخ قـــائلا :

ـ يا عباد الله ، لا يجوز لنا ابدا أن نترك المنطقة دون خفارة ٠٠ فلربما هاجمنا الفرنسيون من الخلف ٠

واستشهد على ذلك بقوله : « ومن يولهم يومئذ دبره الا منحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ٠ صدق الله العظيم » ٠

ورد الشيخ كامل القصاب :

ـ صدق الله العظيم ان هذه حجة بينة ، ولكن ما فائدة السلاح دون ذخيرة صالحة ؟ ونحن عندما نبدل ذخيرتنا سنصعد الى أماكننا على الفور ..

وفي الصباح عندما بدأ قصف المدفعية يهدر في الشمال ، أهاب قاديش بمن حصلوا على الخرطوش الملائم أن ينتقلوا معه الى ميسلون . ولكن القصاب لم يوافق على هذه الفكرة وأجاب :

ـ ان يوسف بالامس طلب الينا أن نبقى هنا .. وهو أعلم منا بشؤون الحرب ..

ورد الاشمر :

ـ طيب اذن .. فاذا كانت الغاية من وجودنا هنا هي منع الفرنسيين من التقدم في هذا الطريق ، ( وأشار الى الطريق التي تشق الجبل نحو الغرب والتي اكتشفها الصافي يوم وصوله ) فما هي فائدة بقائنا على السفح الشرقي ..؟

وكانت هذه الفكرة قد خطرت للشاب مساء الامس . وعبر عنها لقاديش الذي أجاب :

ـ ان وجودنا هنا ليس له مبرر من أساسه .

ورد القصاب في تشبث :

ـ يا بني الله يرضى عليك .. كيف ماهي الفائدة ..؟ نحن نحيط الطريق من الجانبين وسنمنع أحدا من اجتيازه ..

وهتف قاديش في عصبية :

ـ ان الاشمر على حق .. فعندما يتسلق الفرنسيون السفح الغربي ويصلون الى ذروته ، سيسيطرون علينا من فوق .. ويندفعون الينا بكل قوتهم .. دون ان نستطيع مقاومتهم او الصمود في وجوههم .

وايد بعضهم هذه الفكرة ، في حين استنكرها آخرون ، دون ان تدخل

في دمــاغهــم • وفي بنـــاء المحطـــة ، اســـتمر الضجيـــج والصـــياح والمشاجرات دون انقطاع • وقــد اتخذ منها جماعة كبــيرة وسيلة للهو والتسلية • وقال قاديش في فراغ صبر ، وبدا كمن توترت اعصابه :

ـ يا جماعة ان المعركة قد بدأت في ميسلون •• ونحن ماذا نفعل هنا ؟

واقترح احد المتطوعين من رجال الدين ، ان يصعدوا الى رأس الجبل، مصرحــا :

ـ لربما نجد قوة فرنسية تزحف على الطريق العام ، فنضربها من الاعلى •• ما رأيكم ؟

وأيد رجال الدين وبعض المريدين هذا الاقتراح ، ووافق عليه الآخرون دون سبب ، ثم بدأوا الصعود •

وكان قاديش يقول في نفسه : « سننصب على الطريق العام ، ثم اقودهم من هناك الى ميسلون • » وظلت افكاره متجهة بكليتها الى ما يجري في الشمال • وراح يتصور ما سيكون موقف معلمه امام القصف • وتذكر اصابته بالشظية ، واحس فجــأة ان جرح فخــذه بدأ يستفيق ، وكأنما يشاركه خواطره •

كان الرجال يغذون السير صاعدين الطريق ، متفرقين ومجتمعين ، يتحدثون في هرج ، ويتناقشون بأمور بعضها ذي صلة بالمعركة ، وبعضها لا يمت اليها بأي سبب من الاسباب،دون أن يتخذوا أي تدبير من تدابيرالحيطة والحذر •• والتفت الاشمر الى الخلف وقال لزميله :

ـ اين ذهب الناس يا قاديش ؟ كانوا أول الامس يعــدون بالآلاف اما الآن ••

ورد قاديش في وجوم :

ـ لقد عرف غورو اللعين كيف يستخدم سفالته •• عدا ان اكثر المتطوعين تفرق بين ميسلون والمحطة

كانت الساعة تقترب من السادسة والنصف ، وراحت خيوط الشمس من الوراء تصبغ احجار الجبل بلون ماسي يبعث على الفرح · في حين أخذ صوت الانفجارات المتعاقبة يتوضح بشكل مملّ · وبدتْ امكنة خروج القذائف العدوة كأنها اصبحت على بعد خطوات ·

كان الشيخ كامل القصاب يقول لرفيقه ، وهو يحمل بندقيته ويتأمل في السماء وكأنه يبحث عن صيد :

ـ سندحرهم باذن الله ··

ورد الشيخ الآخر وكان ذا لحية مستطيلة جعدة ، كصوف الخروف الاســود ·

ـ وسنطاردهم بقوته الى البحر ·

وكان متطوع آخر ـ اتخــذت ملامحه سيماء الصرامــة والعزم ـ يحدث جاره :

ـ انني لا اسمع صوتاً لمدفعيتنا ·

بينما ظل الاشمر وقاديش يتساءلان :

ـ ترى ما سيتكشف امامنا بعد قليل ؟

كانت سيماء الجميع تدل على انهم بتوا بالقضية بتا نهــائيا ، وهو الدفاع حتى الموت ضد عدو كافر لئيم · مغفلين جميع التفاصيل ، او الكيفية التي سيتم بها هذا الامر البسيط ، ودون التعرض للاحتمالات او الاعتبارات الخاصة ، فارضا كل منهم انه عندما يرى الجنود الفرنسيين يقفون او يمشون صفا واحدا مستقيما منتظما ، سيوجه اليهم فوهة بندقيته ، ثم يطلق النار · وقد المّ الكثير منهم باستعمال السلاح خلال الليلتين السابقتين ولعب الخبيرون امثال الاشمر وقاديش ، دورا بارزا في هذه المهمة ·

وخيل للرجال الذين يسيرون في المقدمة انهم اشرفوا على الذروة ،

ولكن أنظارهم كانت تخدعهم في كل مرة ، فكلما يصلون الى نقطة كان يظهر لهم بعدها خط مستقيم آخر . وكان كل رجل يتساءل :

« ماذا سيحصل بعد دقيقة واحدة ، ماذا يكمن لنا وراء تلك الصخور .. ؟ » ووراء كل خطوة يخطونها ، كان يتربص حدث او كائن مجهول ، يرغب كل منهم في معرفته قبل ان يفاجأ به . وتبدي للحظة ما ، ان اختلاطا فظيعا قد حدث في الطبيعة . وتوقفت الطليعة في نقطة واحدة ، وراح افرادها يرهفون حواسهم ، كما ابطأ الرجال الخلفيون ، وفي الوسط ، وهم يستطلعون الامر بآذانهم ، وقبل أن يتبين احد حقيقة ما يحدث ، برزت رؤوس الخيل ، وكأنما انشقت عنها الارض فاندفعت من جوفها كالبركان ، ولم يفعل المتطوعون ما يفعله العسكريون عادة بصورة غريزية . كأن ينبطحوا على الارض ويتركوا لاسلحتهم حرية العمل ، كانوا جميعهم يحملون البنادق مجهزة للاطلاق . وكانت الارض تحت اقدامهم مستعدة لاستقبال من يطلب حمايتها . ولكن .. لم يكن المتطوعون جنودا . وليس بينهم ضباط ، ولم يتدربوا قبل الآن على ما يسمونه « صناعة الموت » .. كانت الحرب بالنسبة اليهم تجربة فريدة من نوعها ..

وكان ما يجري على السفح الشرقي من الجبل يجري على سفحه الغربي ايضا ، ولكن مع بعد الفارق ، وعلى صورة مختلفة كل الاختلاف . كانت أربع كواكب من الخيالة السريعة التابعة الى فيلق القناصة الجبليين ، تزحف لاحتلال التكية ، ثم الاستدارة على الجناح اليميني لقوة ميسلون وضربها من الشمال . وما ان شاهد المستطلعون في مقدمتها ، عمامات بيضاء ولفات صفراء ، وطرابيش مكشوفة ، وشملات ملونة وعلامات فارقة اخرى ، حتى اعلموا قيادتهم باشارة معينة ، ثم أعطي اليهم امر الهجوم ..

واجفلت الخيول على زعيق ترسانها الذي راح يصدر على شكل يهدد

الجبال · ثم انطلقت من عقالاتها لا تلوي على شيء ، تنهب الارض وتحصد كل ما ارتفع امامها · في حين اخذ الفرسان يفرشون الارض امامهم بسيل من الرصاص · ووسط نخير الخيول وفرقعة السنابك ونقع المهاجمين ، كانت اجساد تتدحرج ، ورؤوس تتلاطم، واصوت تعبر عن الدهشة ، وأنات تصرخ من الالم ، وطلقات متفرقة صادرة عن الذين أسعفهم الحظ وابتعدوا عن الطريق نتيجة استعادتهم بقية من جأش ··

وظل ضابطالصف وجنوده في المحطة يتفرجون على من تبقى من المتطوعين وهم يبدّلون ذخيرتهم · ولا يعلم بالضبط ما كان سيحدث ، لو ان المتطوعين ظلوا في أماكنهم حلقـات حلقات ، ينتظـرون ان يمر العـدو من جانبهم ··

وفي الساعة الرابعة عشرة من يوم ٢٤ تموز ١٩٢٠ وقف الجنرال غورو في قصره، وراء نافذة تطل على الشرق، يتخيل الدخان المتصاعد من بعيد، ويملي على رئيس مكتبه بلاغا رسميا يعلن فيه اسماء حكومته في دمشق ·

وتشتت الناس وتفرق شملهم ، بعضهم لم يدرك ما حدث الا بالقدر الذي أصيب فيه اصابة جسدية ، وبعضهم الآخر كان يشعر بأن انفطارا هائلا حدث في سماء الوجود · واخذت شعاب الجبال ، والطرق الملتوية ، وضفاف الانهر ، وظـلال الشجر ، واطراف البساتـين تستقبل رجالا ، مطموسي المعالم ، منخوري الالباب ، وصل الخواء الى كيانهم ، فأمسـوا يتصرفون في جمود لا يصدق ، وكأنهم ضلوا طريق الخروج الى الحياة · كان بعضهم يحس كأنما هو يسقط سقوطا ازليا الى لا قرار ، وبعضهم الآخر تجمدت مداركه عند حد معين فبات يتصرف تصرف الغائب عن الحس ·

كانت الدروب الضيقة ، والمعابر المجهولة ، والطرق التي لم تخلق للعبور ، تغص بالضائعين ، وتتركهم يمرون فيها دون اكتراث بوجودهم او اعارتهم ادنى التفات · وعند مدخل المدينة ، وقف رجال الدرك ينزعون

البنادق عن اكتاف اصحابها او ينتشلونها من ايديهم دونما مقاومـة او معارضة ، او حتى ان يخطر لهم مغزى هذا العمل .

كان قاديش يفرك انفه في هوامه ، وهو يحس بضائقة رهيبة يصعب ادراكها ·· وراح يبحث بمنطق العقل عن اشياء لا تخضع للعقل · كان يشعر كأنما هو عاجز عن ايفاء دين باهظ استحق عليه وليس لديه أمل في استرداد اعتباره ؛ اما الاشمر فراح يلوك كلمات مبهمة غريبة الواقع :

ـ اسمع يا قاديش ·· سنشعل ثورة ·· ما رأيك ؟

ويرد قاديش وكأنه في جوف مغارة يسمع صدى نفسه :

ـ ثورة ··· ثورة ··· ثورة ···

ويلتفت الى زميله مغمغما :

ـ سأعود الى صالح العلي وابراهيم هنانو ونجيب العويد·· سأذهب الى تلكلخ ·· هناك لن يحدث هذا ·· لن يحدث · سأجد الصافي عندهم ·· لقد سبقني ··

ويرد الاشمر وكان ما زال قادرا على أن يفكر :

ـ الصافي ·· ؟ الم يذهب الى ميسلون ؟

ويلغط قلب قاديش في صدره ، وكأنه يهم بالوثوب الى الخارج ، حتى تسمع دقاته كقرع الطبل ، ويهز رأسه في ايمان ويتمتم :

ـ نعم ·· ولن يعود ·· ولن يعود ·

ويصرخ ضابط درك يقف مع ثلة من جنوده على طريق الربوة :

ـ انتما هناك ·· سلما سلاحيكما ··

وينتفض الاشمر ويرد :

ـ من انتم ··؟ فرنسيون ··؟

ويصعق ضابط الدرك ويجيب في تلبك :

ـ لا ·· ولكن لدينا اوامر ··

ويهتف قاديش وكأنه يكافح ليتنفس !

ـ وممن هذا الامر ٠٠٠؟ من الملك فيصل ؟!

ويرتج على ضابط الدرك ويجيب في تعلثم :

ـ الملك فيصل ٠٠٠ لا ٠٠٠ لقد وصل الملك مع الحكومة الى درعا ٠
هيا ٠٠ سلموا اسلحتكم ٠

ويصرخ الشابان في نبرة واحدة :

ـ ما هذه الاوامر ٠؟ أوامر من هذه ؟

ويصمت الضابط ، في حين يعود قاديش الى الصراخ :

ـ أوامر من ٠٠؟ أوامر الجنرال غورو ٠٠؟ أهذه هي النهاية ٠٠ استلم الفرنسيون الحكم قبل أن يدخلوا المدينة ٠؟ هل سقطت المدينة ٠؟

ـ ويرد محمد الاشمر مبهور الانفاس :

ـ لا ٠٠ لا ٠٠ لن تسقط المدينة ٠٠ لن تسقط هذه المدينة ٠

●

# الخاتمة

ورفض الشابان محمد قاديش ومحمد الاشمر تسليم بندقيتيهما ٠ ورضخ رجال الدرك للامر الواقع ٠ كانوا خائفين ، أو لربما لاحتمالات أخرى٠ كان امرا فريدا من نوعه ان يجرد الدرك الوطنيون متطوعين من أسلحتهم ، عادوا من معركة خاضوها مع عدو محتل٠وفي المقابل ، فان من أولى مهام رجال الدرك تجريد الناس من الاسلحة ٠ كان الامر مختلطا اختلاطا عجيبا ٠ فقد انقلب كل شيء انقلابا مريعا ، حتى المفاهيم ٠ ولكن ضابط الدرك ظل يلوك في صدره هذا المبرر :

( ولكن ما هي الفائدة بعد ، من الاستمرار في حمل الاسلحة ) ؟ بينما كانت الحجة الضمنية للمتطوعين المتمردين على الاوامر : « لن نسلم سلاحا بذلنا في سبيله الدم ٠٠ والسلاح زينة الرجال » اما بعيدو النظر فكانت

خجتهم اشد دمغا : « سنلجأ الى الجبال والبساتين ونشعل ثورة » • وبدأت ازقة المدينة تستقبل العائدين ، يجرون وراءهم ظلالا خائرة مطموسة •

كان ليل دمشق غريبا مفجعا لا يشبه أي ليل من ليالي الماضي • ستة قرون مظلمة مضت دون أن تمر معها ليلة كتلك الليلة • وعبر الشابان الشوارع القاتمة ، الغارقة في بحر من الظلمات والحزن والكآبة ، والاكثر من كل هذا ، من الذهول • كانت المدينة تحبس انفاسها ، وكأنها تنتظر خروج الجنازة • وتوقف الناس على افاريز الطرق يحنون رؤوسهم منتظرين مرور الموكب ، وهو يحمل النعش الكبير •• نعش الحرية •• ليذهبوا به الى المقبرة •• المقابر التي تزينت باغصان الزيتون لتحجب النظر عن القادة الميامين •• الذين حرروا البلاد من الترك •• القادة الميامين •• هربوا •• غورو الآن هو القائد الميمون •

ـ والى اين نذهب •؟

قال الاشمر وهو يتصرف كما لو أنه لم ينه مهمة عادية بسيطة قام بها ، وقرر ان يعيد المحاولة :

ـ تعال معي الى الميدان يا محمد •• سنعتصم في الغوطة •• ونلهب ثورة ••

وتوقف قاديش في مكانه • وتفرس في وجه صاحبه بمزيج من الضغينة والاشمئزاز • وعجب الاشمر في براءة من ذلك الوجه المشوه تشويها مريبا • وحاول أن يجد لذلك تفسيرا ما • وخيل له انه لم يعرف قاديش قبل الآن ابدا • وقبل ان يختبر صدقْ عينيه ، غسر قاديش ما يعتمل في اعماقه :

ـ أنا لم اعد شيئا •• ابدا •• بالنسبة لي ••

وفجع الاشمر عندما لمح شفتي قاديش ترتجفان • ولم يصدق •• « ترى هل يهم بالبكاء ؟! » وهتف في حيرة :

ـ محمد ٠!!

وارتعش صوت قاديش :

ـ كان يجب ان اظل حمالا في المحطة ٠٠ أنقل أمتعة المسافرين ٠٠

وفكر الاشمر « يا الهي ماذا حدث ؟ » ٠

واستدار قاديش محني الكاهل ٠ وتبعه الاشمر عن بعد ٠

وعلى باب الصيدلية اخذ محمد قاديش نفسا عميقا وصرخ دون وعي ، ولربما في حقد وتشف بالغين :

ـ يا استاذ ٠٠ يا صا ٠٠ في ي ي ي ٠٠

ومن مكان بعيد همست أم في اذن طفلها :

ـ نم ٠٠ نم ٠٠ الا تسمع ! جاء المجنون ٠٠ جاء المجنون ٠

وحملق الاشمر في ذعر ٠٠ وأرهف اذنيه وتحسس بندقيته تحت عباءته ٠ وحاول الاتيان بعمل ما ، الا انه آثر الصمت ، وهو يلحظ مأخوذا أن رفيقه بات انسانا آخر ٠ أو أنه لم يبق مخلوقا عاديا على الاطلاق ٠ كان قاديش يتقلد بندقيته ولكنه كما يبدو لا يحس بوجودها ابدا ٠ وراح يطرق الباب بيده ورأسه وقدمه ٠ ولم يسمع صرخة من ورائه :

ـ ما هذا الجنون ٠٠ يا رجل ٠٠!؟

ورجع الى الخلف كثيرا واندفع في قوة ، وألقى بثقله على الباب الخشبي فانفصل منه لوحان ٠ حشر نفسه في الفجوة ، وعاقته بارودته عن الدخول فراح يزاحمها ٠ ثم اقتحم معها الظلام الدامس ٠ وهرع الاشمر على اصطدام الاواني والزجاجات ٠ ولفترة ما امتزجت اشـــياء كثيرة بعضها ببعض ، عقاقير ، نداءات ، أصدية ، أصوات زواحف وعواطف متباينة ، ولكن ايا من الشابين لم يستطع ان يلمح الآخر ٠

جلس قاديش على السرير السفلي وهو يلهث ، وما تزال بندقيته على ظهره ، اما الاشمر فراح يترصد الموقف في اهتمام · وفتح اذنيه جيدا محاولا في صدق أن يفهم شيئا مما يقال · صدرت في البداية عن قاديش ضحكة مقيتة لا تحمل في الظلام أي معنى · ولو كان الاشمر على شيء من الخيال ، لاستطاع ان يجد لها تفسيرا من الكلمات والاصوات التي اعقبتها :

ـ تفو ·· ( ضحكة صاخبة ) · هذا أول شيء فعلته ·· شوهت وجه لورنس ·· جعلت مريم والدة الطفل الذي قتل بين سنابك الخيل ·· هه ·· اختلط الامر علي ·· هذه هي البداية ·· وبعد ذلك استلمت الطريق ·· طريق النهاية ·

وتحرك الاشمر في مكانه محاولا ان يلفت نظر قاديش الى انه ليس وحيدا · غير ان هذا لم يحفل لشيء بل تابع :

ـ حدث في قريتنا الصغيرة اثناء حملة انتقامية ان جنديا طلب من أمي ان تدله على مكان أخي فأجابته بانني أنا اخي · أنا اخي ·؟ ما معنى هذا ؟ كيف يكون الانسان اخا نفسه ··

وفكر الاشمر : ( صحيح كيف يكون الانسان اخا نفسه ·· ) وراح يمضغ هذه المشكلة ، في حين استطرد قاديش في الظلام :

ـ لم استطع أن أعثر على قلب نقي واحد غير قلب شفيق الصافي ·· الذي ينبض الآن في مكان ما ··

وهم الاشمر بان يشكك في هذه الحقيقة · كأن يقول مثلا :

( وماذا يدريك بان الصافي ما يزال حيا ·· ) ولكنه آثر الصبر · وتابع قاديش :

ـ كنت اقف في الجانب الآخر من العالم ·· في الجانب الصامت الذي يعمل دون ان يفكر بوجوده ·· ودون ان تهمه نتائج الاعمال ·· ولكن أعمالي

كانت باهرة كنت موضع اعجاب الجميع ٠٠ ما عداها ٠٠ انها لا تكرهني ومع هذا لا استطيع ان اكون لها ابنا أو أي شيء ذي اعتبار ٠

واطلق فجاة هذه العبارة :

ـ سأتزوجها :

وسمع قاديش هذا الصوت :

ـ أم ٠؟

قال بنبرة معلوكة وقاسية :

لا تحاول مفاجأتي ٠٠ انني اراك ٠٠ ها أنت ذا على بعد خطوتين ، وبامكاني بالضبط ان اقول لك ٠٠ ( وبعق ) اتركني وحيدا ٠

ولكن الاشمر لم يتحرك ، ولسبب ما قرر ان يستعمل العنف عند أول بادرة ٠ والاكثر من هذا اتخذ وضعية احتراس جسدية ؟

وتابع قاديش اعترافه :

ـ لم استمتع ابدا بأي شيء ٠٠ ولم أعبر عن طبيعتي بأي شيء ٠٠ فهمت قليلا عن العلاقة ما بين الارملة واليتيم مريم وأنا ٠ وما عدا ذلك فكان انفعالا مزيفا ٠٠ ان للصافي والرقي اعتباراتهما أما أنا فمن أكون ؟ حمالا في محطة ٠٠ انني اعرف ذلك الرجل ، ادعى انه ابي ٠ يا للغرابة ٠ كيف لم اعرف انه ابي حقيقة ؟ ولكن ماذا يهم ؟٠ الم تدرك امي ذلك ؟٠ ومع هذا فان الامور سارت في مجراها الطبيعي ٠٠ ظل الرجل الذي هو ليس ابي ينام مع امي ٠ وبعد ذلك رحت ادعي واصدق ادعائي ، ويشجعني الناس على تصديق ذلك « أنني اصبحت رجلا » ٠٠ محمد !

وهرع الاشمر اليه ، ومس رأسه باصابعه مسا رقيقا قال له في حنان:

ـ لا تحزن يا صديقي ٠٠ سأكون أنا اخا لك ٠٠ وأكثر من ذلك ٠٠ سنكون أسرة واحدة ٠٠ تعال ٠٠ قم قم معي ٠٠

وأبعد قاديش رأسه في انتفاضة :

– اتركني ٠٠ اريد فقط ان اقول لك شـيئا عن الغبطـة التي كنت أمارسها في حياتي ٠

وتابع في حنان :

– مريم ما احلى همساتها في اذني ٠٠ آه لو كنت رجلا ، أنا لست رجلا ٠

ولم يدر لماذا ارتجف صـوته وهو يتابع :

أنا طفل صغير ٠٠ تصور ٠٠ كان معي بندقية ٠٠ ذهبت الى ميسلون لم اطلق طلقة واحدة ٠٠

قال الاشمر مهدئا :

– ما تزال بندقيتك معك يا محمد ٠ وستستعملها دائما ٠٠ لا تحزن قم ٠٠ تعال لنذهب ٠

وتذكر قاديش كيف ارتجف صوت مريم في احدى المرات فاستطرد :

– كانت على حق ٠٠ كان يجب ان اكون رجلا منذ البداية ٠٠ ان أثبت ذلك لها ٠٠ لآخذها ٠٠

وتمتم الاشمر :

– اعوذ بالله من الشيطان الرجيم ٠

وأكد قاديش ٠

– أن آخذها ٠٠ نعم ٠٠ أفضل من أن أظل أحلم بها ليلا ٠٠ وأن ٠٠

وقاطعه الاشمر :

– يكفي الآن قم ٠٠ ألست جائعا ؟٠

وعاد قاديش الى خواطره المتنافرة :

– وهذا ما سبب لي كل هذا ٠٠ لاحظ الصافي في احدى الليالي انني ٠٠

وصرخ الاشمر وقد فاته سماع العبارة :

ـ محمد ٠٠

غير ان قاديش تابع :

ـ ولا ادري لماذا لم تتزوج الرقي ٠٠ لا ٠٠ انني اعرف ٠٠ تريدني أنا ٠

ونهض في خفة عجيبة :

ـ سأذهب اليها ٠٠

ورمى الاشمر بآخر سهم من سهامه ، وقد ادركه نفاد صبر كامل :

ـ اقول لك آخر كلمة ٠٠ اما ان نظل رفيقين أو فلنفترق الى الابد ٠

وانسحب خارجا مفسحا الطريق امام بندقية قاديش ٠ وانتظره خارجا الى يمين الباب ٠ ولكن قاديش ، ودون ان يلتفت ، انعطف يسارا وهو يضغط على اسنانه :

ـ اذا رجع الصافي بلغه ٠٠ انني اصبحت رجلا ٠٠

وهتف الاشمر حانقا وهو يرجع :

ـ لعنة الله عليك وعلى رجولتك ٠٠

بصق في الهواء ٠ وراح يرفرف عينيه في الظلام ٠

* *

ويطرق الباب في الليل ، في نصتة من نصتات ليلة ٢٥ تموز ، يطرق الباب على امرأة أرمل وحيدة ٠ كانت أبواب اكثر غرف السكان مفتوحة على مصاريعها ، ليس فقط بسبب الحر الخانق ، بل لاعتبار خاص ـ وان كان يدعو للريبة التي يعكسها الصمت القائم المتربص ـ ولكنه يوحي بالاطمئنان ٠ وقد يكون بعض النائمين من الجيران ، قد تململ في فراشه ، أو خالجه الشك في الطريقة التي كانت تئز معها مفاصل باب الجارة الارمل ، الا ان مريم كانت ترسم على صدرها شارة وتبتهل في ذعر :

ـ قاديش ٠٠

ومن يكون غيره ؟ هذا الشاب الغرير الذي لا يمكن ان يصبح انسانا خليقا بالانسجام مع الليل ·· وتضطر المرأة لان تسقط جسدها من السرير وأن تسند الباب من الداخل بكلتا يديها · ويغص صوتها داعيا ·

ـ قاديش ·· تمهل ··

لربما كانت تخشى ان يتهاوى الباب · ولكن الفضيحة كانت آخر ما خالج صدرها العاري في هذه اللحظة · ووصلت الى اذني الشاب ، الذي كان يلقي بكل رصيده من جنون ، ترنيمة وديعة :

ـ انتظر الى الصباح ··

ولكن مصاريع الباب وشقوقه عادت الى التخلع · لم ينبس الطفل المفجوع بكلمة ، فقد عرف أن ضجة الباب تعبر في دقة وبلاغة عن كل ما يطلبه · وتقتنع المرأة بألا فائدة · ولم تدر بالضبط هل ازاحت المزلاج بيدها أم انه انسحب من تلقاء نفسه :

ـ يا يسوع ·!

وراحت سبابة يدها ـ وهي تشارك مع بقية الاصابع على ضم ثوبها الى صدرها ـ ترسم الاشارة في الفراغ · وتستقبل عينا قاديش دمعتين حائرتين في بحيرتين لم ير في حياته ، أو يتصور أشد منهما تعبيرا عن الذعر والمقت·· وارتعشت شفتا مريم ، وهي تتراجع الى الخلف ، تحصن صدرها بيديها ، وتغمغم في دفاع واه ضعيف :

ـ مات ·· رأيته في الحلم كان يعانق ميشو ويطيران بين الغيوم ·

وطحن قاديش بين اسنانه وهو يدخل في ثقل شديد ، دون ارادة ولكن في تصميم :

ـ مات الصافي !· مات جميع الناس ·

كانت تطرف أجفانها في وجه ينبض بانفعالات شتى مريضة ، وبما

يضج في أعماق انسان من أسرار مفعمة • يتراقص وميضها في عينيه الغائرتين وعلى زاويتي فمه المنحنيتين • قالت له في تحبب كاذب ومتملق ، متسلحة ببقية من مداراة :

ـ اعطني هذه البندقية لاخفيها لك ••

كانت كل ذرات جسدها مشحونة بتيار كهربائي • ودخلت المرأة ، وهي تخلص سير البندقية من رأس الشاب ، أعسر امتحان مر في حياتها الزاخرة بالعذاب • وقد تملصت من ساعديه في أعجوبة • انفلتت من أصابعه الى نهاية الغرفة ، وأسندت ظهرها الى الجدار • قالت فجأة وبنبرة عصبية وهي تخفي البندقية وراء ظهرها :

ـ قاديش ••• سأقول لك كلمة ••

ظل الشاب حتى اللحظة الاخيرة يتصرف تصرف صاحب البيت العائد من غيبة قصيرة ، ولكن في مجون لا داعي له ، ودون تكلف ، وفي قليل من الحماس ، كآلة ميكانيكية ناطقة ، غمغم :

ـ طيب •• علقيها هناك •• وتعالي لننام •

وتجلدت المرأة كثيرا وهي تكافح القشعريرة الباردة في جلدها • وضطغت على اسنانها في قوة لتساعد ركبتيها على الصمود ، وراحت تعلق البندقية على الجدار وتفكر •• ( ننام •• ننام •• ننام يا رب ارحمني ! ) وأمام انظار قاديش الخالية من أي حاجة ، الا الى النوم •• الى السبات العميق •• انسحبت المرأة الى الخارج في هدوء وهي تتمتم في حبور جنوني :

ـ دقيقة واحدة •• دقيقة •• سأرجع ••

والقى قاديش ـ وهو يتخيلها بلمحة انها تتعرى ـ القى بكل تفاصيل حياته على السرير ، مستلقيا على وجهه • ولفترة قصيرة جدا راح يجمع

الوسادة بين ساعديه ، ويغرس صدره أكثر فأكثر في المرتبة القطنية الوثيرة، حتى غاب نهائيا • في حين أخذت ذبالة المصباح ترتعش في خلاعة وتمط لسانها الى الاعلى ، مستطلعة كنه هذا الشيء الهائل الذي علق على الجدار •• بندقية •• بندقية محمد صالح قاديش •• الشاب الذي أبى أن يخسر المعركة • ولم يدر عندما أفاق ، هل كان ذلك حقيقة أم طاغوتا رهيبا كان يجثم على روحه • واستبدت به الرغبة في العودة الى النوم ، ولكنه أحس بالخوف • وفجأة ألفى نفسه وحيدا • ولم يدر كم قضى في سباته ذاك الذي كان اشبه بغوص في الجحيم • واستقام في سريره مكافحا نوبة طارئة من الانفعال • وحدث نفسه في لوم « ترى هل أغضبتها ••؟ اين هي اذن ••؟ » ولم يستطع أن يدرك في الدقة ما اذا كان قد نام مع مريم • ولم يشأ ان يطرح على نفسه أية اسئلة جديدة ••• تقدم من الجدار ونزع عن المسمار حمالة البندقية ، ثم غادر الحجرة دون أن يلتفت •

وفي غبش الفجر الاصفر أخذ ـ عبر بساتين الغوطة ـ يتبع خطواته الى حي الميدان • وكانت تدوي في أعماقه عبارة محمد الاشمر « لن تسقط المدينة » • • ولم يكن يدري أبدا بأن حارسا كهلا معقوف الشاربين اسمه ( حسن الخراط ) (١) كان يتعقب أثره •

●

---

(١) حسن الخراط أحد قادة الثورة السورية ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧ استشهد في احدى معارك الغوطة • وكان في ذلك الوقت يعمل حارسا ليليا في تلك المنطقة •

## للمؤلف :

حتى القطرة الاخيرة ـ مجموعة قصص ١٩٦١

معارك الحرية في سورية ـ تحليل ودراسة للثورات السورية ١٩٦٢

٤٢ راكباً ونصف ـ مجموعة قصص ١٩٦٩

حسن جبل ـ رواية ١٩٦٩

لن تسقط المدينة ـ رواية ١٩٦٩

### تحت الطبع

ضجة تحت الارض مسرحيات

المذنبون رواية

السيدة لام سين ...... رواية



## لن تسقط المدينة

مخاض الرواية في قطرنا فيه الألم الحقيقي لولادة الابن البكر ، وله فرحة الأبوين بعد انتظار اليأس وانقطاع الامل ٠ ذلك بأن الاعمال الادبية التي تبهر الانفاس نادرة في ميداننا الشحيح المصاب بعقم يدفع الى يأس الترقب وفرح الولادة في آن معا ٠ ولقد رافقت هذه الرواية منذ أن كانت جنينا أنهك المؤلف ؛ انه يكتب عن فترة قريبة العهد من تاريخ نضالنا ضد السيطرة الاستعمارية، ولكن هذه الفترة على قرب عهدها منسية في أدبنا الروائي ٠ كان ( فارس ) يندفع بعزيمة الراهب الذي رسم مجدداً ، يكتب في وله وحب ، يجمع المصادر من هنا وهناك ، يلتقي أبطال ( ميسلون ) المغمورين ليسأل عن الاساطير البطولية ٠٠ يزور الارض حيث خاض الجيش العربي السوري الغرّ الململم المشعّث معركته الأولى تحت راية القائد المنتحر في سبيل شرف الوطن والأرض ٠

وتعمّد الرواية أخيراً بعنوان أشترك أنا في وضعه كما يشترك الاشبين في فرحة الولادة وطقوسها ، وتظهر ( لن تسقط المدينة ) على الورق المخطوط وكأن عليها أن تمرّ بمخاض أكثر ايلاماً ٠٠ ذلك بأن الأب يرى ابنه يتجمد في قوالب الأدراج عاجزاً عن أن يرى النور ويتعمّد بحبر المطابع عماده الحقيقي ٠

وآن بعد انتظار ممض طويل أن يستقبل القارىء العربي هذا العمل الروائي الجديد ٠٠ ولعل ( لن تسقط المدينة ) تمنحنا الأمل بمستقبل الرواية العربية في القطر العربي السوري ٠

**بديع بغدادي**

● صمم الغلاف الفنان حسان ابو عياش

**طبعة ثانية**

**مطابع الادارة السياسية ١٩٨٢**